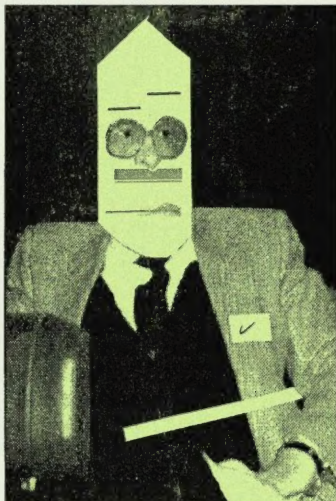


بيير بورديو

ترجمة وتقديم: ابراهيم فتحي



أسئلة علم الاجتماع

حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي

كتاب العالم الثالث



٩٦.٩١

أسئلة علم الاجتماع
حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي

أسئلة علم الاجتماع
حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي

بيير بورديو

الطبعة العربية الأولى
١٩٩٥

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر:

دار العالم الثالث
٣٢ ش صبرى أبو علم/القاهرة
ت وفاكس ٣٩٢٢٨٨٠

هذه ترجمة لكتاب :

QUESTIONS DE SOCIOLOGIE

تأليف :

PIERRE BOURDIEU

الناشر:

© EDITIONS DE MINUIT, 1980

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
والهيئة الفرنسية
للأبحاث والعقائد
قسم الترجمة - القاهرة



بيير بورديو

أُسْئَلَة

علم الاجتماع

حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي

ترجمة وتقديم
م. ب. الأستاذ الدكتور
د. زكي بطرس

ابراهيم فتحي

دار العالم الثالث

ص	
٥	◆ تمهيد للمؤلف
٧	◆ مقدمة المترجم
١٣	◆ الفصل الأول - فن مقاومة الأقوال المتناولة
٢٥	◆ الفصل الثاني - علم يشير الإزعاج
٤٧	◆ الفصل الثالث - السوسيولوجي مطروحا للمناقشة
٧٣	◆ الفصل الرابع - هل المثقفون خارج اللعبة ؟
٨١	◆ الفصل الخامس - كيف يتحرر المثقفون الأحرار
٩٧	◆ الفصل السادس - من أجل سوسيولوجيا تدرس السوسيولوجيين
١٠٣	◆ الفصل السابع - مفارقة السوسيولوجي
١١٣	◆ الفصل الثامن - ماذا يعنى الكلام
١٣١	◆ الفصل التاسع - بعض خصائص المجالات
١٣٩	◆ الفصل العاشر - السوق اللغوية
١٥٥	◆ الفصل الحادي عشر - الرقابة
١٦١	◆ الفصل الثاني عشر - الشباب ليس إلا كلمة
١٧٥	◆ الفصل الثالث عشر - أصل وتطور أنواع من حب الموسيقى
١٨٣	◆ الفصل الرابع عشر - التحول الجوهري فى الأذواق
١٩٥	◆ الفصل الخامس عشر - كيف يستطيع المرء أن يكون رياضيا
٢١٧	◆ الفصل السادس عشر - الأزياء الراقية والثقافة الراقية
٢٢٧	◆ الفصل السابع عشر - ولكن من الذى أبدع المبدعين ؟
٢٤١	◆ الفصل الثامن عشر - رأى العام لا وجود له
٢٥٣	◆ الفصل التاسع عشر - الثقافة والسياسة
٢٦٧	◆ الفصل العشرون - الإضراب والعمل السياسى
٢٨١	◆ الفصل الحادى والعشرون - النزعة العنصرية للذكاء

تمهيد للمؤلف

لا أريد تصدير هذه النصوص التي كانت فى الأصل خطابات شفاعية موجهة إلى غير المتخصصين بمدخل مكتوب. ومع ذلك فإننى أعتقد أن من الضرورى أن أقول لماذا بدا لى من المفيد ومن المشروع أن أجمع فى شكل أسهل استعمالا وإن يكن أقل اكتمالا أقوالا يتناول بعضها مواضع قد عاجلتها من قبل فى أماكن أخرى بطريقة هى بلاشك أكثر دقة واتساقا واستيعابا.

إن السوسيولوجيا تختلف عن العلوم الأخرى فى تلك النقطة على الأقل: فالجميع يطلبون منها أن تكون سهلة المئال على نحو لا يطلبونه من الفيزياء أو حتى من السميولوجيا (دراسة العلامات اللغوية والرمزية) والفلسفة. وقد يكون الأسى على الغموض طريقة للشهادة على أن الجميع يريدون تفهم، أو التيقن من تفهم أشياء يلح الجميع على أنها جديرة بالتفهم. وعلى أى حال فما من ميدان تصيح فيه «سلطة الخبراء» واحتكار «الصلاحية» أشد خطرا وإفراطا مثل السوسيولوجيا. فهى لن تستحق ساعة واحدة من العناء إذا كان من الواجب أن تكون معرفة للخبير وحده مقصورة على الخبراء. ولست فى حاجة إلى التذكير بأنه ما من علم يشتبك فى الرهانات الاجتماعية على نحو جلى مثل السوسيولوجيا. وهذا هو مرجع الصعوبة الخاصة فى إنتاج الخطاب العلمى ونقله إلى مستهلكيه. إن السوسيولوجيا تمس مصالح غالبا ما تكون حيوية. وليس من المستطاع التعويل على أصحاب الأعمال والكهنة ونوع خاص من الصحفيين فى الإشادة بالطابع العلمى لأعمال تكشف القناع عن الأسس المحتجبة لسيطرتهم، وفى العمل على ذبوح نتائجها.

ويجب أن يعرف أولئك الذين تؤثر فيهم الشهادات الرسمية للطابع العلمى التى تولع السلطات بمنحها (السلطات الدينية والروحية) أنه فى الأربعينيات من القرن الماضى توجه رجل الصناعة «جراندان» Grandin بالشكر فوق منصة المجلس النيابى إلى «العلماء الحقيقيين» الذين أوضحوا أن تشغيل الأطفال كان فى أغلب الأحوال عملا من أعمال السخاء والكرم. وسيظل لدينا دائما معاصرونا من أمثال جراندان ومن «علمائنا الحقيقيين».

ولن يستطيع عالم الاجتماع أبدا أن يعتمد فى جهده لنشر ما درسه على كل هؤلاء

الذين اتخذوا لهم مهنة من أن ينتجوا يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع كل الموضوعات التي تفرضها اللحظة مثل «العنف» و«الشباب» و«المخدرات» و«الصحة الدينية»... وما إلى ذلك، وما هو شبيه بذلك؛ وهى خطابات حتى إن لم تكن زائفة فقد صارت اليوم موضوعات للرسائل مفروضة على الطلاب. ومع ذلك فهو فى حاجة ملحة إلى العون فى مهمته، وذلك لأن الفكرة الصحيحة ليست لها قوة فى ذاتها، كما أن الخطاب العلمى نفسه واقع فى قبضة علاقات القوة التى يكشف عنها القناع وكذلك لأن إذاعة هذا الخطاب خاضعة لقوانين الانتشار الثقافى التى يوضحها هذا الخطاب، ولأن حائزى الكفاءة الثقافية الضرورية للاستحواذ على هذا الخطاب ليسوا هم أكثر الناس مصلحة فى القيام بذلك. وبإيجاز يجد الخطاب العلمى أثناء الصراع ضد خطاب ميكبرات الصوت ورجال السياسة وكتبة المقالات والصحفيين أن كل شئ ضده فهناك الصعوبات وضروب البطء فى إعدادة مما يجعله يصل فى أغلب الأحوال بعد انقضاء المعركة، وتعقيد الذى لا مناص منه الذى لا يشجع ذوى الأذهان التى تربت على التبسيط والميول المسبقة أو ببساطة الذين لا يمتلكون رأس المال الثقافى الضرورى لحل ألغازه، وكذلك طابعه اللاشخصى المجرى الذى لا يشجع أى مطابقة بينه وبين الواقع الشخصى ولا أى شكل من الإسقاطات الباعثة على الرضاء، وعلى الأخص ابتعاده عن الأفكار المقبولة المتداولة والمعتقدات الأولية. وليس من المستطاع إعطاؤه بعض القوة الواقعية إلا بشرط أن تتجمع حوله القوة الاجتماعية التى تسمح له بقرض نفسه. وقد يتطلب ذلك - وفقا لتناقض ظاهرى - قبول ممارسة الألعاب الاجتماعية التى كشف هو نفسه منطقها ودحضه. إلى تلك المواقع الرفيعة من الموضة الثقافية؟، واستخدام أدوات التسريق الثقافية وجعلها تنقل ما كانت تظمسه وتحيطه بالغموض فى المعتاد وخاصة وظيفة هذه الأدوات ووظيفة الذين يستعملونها عادة؟ وما معنى محاولة استحضار منطق العلاقات بين الحزب الشيوعى (أو أى حزب ثورى) والمثقفين داخل جهاز للحزب مخصص للمثقفين... إلى آخر تلك المحاولات؟.

إن معناها القول مقدما بالتعرض للشك فى عقد صفقة مشبوهة، فمحاولة رد أسلحة السلطة الثقافية إلى نحر السلطة الثقافية بقول ذلك الشئ الأكثر ابتعادا عن التوقع، الأبعد احتمالا، الأشد مياينة للموضع الذى يقال فيه، معناها رقص «وعظ المهتمين» كما يفعل الخطاب الشائع الذى لا يتلقى هذا الإصغاء الحسن إلا لأنه لا يقول لجمهوره إلا ما يود سماعه. ■

مقدمة المترجم

لا يوجد فى علم الاجتماع اليوم نموذج سائد، فقد ظل بعد فترة سيادة النموذج الوضعى عند كونت ودوركايم حافلا بالمناهج والمدارس المتصارعة ذات الأسس المعرفية المتنافية. وقد سادت مدرسة دوركايم المحاولات الأولى لتأسيس علم الاجتماع فى مصر منذ عهد ليس بالبعيد وخاصة على يد الدكتور على عبد الواحد وافى فى الجامعة وخارجها. وقد كان اهتمام هذه المدرسة منصبا على تأسيس هذا العلم بوصفه علما مستقلا عن الفلسفات الاجتماعية، له مادة بحثه ومنهجه. وقد كان لهذه المدرسة فضل إبراز خصائص الظاهرة الاجتماعية بوصفها مستقلة عن الأفراد ذات منطق نوعى وطبيعة قسرية. وقد تابع مؤلف الكتاب الذى بين أيدينا يبيير بورديو هذا التقليد وأدخل عليه كثيرا من الإضافات والتعديلات.

ولكن هذا التقليد الدوركايى كان يرتكز على نزعة إصلاحية تقول بالتوافق الشامل والسلام الاجتماعى على أساس الأوضاع القائمة، التى تشبه ظواهر الطبيعة. وكما كان علم الاجتماع قد تأسس فى فرنسا كعلم مستقل مفترضا التضامن الطبقي وافضا الصراع الاجتماعى ومعتبرا إياه عرضا مرضيا غير سوى، فقد رسخت تلك المدرسة فى أذهان أتباعها المصريين أن المنهج العلمى الموضوعى يقتضى القول بثنائية نهائية بين الباحث باعتباره ملاحظا محايدا، وموضوع دراسته كما هو معطى فى لحظة من خارج صراعاته التى تشكله.

ولكن دوركايم لم يواصل الجلوس على العرش، فقد بدأت اتجاهات واردة من أمريكا هذه المرة تبحث لها عن مكان. ومقابل العقل الجمعى والظاهرة الاجتماعية القسرية والتوازن الاجتماعى وكلها لا تترك للفرد إلا دور النعية المشدودة بخيوط، ظهرت الاتجاهات التى تدرس المجتمع على أساس من الأفعال والقرارات الفردية الواعية، وتدرس الظاهرة الاجتماعية باعتبارها نسق التفاعلات الفردية وليست شيئا مستقلا منعزلا يحلق فوق الأفراد. وقد لعبت بعض النزعات الفلسفية المتناقضة فيما بينها دورا فى تأكيد هذا المنحى الفردى (الوضعية المنطقية والوجودية). وربما كما اتشار هذا المنحى فى الكتابات الاجتماعية خارج الجامعة لا يتناسب مع تأثيره فى الأذهان عموما.

وبعد ١٩٥٢ عرف التخصص الأكاديمي في بعض أركانه أصلا، للماركسية متكبلية مع المتطلبات الرسمية، واستخدمت أدوات تحليل من قبيل الطبقة، صراع الطبقات، نمط الإنتاج، العلاقات الإنتاجية في القرية، الأثر المحدد للعلاقات الاقتصادية. ولكن تلك الأدوات كانت مستمدة مباشرة من المادية التاريخية في عموميتها الشديدة دون إبداع أدوات جديدة تصلح للواقع القومي في خصوصيته، فالجرمة «أفراز» اقتصادي وكذلك العنف، والحياة الاجتماعية تتبع مباشرة العليل الاقتصادية.

ولم يقف الأمر عند علم الاجتماع العام فقد امتد نطاقه ليشمل دراسة المجتمعات البدائية وأساطيرها وظهرت دراسات في الإثنوجرافيا والإثنولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية (الكلمة الأولى تعنى التسجيل الوصفى للتراث الثقافي للشعوب والثانية هي الدراسة النظرية التحليلية المقارنة لهذا التراث والثالثة تعنى الاثنين معا بالإضافة إلى الآثار والفولكلور واللغويات القديمة). ولكن ظل هناك سور صيني بين دراسة المجتمعات البدائية والتقليدية ودراسة المجتمعات المعاصرة، وهو سور قد تخطاه «بورديو» الذي درس مجتمعا تقليديا في الجزائر ليصل إلى نتائج مرتبطة بالناظر.

وفي مصر وفدت البنيوية مؤخرا وأسهمت في إثراء الدراسات الاجتماعية وعلى الأخص بنيوية ليفي شتراوس. وأبعائه الإثنولوجية. ومن الملاحظ أن في البنيوية تطورا لبعض استبصارات دوركايم عن سيادة الكل على أجزائه. ولكن الاتجاه الغالب لم يكن هذا النمط الفرنسي من البنيوية بل غط آخر أمريكي هو البنيوية الوظيفية عند تالكوت باروسونز. ووبرت ميرتون. وعلى الرغم من أهمية دراسة البنية والوظيفة إلا أن هذه النزعة في دراسة السلوك الاجتماعي والتفاعل تركز على الوسائل والطرق التي يقبل بها الفرد، الواقع ويخضع للعلاقات السائدة ويتكيف معها. وبدا من العلاقات الاجتماعية اللاشخصية نجد علاقات بين أفراد، كما نجد العلاقات الواقعية مختزلة إلى فكرة الناس عن هذه العلاقات، ويظل الهدف هو البحث عن توازن واستقرار للنظام الاجتماعي، فكل نظام اجتماعي يرتكز كما يقول باروسونز على الحاجة الوظيفية إلى النظام. وليست المكونات الأساسية للنظام إلا قيما ومقاييس وأدوارا ومؤسسات، وليس مضمون التطور الاجتماعي إلا مزاوله هذه المكونات لوظيفتها. ومقابل التفسير بالاقتصاد تقدم النزعة البنيوية الوظيفية تفسيرها بالأفكار والقيم. وتلك النزعة التي ينتقدها پيير بورديو تغفل عمليات النشوء والتغير والتحول من نظام إلى نظام، وعلى العكس من إبراز بورديو للعنف الرمزي في نظام التعليم الذي يكرس شرعية الوضع القائم، نجد تلك النزعة ترى أن هدف المدرسة هو تهيير التكامل والاستقرار والتوازن في النظام الرأسمالي الأمريكي، فكل ما يحدث يجب أن يحدث.

وبالإضافة إلى ذلك نجد اهتماما بدأ يتمسح في الدراسات الاجتماعية بالجانب الإمبريقي والميادين المتعينة والمشاكل الخاصة؛ ولذلك دوره الكبير في إثراء الدراسات بالمعطيات والوقائع، كما أنها تقدم

مناهج كمية للملاحظة التجريبية، وطرقاً لاستطلاعات الرأي وقياسه، وللسماع والمقارنة وإعداد البيانات والجداول الاحصائية. ولكن قد تسقط بعض تلك الدراسات في اختبارها لموضوعات الدراسة وإغفالها لموضوعات أخرى في نزعة متكيفة مع حاجات الأوضاع القائمة، لتهدئة كل أنواع الصراع. وقد تكون تلك النزعة التجريبية ضيقة محدودة الأفق سطحية لا تنزل إلى الأعماق، وتعتمد على الوصف بدلا من التفسير.

فما هو مكان «بورديو» من مشاكل علم الاجتماع في مصر؟ أنه يقدم وسط الاتجاهات المتنازعة محاولة عميقة «للتكريب». فهو يواصل إنجازات تاريخ التخصص من زاوية نقدية، ابتداء من دوركايم وماكس فيبر وماركس حتى دراسات موس وجوفمان، وهو في نفس الوقت يجمع بين النظرة البنيوية في كليتها مع تفادي سكوتيتها، وبين تفسير دور الأفراد وفاعليتهم، بالإضافة إلى دراسة الصراع ودوره في إعادة إنتاج البنية. إنه ليس بنويو توليديا وليس مزيجا من ماكس فيبر وماركس، بل هو عالم يتخذ موقعه بانتقائه إلى مثقفي الفئات الشعبية الذين لهم مصلحة في التغيير، ويصارعون القوى المحافظة كما يصارعون النزعة الثورية الزائفة للبيروقراطية السوفيتية وذيلها. إنه يحاول إعادة تأسيس علم الاجتماع على أسس معرفية ركيكة.

وسأحاول تقديم أهم مصطلحاته في معجم غير أبجدي:

Construction

إنشاء

Objet

موضوع (العلم)

بورديو لا يعتبر موضوع العلم ظاهرا اجتماعية جاهزة يقوم الدارس بوصف أوجهها المنفصلة وأجزائها، أو وقائع ماثلة هناك في وضعها الخام، فقد تنتمي إلى مجالات مختلفة رغم تجاورها. بل إن موضوع البحث العلمي هو عملية إنشاء وبناء تقوم على العزل والتجريد والتمييز بين المستويات، والنفاذ إلى نظام من العلاقات الداخلية الجوهرية. فلا توجد في الواقع الموضوعي الملاحظ مباشرة موضوعات العلم، والموضوع الأساسي عنده هو المجال.

Champ

مجال

تنصب أهم أبحاث بورديو على سوسيولوجيا الثقافة، كتب عن التعليم والفن والمزعة، وأوضح أن تمايز الوحدة شبه المتجانسة الأولية في المجتمعات التقليدية قد أدى إلى ظهور مجالات مستقلة ذاتيا،

مجال جمالي ومجال قانوني وسياسي وثقافي وتعليمي وديني... الخ. وكل مجال يدرك على خطوط سوق كما يقول «سكوت لاش». فهناك منتجون ومستهلكون للسلع في المجال الاقتصادي، وللسلع الرمزية المنتجة في المجالات الأخرى. فمجال الفن يتألف من رسامين ومشتري الأعمال وكذلك من النقاد ومدبري المتاحف. ولكل مجال منطق مستقل للنمو (تشريع ذاتي). وهناك صراع ومنافسة وعلاقات قوى داخل المجال. ولكن البنية اللاشخصية للمجال هي التي تمارس سلطتها على الأفراد، ويدور الصراع بين منتجو السلع الرمزية في تنافسهم على الزبائن، بين المنتجين الكاريزميين المجددين وبين البيروقراطيين (يشبه ما عند ثيبر من صراع بين الأنبياء والكهنة).

ونظرية المجال تقيم علما اقتصاديا للثقافة، يميز جانب العرض (إنتاج السلع الثقافية) والسلع الرمزية المنتجة والطلب أو جانب المستهلكين. ولكن ما العلاقة بين المجال (البنية) والأفراد (عناصرها)؟ إن ذلك ذلك يناقشه بورديو في مفهوم التطبيع.

Habitus

تطبيع

هو نسق من الاستعدادات المكتسبة خلال علاقة بمجال معين يصير فعالا ومحدثا آثاره حينما يلتقى بشروط فاعليته الماثلة لتلك التي أنتجته. إنه هو الحياة الاجتماعية متجسدة متفردة. وقد تحولت إلى طبيعة ثانية، فهو نظام الاستعدادات للقيام بممارسة معينة، فهو تلقائية مولدة تؤكد نفسها في مواجهة مرجلة لكل تغير الأوضاع، والتطبيع يولد ممارسات تتأقلم فوراً على الحاضر والمستقبل المنقوش في الحاضر. فالتطبيع هو المبدأ التوليدي للاستجابات التكيف مع متطلبات مجال معين. وهو نتاج تاريخ فردي ولكنه يتكون أيضا من خلال التجارب التكوينية للطفولة، والتاريخ الجمعي بأكمله للعائلة والطبقة. والذات السوسولوجية ليست هي أنا مفردة بل الأثر الفردي المتميز لتاريخ جمعي.

سجية

Ethos

نظام من القيم المضرة التي استبطنها الناس منذ الطفولة ويستحدثون انطلاقات منها استجابات لكل المشاكل المختلفة إلى أقصى مدى.

Hexis

تهود

كلمة يونانية استمدتها بورديو من أرسطو وهي من المسودات السابقة لمصطلح التطبيع، وتعني الاستعداد المكتسب أو العادة التي يصعب تغييرها مثل الفضائل الأخلاقية أو المهارات العقلية.

الرأسمال Capital

مفهوم مستمد من الاقتصاد الكلاسيكي بمعنى ثروة متراكمة وليس علاقة بين مألكى وسائل الإنتاج وبأنهى قوة العمل كما تذهب الماركسية، وهو عند بورديو أساس تشكيل الطبقات من حيث السيطرة والخضوع للسيطرة. والرأسمال هو كل طاقة اجتماعية تستعمل كوسيلة من وسائل المنافسة.

الرأسمال الثقافي (رأس مال ثقافى) Capital Culturel

ينقسم إلى قسمين: رأس مال تعليمى على أساس المؤهل التعليمى وعدد سنوات الدراسة، ورأس مال ثقافى موروث من وضع العائلة وعلاقتها بالمجالات الثقافية المختلفة. ويواصل بيبير بورديو محاولته لإقامة علم اقتصاد ثقافى فيستعمل مصطلحات مستعارة من الاقتصاد مثل:

إعادة الإنتاج Reproduction

إنها تعيد إنتاج علاقات السيطرة وفقا لاستراتيجيات معينة فردية وجماعية

استراتيجية Stratégie

لا تعتمد عند بورديو على نزعة غائية قصدية ولا قواعد ومعايير جاهزة مفروضة بل تمر عبر التطبيع. ولها علاقة وثيقة بالتغير الاجتماعى والتغير فى الآراء.

العقيدة السائدة Doxa

أصولية/ الرأى القويم Orthodoxy

هرطقة - آراء مغايرة Hérésie, Hétérodoxie

مقاومة العقيدة السائدة والخروج عليها وإحدى وسائل التغير الاجتماعى.

مرمى (الكلام) Kairos

الكلام فى الموضوع الملائم فى الوقت الملائم والكلمة اليونانية تعنى هدف التصويب.

Censure

رقابة

يعمل المجال باعتباره رقابة، فهو الذى يحدد من يسمح له بالدخول ليحتل موقعا داخل بنيتة الخاصة من توزيع رأس المال، وهو الذى يعطى الكلمة ويسحبها ويحدد ما يقال وما لا يقال.

Euphémisme

لطف التعبير

إخفاء السلطة بتغيير اسمها، وهو طريقة ممارسة العنف الرمزى.

Violence symbolique

عنف رمزى

يفرض المسيطرون طريقتهم لدى التفكير والتعبير باعتبارها الطريقة الوحيدة الشرعية لا بالعنف الظاهر بل بالعنف الرقيق.



الفصل الأول

فن مقاومة الاقوال المتداولة^(*)

سؤال

يميل الخطاب البورجوازي في الثقافة إلى تقديم الاهتمام بها بوصفه منزها عن الغرض. ولكنك تشير على العكس إلى أن هذا الاهتمام، وحتى تنزهه الظاهري عن الغرض يحقق أرباحا.

الإجابة

هناك مفارقة في أن المثقفين لهم مصلحة في «النزعة الاقتصادية»؛ التي باختزالها كل الظواهر الاجتماعية وخاصة ظواهر التبادل إلى بعدها الاقتصادي تعفيهم من المشاركة في اللعبة. وينفي لذلك التذكير بوجود رأسمال ثقافي^(١) وبأن هذا الرأسمال يحقق أرباحا مباشرة؛ في المحل الأول داخل السوق التعليمية المدرسية بكل تأكيد، ولكنه يحقق تلك الأرباح في أماكن أخرى كذلك، كما يحقق أيضا مكاسب التميز. ومن الغريب أن اقتصاديي المدرسة الحديثة^(٢) يغفلونها، وهي مكاسب ناجمة بطريقة تلقائية عن ندرتها، أي عن حقيقة توزيعها على نحو غير متساو.

(*) لقاء مع «ديدييه إريبون» Didier Eribon «حول كتاب «التميز» للمؤلف في «لبراسيون» ٣ و ٤

نوفمبر ١٩٧٩ ص ١٢ - ١٣.

سؤال

إذن فالممارسات الثقافية هي دائما استراتيجيات
للتباعد عما هو «مشارك» و«سهل»، وتلك هي ما
تطلق عليها استراتيجيات «التميز».

الإجابة

إنها تستطيع أن تكون مميزة متميزة حتى دون أن تسعى لذلك، فالتعريف
السائد «للتميز» يعتبر أنواع السلوك التي تتميز عن المعتاد والشائع أنواعا متميزة رفيعة
دون أن تقصد إلى هذا التميز.

وفى هذه الأمور فإن الاستراتيجيات^(٣) «المربحة» إلى أقصى حد، هي التي لا
تمارس الحياة بوصفها استراتيجيات. أى تلك التي تنحصر كل لحظة فى حب أو حتى فى
«اكتشاف» ما ينبغي حبه، كما لو كان بمحض الصدفة. إن مكسب التميز هو المكسب
الذي يجلبه الاختلاف والانحراف بمسافة فاصلة عن المشترك والشائع. وهذا المكسب المباشر
بتضاعف بريح إضافية، ذاتى وموضوعى فى آن معا؛ هو ربح التنزه عن الغرض: الربح
المتحقق فى أن يرى المرء نفسه وأن يجعل الآخرين يرونه باعتباره لا يبحث عن ربح،
باعتباره منزها تماما عن الغرض.

سؤال

إذا كانت كل ممارسة ثقافية هي تباعد (بل إنك
تقول إن التباعد البريختي^(٤) هو إقامة مسافة
فاصلة مع الشعب)، فإن فكرة فن للجميع، وإتاحة
فرصة أمام الجميع للوصول إلى الفن تصبح بلا
معنى. أى أن وهم «شيوعية ثقافية» ينبغي التخلي
عنه.

الإجابة

لقد شاركت بنفسى فى وهم «الشيوعية الثقافية» (أو اللغوية)، فالمثقفون

يتناولون بفكرهم على نحو تلقائي العلاقة بالعمل الفني بوصفها مشاركة صوفية فى ثروة عامة لا تعانى من ندرة. وكتابى بأجمعه يستهدف التذكير بأن النفاذ إلى العمل الفني يتطلب وسائل ليست موزعة على الناس كافة. وبالتالي فإن حائزى هذه الوسائل يضمنون لأنفسهم مكاسب الامتياز، وهى مكاسب تزداد ضخامة بمقدار ما تزداد تلك الوسائل ندرة (مثل تلك الوسائل اللازمة لامتلاك أعمال الطليعة الفنية).

سؤال

إذا كانت كل الممارسات الثقافية وكل الأنواق
تندرج فى نطاق محدد من الفضاء الاجتماعى، ألا
ينبغى الإقرار بأن الثقافة المضادة هى نشاط يمنح
التميز مثل الأنشطة الثقافية الأخرى؟

الإجابة

ينبغى الاتفاق على تفهم ما يسمى بالثقافة المضادة، وهو أمر يحكم تعريفه صعب أو مستحيل. فهناك عدة ثقافات مضادة، إنها كل ما هو هامشى، فى معزل عن «المؤسسة» "Establishment" خارج الثقافة الرسمية. وللوهلة الأولى يرى المرء أن هذه الثقافة المضادة قد تم تعريفها بالسلب، بواسطة ما تحدد ذاتها بمناوأتها. وأنا أفكر على سبيل المثال فى تلك العبادة لكل ما هو خارج الثقافة «الشرعية»، مثل مسلسلات الرسوم القصصية ذات الحوارق. ولكن ذلك ليس كل شيء، فلن يخرج أحد على الثقافة إذا كان مقتصدا فى تحليل الثقافة - والمصالح الثقافية. وعلى سبيل المثال سيكون من السهل توضيح أن خطاب المحافظة على البيئة، واصطناع أسلوب الحياة فى قافلة للفجر، والانطلاق الحر، والرحلات فى المروج، ومسرح الأقدام العارية ... الخ كلها محشوة باللايماءات المزودة رقيقة التمييز بالنسبة إلى حياة العامل كما يعبر عنها الطلبة فى أحداث ١٩٦٨: «العمل ثم المترو ثم النوم (Boulot, Metro, Dodo) والعطلات القطيعية» لدى «البرجوازيين الصغار العاديين». (وينبغى أن نضع الأهلة المزودة كعلامات ترقيم فى كل مكان؛ فلذلك أهميته الكبيرة لا من أجل الإشارة إلى المسافة المحترسة بعيدا عن الصحافة الرسمية، ولكن للدلالة على الانحراف بين لغة التحليل واللغة العادية، حيث كل

هذه الكلمات هي أدوات صراع، وأسلحة ورهانات في معارك التمييز).

سؤال

اذن ألا تناوئ الحركات الهامشية أو حركات
المناهضة القيم المقررة؟

الإجابة

بكل تأكيد، وأنا أبدأ دائما بأن أثنى العصا في الاتجاه الآخر، وبأن أذكر أن هؤلاء الناس الذين يريدون أن يكونوا في الهامش، خارج النطاق الاجتماعي لهم موقعهم في العالم الاجتماعي مثل سائر البشر. ويعبر ما أسميه حلمهم بالتحليق (الطيران) الاجتماعي تعبيرا محكما عن وضع مزعزع في العالم الاجتماعي، وهو الذي يميز «الجدد من أصحاب التعليم الذاتي»، أولئك الذين قطعوا شوطا في النظام التعليمي حتى سن متقدمة إلى حد ما، وهو حد يكفى لإقامة صلة «رفيعة» بالثقافة، ولكن دون الحصول على الدرجات التعليمية التي كان يعد بها وضعهم الاجتماعي من حيث المنشأ.

ومهما يكن من شيء فإن كل الحركات المناوئة للنظام الرمزي^(٥) مهمة من زاوية ما تطرحه للتساؤل من أشياء تبدو بديهية خارج أي شك أو جدل، فهي تحدث خلافا فيما هو جلي باد للعيان. وتلك هي حالة مايو ١٩٦٨^(٦)، وحالة الحركة النسوية التي لن نزيحها جانبا بالقول إنها من صنع نساء «بورجوازيات». وإذا كانت أشكال المناوئة هذه تسبب إزعاجا في معظم الأحيان للحركات السياسية أو النقابية فقد يرجع ذلك إلى أنها تقضى في اتجاه مضاد للنزعات العميقة والمصالح النوعية لقادة الأجهزة. كما يرجع على الأخص إلى أن أصحابها إذ يمتلكون تجربة تقضى بضرورة «التسييس» أو التعبئة السياسية للطبقات المقهورة على نحو دائم تقريبا ضد الانحصار في «البيتى» المنزلى والخاص والسيكولوجى.. الخ؛ فإنهم يجدون مشقة في استيعاب الاستراتيجيات الهادفة إلى تسييس البيتى مثل الاستهلاك وعمل المرأة.. الخ. ولكن ذلك سيتطلب تحليلا بالغ الطول. وعلى أي حال فإن مجالات بأكملها من الممارسة السياسية خارج التفكير السياسى مثل الفن والحياة المنزلية .. الخ يجعل المرء عرضة لمنعطفات مذهلة من رجوع النزعات المكبوتة.

سؤال

ولكن حينئذ أى ثقافة هى التى تستطيع أن تكون ثقافة مضادة حقيقية؟

الإجابة

لا أعرف ما إذا كنت تستطيع الإجابة عن هذا السؤال. أما ما أنا موقن به فهو أن امتلاك الأسلحة الضرورية للدفاع عن النفس فى مواجهة السيطرة الثقافية، أى فى مواجهة السيطرة التى تُمارس فى الثقافة وتُمارس باسمها، يجب أن يشكل جزءا من الثقافة. وسيدور القول عن ثقافة قادرة على أن تضع مسافة بينها وبين الثقافة، قادرة على تحليلها وليس على مجرد قلبها؛ أو بعبارة أكثر دقة لا تقتصر على فرض شكل معكوس عليها. وبهذا المعنى يكون كتابى كتابا فى الثقافة والثقافة المضادة. وعلى نحو أكثر عمومية فإننى أعتقد أن ثقافة مضادة حقيقية يجب أن تزودنا بأسلحة ضد الأشكال الناعمة الخفية للسيطرة، وضد الأشكال المتقدمة من التعبئة. وضد العنف الناعم للإيديولوجيين المحترفين الجدد الذين يستندون فى الأغلب إلى نوع من التعقيل شبه العلمى للإيديولوجية السائدة. أى فى مواجهة الاستعمالات السياسية للعلم ولسلطان العلم؛ العلم الفيزيائى أو الاقتصادى بالإضافة إلى بيولوجية أو سوسيولوجية النزعات العرقية (العنصرية) المتقدمة؛ أى ذات المستوى العالى فى لطف التعبير عن التحجّاهات بشعة. وبإيجاز إن الحديث يدور عن كفالة انتشار أسلحة الدفاع ضد السيطرة الرمزية. ويجب أيضا، تشبها مع هذا المنطق، أن ندخل فى الثقافة التى هى بالضرورة سياسية حشدا من الأشياء التى يستبعدا التعريف الراهن للثقافة والثقافة السياسية. ولن أياس من أن تستطيع جماعة ما ذات يوم أن تشرع فى مثل هذا العمل الخاص بإعادة البناء.

سؤال

ألا ينبغى التأكيد على حقيقة أنك لا تريد على وجه الخصوص إحداث «شعور بالذنب» واستثارة «ضمير معذب» لدى المثقفين؟

الإجابة

انا شخصيا أفزع من كل أولئك الذين يستهدفون إحداث «شعور بالذنب» أو استشارة «ضمير معذب». فأنذ بولغ طويلا وعلى الأخص بالنسبة إلى المثقفين فى اللعبة الكهنوتية الخاصة بالتأقيم. والمثل فمن السهل جدا التخلص من الشعور بالذنب عن طريق إبداء الندم أو القيام باعتراف على الملأ. ولكننى ببساطة أريد الإسهام فى إنتاج أدوات للتحليل لا تمنى المثقفين من التحليل: فأنا أعتقد أن سوسيولوجيا المثقفين هى توطئة تهديدية لكل علم يتناول العالم الاجتماعى، ويصنعه المثقفون بالضرورة. وهم أولئك المثقفون الذين سيخضعون ممارستهم العقلية الخاصة ونواحيها وليس «كينونتهم البويجوازية» لنقد سوسيولوجى، وسيكونون بذلك أفضل تسلحا لمقاومة استراتيجيات التأنيب، التى تارسها ضدهم كل الأجهزة، والتى تهدف إلى أن تعوقهم عن القيام بما يستلزمون أدائه بوصفهم مثقفين مع هذه الأجهزة ولكن ضدها على الاخص.

ميدوال

ولكن ألا تخشى أن تؤدي تحليلاتك (على سبيل المثال عن مكان قيم الرجولة «الفحولة» فى أسلوب حياة الطبقة العاملة) إلى تدعيم نزعة استعلاء عمالى (٧)؟

هذه الكمانية
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكى بطرس

الإجابة

أنت تعرف أننى عندما أكتب أخشى أشياء كثيرة، أى أخشى كثيرا من القراءات الرديئة. وهذا يفسر ما أتلقى بسببه لوما فى أغلب الأحوال، وهو تعقيد عبارات معينة عندي. فأنا أحاول مقدما تثبيط القراءات الرديئة التى أستطيع التنبؤ بها فى الأغلب. ولكن الاحتمالات والتحذيرات التى أدها بين قوسين أو فى صفة أو بين أهلة مزدوجة ... الخ لا تمس إلا أولئك الذين لا يحتاجونها. ولن يحتفظ كل قارئ من أى تحليل مركب لى إلا بذلك الجانب الذى لا يزعجه إلا قليلا.

ومهما يكن من شئ، فإننى أعتقد أنه من المهم أن نصف قيم الرجولة لدى الطبقة العاملة؛ فهى واقعة اجتماعية مثل الوقائع الأخرى، ولكن غالبا ما يساء فهمها وسط

المثقفين. ولأن هذه القيم - بين أسباب أخرى، غائرة داخل الجسم أى فى اللاوعى فيه، - متتيح لنا أن نفهم كثيرا من ضروب سلوك الطبقة العاملة وبعض الناطقين باسمها. ومن اليديهى أننى لا أقدم أسلوب حياة الطبقة العاملة ونسق قيمها باعتبارهما ثمرة جازا يُحتذى أو مثلا أعلى. وأنا بذلك أحاول تفسير التشبث بقيم الرجولة، والقوة الجسدية عن «البريق» لفت الأنظار إلى أن ذلك هو واقع الناس الذين ليس لديهم ما يعتمدون عليه، فهو الاحتاد سوى قوة عملهم، وعند الاقتضاء سوى نضالهم. وقد حاولت توضيح ما يخبئه أن تكون العلاقة بالجسم - التى هى سمة مميزة للطبقة العاملة - مصدرا لمجمل مواقف، وضروب سلوك وقيم، على نحو مكتمل، فهى التى تتيح استيعاب طريقة الكلام والضحك وطريقة الأكل والشئ. وأنا أقول إن فكرة الفحولة هى ملاذ أخير - مع أشياء أخرى - لهوية الطبقات المقهورة. كما أحاول فضلا عن ذلك إيضاح الآثار السياسية - بين آثار أُنرى - التى يمكن أن تكون للأخلاقيات العلاجية الجديدة، التى يصبها على الرؤوس دوال فترات إعلاية تستغرق أياما صفير المجالات النسائية والمحللون النفسيون للفقراء ومستشارو العلاقات الزوجية وأمثالهم. وليس معنى ذلك أننى أعلى من شأن قيم الرجولة أو الاستعمالات المنوطة بها، التى تدعو إلى تمجيد الحيوان الممتاز واستعداده النظرى للخدمة العسكرية (كما نجد لها لدى مثلى السينما الذين يقومون بأدوار الجلف العنيد الطيب القلب مثل جابان وبيجار Gabin-Bigeard مما يثير فزعا مفتتنا عند المثقفين) أو أدعو إلى الاستخدام ذى الطابع العمالى لأسلوب الولد الطيب، والكلام بصراحة الذى يسمح باختصار التحليل أو يسمح بما هو أسوأ؛ أى إسكات التحليل.

سؤال

أنت تقول إن الطبقات المقهورة ليس لها إلا دور سلبي فى استراتيجيات التميز، وإنما ليست إلا عاكسا مغايرا يبدى تفوق الشئ الآخر، إذن لن توجد فى تقديرك أى ثقافة شعبية؟

الإجابة

ليست المسألة هى معرفة ما إذا كانت هناك فى تقديرى «ثقافة شعبية». بل

السؤال هو معرفة ما إذا كان هناك فى الواقع شئ ما يشبه الاسم الذى يطلقه أولئك الذين يتكلمون عن «ثقافة شعبية». وأنا أجيب عن هذا السؤال بالنفى. ومهما يكن من شئ، فإنه يتبقى القيام بتحليل شديد الإسهاب من أجل الخروج من الورطة الشاملة التى تحيط بهذه الفكرة الخافلة بالخطر. وأنا أفضل الوقوف عند هذا الحد. فما سأقوله الآن فى عبارات قليلة سيلحق بكل ما قلته حتى الآن، من حيث إساءة الفهم كما أننى أميل بشدة قبل أى شئ إلى أن يقرأ الناس كتابى القديم.

سؤال

ولكنك أشرت بوضوح إلى العلاقة التى تربط داخل الطبقة العاملة بين الثقافة والوعى السياسى.

الإجابة

أنا أعتقد أن جهد التسييس يصاحبه فى أغلب الأحوال مشروع للاستحواذ الثقافى، يعاش فى الأغلب باعتباره نوعا من رد الاعتبار واستعادة الكرامة الشخصية. ويتضح ذلك بجلاء فى مذكرات المناضلين العماليين من المدرسة القديمة. ويبدو لى أن لذلك المشروع التحريرى آثارا تؤدى إلى الاغتراب بمقدار ما ينسجم استرجاع نوع من الكرامة الثقافية مع الاعتراف بتلك الثقافة التى باسمها يُمارس عدد من مؤثرات القهر (السيطرة). وأنا لا أفكر فحسب فى ثقل المؤهلات التعليمية داخل الأجهزة، بل أفكر فى بعض أشكال الاعتراف - غير المشروطة، لأنها غير واعية - بالثقافة «الشرعية» وبالذين يحوزونها. ولست متأكدا من أن بعض أشكال النزعة العمالية العدوانية لا تجد مبدأها أو أساسها فى اعتراف مدعور بالثقافة أو بكل بساطة فى ذعر ثقافى لم يخضع لتحكم أو تحليل.

سؤال

ليس من طبيعة التغيرات فى الصلة بالنظام التعليمى التى وصفتها فى كتابك، ألا تكتفى بتحويل الصلات بالثقافة، بل تحول أيضا الصلات

بالسياسة؟

الإجابة

أنا أعتقد، وقد أوضحت على نحو أكثر دقة فى كتابى، أن هذه التحولات، وعلى الأخص آثار تضخم أو انخفاض قيمة المؤهلات الدراسية، هى بين عوامل التغير الأكثر أهمية وخصوصا فى مجال السياسة. وينصب تفكيرى خاصة على كل الاستعدادات المناهضة للتراتب بل وحتى المناهضة للمؤسسات التى أظهرت نفسها فيما هو أبعد من نظام التعليم. إن حائزى تلك الاستعدادات وممثليها النموذجيين هم العمال من حاملى اليكالوريا أو المراتب الجديدة من الموظفين من قبيل متخصصى البيروقراطية. وأنا أعتقد أنه وراء التعارضات الظاهرة بين الحزب الشيوعى وأقصى اليسار أو بين اتحاد العمال الذى يقوده الشيوعيون والاتحاد الذى يقوده الاشتراكيون و«المعتدلون»، بل ووراء كل أنواع الصراع بين الاتجاهات التى تقسم اليوم كل المنظمات، سنعثر مجددا على آثار العلاقات المختلفة بالنظام التعليمى التى تعاد ترجمتها غالبا إلى أشكال من الصراع بين الأجيال. ولكن إضافة الدقة على هذه الحدوس يستوجب القيام بتحليلات إمبيريقية (تجريبية) ليست ممكنة على الدوام.

سؤال

كيف يمكن أن تتأسس معارضة تواجه فرض

القيم السائدة؟

الإجابة

سأغامر بإدهاشك وأجيب مقتبسا كلمات فرانسيس بونج^(٨) "Francis Ponge" من المفيد أن يتعلم المرء مقاومة الأقوال المتداولة؛ فن ألا يقول المرء إلا ما يريد قوله. إن تعليم كل فرد فن تأسيس بلاغته الخاصة هو عمل من أعمال «السلامة العامة». قاوم الأقوال الشائعة، ولا تقل إلا ما تريد قوله وتكلم أنت بدلا من أن تتكلم بلسانك (تتكلمك) كلمات زائفة مستعارة، مشحونة بالمعنى الاجتماعى (كما يدور الحديث على سبيل المثال عن «لقاء القمة» بين مسؤولين نقابيين أو أن جريدة ليبراسيون Libération

تحدث عن سفننا نحن قيسا يتعلق بنورماندى وفرنسا) أو يتكلمك ناطقون بلسانك أو يتحدثون باسمك هم أنفسهم تتكلمهم الأقوال المتداولة. فلا بد من مقاومة الأقوال التى عاليت بالحياد أو التى تخفى قبح معناها بلطف تعبيرها، أو التى أصبحت مبتذلة، وبإيجاز مقاومة كل ما يشكل الإسفاف الطنان للبلادة الجديدة عند خريجى المدرسة الوطنية للإدارة (ENA).

بل ومقاومة كل الأقوال المصقولة المشذبة وإسكات كل الاقتراحات والقرارات والخطط والبرامج. إن اللغة التى تكون نتاجا لتسوية وهدل ووسط مع ضروب الرقابة الداخلية والخارجية تقارس تأثير الفرض والإجبار، فرض ما لم يخضع للتفكير وما يشيط التفكير.

سؤال

إذن فللمثقفين دور ينبغي عليهم أن يلعبوه؟

الإجابة

هذا بديهي. لأن غياب النظرية، والتحليل النثري المراقع وهو ما تحجبه لغة الجهاز، ينجب مسوخا مشوهة. فالشعار والتحرير يؤديان إلى كل أشكال الإرهاب. ولست ساذجا إلى درجة تجعلنى أظن أن وجود تحليل متمسق مركب للواقع الاجتماعى يكفى لأن يجعلنا فى مأمن من كل أشكال الانحراف الإرهابى أو الشمولى. ولكننى على يقين من أن غياب مثل هذا التحليل يترك الساحة خالية. وهذا هو السبب فى أننى أعارض النزعة المعادية للعلم التى تسرى فى هواء عصرنا والتى أثث بها الإيديولوجيون الجدد أعشاشهم، وأدافع عن العلم بل وعن النظرية حينما يؤديان إلى إحراز استيعاب أفضل للعالم الاجتماعى. وليس من الواجب علينا الاختيار بين نزعة التعمية والنزعة العلمية^(٩) (العلمية الضيقة). وكان كارل كراوس Karl Kraus يقول «بين شرين ... أرفض اختيار الشر الأقل».

وحيثما ندرك أن العلم قد صار أداة لإضفاء الشرعية على السلطة، وأن القادة الجدد يحكمون باسم مظهر العلم الاقتصادى السياسى الذى حصلوا عليه فى معهد العلوم السياسية أو فى مدارس إدارة الأعمال، فإن ذلك لا يجب أن يؤدى إلى موقف ارتداد

رومانسى معاد للعلم صار يتعاش اليوم داخل الأيديولوجية السائدة مع العبادة المملنة للعلم. ولكن مدار الأمر في الحقيقة هو بالأسرى إنتاج شروط روح علمية وسياسية جديدة، روح محررة (بالكسر) لأنها متحررة من كل رقابة.

سؤال

ولكن ألا يخاطر ذلك بإعادة خلق حاجز لغوي ؟

الإجابة

إن هدفى هو الإسهام في إعاقة أن يقال أى شئ كائننا ما كان عن العالم الاجتماعى. وقد قال شوينبرج Schoenberg ذات يوم إنه يلحن من أجل ألا يعود الناس قادرين على كتابة الموسيقى. وأنا أكتب لكى لا يستطيع الناس وفي المحل الأول أولئك الذين يمتلكون ناصية القول، أو الناطقون باسم الآخرين، أن يواصلوا فيما يتعلق بالعالم الاجتماعى إنتاج جلبة لها مظاهر الموسيقى.

أما مسألة إعطاء كل فرد وسائل تأسيس بلاغته الخاصة كما يقول فرنسيس بونج Francis Ponge، وأن يكون المتحدث الحق باسم نفسه، وأن يكون فاعلا للكلام بدلا من أن يكون مفعولا به، فإنها ينبغي أن تكون مطمحا لكل المتحدثين نيابة عن الآخرين، الذين سيتحولون دون شك إلى شئ مغاير تماما لما هم عليه الآن، إذا عكفوا على مشروع يقتضى العمل من أجل أن يضمحل وجودهم وينتهى. ومن المستطاع أن نحلم أنه ذات مرة ...



هوامش المترجم «للفصل الأول»

- ١- رأس مال ثقافى: ينقسم إلى قسمين: رأس مال تعليمى على أساس المؤهل التعليمى، وعدد سنوات الدراسة، ورأس مال ثقافى موروث من وضع العائلة وعلاقتها بالمجالات الثقافية المختلفة.
- ٢- المدرسة الحديثة: اتجه فى اقتصاد الوحدات الصغيرة يدرس التغيرات الحديثة فى شئ ما أو نسب التغير الحدى فى وحدة ما بالنسبة لوحدات أخرى.
- انظر هوامش الفصل الثانى (التحليل الحدى)
- ٣- استراتيجيات: ليست غائية، إنما تتم وفقاً لالتقاء التطبع بالمجال فى توافق.
- ٤- التبعيد الهرمى: إقامة مسافة بين الممثل والدور، وبين المتفرج والاندماج، ورفض اعتبار العلاقات الاجتماعية طبيعية بل هى قابلة للإدراك النقدى والتغيير.
- ٥- النظام الرمزي: يتكون من الثروات الرمزية (اللوحه - القصة- الرواية - الدراما- السيمفونيات - المعانى - قوانين الشرف والاحترام ... إلى آخره)، ولها استقلالها النسبى عن مجسديتها المادية.
- ٦- مايو ١٩٦٨: حركة ثورية فى فرنسا بدأها الطلبة، وانضم إليها العمال، ووقفت ضدها التنظيمات التقليدية يمينية كانت أو يسارية. وقد طرحت هذه الحركة للمناقشة كل الأنس المستقرة للنظام والعلاقات فى السياسة والتعليم والايديولوجية والعمل الثقافى.
- ٧- استعمال عمالي **ouvriérisme**: نزعة إقتصادية ضيقة الأفق ترفع من شأن النضال النقابى على حساب النضال السياسى والايديولوجى.
- ٨- فرانسيس بونج **Ponge** شاعر فرنسى ولد ١٨٩٩. وهو يجعل من الأشياء التى يرتادها فى تكاملها الفيزيقي قالب الملموس للغة (من أعماله دواوين وجهة نظر الأشياء ١٩٤٢، الصابون ١٩٦٧).
- ٩- العلموية: النزعة العلمية ضيقة الأفق التى تفرض نموذج العلم الفيزيائى على العلوم الانسانية.

الفصل الثاني

علم يثير الإزعاج^(*)

سؤال

لنبدأ بالكثير الأسئلة وضوحا: هل العلوم الاجتماعية والسوسيولوجيا على وجه الخصوص علوم بالمعنى الحق؟ ولماذا تشعر بالحاجة إلى المطالبة بالطابع العلمى؟

الإجابة

تبدو لى السوسيولوجيا وقد امتلكت كل الصفات التى تشكل تعريف علم من العلوم. ولكن إلى أى درجة؟ هنا موضع السؤال. وتتفاير الإجابة التى يُستطاع تقديمها تفايرا كبيرا وفقا للسوسيولوجيين. وسأكتفى بالقول إن هناك كثيرا من الناس يقولون عن أنفسهم، ويعتقدون أنهم سوسيولوجيون، وأعترف أننى أجد بعض الصعوبة فى الاعتراف بهم على هذا النحو. وعلى أى حال فمنذ زمن بعيد خرجت السوسيولوجيا من مرحلة ما قبل تاريخها، أى من عصر النظريات الضخمة فى الفلسفة الاجتماعية التى يطابق عابرو السبيل (الجاهلون بأصول العلم) بينها وبين السوسيولوجيا فى الأغلب. ولكن السوسيولوجيين الجديرين بالأسم كافة يتفقون على رأس مال مشترك من الأمور المقررة والمفاهيم والمناهج وأجراءات التحقق. ويبقى أن السوسيولوجيا ظلت لأسباب سوسيولوجية واضحة، ولأنها بين أسباب أخرى لعبت فى الأغلب دور تخصص هو بمثابة انلجأ أو الملاذ - تخصصا «مشتتا» discipline dispersée جدا (بالمعنى الإحصائى للكلمة). وذلك من

(*) لاء مع «بيير توييه Pierre Thuillier» فى مجلة La Recherche العدد ١١٢ يونيه

١٩٨٠ ص ٧٣٨ - ٧٤٣.

وجهاً نظر مختلفة. وهذا ما يفسر أن السوسيولوجيا تقدم مظهر تخصص منقسم على نفسه. يقترب من الفلسفة أكثر من اقترابه من العلوم الأخرى. ولكن المشكلة ليست هنا، فإذا كان المرء مبالغاً في التدقيق إلى هذه الدرجة حول علمية السوسيولوجيا، فذلك لأنها تسبب إزعاجاً.

سؤال

ألم تصل إلى أن تطرح على نفسك الأسئلة التي
تطرح نفسها موضوعياً على العلوم الأخرى على
الرغم من أن العلماء ليسوا مطالبين على نحو
عيانى بأن يطرحوها على أنفسهم؟

الإجابة

إن للسوسيولوجيا ذلك الامتياز التعس، امتياز أن تكون مواجهة دون انقطاع
بمسألة علميتها. وذلك المطلب أقل إلحاحاً ألف مرة بالنسبة إلى التاريخ أو الإثنولوجيا دون
أن نذكر الجغرافيا والفيلولوجيا^(١) أو الأركيولوجيا^(٢). ولأن السوسيولوجيا يتعرض
للاستجواب دون انقطاع، فسيظل يستجوب نفسه ويستجوب الآخرين على نحو متصل.
وقد أدى ذلك إلى الاعتقاد بوجود إمبريالية سوسيولوجية: فما هو هذا العلم المبتدئ
المتلعثم الذى يسمح لنفسه أن يضع العلوم الأخرى موضع الامتحان؟ وفى الحقيقة إن
السوسيولوجيا لم ترد على أن وضعت أمام العلوم الأخرى أسئلة طرحتها هى على نفسها
بطريقة شديدة الحدة. وإذا كانت السوسيولوجيا علماً نقدياً، فربما كان ذلك راجعاً إلى أنها
فى وضع حرج انتقادي. إنها تصنع المشاكل كما يقال. ومن المعروف على سبيل المثال أن
أحداث مايو ١٩٦٨ تنسب إليها. وليس وجودها باعتبارها علماً هو وحده الذى يتعرض
للمنازعة بل وجودها نفسه، فى هذه اللحظة على وجه الخصوص حيث يهدف بعض الذين
يتلكون لسوء الحظ القدرة على نجاح مسعاهم إلى تدميرها. ويحدث هذا مصاحباً لتدعيم
بكل الوسائل تحصل عليه «السوسيولوجيا» الباعثة على التهذيب فى معهد أوجيست
كونت "Institut Auguste Comte" أو العلوم السياسية؛ وذلك باسم العلم وبالتواضع
النشط من جهات «علمية» بعينها (بالمعنى المبتذل للكلمة).

سؤال

لماذا تعد السوسيولوجيا بوجه خاص مشكلة ؟

الإجابة

لماذا ؟ لأنها تكشف الغطاء عن الأشياء المخبوءة. وأحيانا عن الأشياء المكبوتة مثل التلازم بين النجاح المدرسي الذي يطابقون بينه وبين «الذكاء» والأصل الاجتماعي، أو بعبارة أفضل بالرأسمال الثقافي الموروث من العائلة. وهذه هي حقائق لا يحب سماعها الحكام من خبراء التقنية (التكنوقراط technocrates) أو من خبراء المعرفة والعلم epistémocrates، أى عدد كبير من الذين يقرؤون السوسيولوجيا ومن الذين يؤمنون بها. وهاك مثالا آخر: فإيضاح أن العالم العلمى هو محل منافسة بوجهها البحث عن مكاسب نوعية (مثل جائزة نوبل Nobel وغيرها، وأسبقية الكشف والمكانة ... الخ) كما تُمارَس باسم مصالح نوعية (أى غير قابلة للإختزال إلى مصالح اقتصادية فى شكلها المعتاد، ولذلك فإن الناس يدركونها باعتبارها «مُنزّهة عن الغرض»)، يطرح للتساؤل ذلك النوع من سير القديسين العلمية التى شارك فيها الباحثون العلميون أحيانا كثيرة، والتى هم فى حاجة إليها لتدعيم الإيمان بما يقومون به من أعمال.

سؤال

أوافقك: فالسوسيولوجيا تبدو بوصفها عدوانية ومثيرة للحرَج والإزعاج. ولكن لماذا ينبغي أن يكون الخطاب السوسيولوجي «علميا» ؟ إن الصحفيين أيضا يطرحون أسئلة مزعجة، غير أنهم لا ينتمون إلى العلم. لماذا يكون وجود حد فاصل بين السوسيولوجيا والصحافة الانتقادية أمرا حاسما ؟

الإجابة

لأن هناك فرقا أو اختلافا موضوعيا. وليست المسألة متعلقة بمركز الشرف والإجلال. فهناك أنساق متسقة من الفروض والمفاهيم ومناهج التحقق وكل ما نلصقه عادة

بفكرة العلم. وتبعاً لذلك لماذا لا نقول هذا علم إذا كان أمامنا ما يتصف بذلك؟ ونظراً إلى أن أمامنا رهانا شديداً الأهمية فإن إحدى الطرق للتخلص من الحقائق المزعجة المخرجة هي القول إنها ليست علمية، ويتكرر ظهور ذلك في القول بأنها «سياسية»، أى تسببها «المصلحة» و«الأهواء» ومن ثم فهي نسبية وقابلة لإضافة النسبية عليها.

سؤال

إذا كنا نطرح على السوسيولوجيا مسألة علميتها ألا يرجع ذلك أيضاً لأنها تطورت متأخرة بالقياس إلى العلوم الأخرى؟

الإجابة

لا شك في ذلك. ولكنه يجب أن يجعلنا نرى أن هذا «التأخير» مرتبط بحقيقة أن السوسيولوجيا علم صعب على نحو خاص، وقد ظل مستبعداً أو بعيد الاحتمال على نحو خاص. وتكمن إحدى صعوباته الكبرى في حقيقة أن موضوعاته هي رهانات صراع؛ وهي أشياء يخفيها المتصارعون ويخضعونها للرقابة، أو هم على استعداد للموت من أجلها. ويصدق ذلك على الباحث نفسه الذى ينغمس في موضوعاته الخاصة. وغالباً ما ترجع الصعوبة المتعينة في ممارسة السوسيولوجيا إلى أن الناس يملكون الخوف مما هم بسبيل العثور عليه داخلها. فالسوسيولوجيا تواجه دون انقطاع ما في الممارسة من وقائع قاسية، وتعتمد إلى تهديد الأرواح (ومحو الافتتان). وهذا هو السبب -على العكس مما يظنه الناس عادة- في أنها سواء من الداخل أو الخارج لا تقدم أيًا من ألوان الإشباع التي غالباً ما تبحث عنها المراهقة في الالتزام السياسى. ومن وجهة النظر هذه فإنها تضع نفسها بالكامل في موضع مقابل للعلوم التي تسمى «خالصة» تقية، والتي هي مثل الفن وعلى الأخص أشد الفنون «تقاء» وهو الموسيقى، والتي هي بلا شك في جانب منها ضروب من الملاذ أو المهرب، حيث يعتزل الانسان لكى ينسى العالم، لثلاً بعوالم مطهرة من كل ما يثير المشاكل؛ مثل الحياة الجنسية أو السياسية. لذلك فإن الأذهان الشكلية أو ذات النزعة الشكلية تمارس على وجه العموم أشكالاً زرية من السوسيولوجيا.

سؤال

لقد أشرت إلى أن السوسيولوجيا تتدخل في مناقشة مسائل ذات أهمية اجتماعية. وذلك يطرح مشكلة «حيادها» و«موضوعيتها». فهل يستطيع عالم السوسيولوجيا أن يبقى فوق المعمة، في موقع الملاحظ غير المتحيز، أو المتجرد؟

الإجابة

للسوسيولوجي خصوصية أن يتخذ من مجالات الصراع موضوعا له، وليس مجال الصراع الطبقي فحسب بل مجال الصراع العلمى ذاته. ويشغل عالم السوسيولوجيا موقعا في هذا الصراع بوصفه في المحل الأول حائزا لرأسمال معين، اقتصادى وثقافى، فى مجال الطبقات ثم بعد ذلك بوصفه باحثا قد وُهبَ رأسمالا نوعيا فى مجال الإنتاج الثقافى؛ وعلى نحو أكثر دقة فى المجال الفرعى للسوسيولوجيا. ويجب أن يكون ذلك فى ذهنه دائما، لكى يحاول السيطرة على كل ما تظل ممارسته، وما يراه وما لا يراه وما يفعله وما لا يفعله -وعلى سبيل المثال الموضوعات التى يختار أن يدرسها- مدينة لموقعه الاجتماعى. وهذا هو السبب فى أن سوسيولوجيا السوسيولوجيا ليست بالنسبة إلى «تخصص» بين تخصصات أخرى، ولكنها إحدى الشروط الأولى لسوسيولوجيا علمية. ويبدو لى فى الواقع إن أحد الأسباب الرئيسية للخطأ فى السوسيولوجيا يكمن فى العلاقة غير المتحكم فيها بموضوع الدراسة. أو على نحو أكثر دقة يكمن فى الجهل بكل ما تكون رؤية الموضوع مدينة به لوجهة النظر، أى للموقع الذى يشغله الباحث فى الحيز الاجتماعى وفى المجال العلمى.

وتبدو لى فرص الإسهام فى إنتاج الحقيقة بالفعل متوقفة على عاملين رئيسيين مرتبطين بالموقع الذى يشغله الباحث: مصلحة الباحث فى معرفة الحقيقة وجعل الآخرين يعرفونها (أو بالعكس فى إخفائها وإخفائها عن نفسه)، والقدرة التى يمتلكها على انتاجها. وقول باشلار Bachelard: «لا يوجد علم إلا بالمستور (المحتجب)» يعرفه الجميع. وعالم السوسيولوجيا هو بنفس القدر أفضل تسلحا لكشف أخطاء عن هذا المستور، مثلما هو أفضل تسلحا من الناحية العلمية لاستعمال رأس مال من المفاهيم

والمناهج والتقنيات المتراكمة على أيدي أسلافه السابقين ماركس Marx ودوركايم-Durk heim وثير Weber وكثير من الآخرين، مثلما يكون أكثر اتصافاً بموقف «نقدى»، كما أن المقصد الواعى أو اللاواعى الذى يحركه هو أكثر اتصافاً بالطابع «الهدام»، فله اهتمام أكبر بكشف الغطاء عما فرضت عليه الرقابة وأصبح مكبوتاً فى العالم الاجتماعى. وإذا كانت السوسيولوجيا لا تتقدم على نحو أكثر سرعة مثلها مثل العلم الاجتماعى عموماً، فربما يرجع ذلك فى جانب منه إلى أن هذين العاملين يميلان إلى التغاير بتناسب عكسى. فإذا توصل عالم السوسيولوجيا إلى إنتاج أقل ما يمكن من الحقيقة، فليس ذلك على الرغم من أن له مصلحة فى إنتاج تلك الحقيقة، بل لأن له مصلحة فى ذلك، وذلك بدقة شديدة عكس الخطاب الأبله عن «الحياد». وقد تكمن تلك المصلحة -على نحو ما تكون داخل أى مكان آخر- فى الرغبة فى أن يكون الباحث أول من يقوم باكتشاف ما، وأول من يستحوذ على كل الحقوق المرتبطة بذلك، أو تكمن فى الحفيظة الأخلاقية، أو فى الثورة على بعض أشكال السيطرة وعلى أولئك الذين بدافعهم عنها داخل المجال العلمى. وبإيجاز لا وجود لحمل بلا دنس^(٣)، وما كنا سنصل إلى كثير من الحقائق العلمية إذا كان من الواجب إدانة هذا الكشف أو ذاك بدعوى أن مقاصد أو إجراءات المكتشفين لم تكن شديدة النقاء.

سؤال

ولكن فى حالة العلوم الاجتماعية ألا تستطيع
«المصلحة» و«الهوى» و«الالتزام» أن تؤدى إلى
الإصابة بالعمى مما يجعل الحق إلى جانب المدافعين
عن «الحياد».

الإجابة

فى الحقيقة هذا هو الذى يجعل الصعوبة فى السوسيولوجيا صعوبة خاصة، فهذه «المصالح» وتلك «الأهواء» نبيلة أو وضعية لن تؤدى إلى الحقيقة العلمية إلا بمقدار ما يصاحبها من معرفة علمية بما يحددها هى نفسها وبالحدود التى تفرضها على المعرفة. وعلى سبيل المثال فكل منا يعرف أن الاستياء المرتبط بالإخفاق لن يؤدى إلى مزيد من

وضوح العالم الاجتماعى إلا يفرض الإظلام على مبدأ هذا الرضوح نفسه. ولكن ليس هذا هو كل شئ. فكلما ازداد علم ما تقدما ازدادت عنده أهمية رأس مال المعارف، المتراكمة، وازدادت ضرورة أن تحشد استراتيجيات الهدم والفقد معارف مهمة مهما تكن «الدوافع»، لكى تكون فعالة. وفى الفيزياء من الصعب الانتصار على خصم بالجوء إلى الحجج الثقافات (برهان السلطة) أو كما - يحدث فى السوسولوجيا - بإدانة المحتوى السياسى لنظريته. فأسلحة النقد يجب أن تكون علمية هناك لكى تكون ذات فاعلية. ولكن الأمر فى السوسولوجيا على العكس من ذلك فكل قضية تناوى الأفكار المقررة يجرى فضحها بإثارة الشك حول الموقف الإيديولوجى التى تنبعث منه وتأثير الموقف السياسى فيها. ويرجع ذلك إلى أنها تقاوم المصالح الاجتماعية؛ مصالح السادة المسيطرين المتحالفين مع الصمت ومع «العقل السليم» (الذى يقول إن ماهو موجود كان يجب أن يوجد، أولا يستطيع أن يكون مختلفا عما هو عليه) ومصالح المتحدثين باسم المجتمع وأصحاب القول الرقيق الذين هم فى حاجة إلى أفكار بسيطة تبسيطية وشعارات. ولهذا السبب تكون تلك القضية مطالبة بتقديم براهين تزيد ألف مرة عن براهين المتحدثين باسم «العقل السليم» (وهو أمر حسن فى الحقيقة). فكل كشف علمى يحفز جهدا ضخما من النقد المرتد إلى الوراء، الذى يقف معه كل النظام الاجتماعى (أنواع الخطوة والمناصب والتميز ومن ثم الإيمان والتصديق) والذى يهدف إلى إعادة الغطاء فوق ما كان قد كشف عنه هذا الغطاء.

سؤال

منذ قليل أوردت اسماء ماركس ودوركايم وفيلبر
معا فى نفس واحد متصل. وقد يؤدى ذلك إلى
افتراض أن اسهاماتهم الخاصة ذات طابع تراكمى
مشترك. ولكن منازعهم المنهجية فى الحقيقة
مختلفة، فكيف يمكن تصور وجود علم واحد مفرد
وراء هذا التنوع؟

الإجابة

فى أكثر من حالة، ليس من المستطاع دفع العلم إلى التقدم إلا بشرط إقامة تواصل بين نظريات متعارضة، تشكلت كل منها فى الأغلب ضد الأخريات. وليس مدار الأمر هو إقامة ضروب من التركيب التليفى التى كثيرا ما اجتاحت السوسيولوجيا. ولتنقل على نحو عابر إن إدانة التليفية قامت غالبا بوظيفة دليل الغياب عن مكان الجريمة بالنسبة لنقص الثقافة؛ فمن السهل والمريح إلى درجة كبيرة أن ينفلق المرء داخل تقليد فكرى ما. وكثيرا ما قامت الماركسية الرسمية لسوء الطالع بأداء تلك الوظيفة؛ وظيفة تدبير الأمان الكسول. فالتركيب ليس ممكنا إلا على حساب طرح المعتقدات طرعا جذريا للتساؤل عما يؤدى إلى مبدأ التناحر الظاهرى. وعلى سبيل المثال فى مواجهة النكوص المعتاد للماركسية المبتذلة نحو النزعة الاقتصادية التى لا تعرف إلا الاقتصاد بالمعنى المحدود للاقتصاد الرأسمالى، والتى تفسر كل شئ بالاقتصاد المرفى على هذا النحو، نجد ماركس قبيح يمد التحليل الاقتصادى (بالمعنى المعمم) إلى المواضع المألوفة العادية التى هجرها الاقتصاد مثل الدين. وبناء على ذلك بشخص «الكنيسة» من خلال صيغة فخمة بوصفها حائزة على احتكار تداول ثروات الخلاص. إنه يدعو إلى مادية جذرية تبحث فى المحددات الاقتصادية (بالمعنى الأوسع) عن مواضع تحكمها إيديولوجية «التنزه عن الغرض» مثل الفن أو الدين.

ويصدق الشئ نفسه على مفهوم الشرعية. لقد قطع ماركس الصلة بالتمثيل المعتاد للعالم الاجتماعى حينما جعلنا نرى أن العلاقات «السحرية» الحافلة بالغبطة -مثل النزعة الأبوية Paternalisme- تخفى وراءها علاقات قوة وقسر. ويتخذ قبيح مظهر المناقضة الجذرية لماركس؛ فهو يذكرنا بأن الانتماء إلى العالم الاجتماعى يستلزم جانبا من الإقرار بالشرعية. ويحتفظ الاستاذ المعلوم -وهذا مثال جيد لتأثير الموقع- بهذا الاختلاف. وهم مولعون بإقامة التعارض بين المؤلفين أكثر من ولعهم بإقامة تكامل بينهم. وقد يكون ذلك أكثر ملامحة لتقسيم واضح للكتب والدروس: القسم الأول ماركس، القسم الثانى قبيح القسم الثالث أنا شخصا...؛ على حين أن منطق البحث يؤدى إلى تجاوز التعارض وصولا إلى الجذر المشترك. لقد أقصى ماركس من نموذج الحقيقة الذاتية للعالم الاجتماعى، ووضع فى مواجهتها الحقيقة الموضوعية لهذا العالم باعتبارها علاقة بين قوى^(٤). بيد أن العالم الاجتماعى إذا أخذنا إلى حقيقته فى كونه علاقة بين قوى، وإذا

لم يتم الاعتراف به إلى بعض الحدود بوصفه شرعيا فلن يحقق هذا النموذج النجاح. فالتمثيل الذاتى للعالم الاجتماعى باعتباره شرعيا يشكل جزءا لا غنى عنه من الحقيقة المكتملة لهذا العالم.

سؤال

وبعبارة أخرى لقد بذلت أقصى جهد لكى تقيم
تكاملا داخل النسق المفهومى الواحد بين إسهامات
نظرية كانت قد فصلت على نحو تعسفى من جانب
التاريخ أو من جانب النزعة اليقينية
(الدوجماتيقية).

الإجابة

فى معظم الوقت لم تكن العقبة التى تعوق مفاهيم الاتصال ومناهجه أو تقنياته
عقبة منطقية بل عقبة سوسيولوجية. فإن هؤلاء الذى طابقوا بين أنفسهم وبين ماركس (أو
فيرا)، لا يستطيعون الاستحواذ على ما يبدو لهم نغيا له دون أن يتصوروا أنهم ينفون
أنفسهم، ويتنكرون لذواتهم. (ولانيغى نسيان أنه لدى الكثيرين لا يكون وصف المرء
لنفسه بأنه ماركسى أكثر من إعلان للإيمان - أو رفع لشعار طوطمى) ويصدق ذلك بالمثل
على العلاقات بين «المنظرين» و«الإمريقيين» (رجال النظرية ورجال التجربة)، بين
المدافعين عن البحث الذى يسمى «أساسيا» والبحث الذى يسمى «تطبيقيا». ولهذا يمكن
لسوسيولوجيا العلم أن يكون لها أثر علمى.

سؤال

هل ينبغى أن نفهم أن أى سوسيولوجيا ذات
نزعة محافظة محكوم عليها بأن تظل سطحية ؟

الإجابة

ينظر السادة المسيطرون شذرا إلى عالم السوسيولوجيا أو إلى المثقف الذى يحل

محله عندما لا يكون ذلك الفرع العلمى قد نضج تكوينه بعد، مثلما كانت الحال فى آخر أيام الاتحاد السوفييتى. وهم متحالفون فى مودة مع الصمت، لأنهم لا يجدون شيئا ينبغى أن يقال من جديد للعالم الذين يسيطرون عليه، والذى يبدو لهم بموجب ذلك واضحا «بديهيها». ونكرر القول مرة ثانية أن غط العلم الاجتماعى الذى يستطيع المرء ممارسته يعتمد على العلاقة القائمة بالعالم الاجتماعى، ومن ثم على الموقع الذى يشغله المرء فى هذا العالم.

وعلى نحو أكثر دقة فإن تلك العلاقة بالعالم تترجم نفسها متجسدة فى «الوظيفة» التى يخصصها أو يحددها الباحث بوعى أو بغير وعى لممارسته، كما تقود استراتيجياته فى البحث: الموضوعات المختارة والمناهج المستعملة وما إلى ذلك. ومن المستطاع أن يكرس الباحث نفسه لغاية هى فهم العالم الاجتماعى، بمعنى الفهم من أجل الفهم. ومن المستطاع على العكس من ذلك البحث عن تقنيات تسمح بالتعامل مع العالم، مما يضع السوسيولوجيا فى خدمة إدارة النظام القائم. ولنقدم للإيضاح مثالا بسيطا: إن سوسيولوجيا الدين تستطيع أن تطابق بين نفسها وبين بحث يتعلق برعاية الكاهن لأفراد أبرشيته، ويتخذ موضوع دراسته من عامة الناس، ومن المحددات الاجتماعية للممارسة الدينية أو عدم الممارسة، وضروب دراسات السوق التى تسمح بترشيد الاستراتيجيات الكهنوتية فى بيع ثروات الخلاص. وكما تستطيع على العكس من ذلك أن تقدم لنفسها موضوعا للدراسة يتمثل فى فهم سيرورة المجال الدينى حيث لا يكون العامة إلا جانبا من جوانبه، مع العكوف مثلا على سيرورة الكنيسة، وعلى الاستراتيجيات التى بواسطتها تعيد إنتاج نفسها وتستديم سلطتها - وفى العديد منها ينبغى إحصاء التحقيقات السوسيولوجية (التي قام بها فى الأصل كاهن).

إن جانبا مهما من هؤلاء الذين يسمون أنفسهم علماء سوسيولوجيا أو اقتصاد هم فى الحقيقة مهندسون اجتماعيون، وظيفتهم تقديم وصفات إلى قادة المشروعات الخاصة والإدارات العامة. وهم يقدمون تبريرا عقليا للمعرفة العلمية أو السطحية التى يمتلكها أعضاء الطبقة السائدة عن العالم الاجتماعى. فالحكومات فى حاجة اليوم إلى علم قادر على تقديم التحرير العقلى. بالمعنى المزدوج - للسيطرة، أى قادر على تدعيم الأليات التى تؤمنها والتى تضى عليها الشرعية فى آن معا. ومن البديهي أن هذا العلم تمتد حدوده بمقدار اتساع وظائفه العملية؛ وسواء لدى المهندسين الاجتماعيين أو لدى قادة

الاقتصاد لن يستطيع هذا العلم أبداً أن يمارس وظيفته من خلال طرح الوجود الاجتماعى لتساؤل جذرى. وعلى سبيل المثال إن العلم الإدارى لشركة بنكية -وهو علم واسع الأرجاء وأكثر سمواً فى جوانب معينة من العلم الذى يمارسه كثير من السوسيولوجيين والاقتصاديين- يجد حدوده متمثلة فى أنه يستهدف غاية مفردة ولا تقبل مناقشة وهى رفع أرباح تلك المؤسسة إلى الحد الأقصى. ومن أمثلة هذا «العلم» الجزئى، سوسيولوجية التنظيمات أو «العلم السياسى» كما يدرسونهما فى معهد أوجيست كونت أو فى «معهد العلوم السياسية» بأدواتهما المفضلة مثل استطلاعات الرأى.

سؤال

ألا يضع التمييز الذى أقمته بين المنظرين
والمهندسين الاجتماعيين العلم فى موقف الفن للفن؟

الإجابة

كلا إطلاقاً. فاليوم هناك بين الذين يعتمد عليهم وجود السوسيولوجيا مؤيدون متزايدو العدد لطرح السؤال حول جدوى السوسيولوجيا. وفى الحقيقة إن أمام السوسيولوجيا على وجه الخصوص فرصاً لإحياء آمال السلطات أو لنأوها بقدر يمكنها من أن تمارس على نحو أفضل وظيفتها العلمية بالمعنى الحق. وتلك الوظيفة ليست خدمة شىء ما، أى أحد ما. إن مطالبة السوسيولوجيا بأن تخدم شيئاً ما كانت دائماً طريقة لمطالبتها بأن تخدم السلطة. على حين أن وظيفتها العلمية هى فهم العالم (استيعابه)، ابتداءً من السلطة. وتلك عملية ليست محايدة من الناحية الاجتماعية، وهى تمارس دون أدنى شك وظيفة اجتماعية. فما من سلطة ليست مدينة بقدر ليس بالقليل من كفاءتها وقايلتها للجهل بالآليات التى تستند إليها.

سؤال

أحب الآن أن أتناول مشكلة العلاقات بين
السوسيولوجيا والعلوم المجاورة لها. لقد بدأت
كتابك عن التمييز *La distinction* بالعبارة الآتية: نادراً

ما تكون السوسيولوجيا أكثر شبهاً بالتحليل
النفسى الاجتماعى مثلما تكون حين تواجه موضوعاً
مثل الذوق. وتجئ بعد ذلك جداول إحصائية وعروض
لتحقيقات ولكن تجئ أيضاً تحليلات ذات طابع
« أدبى » مثل التى نجدها عن بلزاك Balzac وزولا Zola
أو بروسست Proust. فكيف يترابط (بتمفصل) هذان
الجانبان معاً ؟

الإجابة

الكتاب نتاج جهد يستهدف إقامة تكامل بين غطين من المعرفة، الملاحظة
الإثنوغرافية⁽⁵⁾ التى لا تستطيع الاعتماد إلا على عدد قليل من الحالات، والتحليل
الإحصائى الذى يسمح بإقامة الانتظامات ووضع الحالة الملاحظة فى موقعها داخل العالم
الذى تشكله القائمة الموجودة. وهذا على سبيل المثال الوصف المتقابل لوجبة شعبية ووجبة
بورجوازية بعد اختزالهما إلى سماتهما وثيقة الصلة بالموضوع. ففى الجانب الشعبى هناك
الصدارة المعلنة للوظيفة التى تتكرر فى كل أنواع الاستهلاك: فالمرء يريد أن يكون الغذاء
سخياً مشبعاً وأن « يسند الجسم » كما يطلب المرء من الرياضة، عند ممارسة رياضة بناء
الجسم (كمال الاجسام) على سبيل المثال أن تعطيه القوة (بروز العضلات). أما على
الجانب البورجوازى فهناك صدارة الشكل أو الأشكال؛ « الاهتمام بالمظهر أو المظاهر » مما
يستلزم نوعاً من الرقابة وكبت الوظيفة وإضفاء طابع جمالى. ويظهر ذلك فى كل مكان
سواء فى النزعة الفنية الشعبية باعتبارها نزعة إباحية متسامية بها أو تعرضت للإنتكار، أو
فى الفن الخالص الذى يحدد نفسه على وجه الدقة بحقيقة أنه يعلى من شأن الشكل على
حساب الوظيفة. وفى الواقع إن التحليلات التى تسمى « كيفية » أو تسمى تسمية أسوأ
« أدبية » هى جوهرية من أجل « استيعاب » أى التفسير الكامل - لما تكتفى الإحصاءات
بتقريره، ومثائل فى ذلك احصاءات عداد المطر. فهى تؤدى إلى مبدأ كل الممارسات الملاحظة
فى المجالات شديدة التباين.

سؤال

لكى أعود إلى سؤالى ماهى علاقةك
بالسيكولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية .. الخ ؟

الإجابة

لم يكف العلم الاجتماعى عن التعثر بمشكلة الفرد والمجتمع. وفى الواقع إن تقسيم العلم الاجتماعى إلى سيكولوجيا وسيكولوجيا اجتماعية وسوسولوجيا قد تأسس من وجهة نظرى حول خطأ أصلى فى التعريف. إن بدهاة العقود الهولوجى تحول دون رؤية أن المجتمع يوجد فى شكلين لا ينفصلان: فمن ناحية هناك المؤسسات التى تستطيع أن تتخذ شكل أشياء فيزيقية، أبنية وكتب وأدوات.. الخ، ومن ناحية أخرى هناك الاستعدادات المكتسبة، والطرائق المستمرة الثابتة للوجود والفعل، التى تتجسد فى أجسام والتى أسميها تطبعات اجتماعية (٦) (Habitus). فالجسم ذو التنشئة الاجتماعية (الذى يطلق عليه الفرد أو الشخص) لا يضع نفسه فى تعارض مع المجتمع: إنه أحد أشكال وجوده.

سؤال

وبالفاظ أخرى فستكون السيكولوجيا محاصرة
بين البيولوجيا من جانب (وهى التى تقدم الثوابت
أو اللامتغيرات الأساسية) والسوسولوجيا من
جانب آخر، وهى التى تدرس الطريقة التى تتطور
بها هذه اللامتغيرات. وستكون من ثم مؤهلة لمعالجة
كل شئ حتى ما يسمى بالحياة الخاصة مثل الصداقة
والحب والحياة الجنسية .. الخ؟

الإجابة

إطلاقاً. وينبغى التذكير فى مواجهة التمثل المشترك الشائع الذى يقوم على
الربط بين السوسولوجى والجمعى، أن الجمعى مودع فى كل فرد متخذاً شكل

استعدادات متصلة باقية مثل البنى الذهنية. وعلى سبيل المثال لقد بذلت فى كتاب «التميز» جهدا لكى أقيم على نحو تجريبي العلاقة بين الطبقات الاجتماعية وأنساق التصنيف التى اندمجت وتجمدت داخل الأفراد، تلك التى إن تكن نتاجا للتاريخ الجمعى فقد أصبحت مكتسبة داخل التاريخ الفردى. مثل تلك التصنيفات التى تؤثر فى الذوق على سبيل المثال (ثقيل/خفيف، حار/بارد، لامع/باهت).

سؤال

ولكن ما هو إذن موقع البيولوجيا أو
السيكولوجيا بالنسبة إلى السوسولوجيا ؟

الإجابة

تأخذ السوسولوجيا البيولوجيا والسيكولوجيا باعتبارهما شيئا معطى. وهى تبذل جهدها للوصول إلى كيف يستعمل العالم الاجتماعى هذا المعطى ويحوله ويبدل هيئته. إن واقعة أن للإنسان جسما وأن هذا الجسم فان، تطرح على الجماعات مشاكل صعبة. وأنا أفكر فى كتاب كانتوروفيتش Kantorovitch «جسدان للملك»، ويحلل مؤلفه الحيل والذرائع المقبولة اجتماعيا التى يتم بواسطتها التخلص من الورطة، وذلك بتأكيد وجود مبدأ ملكى متعال بالنسبة إلى الجسم الواقعى للملك الذى يصاب بالبلادة والمرض والضعف والموت. «مات الملك .. عاش الملك». ينغى التفكير فى ذلك.

سؤال

أنت تتكلم حتى عن أوصاف إثنوغرافية ...

الإجابة

إن التمييز بين الإثنولوجيا والسوسولوجيا هو على نحو نموذجي بمثابة إقامة حدود زائفة. وكما حاولت أن أوضح فى كتابى «الحس العلمى» La sens Pratique (أو منطق الممارسة) فهو نتاج خالص للتاريخ (الاستعماري) ليس له أى نوع من التبرير المنطقى.

سؤال

ولكن ألا توجد اختلافات فى المواقف شديدة
البروز؟ ففى الإثنولوجيا هناك الانطباع بأن
الملاحظ يبقى خارج موضوعه، وبأنه يسجل فى نهاية
الأمر مظاهر لا يعرف معناها، وأما عالم
السوسيولوجيا فيبدو أنه يتبنى وجهة نظر الذين
يدرسهم.

الإجابة

فى الحقيقة إن علاقة الوقوف خارجا (الخارجية) التى تصفها، والتى أسميها
بالنزعة الموضوعية ضيقة الأفق، هى أكثر شيوعا فى الإثنولوجيا، وذلك بلا شك لأنها
تناظر رؤية الاجنبى الغربى. ولكن بعض علماء الإثنولوجيا قد لعبوا اللعبة أيضا
(اللعبة المزدوجة) بأن شاركوا فى تمثلات السكان الأصليين أو أهل البلاد، وأصبح
الإثنولوجى مسحورا أو صوفيا روحيا. بل ومن الممكن قلب دعواك رأسا على عقب.
فبعض السوسيولوجيين - لأنهم يعملون فى أكثر الأحوال بواسطة الشخص الذى يتوسط
أو يدخل بين مستطلى رأى وليس لهم قط أى اتصال مباشر بالمفحوصين - سيكونون
أكثر ميلا إلى النزعة الموضوعية الضيقة من الإثنولوجيين (الذين تعد فضيلتهم المهنية
الأولى هى القدرة على إقامة علاقة واقعية بالمفحوصين). وينضاف إلى ذلك المسافة
الطبقية، وهى ليست أقل قوة من المسافة الثقافية. وهذا هو السبب فى أنه لا يوجد دون
شك أى علم أكثر اتصافا بانعدام الإنسانية من ذلك العلم الذى انتهب بجوار كولومبيا تحت
سيطرة لازارسفلد Lazarsfeld^(٧) وفيه تتضاعف المسافة التى يحدثها الاستخبار Ques-
tionnaire والمستجوب الوسيط بسبب النزعة الشكلية لإحصاءات عميا. وسنغرق الكثير
عن علم ما؛ عن مناهجه ومضامينه عندما يقوم مثل سوسيولوجية العمل بنوع ما من
وصف الوظائف. فالسوسيولوجى البيروقراطى على سبيل المثال يعامل الناس الذين
يدرسهم كما لو كانوا وحدات إحصائية تقبل التبادل فيما بينها خاضعة لأسئلة مغلقة
ومتماثلة بالنسبة إلى الجميع؛ بينما يكون الذى يقدم المعلومات إلى الإثنولوجى شخصية
مرموقة طالت عشرتها وأجريت معها لقاءات معمقة.

سؤال

إذن انت معارض للمنحى «الموضوعى الضيق»
الذى يستبدل بالواقع النموذج، ولكنك معارض
أيضا لميشيلية Michelet (A) الذى أراد بعث الموتى
ولسارتر Sartre الذى أراد الإمساك بالدلالات بواسطة
نزعة ظاهريات «فينومنولوجيا» تبدو لك تعسفية؟

الإجابة

تماما. فعلى سبيل المثال اذا سلمنا بأن إحدى وظائف الطقوس الاجتماعية هي
تخليص العناصر الفاعلة من كل ما نضعه تحت كلمة «المعاش»، فلن يكون هناك ما هو
أشد خطرا من وضع لافتة المعاش هناك؛ حيث لا أثر لها في الممارسات الطقسية على
سبيل المثال. وفكرة أنه ما من شئ أكثر سخاء من إسقاط «مُعاش» هذا المفكر داخل وعى
«رجل بدائي» أو «ساحرة» أو «عامل بروليتارى» تبدو لى فكرة تنتمى بخفة إلى نزعة
مركزية أوروبية ethnocentrique أو مركزية عنصرية. وأفضل ما يستطيع
السوسيولوجى أن يفعله هو أن يضى طابع الموضوع على الآثار المحتملة لتقنيات البحث
التي تقوم بهذا التوضع والتي هو مضطر إلى استخدامها، مثل الكتابة والرسوم البيانية
والخطط والخرائط والنماذج وما إلى ذلك. وعلى سبيل المثال لقد حاولت في كتابي «الحس
العملى» أو منطق الممارسة أن أوضح أنه نتيجة لإغفال إدراك تلك الآثار التي ينتجها وضع
الملاحظ، والتقنيات التي يستعملها من أجل الإحاطة بموضوع الدراسة، فإن الإثنولوجيين
قد قاموا بتشكيل «البدائي» على هذا النحو، لأنهم لم يدروا كيف يتعرفون فيه على
صفاتهم هم، بما أنهم كفوا عن التفكير العلمى أى تفكير الممارسة. إن ضروب المنطق التي
تسمى «بدائية» هي بكل بساطة ضروب منطق عملية مثل تلك التي تقوم بإعمالها للحكم
على لوحة أو رباعية موسيقية.

سؤال

ولكن اليس من المستطاع العثور على منطق
ذلك كله والاحتفاظ «بالمعاش» فى آن معا؟

الإجابة

هناك حقيقة موضوعية لما هو ذاتى حتى حينما يناقض الحقيقة الموضوعية التى
يجب بناؤها ضده. فالوهم ليس بوصفه كذلك خذاعا. وسيكون خيانة للموضوعية إذا
سلكتنا كما لو كانت الذوات الاجتماعية لا تمتلك تمثلات أو تجربة للوقائع التى يبينها العلم
مثل الطبقات الاجتماعية. وينهى إذن الوصول إلى موضوعية أعلى مستوى تفسح
مكانا لتلك الذاتية.

إن للعناصر الفاعلة «معاشا» ليس هو الحقيقة الكاملة لما يفعلونه، ومع ذلك
فهر جزء من حقيقة ممارستهم. ولنأخذ على سبيل المثال رئيسا يعلن أن «الجلسة رفعت»
أو قسيسا يقول: «أنا أعمدك» فلماذا يكون لتلك اللغة سلطة؟ إن الكلمات ليست هى
التي تسلك بنوع من السلطة السحرية. وقد وجدنا فى شروط اجتماعية معطاة أن بعض
الكلمات تمتلك القوة. إنها تكتسب قوتها من مؤسسة تمتلك منطقها الخاص، الألقاب
والروب والرداء والكرسى والصيغ الطقسية واعتقاد المشاركين .. وما إلى ذلك. وتذكرنا
السوسيولوجيا أن الأقوال ليست هى التى تؤثر ولا الأشخاص القابلين للتبادل الذين
ينطقون بها، بل المؤسسة. وهى توضح الشروط الموضوعية التى يجب أن تلتقى معا لكى
تزاول (بالبناء للمجهول) فاعلية هذه الممارسة الاجتماعية أو تلك. ولكنها لا تستطيع
الاكتفاء بذلك. فهى لا يجب أن تنسى أنه لكى تمارس تلك الوظيفة ينبغى أن يؤمن من
يقوم بالفعل ببدأ فاعلية أعماله. وهناك أنظمة تسير بالكامل وفقا للإيمان (للاعتقاد) وما
من نظام حتى الاقتصاد- ليس مدينا جزئيا للاعتقاد بقدرته على السير.

سؤال

من وجهة نظر العلم بمعنى الكلمة، أفهم مسعك
جيذا، ولكن النتيجة هى أنك قللت من قيمة
«المعاش» لدى الناس. وباسم العلم أنت تخاطر بأن

تنتزع من الناس مبررات حياتهم. فمن أعطاك الحق
(إذا أمكن القول) فى حرمانهم من أوهامهم؟

الإجابة

يحدث لى أيضا أن أسأل نفسى ألن يكون العالم الاجتماعى الكامل الشفافية والمتحرر تماما من الوهم والسحر الذى سيؤى إليه علم اجتماعى قد تطور إلى أقصى مدى (وقد أصبح منتشرًا على نطاق واسع، إذا كان الوصول إلى هذا القدر ممكنا) عالما لا تستطيع فيه الحياة؟ وأنا أعتقد، على الرغم من كل شئ، أن العلاقات الاجتماعية ستكون أقل تعاسة كثيرا إذا ألم الناس على أقل تقدير بالآليات المفروض عليها الإسهام فى تعاستهم الخاصة. ولكن ربما كانت الوظيفة الوحيدة للسوسيولوجيا هى أن توضح سواء بشغراتها المربنية أو بمنجزاتها حدود المعرفة بالعالم الاجتماعى ووضع الصعوبات نتيجة لذلك أمام كل أشكال ادعاء النبوة والقدرة على التنبؤ بدءا بادعاء النبوة الذى يطالب بالانتساب إلى العلم.

سؤال

لنعد إلى العلاقات بالاقتصاد، وعلى الأخص إلى بعض التحليلات الكلاسيكية الجديدة مثل تحليلات مدرسة شيكاغو Chicago^(٩) وفى الحقيقة إن المواجهة تشير الاهتمام لأنها تسمح برؤية كيف يبني علمان مختلفان الموضوعات نفسها مثل الخصوبة والزواج وعلى الأخص الاستثمارات فى التعليم.

الإجابة

سيكون ذلك جدالا مهولا. ومن الممكن أن يكون خادعا أن يعتبرنى أحد مثل الاقتصاديين المنتهين إلى المدرسة الحية الجديدة^(١٠) أننى أضع فى أساس ضروب السلوك الاجتماعى جميعها شكلا نوعيا من المصلحة ومن الاستثمار. ولكن المشترك بيننا ليس سوى الألفاظ. فالمصلحة التى تحدث عنها لا يجمعها شئ بالمصلحة الذاتية

Self-interest عند آدم سميث Adam Smith، وهى مصلحة لا - تاريخية، طبيعية، شاملة، وهى فى الحقيقة ليست إلا إضفاء لواعيا للكلية والشمول على المصلحة التى يولدها ويفترضها الاقتصاد والرأسمالى. وليس من قبيل المصادفة أن الاقتصاديين لكى يخرجوا من هذه النزعة الطبيعية وجب عليهم اللجوء البيولوجى الاجتماعى - Sociobiology، مثل جارى بىكر Gary Becker فى مقال معنون الغيرية Altruism، الأثانية egoism والملاءمة الجينية genetic fitness (ملاءمة وحدات الوراثة): فليست المصلحة الذاتية وحدها بل «الغيرية بصدد النسل» والاستعدادات الأخرى الدائمة، قد وجدت تفسيرها فى الانتخاب الطبيعى مع مرور الزمان للصفات الأكثر قابلية للتكيف (الأكثر ملاءمة أو الأصلح).

وفى الحقيقة إننى حينما أقول بوجود شكل ما من المصلحة أو الوظيفة فى أساس كل مؤسسة. وكل ممارسة، لا أتعدى تأكيد مبدأ السبب الكافى - raison suffisante^(١١)، المتضمن فى صميم مشروع البحث عن السبب الذى هو من مقومات العلم نفسه: وهذا المبدأ يذهب فى الحقيقة إلى أن هناك علة أو سببا يسمح بتفسير أو الإحاطة بلماذا توجد هذه الممارسة أو تلك المؤسسة أصلا بدلا من ألا تكون، ولماذا تكون على ما هى عليه بدلا من أن تكون على أى نحو مغاير. وليس فى هذه المصلحة أو تلك الوظيفة ما يجعلها طبيعية أو كلية على نقيض ما يعتقد الاقتصاديون الكلاسيكيون المجدد، الذين يكون عندهم الإنسان الاقتصادى l'homo economicus ليس إلا إضفاء للشمول على الإنسان الرأسمالى l'homo capitalistic. وتوضع الإثنولوجيا والتاريخ المقارن أن السحر الاجتماعى يحصر المعنى للمؤسسة يستطيع أن يشكل على وجه التقريب أى شئ كان ما كان باعتباره، مصلحة، وباعتباره مصلحة واقعية أى باعتباره استغفاراً (بالمعنى فى الاقتصاد وكذلك فى التحليل السيكلوجى) يُرد له الجميل موضوعيا فى المدى البعيد إلى هذا الحد أو ذاك بواسطة الاقتصاد. وعلى سبيل المثال، إن اقتصاد الشرف l'honneur ينتج وبكافى استعدادات اقتصادية وممارسات تبدو فى الظاهر جالبة للخراب - بمقدار ما تعتبر «منزهة عن الغرض» - ومن ثم فهى عبثية لا معقولة من وجهة نظر العلم الاقتصادى عند علمائه. ومع ذلك فإن أنواع السلوك الأكثر جنونا من وجهة نظر العقل الاقتصادى الرأسمالى تمتلك من حيث المبدأ شكلا من المصلحة مفهوما جيدا (على سبيل المصلحة الماثلة) فى أن «تكون فوق جميع الشبهات»، وتمكن أن تصلح موضوعا

للعلم الاقتصادي. فالاستثمار أى الميل إلى الفعل، الذى يتولد فى العلاقة بين حيز لممارسة اللعبة يقدم وعودا ببعض الرهانات (وهو ما اسميه مجالا) وبين نسق من الاستعدادات المتكيفة مع هذه اللعبة (وهو ما اسميه تطبعا اجتماعيا habitus) هو اتجاه اللعبة والرهانات الذى يتضمن فى آن معا الميل والقدرة على ممارسة اللعبة، وعلى استهداف مصلحة من اللعب، وعلى الاهتمام بالشروع فى اللعب. ويكفى أن نفكر فيما يمثله الاستثمار التعليمى فى مجتمعاتنا، وتقع حدوده فى الفصول الإعدادية للمدارس الراقية، لكى نعرف أن المؤسسة قادرة على توليد الاستثمار، وفى هذه الحالة توليد فائض استثمار وهما شرط ممارسة المؤسسة لوظيفتها. كما أنه من الممكن توضيح ذلك جيدا فيما يتعلق بأى شكل من أشكال المقدس؛ فتجربة المقدس تفترض دونما انفصال الاستعداد المكتسب الذى يوجد الموضوعات المقدسة بوصفها كذلك، والموضوعات التى تتطلب على نحو موضوعى موقفا يضى القداسة، أى منحى تقديسيا (يصدق ذلك على الفن فى مجتمعاتنا). وبعبارة أخرى إن الاستثمار هو الأثر التاريخى للاتفاق بين تحقيقين لما هو اجتماعى: فى الأشياء، بواسطة المؤسسة، وداخل عادات الجسم بواسطة الإدماج والتجسيد.

سؤال

أليس هذا النوع من الأنثروبولوجيا العامة
الذى تقترحه طريقة لتحقيق الطموح الفلسفى
للنظام ولكن بوسائل العلم ؟

الإجابة

لا يدور الأمر على الاتفاق الأبدى داخل الخطاب الكلى عن الكلية الذى تمارسه الفلسفة الاجتماعية، والذى ما يزال عملة متداولة اليوم وخاصة فى فرنسا، حيث يجد اتخاذ المواقف النبوية سوقا ما تزال تتمتع بالحماية. ولكننى اعتقد أن 'لوسيبولوجيين' نتيجة لاهتمامهم بأن يتطابقوا مع تمثل مشوه للعلمية ذهبوا إلى مدى بعيد فى تخصص مهتسر (سابق لأوثانه). ولن نفرغ من تعداد الحالات التى أصبحت التقسيمات المنفصلة للموضوع -وأكثرها شيوعا حسب الاقتطاعات الواقعية المفروضة من جانب الحدود الادارية

أو السياسية- عائقا هائلا أمام الإحاطة العلمية، ولكى لا أتكلم إلا عما أعرفه جيدا سأستشهد على سبيل المثال بفصل سوسيولوجيا الثقافة عن سوسيولوجيا التعليم أو اقتصاد التربية عن سوسيولوجيا التربية. وأنا أعتقد أيضا أن علم الإنسان لابد له أن يشرك معه نظريات أنثروبولوجية، وأنه لن يستطيع التقدم بالفعل إلا بشرط أن يصرح بهذه النظريات التى يستعملها الباحثون دائما فى صمت من الناحية العملية والتى ليست فى معظم الأحوال إلا اسقاطا متبدلا محاطا بالجلال لعلاقتهم بالعالم الاجتماعى.



هوامش المقرر «للفصل الثاني»

- ١- الفيلولوجيا: فقه اللغة وهو علم يدرس تحقيق النصوص.
- ٢- الأركيولوجيا: دراسة علمية للحضارات المتعاقبة منذ ظهور الانسان، وذلك من خلال الأدوات المادية التي يتم الحصول عليها من خلال التنقيب الأثرى.
- ٣- حمل بلادنس: هو حمل مريم البتول دون أن يمسه بشر.
- ٤- وماذا عن قول ماركس إن الفكرة تصبح قوة مادية حين تعتنقها الجماهير؟
- ٥- الانتزاجية: التسجيل الرصفي للتراث الثقافي للشعوب.
- ٦- تطبيع Habitus: نسق الاستعدادات المكتسبة خلال علاقة بهجاء معين (أنظر المقدمة).
- ٧- پول فيلكس لاوار سفلد (١٩٠١ - ١٩٧٦) عالم اجتماع أمريكي من أصل نمسوى مهتم على الخصوص بمشاكل الاتصال الجماهيرى. من مؤلفاته: «فلسفة العلوم الاجتماعية».
- ٨- پول ميشليه (١٧٩٨ - ١٨٧٤) مؤرخ فرنسى ليبرالى وضد سيطرة رجال الدين. ألف كتابين «تاريخ فرنسا» و«تاريخ الثورة الفرنسية». بعد انقلاب نابليون الثالث أقصى عن منصبه الجامعى وتفرغ لتأليف كتب عن أسرار الطبيعة والروح (مثل كتاب الساحرة).
- ٩- مدرسة شيكاغو على رأسها ملتون فريدمان (Friedman) (أستاذ جامعى فى جامعة شيكاغو) وهى تطوير للنظرية الكمية فى النقد وهى تؤثر فى سياسات صندوق النقد الدولى. وتدعو إلى نزعة ليبرالية تحت رقابة الدولة فى مبالاة النقد.
- ١٠- التحليل الحدى يدرس فى الوحدات الصغرى أثر التغير الحدى بينها، كما يدرس الميل الحدى إلى الادخار والاستهلاك. والتغير الحدى هو زيادة طفيفة جدا فى الكمية الكلية لتغير ما. وهو يعنى بتحليل سلوك الحد الأمثل البحث عن القيم المثلى لتغيرات معينة. فالمستهلك يبحث عن الحد الأقصى من الربح وتقليل التكاليف، والسياسى عن الحد الأقصى من الرقابية الاجتماعية. والبحث عن مدلول العائد: فى الكفاءة الحديثة لرأس المال وللإستثمار وإنتاجية رأس المال والعمل.
- ١١- السبب الكافى: السبب هو المبدأ الذى يفسر الشئ تفسيراً نظرياً، وهو ما يحتاج إليه الشئ فى وجوده. والسبب الكافى عند ليبنتس Leibniz هو أن لكل شئ سببا كافيا يتوقف وجوده عليه، وهو سبب كاف لكونه كذلك لا على خلافه. وهو يعلل وجود الشئ أو عدم وجوده، وكونه على هذه الحالة أو غيرها.

وهناك عند شوبنهاور مبدأ السبب الكافى للصيرورة والمعرفة وللوجود الفعلى. والسبب الكافى للفعل هو الذى يجعل حصول الفعل مشروفاً على عوامل وبواعث خاصة.

الفصل الثالث

السوسيولوجى مطروحا للمناقشة (*)

سؤال

لماذا تستخدم رطانة خاصة وصعبة بطريقة خاصة تجعل خطابك غير قابل لأن يدركه غير المتخصص ؟ أليس من قبيل التناقض أن تتنكر للاحتكار الذى يمنح العلماء لأنفسهم امتيازهم ثم تسترجعه فى الخطاب نفسه الذى يتنكر له ؟

الإجابة

يكفى فى أغلب الأحوال أن تدع اللغة العادية تتكلم وأن تستسلم لنوع من حرية العمل (دعه يعمل laissez - faire) اللغوية، لكى تقبل -دون أن تعرف أنك تقبل- فلسفة اجتماعية معينة. إن القاموس متضخم بميثولوجيا سياسية (وأنا أفكر على سبيل المثال فى كل أزواج الصفات: مشرق/ عبوس وعال/ منخفض ونادر - شائع .. الخ) -إن أصدقاء «العقل السليم» الذين يحيون فى اللغة العادية كما تحيا الأسماك فى الماء والذين فى مجال اللغة مثل أى مجال آخر يجدون البنى الموضوعية واقفة معهم فى صفهم يستطيعون (باستثناء بعض التلميحات أو التوريات) أن يتكلموا لغة واضحة صافية مثل ماء النبع الرائق، وأن يهاجموا الرطانة. وعلى النقيض من ذلك يجب على العلوم الاجتماعية أن تسيطر على كل ما تقوله، بالصراع ضد الأفكار المقررة المعترف بصحتها التى تنقلها اللغة العادية، وأن تقول ما استولت عليه بلغة مهيأة أو ذات قابلية لأن تقول

(*) تلك هى الأسئلة التى بدت لى أكثر أهمية من بين الأسئلة التى طرحت على أكثر من غيرها أثناء مناقشات مختلفة جرت معى حديثا فى باريس فى كليات ومعاهد متعددة.

شيئا آخر مختلفا تماما. بيد أن تحطيم التلقائية الآلية اللغوية لا يعنى الخلق المصطنع لاختلاف رقيق القدر يضع ما هو عامى على ميعدة، بل يعنى القطيعة مع الفلسفة الاجتماعية المسجلة فى الخطاب التلقائى. فوضع كلمة مكان كلمة هو فى الأغلب إحداث لتغير فى المبادئ المعرفية الخامسة (تغير يخاطر من جهة أخرى بأن ير غير ملحوظ).

ولكن المسألة المثارة ليست تفادى الآلية التلقائية للفهم المشترك من أجل الوقوع فى الآليات التلقائية للغة النقدية، بكل الكلمات التى بولغ فى توظيفها كشعارات أو كلمات مرور (سر)، وكل العبارات التى لا تعمل على التعبير عن الواقعى بل على سد الثغرات فى المعرفة (وتلك فى الأغلب هى وظيفة المفاهيم الضخمة والقضايا المقحمة التى ليست فى معظم الأحوال إلا إعلاتا للإيمان يتعرف به المؤمن على مثيله فى الإيمان). وأنا أعنى هنا تلك «الماركسية الأساسية» كما يقول جان - كلود باسرون Jean-Claude Passeron التى ازدهرت خلال السبعينات فى فرنسا، تلك اللغة الآلية (أو الأوتوماتيكية، ذاتية الحركة) التى تدور من تلقاء نفسها ولكن دون ترابط لتروسها فتقطعن الهواء، انها تسمح بالكلام عن كل نواحى الاقتصاد، بأقل عدد من المفاهيم البسيطة ولكن دون التفكير فى شئ جاد. إن الواقعة البسيطة للادراك المفهومى تمارس غالبا تأثير التحييد أو التعادل أى التنصل أو الإنكار.

أما اللغة السوسولوجية فلا تستطيع أن تكون «محايدة» أو «واضحة». فكلمة «الطبقة» لن تكون أبدا كلمة محايدة طالما كان هناك طبقات: ومسألة وجود الطبقات أو عدم وجودها هى رهان الصراع بين الطبقات. وجهد الكتابة الضرورى للوصول إلى استعمال دقيق متمسق ومنضبط للغة لا يؤدي إلا باستثناءات نادرة إلى ما يسمى بالوضوح، أى تدعيم شواهد الفهم المشترك (الادراك الشائع) أو يقينيات التعصب.

وعلى النقيض من البحث الأدبى، يؤدي البحث عن الاتساق الدقيق دائما إلى التضحية بالصيغة الجميلة التى تستمد قوتها ووضوحها من حقيقة أنها تعتمد إلى التيسيط أو التزييف، فيؤدى بذلك إلى تعبير أقل جاذبية وأكثر غلظة، ولكن أكثر دقة وانضباطا.

ومن ثم فإن صعوبة الأسلوب تنشأ غالبا عن كل درجات اللون أو الفرق الدقيقة، وكل التصويبات وكل أنواع الاحتراس: دون الكلام عن استرجاع التعريفات والمبادئ، وكلها ضرورية لكى يحمل الخطاب داخله جميع أنواع الدفاع الممكنة ضد

التحريفات وإساءة الاستعمال. ويتناسب الانتباه إلى هذه العلامات النقدية بلا جدال تناسباً طردياً مع البقطة ومن ثم الكفاءة لدى القارئ، مما يجعل من الأفضل أن يدرك القارئ هذه الاحتراسات والتدقيقات بدلاً من أن تبدو له عديمة الجدوى. ومن المستطاع بالرغم من كل شيء أن نأمل في أن تعمل على الحد من النزعة اللفظية وترديد أصداء ما يقال: l'écholalie.

ولكن ضرورة اللجوء إلى لغة اصطلاحية قد تفرض نفسها على السوسيولوجيا بدرجة أقوى من أي علم آخر. فلكي تقطع السوسيولوجيا الصلة بالفلسفة الاجتماعية التي تسكن كأنها الأشباح الكلمات المعتادة، ولكي تعبر كذلك، عن أشياء لا تستطيع اللغة العادية أن تعبر عنها (على سبيل المثال كل ما ينتسب إلى رتبة ما هو بديهي)، لابد لها أن تلجأ إلى صياغة أو نحت كلمات تكون بذلك محمية مصونة -على الأقل نسبياً- من الإسقاطات الساذجة للفهم المشترك. ومثل هذه الكلمات أفضل تسليحاً للدفاع ضد التحريف بمقدار ما تؤهلها «طبيعتها اللغوية» لمقاومة القراءات المتعجلة (وهذه هي الحال مع مصطلح التطبيع (اكتساب الطبيعة)، الذي يستحضر معاني المكتسب بل حتى الملكية ورأس المال، وعلى الأخص ربما بمقدار ما تكون مندرجة منحصرة داخل شبكة من العلاقات تفرض ضوابطها المنطقية، مثل مصطلح allodoxiax الرأي المغاير (العقيدة المغايرة) التي تحسن قول شيء عصى على التعبير، أو حتى على التفكير بكلمات قليلة -وهو حقيقة أن تتعامل مع شيء باعتباره شيئاً آخر، وأن تظن أن شيئاً ما بخلاف ما يكون عليه... الخ- فالكلمة مأخوذة في شبكة كلمات تنتمي إلى نفس الجدر:-

رأى (عقيدة) doxa. حكيمة العقيدة doxa sophe العقيدة القويمة (الأصولية) orthodoxie ضلال العقيدة (هرطقة) heterodoxie مناقض للعقيدة Paradoxe.

ومهما يكن من شيء فإن صعوبة نقل منتجات البحث السوسيولوجي يرجع بقدر أقل كثيراً مما يعتقد إلى صعوبة اللغة، ويكمن السبب الأول لسوء الفهم في حقيقة أن القراء، حتى أكثرهم «ثقفاً» ليس لديهم إلا فكرة شديدة التقريب عن شروط إنتاج الخطاب الذي يحاولون امتلاكه. فعلى سبيل المثال، هناك قراءة «فلسفية» أو «نظرية» لمؤلفات العلم الاجتماعي تتألف من الاحتفاظ «بالموضوعات» و«الاستنتاجات» في استقلال عن مسيرة البحث التي أنتجت هذه الموضوعات والاستنتاجات (أي تتألف على نحو عياني من «قفز» فوق التحليلات الإمبريقية والجداول الإحصائية والإشارات المنهجية

وما أشبهه؛ وهذه الطريقة فى القراءة معناها قراءة كتاب آخر. وعندما أقوم «بتكشيف» التعارض بين الطبقات الشعبية والطبقة السائدة، فى التعارض بين الأولوية المعطاة إلى المادة (المضمون) (أو الوظيفة) والأولوية المعطاة إلى الشكل، فإن هذا المدار للبحث يشير إلى موضوع فلسفية، على حين ينبغي أن يضع المرء فى ذهنه أن هؤلاء يأكلون الفاصوليا وأولئك يأكلون السلطة وأن الاختلافات المنعدمة أو الضئيلة فى الاستهلاك بالنسبة إلى الملابس الداخلية تكون شديدة القوة بالنسبة إلى الملابس الخارجية وما إلى ذلك. حقا إن تحليلاتى هى نتاج تطبيق مخططات شديدة التجريد على أشياء شديدة العينية، على إحصائيات استهلاك البيجامات والسرارييل والبنطلونات. وليس من الواضح البديهي قراءة إحصائيات البيجامات أثناء التفكير فى كانط Kant. إن كل التلمذة (أنواع التدريب والأعداد التعليمية) تنحو نحو منع التفكير فى كانط إذا تعلق الأمر بالبيجامات، أو منع التفكير فى البيجامات عند قراءة ماركس (أقول ماركس لأنكم ستوافقوننى عليه بسهولة على الرغم من أنهما من هذه الوجهة سيان).

وينضاف إلى ذلك حقيقة أن كثيرا من القراء يجهلون أو يرفضون مبادئ فط التفكير السوسيوولوجى ذاتها، مثل إرادة «تفسير الاجتماعى بالاجتماعى» وفقا لقول دوركايم Durkheim الذى يفهم غالبا باعتباره طموحا إمبرياليا (توسعيا حيث يحاول علم الاجتماع التوسع فى كل الميادين)، ولكن يمكن القول بمزيد من البساطة أن الجهل بالإحصاء أو بالأحرى افتقار العودة على فط التفكير الإحصائى يؤدى إلى الخلط بين المحتمل (على سبيل المثال العلاقة بين الأصل الاجتماعى والنجاح الدراسى) واليقينى (الأكيد) أو الضرورى. وينجم عن ذلك كل أنواع الاتهامات غير المعقولة مثل مأخذ النزعة القدريّة fat-alisme، أو مثل اعتراضات غير ذات موضوع كإخفاق جزء من أبناء الطبقة السائدة وهو على العكس عنصر رئيسى فى فط إعادة الانتاج الإحصائى (وقد بذل «سوسيوولوجى» عضو فى المعهد l'Institut كثيرا من الطاقة ليبرهن على أن «كل» أبناء خريجى مدرسة البوليتكنيك العالية ليسوا جميعا من المنتمين إليها).

ولكن المصدر الرئيسى لسوء الفهم مائل فى حقيقة أن من المعتاد أن الكلام لا يكاد يدور إطلاقا عن العالم الاجتماعى، لكى يقال ما هو هذا العالم بالفعل، بل يكاد يدور الكلام عنه دائما لكى يقال ما يجب أن يكون عليه. فالخطاب عن العالم الاجتماعى يكاد أن يكون دائما متعلقا بالأداء؛ فهو يضم تمنيا وحثا وتقريعا وأمرًا .. الخ. وينجم عن

ذلك أن خطاب السوسيولوجي على الرغم من أنه يبذل جهده لكي يكون قائما على التحقق الموضوعي، فإن أمامه كل الفرص لكي يجرى استقباله باعتباره أدائيا. فعندما أقول إن النساء يستجبن غالبا بدرجة أقل من الرجال لاسئلة استطلاعات الرأي - ويقدر ما يكون السؤال أكثر انصافا بالطابع «السياسي»، فإنني سأجد دائما من يلومني على أنني أستبعد النساء من السياسة. لأنني عندما أتكلم عما هو موجود بالفعل سيفهم آخرون أنني أقول «وهو أمر حسن». وبالمثل فإن وصف الطبقة العاملة كما هي يجعلك موضعاً للشك بأنك تريد أن تسجنها داخل ما هي عليه كما لو كان قدرا، بأنك تريد أن تهبط بها أو تريد أن تعلي من شأنها. كما أن تقرير أن رجال الطبقات المحرومة ثقافيا بقدر أكبر (وعلى الأخص نساءها) يفوضون أمرهم باختيارهم السياسي إلى الحزب الذي يختارونه، وفي الحالة الراهنة إلى الحزب الشيوعي قد فهم على أنه حض على أن يفوضوا أمرهم إلى هذا الحزب. وفي الحقيقة إن أحدا في الحياة العادية لا يصف أكلة شعبية إلا لكي يعجب بها أو يبدي تقززه منها، ولن يصفها أبدا لكي يفهم منطقها أو يقدم لها تفسيراً أو يحيط بها أي أن يقدم لنفسه وسائل النظر إليها كما هي بالفعل. إن القراء يقرؤون السوسيولوجيا من خلال نظارات تطبعهم (المكتسب). وسيجد بعضهم تدعيما لعنصريتهم الطبقية في نفس الوصف الواقعي الذي سيرتاب آخرون في أنه موحى به من جانب أزدراء لتلك الطبقة.

وهنا نجد مبدأ سوء فهم يتووى في التواصل بين السوسيولوجي وقارئه.

سؤال

ألا تظن، والحالة كما عبرت عنها، أنك لا
تستطيع أن تجد لك قراء إلا بين المثقفين؟ أليس ذلك
حدا لفاعلية عملك؟

الإجابة

إن تعاسة السوسيولوجي ماثلة في أنه في معظم الوقت يجد أن الذين يمتلكون
الوسائل التقنية لاستيعاب ما يقول ليس لديهم أي رغبة في هذا الاستيعاب، أو أي
مصلحة في ذلك، بل سيجد لديهم مصالح قوية في رفضه (عما يجعل أولئك الأكفأ جدا

خارج هذا النطاق يمكن أن يكشفوا عن فقرهم التام إزاء السوسولوجيا)، على حين أن الذين لهم مصلحة فى الاستيعاب لا يمتلكون أدوات ذلك الاستيعاب (مثل الثقافة النظرية وما إلى ذلك). فالخطاب السوسولوجى يثير أنواعا من المقاومة عاتلة تماما فى منطقتها وفى تحليلاتها لتلك التى تواجه خطاب التحليل النفسى. فالتاس الذين يقرؤون أن هناك تضايقا شديدا القوة بين مستوى التعليم والتردد على المتاحف، لديهم كل الفرص لارتداد المتاحف، ولأن يكونوا هواة للفن مستعدين لأن يموتوا فى سبيل حب الفن، ولأن يحيا لقاحم بالفن باعتباره حبا خالصا؛ وصاعقا من أول نظرة، وأن يعارضوا الأتساق التى لا حصر لها، والتى تحاول الدفاع عن طرح موضوعى علمى للفن.

وبإيجاز، فإن قوانين نشر الخطاب العلمى تقضى بأنه على الرغم من وجود أجهزة توصيل وتقنية ووسطاء، فإن الخطاب العلمى أمامه كل الفرص ليصل إلى هؤلاء الذين لهم أكبر مصلحة فى تلقيه. ومع ذلك فمن المستطاع التفكير فى أنه يكفى تزويد أصحاب المصلحة بلغة يتعرفون فيها على أنفسهم أو بالأحرى يشعرون فيها بأنهم موضع للتعرف والاعتراف، أى بأنهم مقبولون مبررون فى أن يوجدوا كما يوجدون (وهذا ما تقدمه لهم بالضرورة كل سوسولوجيا جيدة، أى كل علم يقدم تفسيرها بوصفه علما، لكى يستثير تحويلا فى علاقتهم بما يكونون عليه. فما ينبغى إذاعته ونشره هو النظرة العلمية، تلك النظرة التى تضى الموضوعية وتتصف بالشمول فى آن معا، والتى حينما ترد على ذاتها تسمح بالمصالحة مع النفس، وحتى بما أستطيع أن أسميه بالمطالبة بالرجوع إلى الذات، باسترداد الحق فى أن يكون المرء ما يكونه. وتحضرنى شعارات مثل «اللون الأسود جميل» Black is beautiful عند الأمريكيين السود، والمطالبة بحق «المظهر الطبيعى» natural look عند دعاة الحركة النسوية. وقد أنحى على باللائمة لأثنى استعمل أحيانا لغة مزدورية للكلام عن كل أولئك الذين يفرضون حاجات جديدة مضحين بذلك بصورة للإتسان تتجه نحو «إنسان الطبيعة» ولكن فى صيغة تضى عليها الطابع الاجتماعى. وفى الحقيقة ليس مدار الأمر إغلاق العناصر الفاعلة الاجتماعية داخل «وجود اجتماعى أصلى» نعامله باعتباره قدرا وطبيعة، بل أن يتاح أمامها إمكان أن تمارس تطبعها المكتسب دون شعور بالإثم، ودون معاناة. ويتضح ذلك للعيان فى مجال الثقافة حيث ينتجم البؤس فى الأغلب عن الحرمان الذى لا يستطيع الاضطلاع بالمسؤولية. ويتم ذلك عن نفسه دون شك فى طريقتى فى الكلام عن كل خبراء الجمال والتغذية ومستشارى

الزواج والبيعة الآخرين للحاجات، إنه النعمة على ذلك الشكل من استغلال البؤس الذي يتألف من فرض معايير مستحيلة، من أجل البيع بعد ذلك لوسائل هي في أغلب الأحوال عديمة الكفاءة تدعى أنها تلغي البؤس بين هذه المعايير والإمكانات الواقعية لتحقيقها.

وعلى هذه الأرضية التي تلقى التجاهل التام من قبل التحليل السياسي، على الرغم من أنها المحل الملتمس لفعل سياسي من الزاوية الموضوعية، يُترك (بالبناء للمجهول) المقهورون لأسلحتهم الفردية وحدها، فهم محرومون بإطلاق من أسلحة الدفاع الجمعية لمواجهة السادة ومحلليهم النفسيين للفقراء. إلا إنه سيكون من السهل إيضاح أن السيادة السياسية الأكثر نموذجية في طابعها السياسي تمر أيضا عبر هذه السبل. وعلى سبيل المثال لقد أردت في كتابي «التميز» أن استهل الفصل عن العلاقات بين الثقافة والسياسة بصورة فوتوغرافية ولكنني لم أضعها في نهاية الأمر خشية أن تساء قراءتها. وفي تلك الصورة. كنا نرى مير Maire (السكرتير العام لاتحاد العمال الإصلاحى) وسيجي Séguy (النقابي الشيوعي وسكرتير الاتحاد العام اليسارى) جالسين على أريكة من طراز لويس الخامس عشر في مواجهة جيسكار Giscard (السياسى ورجل الدولة المعروف) الجالس هو أيضا على أريكة من طراز لويس الخامس عشر. وكانت تلك الصورة تدل بطريقة فائقة الوضوح من خلال طرائق الجلوس ووضع الأيدي؛ وبإيجاز من خلال كل الأسلوب الجسدى على أى من المشاركين يمتلك الثقافة إلى جانبه، أى الأثاث والديكور وكراسى لويس الخامس عشر بل وطرائق استعمالها والمحافظة على الاستمتاع بها، فهو الذى يمتلك تلك الثقافة المجسدة فى موضوعات، كما تدل الصورة على أولئك الذين تمتلكهم هذه الثقافة باسم هذه الثقافة، فإذا شعر النقابي أمام صاحب العمل فى أعماقه أنه فى موقف حرج فقد يرجع ذلك فى جانب منه على الأقل إلى أنه ليس تحت تصرفه إلا أدوات تحليل شديدة العموم والتجريد لا تقدم له أى إمكان للتفكير والتحكم فى علاقته باللغة والجسم. وتلك الحالة من الاستسلام للتلقائية التى تتركه لها النظريات والتحليلات المتاحة هي خطيرة على نحو خاص -على الرغم من أن الحالة الماثلة للاستسلام التى تجد زوجته نفسها فيها، داخل مطبخها العادى فى مواجهة الكلام الخلاب لمضيفات البرامج ليست بدون أهمية- لأن أكذاسا من الناس سيمضون إلى الكلام بهذه الطريقة من خلاله، ولأنه بواسطة الفم والجسم ستمر أقوال مجموعة بأسرها من الناس، ولأن ردود فعله المعمة على هذا النحو يمكن أن تكون قد تحدت دون علمه بواسطة رعبه من الشباب المتأيقين ذوى الشعر الطويل أو من المثقفين الذين يلبسون النظارات.

سؤال

ألا تتضمن سوسيولوجيتك نظرة حتمية
للإنسان ؟ فما هو الدور الذى تُرك للحرية
الانسانية؟

الإجابة

إن السوسيولوجيا مثل سائر العلوم تقبل مبدأ الحتمية، مفهوما باعتباره شكلا من أشكال مبدأ السبب الكافى. فالعلم الذى يجب عليه أن يقدم سببا (يعطى تفسيراً) لما هو كائن يفترض بذلك أنه ما من شئ دون سبب للوجود. ويضيف السوسيولوجى كلمة «اجتماعى» بعد كلمة سبب أى دون سبب اجتماعى -بكل ما فى الكلمة من معنى- للوجود. وأمام أى توزيع إحصائى سيفترض السوسيولوجى وجود عامل اجتماعى يفسر ذلك التوزيع، وإذا كان هناك باق أو راسب بعد أن وجد ذلك العامل فسيفترض وجود عامل اجتماعى آخر .. وهكذا. وهذا ما يؤدى أحيانا إلى الاعتقاد بوجود نزعة إمبريالية (توسعية) سوسيولوجية. وفى الحقيقة إنها حرب عادلة؛ فكل علم يجب عليه أن يقدم تحليلا بوسائلة الخاصة لأكبر عدد من الأشياء الممكنة، بما فيها الأشياء التى تفسرها فى الظاهر أو بالفعل علوم أخرى. وبهذا الشرط تستطيع السوسيولوجيا أن تطرح على علوم أخرى -وعلى نفسها- أسئلة حقيقية وأن تدمر تفسيرات ظاهرية أو تطرح على نحو واضح مشكلة التحديد المتضافر Sur-détermination^(١).

ومهما يكن من شئ فإن هناك خلطا شائعا بين معنيين شديدي الاختلاف لكلمة الحتمية، الضرورة الموضوعية الغائرة فى صميم الأشياء، والضرورة «المعاشة»، الظاهرية اللاتية أو الشعور بالضرورة أو الحرية. وتعتمد الدرجة التى يبدو لنا بها العالم الاجتماعى خاضعا للحتمية على المعرفة التى نمتلكها عنه. وعلى العكس فإن الدرجة التى يكون بها العالم الاجتماعى خاضعا للحتمية على نحو واقعى ليست مسألة رأى؛ وبوصفى سوسيولوجيا ليس على أن أكون «مع الحتمية» أو «مع الحرية»؛ بل على أن أكتشف الضرورة إن كانت موجودة هنا، أو حيث توجد. ونتيجة لأن كل تقدم فى معرفة قوانين العالم الاجتماعى يرفع من درجة الضرورة المدركة (على اسم المفعول)، فمن الطبيعى أن يجلب العلم الاجتماعى على نفسه تهمة «الحتمية» بقدر متزايد كلما أصبح

أكثر تقدما .

ولكن على عكس ما توحى به ظواهر الأمور فإن العلم الاجتماعى برفعه من درجة الضرورة المدركة وبإعطائه أفضل معرفة بقوانين العالم الاجتماعى يصير قادرا على إعطاء مزيد من الحرية. فكل تقدم فى معرفة الضرورة هو تقدم فى مجال المعرفة الممكنة. وعلى حين أن التنصل من معرفة الضرورة يتضمن شكلا من الاعتراف بالضرورة، وبالإذعان لها، وهو بلاشك أكثر الإشكال إطلاقا وشمولا لأنه يتجاهلها باعتبارها كذلك؛ فإن معرفة الضرورة لا تتضمن إطلاقا ضرورة هذا الاعتراف. بل على العكس فتلك المعرفة تتيح إمكان الاختيار المنقوش فى كل علاقة من طراز «إذا كان لدينا هذا» "قحينئذ" أى "فى هذه الحالة" سيكون لدينا ذاك؛ فالحرية التى هى عبارة عن اختيار قبول الشرط «إذا» أو رفضه ستكون مجردة من المعنى طالما تجاهلنا العلاقة التى تربطه «بحينئذ» أو «فى هذه الحالة». إن الكشف عن القوانين التى تفترض حرية العمل (أى القبول اللاوعاى لشروط تحقق الآثار المتنبأ بها) يوسع من مجال الحرية. إن قانونا نتجاهله سيتحول إلى طبيعة أو قدر (وتلك هى حالة العلاقة بين رأس المال الثقافى الموروث والنجاح التعليمى)، أما القانون الذى عرفناه فسيظهر باعتباره إمكانا للحرية.

سؤال

أليس من الخطر الكلام عن قانون ؟

الإجابة

بلى. دون أى شك. وأنا أتفادى ذلك بقدر الإمكان. فهؤلاء الذين لهم مصلحة فى حرية العمل (أى فى عدم تعديل الشرط «إذا») يرون «القانون» (حينما يرونه) باعتباره قدرا، قضاء محتوما فى صميم الطبيعة الاجتماعية (مثل القوانين الحديدية عند أوليجاريكات المكيفلين الجدد مثل ميشيل Michels أو موسكا Michels). وفى الحقيقة إن القانون الاجتماعى قانون تاريخى، يستمر طالما ندعه يعمل أى طالما ظل الذين يخدمهم (أحيانا دون علمهم) فى وضع يمكنهم من استدامة شروط فعاليتهم.

وما ينبغى التساؤل حوله هو ماذا نفعل عندما يتم التعبير عن قانون اجتماعى جرى تجاهله حتى تلك اللحظة؟ (مثل قانون نقل رأس المال الثقافى). هنا يمكن ادعاء

تحدد قانون أبدي كما يفعل السوسولوجيون المحافظون بصدده الميل نحو تركيز السلطة. وفي الواقع إن العلم يجب أن يعرف أنه لا يقوم إلا بتسجيل منطق مميز للعبة معينة في لحظة معينة في شكل قوانين اتجاهية (تشير إلى مجرد ميل)، وهو منطق يعمل في صالح هؤلاء الذين يسيطرون على اللعبة؛ فهم في وضع يمكنهم من تحديد قواعد اللعبة في الواقع أو بمقتضى القانون. وبعد ذلك، فابتداء من التعبير عن القانون يستطيع أن يصير رهانا لأنواع من الصراع: الصراع من أجل المحافظة عليه عن طريق الحفاظ على شروط إعمال القانون؛ والصراع من أجل التحويل عن طريق تغيير تلك الشروط. إن الكشف عن قوانين اتجاهية هو شرط نجاح الأعمال التي تهدف إلى تكذيبها (ودحضها). إن للسادة مصلحة مرتبطة بالقانون ومن ثم بتفسير ذي نزعة فيزيائية للقانون يجعله يرجع إلى حالة ضرب من آلية تحت شعورية. وعلى العكس إن للمقهورين مصلحة مرتبطة باكتشاف القانون بوصفه قانونا، أي بوصفه قانونا تاريخيا يمكن الفازة إذا حدث أن ألغيت شروط سيرورته. فمعرفة القانون تعطيتهم الفرصة وتعطيهم الإمكان لمقاومة آثار القانون، وهو إمكان لا وجود له طالما ظل القانون مجهولا، يمارس فعله دون علم الذين يخضعون له. وباختصار إن السوسولوجيا تنزع الصبغة الطبيعية عن القانون مثلما تنزع عنه قدرته.

سؤال

ألا تخاطر معرفة متزايدة التعمق بالاجتماعى
بتثبيط كل فعل سياسى يعتمد إلى تحويل العالم
الاجتماعى؟

الإجابة

إن المعرفة بما هو أكثر احتمالا هي التي تجعل من الممكن -تبعاً لغايات أخرى- تحقيق ما هو أقل احتمالا. إن التعامل بروى مع منطق العالم الاجتماعى هو الذى يجعل من الممكن إحداث الممكنات التي لا تبدو منقوشة في صميم ذلك المنطق.

وليس العمل السياسى الحقيقى إلا استخدام معرفة المحتمل لتعزيز فرص الممكن. إنه يضع نفسه في تعارض مع النزعة الطوباوية والتي تقاثل في ذلك السحر

وتدعى التأثير فى العالم بواسطة الخطاب الأدائى. فالمعنى الحقيقى للعمل السياسى هو التعبير عن الإمكانيات الكامنة فى العالم الاجتماعى بتناقضاته واتجاهاته الباطنة، ويكون ذلك فى الأغلب على نحو لاواع أكثر من أن يكون واعيا.

إن السوسيولوجى الذى يجعلنا نأسف أحيانا لغياب ما هو سياسى من خطابه هو الذى يصف الشروط التى يجب أن يضعها العمل السياسى فى حسابه، والتى سيتوقف عليها نجاحه أو إخفاقه. (مثل التحرر الجمعى للشباب من الأوهام اليوم). وتحذر السوسيولوجيا من الخطأ الذى يقوم على اعتبار النتيجة سببا وعلى 'اعتبار الشروط التاريخية لفاعلية العمل السياسى نتائج له. وذلك دون تجاهل الأثر الذى يستطيع أن يمارسه العمل السياسى عندما يواكب ويكثف الاستعدادات التى لا ينتجها والتى تسبقه فى الوجود، وذلك بواسطة التعبير عنها وتنسيق تبديها.

سؤال

لدى بعض القلق من العواقب التى يمكن أن
تقترن -إذا جرى فهمك، دون شك، باعوجاج- على
طبيعة الرأى الذى أوضحته لنا؛ ألا يفامر هذا
التحليل بأن تكون نتيجته تفريق الناس وتسريح
الجهود بدلا من حشدنا ؟

الإجابة

سأحاول التدقيق قليلا. إن السوسيولوجيا تكشف عن أن فكرة الرأى الشخصى (مثل فكرة الذوق الشخصى) ليست إلا وهما. سوف يُستنتج من ذلك أن السوسيولوجيا ذات نزعة اختزالية (ترد الشخصى إلى العام) وأنها تنضو ما فى العالم من فتنة، وأنها حين تنزع عن الناس كل الأوهام تقوم بتفريقهم. فهل تريد أن تقول إنه لا سبيل إلى الحشد وضم الصفوف إلا على أساس من الأوهام؟ فإذا كانت الحقيقة أن فكرة الرأى الشخصى نفسها محددة اجتماعيا، وأنها نتاج للتاريخ تعيد التربية بدورها إنتاجه، فمن المستحسن معرفة ذلك. وإذا كانت لدينا فرصة تكوين آراء شخصية، فربما كان ذلك بشرط أن نعرف أن آراءنا ليست بهذا القدر من التلقائية.

سؤال

إن السوسيولوجيا هي نشاط أكاديمي ونقدي أى
سياسى فى آن معا، أليس ذلك تناقضا ؟

الإجابة

إن السوسيولوجيا كما نعرفها قد ولدت، على الأقل فى حالة فرنسا، عن تناقض أو عن سوء تفاهم. وكان دوركايم Durkheim هو الذى فعل كل ما ينبغي لكى توجد السوسيولوجيا بوصفها علما معترفا به جامعا. وعندما يُؤمَس نشاط ما متشكلا فى تخصص أو فرع علمى جامعى لا يعود السؤال عن وظيفته وعن وظيفة الذين يمارسونه مطروحا: ويكفى التفكير فى الأركيولوجيين (الأثريين) والفيلولوجيين (فقهاء اللغة) ومؤرخى العصر الوسيط، والصين أو الفلسفة الكلاسيكية، الذين لا يسألهم أحد أبدا ما هى فائدتهم؟ وما جدوى ما يقومون به؟ ومن أجل من يعملون؟، ومن يحتاج إلى ما يقومون به؟. فما من أحد يطرحهم للتساؤل، وهم يشعرون نتيجة لذلك بأنهم مُبرَرُون تماما فى مواصلة ما يقومون به. ولكن السوسيولوجيا لا تمتلك تلك الفرصة ... كما يثار السؤال بقدر أكبر حول مبرر وجودها عندما تنحرف كثيرا عن تعريف الممارسة العلمية الذى وجب على المؤسسين قبوله وفرضه على أنفسهم: تعريف علم محض خالص مماثل فى نقائه لأشد العلوم نقاء ولاكثرها «لاجدوى»، ولاكثرها مجانية (العمل دون مقابل) وانتفاء للمسوغ وسط العلوم الاجتماعية - أى مماثل لعلم مخطوطات اليردى أو الدراسات الهوميرية - تلك التى تتركها أشد الأنظمة قمعا تواصل البقاء، فتصبح ملاذا يلجأ إليه المتخصصون فى العلوم (الساختنة). ويعرف الجميع كل ما وجب على دوركايم القيام به من جهود لكى يعطى للسوسيولوجيا هذا المظهر «الخالص» المحض، العلمى البحت، أى «المحايد» بلا مشاكل: فتمتة اقتباسات متباهية تلتفت الأنظار من علوم الطبيعة، ومضاعفة لأمارات القطعية مع الوظائف الخارجية ومع السياسية قمشا مع التعريف الأولى السابق.

وبعبارة أخرى، إن السوسيولوجيا منذ النشأة وفى الأصل علم ملتبس مزدوج متنكر، كان عليه أن يفرض على نفسه نسيان أنه علم سياسى وأن ينفى عن نفسه ذلك وأن يستنكر ذلك، لكى يجعل نفسه مقبولا بوصفه علما جامعا. وليس من قبيل الصدفة أن الإثنولوجيا تطرح مشاكل أقل كثيرا مما تطرحه السوسيولوجيا.

ولكن السوسيولوجيا تستطيع أيضا أن تستفيد من استقلالها الذاتي لكي تكشف عن حقيقة لا يطلبها منها أحد - بين هؤلاء القادرين على الأمر أو التوصية. إنها تستطيع أن تجد في الاستعمال الصحيح للاستقلال الذاتي المؤسسي الذي يتيح لها وضع التخصص الجامعي الشروط اللازمة لاستقلال معرفي. كما تستطيع أن تحاول تقديم ما لا يطلبه أحد منها في الحقيقة؛ أي حقيقة العالم الاجتماعي .. وبذلك يتضح أن هذا العلم المستحيل من الوجهة السوسيولوجية (وجهة الشروط الاجتماعية) القادر على كشف القناع عما يجب أن يظل متذكرا من ناحية المنطق الاجتماعي (Socio-logiquement)، لن يستطيع أن يولد إلا بممارسة الخديعة حول غاياته، فإن من يريد مزاولة السوسيولوجيا باعتبارها علما يجب أن يواصل دون انقطاع إعادة انتاج تلك الخديعة الأصلية، تناقل الاغتسال Lavatus Prodeo "باللاتينية". إن السوسيولوجيا العلمية بحق هي ممارسة اجتماعية لا يجب أن توجد من حيث المنطق - الاجتماعي Socio-Logiquement. وأفضل برهان على ذلك هو حقيقة أن العلم الاجتماعي بمجرد أن يرفض الاذعان للانحصار في البديل المتوقع؛ أي في العلم الخالص المحض القادر على أن يحلل علميا موضوعات بلا أهمية اجتماعية، أو في العلم الزائف الذي يساير أداء النظام القائم لوظائفه ويدعمه يصير مهددا في وجوده الاجتماعي ذاته.

سؤال

هل تستطيع السوسيولوجيا العلمية أن تعتمد
على تضامن العلوم الأخرى؟

الإجابة

نعم بكل تأكيد. ولكن السوسيولوجيا هي آخر العلوم في المجيء، علم نقدي، ينتقد نفسه وينقد العلوم الأخرى، وينتقد السلطات بما فيها سلطات العلم. إنها علم يعمل على معرفة قوانين إنتاج العلم. وهو لا يزودنا بوسائل السيطرة بل ربما يزودنا بوسائل السيطرة على السيطرة.

سؤال

ألا تسعى السوسيولوجيا إلى الإجابة العلمية
عن المشاكل التقليدية للفلسفة، وبقدر معين إلى أن
يحيق بها الخوف والاحتجاب بواسطة دكتاتورية
العقل ؟

الإجابة

أظن أن ذلك كان صحيحا في البداية. فقد عكف مؤسس السوسيولوجيا
صراحة على هذا الهدف. وعلى سبيل المثال لم يكن مصادفة أن الموضوع الأول
للسوسيولوجيا كان الدين. وقد عالج الدوركهايمون على الفور تلك الاداة (فى لحظة
معينة) لبناء العالم بامتياز وعلى الأخص العالم الاجتماعى. كما أظن أن بعض المسائل
التقليدية للفلسفة تمكن إعادة طرحها بلغة علمية (وهذا ما حاولت عمله فى كتاب
«التميز». إن السوسيولوجيا كما أفهمها هى عبارة عن تحويل المشاكل الميتافيزيقية إلى
مشاكل قابلة لأن تُعالج على نحو علمى، ومن ثم على نحو سياسى. ومهما يكن فإن
السوسيولوجيا مثل كل العلوم تتأسس ضد الطموح الكلى الشامل الذى هو طموح
الفلسفة، أو بالأحرى طموح «النبوة»، وهو خطاب كان فيبر Weber قد أوضح أنه يدعى
تقديم إجابات كلية عن أسئلة كلية؛ وعلى الأخص عن «أسئلة الحياة والموت». وبعبارة
أخرى إن السوسيولوجيا قد تأسست يلوها طموح إلى أن تسلب الفلسفة بعض مشاكلها
ولكن مع التخلي عن مشروع النبوة الذى كان فى الأغلب مرادفا لمشروع الفلسفة. وقد
قطعت علاقتها أيضا بالفلسفة الاجتماعية، وبكل الأسئلة النهائية التى تروق لتلك
الفلسفة مثل أسئلة اتجاه التاريخ، التقدم والتدهور ودور الرجال العظام فى التاريخ ...
الخ.. ويبقى أن تلك المشاكل عينها يلتقى بها السوسيولوجيون فى العمليات الأكثر أولية
للممارسة. عبر طريقة طرح سؤال ما. بافتراض مائل فى شكل بل حتى فى مضمون
استجوابهم مؤداه أن الممارسات تتحدد بواسطة شروط الوجود المباشرة أو بكل التاريخ
السابق .. الخ. وهم يستطيعون تجنب الوقوع فى فلسفة التاريخ دون وعى منهم بشرط أن
يعوا ما سلف، وأن يواجهوا ممارستهم تبعاً لذلك. وعلى سبيل المثال هناك طريقتان: إما
توجيه سؤال مباشر إلى شخص ما عن الطبقة الاجتماعية الذى يشكل جزءاً منها وإما على

العكس محاولة التحديد «الموضوعي» لكانه باستجوابه عن أجره ووظيفته ومستوى تعليمه ... الخ. وهنا يجب القيام باختيار حاسم بين فلسفتين متعارضتين في الممارسة والتاريخ. وهو اختيار لا يمكن حسمه إن لم يطرح على هذا النحو؛ فقد يجرى بالفعل توجيه السؤالين في نفس الوقت.

سؤال

لماذا توجه دائما ألفاظا قاسية جدا إلى النظرية،
التي يبدو أنك تطابق بينها وبين الفلسفة. وفي
الحقيقة انت نفسك تمارس النظرية حتى ولو
قاومتها.

الإجابة

إن ما يُطلق عليه نظرية هو في الأغلب كلام يرد في الملخصات (الكتيبات الموجزة). وليس التنظير الشائع إلا شكلا من «إعداد الموجز» كما يقول كينو Queneau في مكان ما. وهو ما أستطيع التعليق عليه -حتى لا يفوتك اللعب بالكلمات- مستشهدا بماركس؛ إن موقع الفلسفة من دراسة العالم الواقعي هو نفس موقع الأوثانية (الاستمناء) onanisme من ممارسة الحب الجنسي.

ولو كان الناس يعرفون ذلك في فرنسا لقام العلم الاجتماعي «بقفزة إلى الأمام» كما قال مفكر آخر. أما فيما يتعلق بمعرفة ما إذا كنت أمارس النظرية أو لا أمارسها فإنه يكفي الاتفاق حول الألفاظ. إن المشكلة النظرية التي تتحول إلى جهاز أو آلة للصعوبات التي تستثيرها بقدر مماثل لفعل الحلول التي تقدمها. وينحصر أحد أسرار حرفة السوسيولوجي في معرفة كيف يعثر على الموضوعات الإمبريقية (التجريبية) التي يمكن بصدها على نحو واقعي طرح مشاكل عامة. وعلى سبيل المثال إن مسألة الواقعية والشكلية في الفن التي صارت في بعض اللحظات وفي بعض السياقات مسألة سياسية، يمكن وضعها على نحو إمبريقي بصدد العلاقة بين الطبقات الشعبية، والتصوير الفوتوغرافي، أو من خلال تحليل ردود الأفعال أمام بعض المناظر المعروضة على شاشة

التلفزيون وما إلى ذلك. ولكن من الممكن طرحها على نحو مماثل في الجودة وعلى نحو تلقائي من جهة أخرى فيما يتعلق بمبدأ *Frontalité* ^(٢١) في الفسيفساء البيزنطية أو قشيل الملك الشمس في فن الرسم أو التأريخ الرسمى. ومهما يكن من شئ فإن المشاكل النظرية المطروحة على هذا النحو قد تحولت بدرجة من العمق بحيث لن يتعرف فيها أصدقاء النظرية فيما بعد على أعزائهم الصغار.

إن منطق البحث، هو ذلك الجهاز معشق التروس، هو تلك الشبكة من المشاكل التى يقع الباحث فى قبضتها والتى تجتذبه كما لو كان ذلك على الرغم منه.

إن ليبنتس Leibniz أخذ على ديكرت دوغا انقطاع فى أشكال الانتباه والادراك *les Animadversions* ^(٢٢) مبالغته فيما يتطلبه من الحدس والانتباه والذكاء وعدم ثقته بما يكفى فى الصيغ التلقائية الآلية «للفكر الأعمى» (كان ليبنتس يفكر فى علم الجبر) القادر على تعويض ما يصيب العقل والذكاء من فترات انقطاع. إن ما لم يفهم فى فرنسا بلاد التحليل الاختبارى (مذهب *essayisme* «جرب الأمر بنفسك»)، والأصالة والذكاء هو أن المنهج والتنظيم الجمعى للعمل البحثى يستطيعان أن ينتجا من حيث الذكاء شبكات من المشاكل والمناهج أكثر ذكاء من الباحثين الفرادى (كما يستطيعان أن ينتجا من حيث الأصالة تلك الأصالة الوحيدة الحقة التى لا يسعى وراءها أحد فى عالم يسعى كل من فيه وراء الأصالة المتفردة. وفى ذهنى الاستثناء الفذ للمدرسة الدوركايمية من ذلك). فأن تكون ذكيا علميا معنا، أن تضع نفسك فى وضع يولد مشاكل حقيقية وصعوبات حقيقية. وهو ما حاولت أن أفعله مع مجموعة البحث التى أدير نشاطها؛ وهى مجموعة بحث تعمل بنجاح، على شبكة متواشجة الخيوط قد تأسست اجتماعيا من المشاكل وطرائق حلها؛ شبكة من ضوابط التحقق والمراجعة المتقاطعة، وتلك المجموعة هى نفس الوقت فريق انتاج له طابع العائلة خارج كل فرض للمعايير وكل ارثوذكسية (أصولية) نظرية أو سياسية.

سؤال

ماهى الصلات الوثيقة المختلفة بين «التميز»
وتخصصى السوسيولوجيا والإثنولوجيا ؟

الإجابة

هذا التقسيم هو لسوء الطالع راسخ ولا رجوع عنه -دون أدنى شك- فى الهياكل الجامعية، أى فى التنظيم الاجتماعى للجامعة، وفى التنظيم العقلى للأكاديميين. وما كان عملى سيصير ممكنا إذا لم أكن قد حاولت أن أجمع وأن أقيم توافقا بين الإشكاليات التى تعد تقليديا إثنولوجية وتلك الاشكاليات التى تعد تقليديا سوسيولوجية. وعلى سبيل المثال لقد طرح الإثنولوجيون منذ سنوات معدودة مشكلة التصنيفات: وهى مشكلة تطرح نفسها عند تقاطع عدد معين من تقاليد الإثنولوجيا، فبعض الدارسين يهتم بالتصنيفات التى تصلح فى مجال تقسيم النبات والأمراض ... الخ إلى أصناف، وآخرون يهتمون بالتصنيفات التى تصلح لتنظيم العالم الاجتماعى، حيث يكون التصنيف بامتياز هو الذى يعرف علاقات القرابة. وقد تطور هذا التقليد على أرضية لم تُطرح فيها مشكلة الطبقات نتيجة لعدم التمايز الاجتماعى النسبى فى هذه المجتمعات المدروسة. أما السوسيولوجيون من جانبهم فيطرحون مشكلة الطبقات ولكن دون أن يطرحوا على أنفسهم مشكلة أنساق التصنيف المستخدمة بواسطة العناصر الفاعلة والعلاقة التى يواصلون ممارستها مع التصنيفات الموضوعية. وكان عملى ينحصر فى إقامة علاقة على نحو غير مدرسى (وإذا رويت ذلك بالطريقة التى قمت بها فإنه يستطيع أن يودى إلى ألوان من الإخصاب الأكاديمية فى المحاضرات والدروس) بين مشكلة الطبقات الاجتماعية ومشكلة أنساق التصنيف. كما ينحصر فى طرح أسئلة من قبيل: ألا تملك التصنيفات التى نستخدمها لتصنيف الأشياء والأشخاص، وللحكم على عمل فنى وعلى تلميد وعلى تصنيفات الشعر والملابس .. الخ ومن ثم نستخدمها لانتاج طبقات اجتماعية شيئا تعين رؤيته يجمعها بالتصنيفات الموضوعية، بالطبقات الاجتماعية مفهومة (على نحو قظ) باعتبارها فئات من الافراد مرتبطة بفئات من شروط الوجود المادية؟

وما أحاول إثارته هو فى الواقع صفة نموذجية لتقسيم العمل العلمى: فهناك تقسيمات موضوعية (التقسيم إلى فروع وتخصصات على سبيل المثال) حينما تتحول

إلى تقسيمات عقلية فإنها تعمل على نحو يجعل بعض الأفكار مستحيلة. وهذا التحليل توضيح للإشكالية النظرية التي شرعت فى رسم خطوطها الأولى. إن التقسيمات المؤسسية التى هى نتاج للتاريخ تعمل فى الواقع الموضوعى (على سبيل المثال إذا شكلت لجنة امتحان من ثلاثة سوسيولوجيين فسيكون الموضوع متتميا إلى السوسيولوجيا وهكذا). فى شكل تقسيمات موضوعية قد تم تكريسها قانونا وسُجِلت فى الوظائف المهنية وما إلى ذلك؛ وكذلك فى الأدمغة فى شكل تقسيمات عقلية ومبادئ تقسيم منطقى. فالعوائق فى وجه المعرفة هى فى الأغلب عوائق سوسيولوجية. ولأئنى قد اجتزت الحد الفاصل بين الإثنولوجيا والسوسيولوجيا فقد أدى ذلك بى إلى أن أطرح على الإثنولوجيا أكدا ما من المسائل لا تطرحها عادة والعكس صحيح.

سؤال

أنت تعرّف الطبقة الاجتماعية بواسطة حجم رأس المال وبنيتة. فكيف تعرّف رأس المال باعتباره نوعا؟ وبالنسبة إلى رأس المال الاقتصادى يبدو أنك لا تلجأ إلا إلى الإحصائيات التى يقدمها l'INSEE «المعهد القومى للإحصاء والدراسات الاقتصادية» وبالنسبة لرأس المال الثقافى إلى المؤهلات التعليمية. وانطلاقا من ذلك هل من المستطاع بناء طبقات اجتماعية حقا ؟

الإجابة

هذا جدال قديم. وقد شرحت فى كتاب «التميز». ونحن أمام خيار بين نظرية محضة (وهى جامدة غليظة أيضا) للطبقات الاجتماعية ولكنها لا تركز على أى معطى إمبرى (مكان فى علاقات الإنتاج وما إلى ذلك) وليس لها عمليا أى فاعلية لوصف أوضاع البنية الاجتماعية أو تحولاتها، وبين أعمال إمبرى مثل أعمال المعهد القومى للإحصاء والدراسات الاقتصادية l'INSEE التى لا تعتمد على أى نظرية ولكنها تزودنا بالمعطيات الوحيدة المتاحة لتحليل الانقسام الطبقي. ومن ناحيتى لقد حاولت أن أتجاوز ما

عولج على أنه تضاد ثيولوجى (لاهوتى) بين نظريات الطبقات الاجتماعية ونظريات تمايز الشرائح الاجتماعية stratification. وهو تضاد منتشر فى الدروس والمحاضرات وفى الفكر من النوع المادى الجدلى المبتذل، ولكنه ليس فى حقيقته إلا انعكاسا لوضع تقسيم العمل العقلى (الثقافى)؛ لذلك فقد حاولت اقتراح نظرية هى فى نفس الوقت أكثر تركيبا وتعقيدا (فهى تأخذ فى حسابها أوضاعا لرأس المال تتجاهلها النظرية الكلاسيكية) وأكثر استنادا على المعطيات التجريبية، ولكنها مضطرة إلى اللجوء إلى مؤشرات مفتقرة إلى الكمال مثل تلك التى يقدمها المعهد القومى للإحصاء والدراسات الاقتصادية l'INSEE. ولست من السذاجة بحيث أجهل أن مؤشرات هذا المعهد التى تدور حول امتلاك الأسهم ليست مؤشرات جيدة لرأس المال الاقتصادى المملوك بالفعل. ولست فى حاجة إلى أن تكون ساحرا لتعرف ذلك. ولكن هناك حالات تكون فيها نزعة النقاء النظرى عنزا للجهل أو للتغلى عمليا عن البحث. فالعلم يقتضى أداء ما تستطيع القيام به مع الإفصاح عن حدود الصواب فيما تقوم به.

ومهما يكن من شئ، فالسؤال الذى وجهته إلى يـُخفى فى الواقع مشكلة أخرى. فماذا يراد قوله عندما يقال أو يكتب كما يحدث غالبا، أليس هذا فى نهاية الأمر إلا الطبقات الاجتماعية عند فلان أو غيره وطرح سؤال كهذا يعنى التأكد من الحصول على مجئيد كل هؤلاء الذين ماداموا مقتنعين بأن مشكلة الطبقات الاجتماعية قد حُلّت، وبأنه يكفى تسليم أمرها إلى النصوص الأصولية المقدسة - وهو أمر مريح للغاية واقتصادى جدا إذا فكرنا فى الأمر - فسوف ينثرون الشك حول كل هؤلاء الذين بمجرد أنهم يواصلون البحث يؤمنون إلى أنهم يظنون أن هناك ما لم يكشف عنه بعد. غير أن استراتيجىة الشك هذه المسجلة بوصفها محتسلة على وجه الخصوص فى بعض أشكال الطبع الطبقي لا يمكن تجنبها، وهى تمنح الكثير من الرضا للذين يمارسونها، لأنها تسمح بإرضاء النفس بشمن رخيص جدا عن منجزاتهم وعن كينونتهم. لذلك تبدو لى بغيضة من الناحية العلمية والسياسية.

حقا لقد محوت دائما أشياء كانت تعد منجزات فى الحوزة. فرأس المال نعرف جميعا ما هو ... تكفى قراءة «رأس المال» لماركس أو بالأحرى كتاب «قراءة رأس المال» لألتوسير وزملائه (وهكذا دواليك). وكم كنت أود أن يكون ذلك صحيحا. ولكن من وجهة نظرى لم أكن أرى أن وجود هوة بين النظرية فى طابعها المجرد وبين الأوصاف

الإمبريقية هو حقيقة كانت موجودة دائما (هوه أدت إلى أن الذين ليس لديهم إلا الماركسية التبسيطية سيظلون بلا سلاح من ناحية فهم الأشكال الجديدة للصراع الاجتماعى فى أصولها التاريخية، مثل تلك المرتبطة بالتناقضات الناتجة عن سيورة نظام التعليم)، فإذا كانت تلك الهوة قد وجدت دائما، فرما كان ذلك راجعا إلى أن تحليل أنواع رأس المال هو مهمة ما تزال مطروحة للحل. وللخروج منها ينبغي زعزعة بعض اليديهييات (الأفكار شديدة الوضوح) لا من أجل متعة القيام بقراءات تقوم على الهرطقة (الخروج على العقيدة الراسخة) وهى متميزة لذلك.

ولكى نعود الآن إلى أنواع رأس المال، فأننا أظن أن هذه المسألة شديدة الصعوبة، وأنا واع بأننى أخطر إذ أتناولها خارج الأرضية محددة المعالم للحقائق المقررة حيث يكون المرء على ثقة من أن يجتذب على الفور كل استحسان وتقدير ... وما شابه ذلك. (ومهما يكن من شئ) فأننا أظن أن أكثر المواقف خصبا من الناحية العلمية هى فى الأغلب أكثرها مخاطرة ومن ثم أكثرها تعرضا للاستبعاد من الناحية الاجتماعية).

وفيما يتعلق برأس المال الاقتصادى فأننا أقض أمره إلى آخرين، لأنه ليس تخصصى. أما ما أعكف عليه فهو ما تركه الآخرون، إما لأنهم لا يهتمون به أو لأنهم لا يمتلكون الأدوات النظرية الملائمة له، أى رأس المال الثقافى ورأس المال الاجتماعى. ولم أحاول إلا من عهد قريب جدا أن أجعل هذه المفاهيم مستكملة محددة من ناحية علم التربية (اليداجوجيا). وقد حاولت بناء تعريفات متسقة دقيقة لا تكون مجرد مفاهيم وصفية فحسب بل أدوات لإنشاء التصور الكلى construction (للتفسير والتركيب) تسمح بإبراز (إظهار) أشياء لم تكن نراها من قبل. ولناخذ على سبيل المثال رأس المال الاجتماعى، فمن المستطاع شرحه بفكرة حدسية أو بديهية بالقول إنه ما تطلق عليه اللغة العادية والعلاقات أو العلاقات.

(وغالبا ما يحدث أن تدل اللغة العادية على وقائع اجتماعية شديدة الأهمية ولكنها تسدل عليها قناعا دفعة واحدة، بتأثير الألفة التى تدفع إلى الاعتقاد بأن المرء يعرف من قبل وأنه أحاط بكل شئ، مما يوقف البحث). ويتألف جزء من العمل العلمى من القيام بكشف لكل ما تقوم اللغة العادية بوضع القناع عليه. ونزع القناع عنه. وبواسطة ذلك يتعرض المرء لأنه يرى نفسه موضعا للوم لأنه عبر عن بديهيات أو لأنه -وذلك أسوأ- بعد الكثير من الجهد والمشقة قد أعاد ترجمة الحقائق الأولية للفهم المشترك أو

الاستبصارات والحدوس الأكثر إرهابا والأكثر إمتاعا في آن معا للمفكرين الأخلاقيين والروائيين إلى لغة مثقلة بالمفاهيم المجردة. وحينما لا يصل الأمر إلى الإنحاء باللائمة على السوسيولوجي، وفقا لمنطق الـ مرجل Chaudron الذي عبر عنه فرويد Freud، يحدث التنفيس بأشياء هي مبتذلة وزائفة في آن معا، مما يشهد على أشكال من المقاومة العنيدة التي يستثيرها التحليل السوسيولوجي) ونعود إلى رأس المال الاجتماعي، فبناء هذا المفهوم هو انتاج وسيلة لتحليل المنطق الذي يجرى به تراكم هذا النوع الخاص من رأس المال، ونقله (تحويله)، وإعادة إنتاجه، وسيلة للإحاطة بكيف يتحول إلى رأس مال اقتصادي. وبالعكس للإحاطة بمقابل أي عمل وجهد يستطيع رأس المال الاقتصادي أن يتحول إلى رأس مال اجتماعي، كما أنها وسيلة استيعاب وظيفة المؤسسات مثل الأندية أو بكل بساطة العائلة وهي المحل أو الموقع الرئيسي لتراكم ونقل هذا النوع من رأس المال. ومازلنا بعيدين فيما يبدو لى عن «صلات وعلاقات» الفهم المشترك التي لا تزيد عن أن تكون تبديا بين تبدييات أخرى لرأس المال الاجتماعي. «فالأخبار الاجتماعية» وكل يوميات الأحداث الاجتماعية الصحفية في جريدة الفيجارو Figaro أو فوج Vogue أو جوردي فرانس Jours de France كفت عن أن تكون -كما يعتقد عادة- التهديدات النموذجية لحياة الاستمتاع بأوقات الفراغ عند «الطبقة المتحررة من العمل» أو «للاستهلاك المرموق» عند أصحاب الثروة والامتيازات وأصبحت تلك «الأحداث الاجتماعية» شكلا خاصا من العمل الاجتماعي يفترض إنفاقا للنقود وللوقت وقدرة نوعية ويتجه إلى ضمان إعادة انتاج (بسيطة أو موسعة) لرأس المال الاجتماعي. (ومن الملاحظ للنظرة العابرة أن بعض أشكال الخطاب ذات المظهر النقدي الحاد تفتقد الأمر الجوهرى؛ في الحالة المحددة بلاشك، لأن المثقفين ليسوا «حساسين» جدا بالنسبة إلى شكل رأس المال الاجتماعي الذي يتراكم ويجرى تداوله (يدور) في الأمسيات الأنيقة ذات المنزلة الرفيعة، والتي يميلون إلى السخريه منها وفقا لخليط من الافتتان والاستياء أكثر مما يميلون إلى تحليلها) وينبغي إذن بناء أو إقامة الموضوع الذي أسميه رأس المال الاجتماعي. فهو الذي يرينا على الفور أن حفلات الكوكيتيل التي يدعو إليها الناشرون وجلسات تبادل خلاصة الآراء والتحليلات هي المعادل في مستوى المجال العقلي لأعمال الحياة الاجتماعية الراقية عند الأرستقراطيين، لكنى نغظن إلى أن مظاهر الحياة الاجتماعية الراقية هي بالنسبة إلى أشخاص معينين، تتركز السلطة والنفوذ عندهم على رأس المال الاجتماعي، هي النشاط الرئيسى. فالمشروع

المؤسس على رأس المال الاجتماعى ينبغي أن يؤمن إعادة انتاجه الخاص، بواسطة شكل نوعى من العمل (إزاحة الستار عن النصب التذكارية، تصدر الأعمال الخيرية .. الخ) يفترض ممارسة ذلك كحرفة، ومن ثم يتطلب تعلم تلك الحرفة، وإنفاقا للوقت والطاقة. وما أن يتم بناء هذا الموضوع فإنه يمكن المناقشة مع المؤرخين عن نبالة العصر الوسيط وإعادة قراءة سان سيمون Saint Simon وبروست Proust أو أعمال الإثنولوجيين بكل تأكيد.

ومهما يكن من شئ فلقد أصبح لديك الحق والمبرر تماما لطرح السؤال. ولأن ما أقوم به ليس على الإطلاق عملا نظريا بل هو عمل نظرى يحشد كل المصادر النظرية من أجل احتياجات التحليل الإمبريقي، فإن مفاهيمى ليست دائما كما يجب. وعلى سبيل المثال أنا أضع دون انقطاع فى مصطلحات وألفاظ ليست مرضية بالكامل حتى لى، مشكلة تحول نوع من الرأسمال إلى آخر، وهذا مثال لمشكلة ليس من المستطاع وضعها على نحو صريح أو بجلء -فهى تطرح نفسها قبل أن نعرفها- إلا بعد أن يكون مفهوم نوع رأس المال قد تم بناؤه. وهذه المشكلة نعرفها الممارسة. ففى بعض المنافسات والمسابقات (على سبيل المثال فى المجال العقلى، من أجل الحصول على جائزة أدبية أو بالإضافة إلى ذلك الحصول على تقدير الأقران) لا يكون للرأسمال الاقتصادى فاعلية. ولكى تصير له تلك الفاعلية، لابد من جعله يخضع لعملية تحويل فى الطبيعة: وتلك على سبيل المثال هى وظيفة جهود الاجتماعيات الذى يسمح بتحويل رأس المال الاقتصادى -وهو دائما الأصل فى التحليل الأخير- إلى نبالة ووجاهة. ولكن ليس ذلك كل شئ. فما هى القوانين التى تعمل إعادة التحول هذه وفقا لها؟ وكيف يتحدد معدل التبادل الذى تجرى بواسطته مبادلة نوع من رأس المال بآخر؟.

ففى كل عصر كان هناك صراع بين كل المستويات فيما يتعلق بمعدل التحويل بين الأنواع المختلفة، وهو صراع المواجهة بين الأقسام المختلفة من الطبقة السائدة، التى يشكل رأسمالها الكلى جزءا كبيرا أو صغيرا إلى هذه الدرجة أو تلك بالنسبة إلى هذا النوع أو ذاك.

وهؤلاء الذين كانوا يسمون فى القرن التاسع عشر «بالكفاءات» (أصحاب القدرات العقلية) كانت لهم مصلحة دائمة فى مواصلة زيادة قيمة رأس المال الثقافى بالنسبة إلى رأس المال الإقتصادى. ومن الواضح -وهذا ما يشكل صعوبة التحليل السوسيولوجى- أن هذه الأشياء التى نأخذها بوصفها موضوعا، مثل رأس المال الثقافى،

ورأس المال الاقتصادي، وما أشبه هي بذاتها رهان الصراع في الواقع نفسه الذي ندرسه، وأن ما سنقوله عنها سيصير كذلك رهانا لأشكال من الصراع. بيد أن تحليل هذه القوانين التي تحكم إعادة التحول هو تحليل لم يكتمل، بل هو بعيد عن ذلك الاكتمال، وإذا كان ذلك بمثابة مشكلة لفرد ما، فأنا هو ذلك الفرد. ولا بأس في ذلك. وهناك كثرة من الأسئلة، أراها شديدة الخصب أطرحها على نفسي أو يطرحها آخرون عليّ، واعتراضات توجه إلى ولم تكن ممكنة إلا لأن التمييزات بين الأنواع المختلفة من رأس المال قد أقيمت.

إن البحث قد يكون هو فن خلق المشاكل الخصبة لنفسك وخلقها للآخرين، وإثارة المشاكل حيثما كانت الأشياء تبدو بسيطة. وقد يلتقي المرء بأشياء أكثر هلامية إلى مدى أبعد. وأنا أعتقد أنني كنت أستطيع أن أكتب بعض هذه الدروس في الماركسية بلا دموع (الماركسية المبسطة) عن الطبقات الاجتماعية التي لقيت رواجاً في السنوات الأخيرة تحت اسم النظرية أو حتى العلم أو حتى السوسيولوجيا، ويلتقي المرء بأشياء هي في آن معا حافلة بالإيحاء وباعثة على القلق (أنا أعرف الأثر الذي يحدثه عملي في الأوصياء على الأصولية «الارثوذكسية» وأعتقد أنني أعرف أيضاً على نحو ما لماذا يحدث هذا العمل مثل ذلك التأثير وأنا مسرور لأنه يحدث ذلك التأثير). ففكرة أن أكون مروحياً مقلداً تناسبتني تماماً.

سؤال

ولكن أليست نظرية الطبقات الاجتماعية التي
تقترحها استناتيكية (سكونية جامدة) نوعاً ما فأنت
تصف حالة البنية الاجتماعية دون أن تقول كيف
يتغير ذلك.

الإجابة

إن ما يحيط به البحث الإحصائي هو لحظة، أو حالة لعبة ذات لاعبين اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو ستة لا يهم، ويقدم البحث صورة فوتوغرافية لمقادير كبيرة (الأكوام) من عملات القمار الرمزية (الفيشات) ذات الألوان المختلفة التي كسبها اللاعبون أثناء الرميات السابقة، والتي سيدخلونها في الرميات القادمة. فرأس المال الذي تمسك به في

لحظة، هو نتاج للتاريخ كما سيقوم بإنتاج التاريخ.

وسأقول ببساطة إن لعب اللاعبين المختلفين وقد فهم بمعنى الاستراتيجية -وسأسميه من الآن فصاعدا أوراق اللعب- سيعتمد على لعبهم من حيث توزيع الأوراق، وعلى أوراق اللعب وبنية هذا الرأسمال أى هيئته والتركيب النسبى لمكونات مقاديره (أكوامه) فأولئك الذين يملكون كثيرا من العملات الرمزية الحمراء وقليلًا من الصفراء أى كثيرا من الرأسمال الاقتصادى وقليلًا من الرأسمال الثقافى لا يلعبون مثل الذين يملكون قليلًا من الحمراء وكثيرًا من الصفراء. وستكون لعبتهم أكثر جسارة (خداعًا أو بلفًا) بمقدار ما تكون الكومة أكثر ضخامة وسيضعون رهانهم بقدر أكبر على الخانات الصفراء (رأس المال الثقافى). وسيبقى كل لاعب أوراق اللعب الخاصة بالآخرين، أى طريقتهم فى اللعب، وأسلوبهم وسيستخلص من ذلك دلائل تتعلق بأوراق اللعب الخاصة بهم، باسم الفرض المضمر الذى يعد هو واحدًا من تدياته. بل إنه يستطيع أن يعرف مباشرة جزءًا من أوراق اللعب ٢ أو مجموع أوراق اللاعبين الآخرين (فاللقاب العلمية تلعب هنا دور الإبلاغ أو الإعلان فى لعبة البريدج). وفى جميع الأحوال يتأسس ذلك على معرفة ما يمتلكه اللاعبون الآخرون. أى على أوراق لعبهم ٢ لكى يوجه أوراق لعبة ١. ولكن مبدأ توقعاته ليس إلا اتجاه اللعب أى السيطرة العملية على العلاقة بين أوراق اللعب ١ وأوراق اللعب ٢ (وهو ما نعر عنه حينما نقول عن ملكية ما -مثل قطعة من الملابس أو الأثاث- وهذا يبدأ بورجوازيًا صغيرًا). واتجاه اللعب هو نتاج الإدماج المتواصل للقوانين الباطنة للعبة. وهذا على سبيل المثال ما فهمه تيبو Thibout وريكن Riecken حينما لاحظا أنه فى الاستجواب الخاص بشخصين يهيان دمهما يفترض المفحوصون تلقائيا أن الشخص المنتمى إلى الطبقة العليا حر أما ذلك المنتمى إلى الطبقة الدنيا فهو مضطر (دون أن يعرف المرء ما سيكون أكثر أهمية، وهو كيف يتفاير انتساب هؤلاء الذى أقاموا هذا الفرض إلى النوات المنتمية إلى الطبقة العليا وإلى الذوات المنتمية إلى الطبقة الدنيا).

ومن البديهي أن الصورة التى استخدمتها للتوضيح والإفهام ليست إلا وسيلة تعليمية (بيداجوجية). ولكننى اعتقد أنها تعطى فكرة عن المنطق الواقعى للتغير الاجتماعى، وكما تشعرنا بأن البديل الاحصائى والدينامى بديل مصطنع إلى حد كبير.

هوامش المترجم «للفصل الثالث»

١- التحديد المتضافر: استعمل فرويد التعبير ليصف مثل الحلم في صور تكشف عددا من الأفكار في صورة واحدة. واستخدمه ألتوسير ليعنى تأثير التناقضات في كل ممارسة (مكونة للتشكيلة الاجتماعية) على التشكيلة الاجتماعية ككل، ومن ثم على الممارسات المفردة وعلى كل تناقض على حدة، مما يشكل نموذجا للسيطرة والخضوع، وللتناحر وعدم التناحر فيما يتعلق بالتناقضات داخل بنية تخضع لسيادة طرف محدد في لحظة معينة. وبعبارة أدق فالتحديد المتضافر لتناقض ما هو انعكاس لشروط وجوده ضمن الكل المركب، أي للتناقضات الأخرى في هذا الكل المركب، أي تطوره تطورا متفارقا.

٢- مبدأ المواجهة أسلوب اصطلاحى غير مطابق للطبيعة في التصوير الفنى، معروف في بلاط الملوك على طول التاريخ وهو يصور الشكل البشرى بحيث يكون الصدر بأكمله متجها إلى الملقى حتى لو كان ينظر من الجانب (مثل صور الفراعنة)، وهو يعبر عن عظمة الموضوع المصرى دنيويا ودينيا.

٣- نقد ليهنتس ديكارت في هذه الرسالة التى ترجمها بورديو في شهاه من ناحية منهج الحدس الفرضى المعرض لأكوان من عدم الانتظام العرضية. واقترح ليهنتس -هدلا من تلك البداهة- بداهة تأتى من الأغفاط والحدود والرموز وهى بداهة عمياء كما عبر عنها في مكان آخر تأتى من العمل الاكلى لأدوات منطقية، ولغة شكلية مجردة مثل المعادلات والصيغ الرياضية تنطبق في كل الأحوال لا على حالات جزئية.



الفصل الرابع

هل المثقفون خارج اللعبة ؟^(*)

سؤال

عندما كنت تدرس المدرسة والتعليم فإن تحليلك للعلاقات الاجتماعية فى المجال الثقافى كان يحيل إلى تحليل للمؤسسات الثقافية. واليوم عندما تحلل الخطاب يبدو أنك تختصر دائرة المؤسسات؛ ومع ذلك فأنت مهتم على نحو صريح بالخطاب السياسى والثقافة السياسية .

الإجابة

أذكرك -على الرغم من أن ذلك ليس له إلا قيمة تتعلق بسيرتى الشخصية - أن أعمالى الأولى كانت تدور حول الشعب الجزائرى، وأنها كانت تتناول بين أشياء أخرى أشكال الوعى السياسى وأسس الصراعات السياسية. وإذا كنت بعد ذلك قد عكفت على الثقافة، فليس ذلك لأننى قد أعطيتها نوعا من الأولوية «الأنطولوجية». وليس ذلك على وجه الخصوص لأننى أجعل منها عاملا تفسيريا ممتازا لاستيعاب العالم الاجتماعى. وفى الحقيقة إن هذه الأرضية كانت مهملة. وكان العاكفون عليها يتأرجحون بين نزعة اقتصادية اختزالية ونزعة مثالية أو روحية. وكان هذا التأرجح يعمل كأنه زوج أو ثنائى معرفى محكم. وأنا أعتقد أننى لست من الذين ينقلون على نحو غير نقدى (بمجرد تغيير الموضوع) المفاهيم الاقتصادية إلى مجال الثقافة، ولكننى أردت -لا بطريقة استعارية

(*) لقاء مع فرانسوا هينكر François Hincker فى النقد الجديد La Nouvelle Critique العدد رقم

١١٢/١١١ فبراير - مارس ١٩٧٨ (مقتطف).

فحسب- أن أقيم علم اقتصاد للظواهر الرمزية، وأن أدرس المنطق النوعى لانتاج الثروات الثقافية وتداولها. وكان ذلك يشبه فضا للازدواج فى الفكر، وهو الذى جعل كثيرا من الناس يمكن أن يتعايشوا، أذهانهم نزعة مادية تصلح للتطبيق على حركة الثروات المادية، ونزعة مثالية تصلح للتطبيق على حركة الثروات الثقافية. وقد اكتفى الكثيرون بصيغة شديدة الفقر: «إن الثقافة السائدة هي ثقافة الطبقات السائدة.. الخ».

وقد سمح ذلك لكثير من المثقفين أن يحيوا تناقضاتهم دون مزيد من المشقة: ويمجرد أن يشعروا في دراسة الظواهر الثقافية باعتبارها خاضعة لمنطق اقتصادى، أو على العكس باعتبارها محدودة بواسطة مصالح نوعية، لا يمكن اختزالها إلى المصالح الاقتصادية بالمعنى الدقيق أو بواسطة البحث عن مكاسب نوعية.. الخ، فإن المثقفين أنفسهم مضطرون أن يدركوا ذاتهم باعتبارها محدودة بواسطة هذه المصالح التى تستطيع تفسير مواقفهم بدلا من أن يضعوا أنفسهم فى عالم انتفاء الأغراض النقى، و«الالتزام» الحق.. الخ. ونفهم على وجه أحسن لماذا يسهل كثيرا على سبيل المثال من حيث الأساس أن يكون المثقف تقدميا على أرضية السياسة العامة بدرجة أكبر من أن يكون تقدميا على أرضية السياسة الثقافية، أو بمقاربة أدق، على أرضية السياسة الجامعية.. الخ.

وإذا راقى لك ذلك، فإننى قد أدخلت فى معترك اللعبة من كانوا خارجها: فالمثقفون يجدون أنفسهم دائما متفقين على أن يتركوا ممارستهم الخاصة وهرانهم الخاص خارج اللعبة.

وهكذا أعود إلى السياسة انطلاقا من إثبات أن انتاج ثقيلات العالم الاجتماعى الذى هو بُعد جوهرى فى الصراع السياسى هو شبه احتكار للمثقفين: فالصراع من أجل تصنيفات المراكز الاجتماعية هو بعد رئيسى فى صراع الطبقات، وغير هذا الانحراف أو الميل يتدخل الانتاج الرمزى فى الصراع السياسى. إن الطبقات توجد مرتين، مرة موضوعيا، ومرة ثانية فى التمثيل الاجتماعى المعلن إلى هذه الدرجة أو تلك الذى تتخذه لنفسها العناصر الفاعلة وهو رهان لأنواع من الصراع. فإذا قيل لأحد الناس «إن ما حدث لك سببه أن لك صلة تعيسة أو منحوسة بوالدك» أو إذا قيل له «إن ما يحدث لك سببه أنك عامل يسرق الرأسماليون منه فانض القيمة» قلن يكون القولان شيئا واحدا.

إن الأرضية التى يدور عليها الصراع من أجل فرض الطريقة الملائمة العادلة الصحيحة المشروعة فى الكلام الذى يحيط بالعالم الاجتماعى لا تستطيع أن تكون

مستبعدة استبعادا أبديا من التحليل، حتى إذا كان ادعاء الخطاب المشروع يلزم عنه ضمنا أو صراحة رفض جعلها موضوعا للدراسة. إن الذين يهدفون إلى احتكار الفكر الذى يتناول العالم الاجتماعى لا يحتملون أو يفهمون أن يكونوا موضوعا للفكر على نحو سوسيولوجى.

ومع ذلك يبدو لى بالأحرى أن ما هو أكثر أهمية هو طرح السؤال عن اللاعبين فى هذه اللعبة، فأهميته ترجع السؤال عن ذوى المصلحة فى طرحه أى أن هؤلاء الذين يفوضون إلى المثقفين، إلى لسان الحال، والناطقين باسم الآخرين أمر العناية بالدفاع عن مصالحهم لا يتلكون وسائل طرح السؤال، كما أن الذين يستفيدون من هذا التفويض ليست لديهم مصلحة فى طرحه. وينبغى أن نأخذ على محمل الجد حقيقة أن المثقفين هم موضوع تفويض فعلى وهو تفويض شامل مضمحل يصير لدى مسئولى الأحزاب وأعيان مصرحاً به وإن بقى شاملا (فالأمر مفوض إليهم)، وينبغى تحليل الشروط الاجتماعية التى يجرى داخلها تقبل هذا التفويض واستخدامه.

سؤال

ولكن أيمكن الكلام بالطريقة نفسها عن هذا التفويض الذى لا يمكن إنكاره إلى بعض الحدود، حينما يتعلق الأمر بعامل قريب من الحزب الشيوعى أو بعامل سلم زمام أمره إلى حزب رجعى، أو إلى رجل سياسة رجعى ؟

الإجابة

يعمل التفويض غالبا خلال ارتكازه على مؤشرات ليست هى التى يسود الاعتقاد بها. فالعامل يستطيع التعرف على ذاته «فى طريقة وجوده؛ أى فى الأسلوب» واللهجة والصلة بلغة المناضل الشيوعى، أكثر مما يستطيع ذلك فى «خطابه». الذى سيقدم أحيانا «للتبريد». وسيقول لنفسه: «هذا الرجل لن تخور هزيمته أو يتكسح أمام صاحب عمل». وهذا «الحس الطبقي» الأولى ليس معصوما. وفى أطراف تلك العلاقة بل وفى حالة ألا يكون للتفويض أى أساس سوى نوع من «التعاطف الطبقي» يظل الاختلاف قائما.

ويبقى أن الاختلاف لا يكون على هذه الدرجة من الجذرية المأهولة بالنسبة إلى التحكم فى عقد التفويض وممارسة السلطة على لغة المفوضين وأفعالهم. ويعانى الناس من هذا النزاع للملكية، وحينما يتأرجحون نحو عدم الاكتراث أو نحو مواقف محافظة فغالبا ما يرجع إلى أنهم يحسون بأنفسهم -خطأ أو صوابا- وقد بُتروا من عالم المفوضين: «هم جميعا أقران». «هم جميعا متساوون».

للشئال

وفى نفس الوقت، وعلى الرغم مما قررت أنه فى طريقة إلى الاختفاء السريع، فإن الشيوعى يفعل ويؤثر حتى إذا ظل صامتا بالنسبة للخطاب، فعلاقته بالسياسة ليست إلا علاقته باللغة.

الإجابة

إن الفعل يعتمد فى جانب كبير منه على الكلمات التى تصوغه. وعلى سبيل المثال إن الفوارق بين صراعات «الجيل الأول»، من ابناء فلاح ونظارها لدى العمال أبناء العمال، وهى ذات الجذور فى تقليد نضالى، ترتبط بخلافات وفوارق فى الوعى السياسى ومن ثم فى اللغة. ومشكلة «لسان الحال» هى تقديم لغة تسمح للأفراد المعنيين بتعميم تجاربهم دون أن تُستبعد بسبب ذلك من التعبير عن تجربتهم الخاصة. مما يؤدى إلى استلابها.

وكما حاولت التوضيح، فإن عمل المناضل ينحصر على وجه الدقة فى تحويل المغامرة الشخصية الفردية («أنا حامل شهادة الليسانس، أنا مجاز فى الآداب والقانون») إلى حالة خاصة من علاقة اجتماعية أكثر عموما («أنا حامل ليسانس، مجاز، لأنك...»). وإضفاء العمومية والكلية يمر على نحو ضرورى بالمفهوم. ويتضمن ذلك إذن خطر الصيغة الجاهزة، واللغة الأكاديمية المستقلة بذاتها والكلام الطبقى حيث الذين يدور حولهم الكلام والذين يوجه إليهم الكلام لا يعودون يتعرفون على أنفسهم كما يقال. وهذه الأقوال الميثة (وأنا أقصد كل الكلمات الضخمة للغة السياسية التى تسمح بالكلام لكى لا يفكر المرء فى شئ) تغلق الفكر سواء عند الذى ينطق بها أو عند الذين تخاطبهم، وكان

ينبغي عليها حشدهم وتحريكهم عقليا في المحل الأول كما كان ينبغي عليها إعدادهم للنقد (بما في ذلك نقدها هي ذاتها)، لا الالتصاق بها فحسب.

سؤال

حقا هناك مثقف داخل كل مناضل، ولكن
المناضل ليس مثقفا كالمثقفين الآخرين، وهو يدفع
الثمن بالكامل عندما لا يكون إرثه الثقافي هو إرث
المثقف.

الإجابة

إن أحد الشروط التي لا تجعله مثقفا كالآخرين، وأنا أقول شرطا بين شروط، وهو ينضاف إلى كل ما يورث به عادة مثل «الرقابة الشعبية» (وهي التي ينبغي التساؤل عن الشروط اللازمة لكي تستطاع ممارستها بالفعل)، وهو أن يكون قادرا على الرقابة والسيطرة على نفسه (أو أن يكون خاضعا لرقابة أو سيطرة منافسيه وهو أمر يظل أكثر يقينا)، باسم تحليل لما يعنيه أن يكون المرء «مثقفا»، أن يمتلك احتكار إنتاج خطاب عن العالم الاجتماعي، أن يكون مشاركا في حيز للعب، هو الحيز السياسي الذي يمتلك منطقته وتستثمر فيه مصالح ذات غلط خاص .. الخ.

إن سوسيولوجيا المثقفين هي إسهام في التحليل الاجتماعي للمثقفين، ووظيفتها هي أن تبرز الصعوبات في تحليل العلاقة المظفرة المعتادة التي تقوم بين المثقفين والقادة (الزعماء)، وأن تذكرنا بأننا خاضعون للتأثير في مقولاتنا الفكرية وفي كل ما يسمح لنا بأن نجعل العالم موضوعا للتفكير والكلام. ويجب أيضا التذكير بأن اتخاذ المواقف إزاء العالم الاجتماعي قد يكون مدينا بشئ ما إلى الشروط التي تنتج فيها هذه المواقف وإلى المنطق النوعي للأجهزة السياسية و«اللعبة» السياسية، واختيار أعضاء اللجان، وتداول الأفكار الخ.

سؤال

إن ما يضايقنى هو أن مسلماتك (مصادرتك) عن هوية المناضل السياسى والثقف تعوق اتخاذ موقف سليم من العلاقات بين الفعل والنظرية، بين الوعى والممارسة، «القاعدة» و«القمة»، وبالأحرى بين المناضلين من أصل عمالى والمناضلين من أصل مثقف، دون الكلام عن العلاقات بين الطبقات - بين الطبقة العاملة والمراتب (الشرائح) المثقفة.

الإجابة

فى الواقع هناك شكلان من الخطاب عن العالم الاجتماعى، مختلفان جدا. ويتضح ذلك جيدا فيما يتعلق بمشكلة التنبؤ. فإذا وصل مثقف عادى أو وصل سوسيولوجى إلى تنبؤ خاطئ فلن يؤدى ذلك إلى عواقب مهمة مادام ذلك لا يلزم أحدا سواه، ولن يجرف أحدا سواه. وعلى العكس فإن مسؤولا سياسيا هو صاحب سلطة وقدرة على وضع ما يقول موضع التنفيذ، وهذه هى خاصية أى شعار. إن لغة المسؤول هى لغة قد حُوّلت نفوذا (حتى بواسطة الذين تخاطبهم)، ومن ثم فهى لغة سلطة، تمارس نفوذا وتستطيع تنفيذ ما تقول. وفى هذه الحالة يمكن للخطأ أن يصيح خطيئة. وهذا دون شك ما يفسر -دون أن يبرر فى رأى- أن اللغة السياسية تكرر فى الكثير من الأحيان صب اللعنة وإيقاع الحرمان أو العزل .. إلخ («خائن»، «مرتد».. إلخ).

فالمثقف «المسئول» الذى أخطأ التقدير يورط الذين يتبعونه فى الخطأ لأن لقوله قوة بقدر ما يلقى من تصديق، كما لا يستطيع أن يقدم صنيعا لهؤلاء الذين يتكلم عنهم (و«عن» مآخوذة دائما بالمعنى المزدوج، معنى «لصالحهم» ومعنى «بدلا عنهم»). ويستطيع أن يجعل هذا الشئ الذى من المستطاع تحقيقه لا يتحقق، وبالعكس يستطيع أن يجعل هذا الشئ الذى من المستطاع عدم تحقيقه يتحقق. فاقواله تسهم فى صنع التاريخ وفى تغيير التاريخ.

وهناك عدة طرق لإظهار الحقيقة، وهى طرق متنافسة ولكل منها منحاى وحدوده. والمثقف «المسئول» يتجه باسم «مسئوليته» نحو اختزال فكره الذى يتعمق فى الفكر إلى

فكر مناضل. ويستطيع أن يتعود على ذلك -وتلك هي غالبا حالة أن تتحول ما كانت استراتيجية مؤقتة إلى تطبيع، طريقة دائمة في الوجود- أما المثقف «الحُر» فلهذه نزوع نحو الإرهاب: فهو ينقل طواعية إلى المجال السياسي الحروب حتى الموت، وهي حروب من أجل الحقيقة موقعا هو المجال العقلي (إذا كنتُ مصيبا فأنتُ مخطئ) ولكنها تتخذ شكلا آخر بالكامل، بما أن ما يدور حوله الصراع لا يقتصر على الحياة والموت الرمزيين.

ويبدو لي أن من الأمور المهمة في السياسة والعلم أن يكون لنمطى الانتاج المتنافسين - نمطى انتاج تمثيلات العالم الاجتماعى حقوق مواطنة متساوية، وألا يتنازل الثانى فى جميع الأحوال أمام الأول مما يضيف النزعة الإرهابية إلى النزعة التبسيطية، وقد مورس ذلك كثيرا فى فترات معينة فى العلاقات بين المثقفين والحزب الشيوعى. وسيقال لى أن ذلك بديهى وسأحصل على موافقة تشمل كل ما قلت بسهولة شديدة. ومن حيث المبدأ فأنا أعرف فى الوقت نفسه أنه من الناحية السوسيولوجية ليس ذلك بديهيا.

وفى رطانتى المهنية سأقول إن من المهم أن يواصل الحيز الذى يحدث فيه الخطاب عن العالم الاجتماعى عمله باعتباره مجالا للصراع لا يسحق فيه القطب المسيطر القطب الخاضع للسيطرة، أى لا تسحق فيه الأصولية (الأرثوذكسية) الهرطقة. لأنه فى هذا المجال طالما كان هناك صراع فسيكون هناك تاريخ. أى سيكون هناك أمل.



الفصل الخامس

كيف يتحرر المثقفون الاحرار؟^(*)

سؤال

هناك من يلومونك أحيانا لأنك تمارس ضد المثقفين عنفا فى الجدل يمس مسا خفيفا نزعته معاداة المثقفين. بيد أنك فى كتابك الأخير «الحس العملى» أو منطق الممارسة عدت مجددا إلى ارتكاب ذلك العنف فقد وضعت وظيفة المثقفين ذاتها وادعاءهم الوصول إلى المعرفة الموضوعية وقدرتهم على التحليل العلمى للممارسة موضع التساؤل.

الإجابة

من اللافت للنظر أن أولئك الذى يفرضون على نحو تعسفى يرما بعد يوم أو أسبوعا بعد أسبوع أحكام ناد صغير للإعجاب المتبادل يصرخون فى وجه العنف حينما يتم ذات مرة كشف آليات ذلك العنف. إن هؤلاء المنقادين بعمق ينتحلون عبر قلب غريب للأوضاع مظهر الجسارة العقلية، أى الجسارة السياسية (ويكادون أن يدفعونا إلى الاعتقاد بأنهم يخاطرون بالنفى والاعتقال le Goulag). إن ما لا يغفرونه للسوسيولوجى هو أنه يفشى لأول قادم الأسرار التى يختص بها أهل العلم المظلمين. وتقاس فاعلية عمل من أعمال العنف الرمزى بمقدار الجهل بشروط وأدوات ممارسته. ولاشك فى أنه ليس من المصادفة أن إنتاج السلع الثقافية لم يستثر بعد تداعياته فى الدفاع عن المستهلكين.

(*) مقابلة مع ديديه إريبون Didier Eribon، لوموند ديمانش Le Monde Dimanche، الرابع من

مايو ١٩٨٠ فى صفحتى ١ و ١٧.

وتخيل كثيرون ضخامة المصالح الاقتصادية والرمزية المرتبطة بإنتاج الكتب واللوحات ومناظر المسرح والرقص والسينما، والتي متصير مهددة في أعين كل المستهلكين إذا كشف الغطاء عن آليات انتاج القيمة في النتاج الثقافي. ويجول في خاطري على سبيل المثال عمليات من قبيل التداول الدائري لعروض تقريظية للأعمال بين عدد صغير من المنتجين (للأعمال ولكن أيضا للكتابات النقدية) والجامعيين ذوو المرتبة الرفيعة الذين يجيزون ويكرسون، والصحفيون الذين يمنحون أنفسهم الصلاحية ثم يُمجدون.

وتجعلنا ردود الأفعال التي يستثيرها كشف آليات الانتاج الثقافي نفكر في الدعاوى القضائية التي رفعتها بعض الشركات على روابط المستهلكين. فما يمارس بالفعل هو مجمل العمليات التي تسمح بتمرير تفاع صفرى رديئة باعتبارها تفاع جيدة وتقرير منتجات التسويق وإعادة الكتابة ودعاية هيئات التحرير باعتبارها أعمالا ثقافية.

سؤال

هل تظن أن المثقفين -أو على الأقل بعضا منهم-
لديه الكثير ليخسره- سيثورون حينما يكشف
القناع عن مكاسبه وعن الوسائل القابلة للإعلان إلى
هذه الدرجة أو تلك التي يستخدمها لتأمينها؟

الإجابة

قطعا. فأنواع اللوم التي توجه إلى تزداد سخفا حتى أننى لا أكف عن رفض ميل العلم الاجتماعى إلى التفكير بمنطق الدعاوى القضائية، أو ميل قراء مؤلفات العلم الاجتماعى لجعله يعمل بهذا المنطق: ففى هذا النطاق حيث يريد العلم التعبير عن قوانين المجاهية lois tendencielles (تصف ميولا داخل الظواهر) متعالية على الأشخاص التي تتحقق أو تنبى من خلالها لا يرى الاستياء الذى يستطيع أن يتخذ كل أنواع الأنفة ابتداء من القناع العلمى إلا إداة لأشخاص ..

ويبدو لى هذا الاحتراس متزايد الضرورة، ففى الواقع كثيرا ما استُخدم العلم الاجتماعى الذى رسالته هى الفهم فى الإدانة. ولكن هناك شيئا من سوء الطوية فى اختزال السوسيولوجيا -كما فعل التقليد المحافظ دائما- إلى كاريكاتيرها البوليسى؛ وعلى

الأخص في الاستناد إلى واقعة أن نوعا من سوسيولوجيا المثقفين البدائية المتخلفة قد استخدم أداة للقمع ضد المثقفين كذريعة للطعن في الأسئلة التي تطرحها سوسيولوجيا حقيقية على هؤلاء المثقفين.

سؤال

أستطيع تقديم مثال على هذه الأسئلة ؟

الإجابة

من الواضح على سبيل المثال أن الزدانونية قد هيأت لبعض المثقفين من المرتبة الثانية (من وجهة نظر المعايير المعمول بها في المجال الثقافي) الفرصة لأخذ الثأر -باسم قشيل يهتم بالمطالب الشعبية- من المثقفين الذين يمتلكون ما يكفى من رأس المال الملائم لكي يكونوا على مستوى حمل مسئولية استقلالهم الذاتي في مواجهة السلطات. ولا يكفى ذلك لإعلان عدم جدارة كل استجاب لوظائف المثقفين، ولدى ما تدين به طريقتهم في أداء تلك الوظائف للشروط الاجتماعية التي يزاولونها فيها. وهكذا فإنتى حينما أذكر بأن المسافة المتخذة بالنسبة للضرورات المعتادة هي شرط الإدراك الفطرى للعالم الاجتماعى، فليس ذلك من أجل إدانة المثقفين باعتبارهم «طفلييات»، ولكن لكى أذكر بالحدود التي تفرضها على كل معرفة نظرية الشروط الاجتماعية لتحقيقها. وإذا كان هناك شئ يجد رجال الفراغ الدراسى مشقة في فهمه، فهو الممارسة باعتبارها كذلك حتى أشدها ابتداء، حينما يتعلق الأمر بممارسة لاعب كرة أو امرأة من «القبيلي» (بربو شرقى الجزائر) تمارس طقسا أو عائلة من سكان بيارن Beam تزوج أولادها.

سؤال

نجد أطروحة جوهريّة في كتابك الأخير «الحس العملى»: «ينبغي تحليل الوضع الاجتماعى لأولئك الذين يحللون الممارسة، والافتراضات المسبقة التي يدخلونها في تحليلهم ...»

الإجابة

إن «ذات» العلم (أى الفاعل الذى يقوم بالعلم) تشل جزءا من «موضوع» العلم، فهى تشغل مكانا فيه. وليس من المستطاع فهم الممارسة إلا بشرط السيطرة بواسطة التحليل النظرى على آثار العلاقة بالممارسة المسجلة فى الشروط الاجتماعية لكل تحليل نظرى للممارسة.

(وأنا أؤكد: «بواسطة التحليل النظرى» وليس كما يُعتقد غالبا بواسطة أى شكل كائنا ما كان من المشاركة العملية أو الصوفية فى الممارسة «وتحقيق مشارك» و«مُدخاله» ... الخ). وهكذا فإن الشعائر وهى بلاشك أشد الممارسات عملية؛ بما أنها تتألف من حركات بالأيدى وإيماءات ومن رقصة جسدية بأكملها، أمامها جميع الفرص لكى يساء فهمها من جانب أولئك الذين ما كانوا قط من ممارسى الرقص أو الرياضة البدنية لذلك فهم مبالغون لأن يروا فيها نوعا من المنطق والحساب الجبرى.

سؤال

إن تحديد موقع المثقفين عندك هو التذكير بأنهم ينتمون إلى الطبقة السائدة، ويحصلون على مكاسب من وضعهم حتى إذا لم تكن تلك المكاسب اقتصادية بالمعنى الدقيق.

الإجابة

أنا أذكر، فى مواجهة الوهم الخاص «بالمثقف بلا روابط وبلا جذور» -وهو على نحو ما بمثابة الإيديولوجية المهنية للمثقفين- بأن المثقفين بوصفهم حائزين لرأس مال ثقافى هم قسم (مُسود) من الطبقة السائدة وأن عددا من المواقف التى يتخذونها بشأن السياسة على سبيل المثال يرتبط بالتباس وضعهم كمسودين وسط السادة. كما أذكر أن الانتماء إلى المجال الثقافى يتضمن مصالح نوعية فى باريس مثل موسكو (أيام الشيوعية السوفيتية) ليست من قبيل مراكز أكاديمية وعقود نشر ومراجعات للمؤلفات ووظائف فحسب بل وكل علامات التكريم (التبجيل) والإرضاء التى غالبا ما لا يدركها من لم يكن عضوا فى هذا العالم ولكن بواسطتها يكون المرء عرضة لكل أنواع القسر

والرقابة المرفهة.

سؤال

أتظن أن سوسيولوجيا المثقفين تمنح المثقفين الحرية بالنسبة إلى النزعة الحتمية التي تفرض نفسها عليهم؟

الإجابة

إنها تمنح على الأقل إمكانا لحرية ما. فالذين يتوهسون أنهم يسيطرون على عصرهم يكونون في الغالب خاضعين لسيطرتهم، وسيختفون معه لانتقضاء أو أنهم على نحو مخيف. وتهب السوسيولوجيا الفرصة لإبطال السحر، ولاستنكار علاقة المالك المملوك التي توثق بالعصر أولئك الذين يظلون دائما على صلة بمهام اليوم، وذوق اليوم. وهناك شيء مشير للشجن في الإذعان الذي يهرول به «المثقفون الأحرار» نحو مواصلة وضع رسائلهم في الموضوعات التي تفرضها اللحظة، مثل موضوعات اليوم: الرغبة والجسد والإغراء (الإغواء). وليس هناك ما هو أكثر جنائزية وقتامة من قراءة تأتي بعد عشرين سنة لهذه التدريبات (التحارين) التي فرضتها ظروف الامتحانات والمسابقات، والتي تضمنها في مجموعها الكامل الأعداد الخاصة من المجلات «الثقافية» الكبرى.

سؤال

يمكن الرد بأن هؤلاء المثقفين يمتلكون على الأقل ميزة الحياة وفق زمنهم ...

الإجابة

نعم، إذ كانت الحياة وفق زمن المرء تعنى أن يترك نفسه منجرفا في تيار التاريخ الثقافي، طافيا تبعاً لأحداث الأزمات. وليس الأمر كذلك إذا كان الأمر الجوهري بالنسبة للمثقف ليس أن «يعرف ما ينبغي أن يكون عليه فكره» بخصوص كل ما تحدده الموضة وكلاهما باعتباره جديرا بأن يكون موضوعا للفكر، بل الأمر الجوهري أن يحاول

اكتشاف كل ما يفرض تاريخ المجال الثقافى ومنطقه التفكير فيه إزاء وهم الحرية فى لحظة معينة. ولن يفوص أى مثقف فى التاريخ، وفى الحاضر (فما يعد لدى المثقفين الآخرين موضوعا لاهتمام اختيارى خارج العمل المهنى للفيلسوف واللغوى والمؤرخ بصير عند السوسيولوجى موضوعا رئيسيا جوهريا أى وحيدا شاملا) أكثر مما يفوص السوسيولوجى فى ممارسته لحرفته. ولكن طموحه هو أن يستخلص من الحاضر القوانين التى تسمح بالسيطرة عليه أى بالتحرر منه.

سؤال

لقد صورت بطريقة نابضة بالحياة فى مكان ما،
فى أحد الهوامش التى تبدو كما لو كانت بمثابة
«الجحيم» من نصوصك: ألوان الانزلاق غير
المحسوسة التى قادت فى أقل من ثلاثين سنة من
حالة للمجال الثقافى الفرنسى كان من الضرورى
فيها أن يكون المرء شيوعيا بدرجة ملح لا تجعله فى
حاجة حتى لأن يكون ماركسيا، إلى حالة أخرى كان
من مقتضيات الأناقة فيها أن يكون المرء ماركسيا
بدرجة تجعله قادرا حتى على «قراءة» ماركس نفسه،
لننتهى إلى حالة أصبح المقتضى الأخير للموضة ألا
يعود المرء يبالى بشئ بل وبالماركسية فى الحل
الأول..

الإجابة

ليست هذه صيغة للجدل، ولكنها وصف بطريقة الاختزال لتطور عدد من
المثقفين الفرنسيين. وأنا أعتقد أنها تصمد للنقد وأن من المفيد قولها الآن حينما يريد
أولئك الذين تركوا أنفسهم ينجرфон مثل برادة الحديد تبعا لقوى المجال العقلى أن يفرضوا
آخر عقيدة تحولوا إليها على الذين لم يقتفوا إثرهم فى اندفاعاتهم اللاشعورية المتعاقبة.
وليس من المبهج أن نرى ممارسة الإرهاب باسم مناهضة الإرهاب. ومطاردة الساحرات (جهد

مكتف لاتهام الابرياء بالخيانة والجريمة وممارسة «السحر الأسود» دون أدلة) باسم الليبرالية على أيدي نفس الأشخاص الذين طالما كانوا في زمن آخر يجعلون من العقيدة نفسها أداة لسيادة النظام الستاليني. وعلى وجه الخصوص حينما يحدث ذلك في اللحظة نفسها التي يتراجع فيها الحزب الشيوعي ومثقفوه نحو ممارسات ومقاصد جذرية بأكثر أيام التسالينية «جمالاً»، وبعبارة أدق نحو الفكر الآلي واللغة الميكانيكية، وهما نتاج الجهاز الذي لم تعد له وظيفة إلا المحافظة على الجهاز كهدف وحيد.

سؤال

ولكن ألا يؤدي هذا التذكير بالاحتمالات الاجتماعية التي تثقل على المثقفين إلى تجرييد المثقفين من الجدارة وإلى إضعاف الثقة بإنتاجهم ؟

الإجابة

أنا أعتقد أن المثقف يمتلك امتياز أنه قد وُضع في شروط تسمح له أن يعمل على معرفة محدداته الجنسية والنوعية (أى الأعم والأخص)، وعن طريق ذلك تسمح له بأن يتحرر منها (على الأقل جزئياً) وبأن يقدم للآخرين وسائل التحرر. فإن نقد المثقفين إن وُجد نقد هو عكس مطلب معين وتوقع معين. ويبدو لى أن شرط معرفة ما الذى يحدده والسيطرة عليه ضرورى للمثقف، لكى يمارس الوظيفة التحريرية التى ينسبها إلى نفسه على طريقة الاغتصاب المحض. بل إن المثقفين الذين يشيرون الاستنكار حتى حول مقصد تصنيف ما لا يقبل تصنيفاً يوضحون بذلك نفسه كم هم بعيدون عن وعى حقيقتهم، وعن الحرية التى يستطيع هذا الوعى أن يحققها لهم. وليس امتياز السوسيولوجى إن وُجد ماثلاً فى تحليله فوق الذين يصنفهم بل فى أن يعرف كيف يصنف نفسه وأن يعرف على وجه التقريب أين يقع هو من التصنيفات.

وإننى أجبب الذين يعتقدون أنهم يحققون لأنفسهم انتقاماً بسؤالى عن ذوقى فى التصوير أو فى الموسيقى، دون تلاعب فى الإجابة بأن ذوقى هو الذى يناظر مكانى فى التصنيف. إن إدماج ذات العلم (أى العالم) فى التاريخ والمجتمع ليس بمثابة الحكم عليها بالنزعة النسبية، بل بمثابة وضع شروط معرفة نقدية تحيط بحدود المعرفة، وذلك شرط

للمعرفة الحقيقة.

سؤال

وهذا هو ما يدفعك إلى إدانة اغتصاب القول من جانب المثقفين ؟

الإجابة

فى الحقيقة، فى الكثير جدا من الأحوال يمنع المثقفون أنفسهم صلاحية «الاختصاص» (بالمعنى شبه القانونى للكلمة)، المعترف لهم به اجتماعيا لكى يتكلموا باعتبارهم حججا ثقات خارج حدود اختصاصهم التقنى، وعلى الأخص فى ميدان السياسة. وهذا الاغتصاب الذى ينتمى إلى مبدأ طموح المثقف نفسه منذ القدم، بأن يكون حاضرا على كل جبهات الفكر مالكا لكل الاجابات، يوجد فى مظاهر أخرى لدى رجل الجهاز الحزبى l'apparatchik « الأباراتشيك » أو التكنوقراط الذى يستحضر المادية الجدلية Diamat أو العلم الاقتصادى من أجل السيطرة.

سؤال

هل تستطيع التحديد الدقيق ؟

الإجابة

ينسجم المثقفون مع الحق المغتصب فى أن يُشرعوا لكل شئ باسم اختصاص اجتماعى هو فى الأغلب مستقل عن الاختصاص التقنى ولكنه يبدو كأنه ضامن له. وفى ذهنى هنا ما يشكل من وجهة نظرى إحدى النقائص الموروثة فى الحركة العقلية الفرنسية، وهى نزعة المحاولات والمقالات «الخاطفة متعددة المواضيع» l'essayisme التى تجذرت بعمق فى مؤسساتنا وتقاليدنا بحيث يقتضى الأمر ساعات لتعداد الشروط الاجتماعية لإمكانها (سأذكر فقط هذا النوع من نزعة الحماية الثقافية للمنتجات المحلية المرتبطة بجهل اللغات و جهل التقاليد الأجنبية التى تسمح بأن تواصل البقاء مشروعات للإنتاج الثقافى تم تجاوزها، أو عادات الفصول التحضيرية فى المدارس الراقية أو تقاليد فصول الفلسفة).

وسأقول للذين يسارعون إلى الابتهاج أن الأخطاء تجب أزواجا وتتبادل المساندة وتتجاوب «نزعة المحاولات والمقالات الخاطفة» عند أولئك الذين «يكتيون الأبحاث فى كل ما تمكن معرفته de omni re scibili» مع الرسائل «المنتفخة» التى هى فى أغلب الأحيان الاطروحات الجامعية. وبإيجاز إن ما نحن بصدده هو زوج أو ثنائى الخذلفة الدعية والتألق الأتجماعى، الأطروحة والتفاهة التى تجعل الأعمال العلمية العظيمة بعيدة الاحتمال تماما فهى تحكم عليها إذا ظهرت إما بالتبسيط شبه السرقى وإما بالنسيان.

سؤال

فى مقالك المعنون «الميت يستولى على الحى»
جعلت من الفلسفة بأداة التعريف هدفا لسهامك ...

الإجابة

نعم انها من التبديات النموذجية على نحو خاص لهذا النمط من الفكر المتعالى الذى جرت العادة عموما على المطابقة بينه وبين السمو النظرى. إن الكلام عن الأجهزة والدولة والقانون والمدرسة بحروف التعريف وجعل المفاهيم ذواتا للفعل التاريخى هو تفاد لتلويث الأيدى بالبحث الإمبريقى عن طريق اختزال التاريخ إلى ضرب من حرب العمالقة gigantomachie (حرب أسطورية بين المردة وآلهة الأوليمب) حيث تواجه الدولة الهوليتاريا أو إذا كان ضروريا الصراعات الحديثة لربات الانتقام Erynnyes.

سؤال

أنت تدین فلسفة التاريخ القائمة على تجسيد
الاشباح ولكن الا تغفل تحليلاتك التاريخ كما
يلومونك أحيانا ؟

الإجابة

فى الحقيقة لقد بذلت كل ما فى وسعى لإيضاح أن ما يسمى بالاجتماعى يتسم بالطابع التاريخى من جميع الجوانب. فالتاريخ غائر فى صميم الأشياء أى فى المؤسسات

(الألات والمعدات والقانون والنظريات العلمية .. الخ) وكذلك فى الأجساد. ويتجه كل جهدى نحو اكتشاف التاريخ هناك حيث يختبئ على أفضل وجه فى الأدمغة وفى أطواء الجسد؛ فاللاشعور تاريخ من خلال مقولات الفكر والإدراك التى نطبقها تلقائيا على العالم الاجتماعى.

سؤال

إن التحليل السوسيولوجى هو لقطة فوتوغرافية للقاء بين هذين التاريخين، التاريخ الذى جعل شيئا والتاريخ الذى جعل جسدا .

الإجابة

نعم لقد ذكرنا باتوفسكى Panofsky أن شخصا ما حينما يرفع قبعته للتحية فإنه يكرر دون أن يدري الإيماءة التى كان الفرسان فى القرون الوسطى يرفعون بها خوذاتهم للإفصاح عن نواياهم السلمية. وهكذا نفعل على طوال الزمان. وبما أنه التاريخ الذى جعل شيئا والتاريخ الذى جعل جسدا يتسجمان تماما مثلما هى الحال عند لاعب كرة القدم حيث تتسجم قواعد اللعب واتجاه اللعب، فمن يقوم بالفعل يعمل على وجه الدقة ما يجب عليه عمله، (أى الشئ الوحيد الذى يجب القيام به) كما يقال دون حاجة حتى إلى أن يعرف ما يفعله. ولن يكون بذلك شخصا ليا أو آلة حاسبة عاقلة، بل سوف يشبه قليلا «المجوزاء» (هرج عالى) العمياء وهى تتجه نحو الشمس البازغة فى لوحة بوسان Poussin (رسام فرنسى عاش معظم عمره فى إيطاليا، ١٥٩٤-١٦٦٥) أثر فى الفن الكلاسيكى اللاحق) العزيزة على كلود سيمون Claude Simon (روائى من مثلى الرواية الجديدة نال جائزة نوبل ١٩٨٥).

سؤال

يعنى ذلك أن فى أساس سوسيولوجيتك هناك نظرية أنثروبولوجية، أو ببساطة أكثر، صورة معينة للإنسان ؟

الإجابة

نعم إن هذه النظرية في الممارسة أو بالأحرى في الجنس العلى تتحدد قبل أي شئ في مواجهة فلسفة الذات، وفلسفة العالم بوصفه امتثالا (تصورا) ^(١) -représentation. فبين الجسد الذي مر بتنشئة اجتماعية والمجالات الاجتماعية، وهما نتاجان منسجمان لنفس التاريخ يقوم تواطؤ جسدي تحت مستوى الوعي. ولكن هذه النظرية تتحدد أيضا بالتضاد مع النزعة السلوكية ^(٢). فليس الفعل استجابة يوجد مفتاحها بأكمله في المؤثر (المحرض) الذي يحدث الحركة، ولكن له من حيث المبدأ نظاما من الاستعدادات التي أسميها «التطبع»، هي نتاج لكل تجربة السيرة الشخصية (ويؤدي ذلك بما أنه لا وجود لتاريخين فرديين متطابقين إلى عدم وجود تطبعين متطابقين وإن وجدت فئات من التجربة ومن ثم فئات من التطبع؛ مثل تطبع الشريحة الاجتماعية (الطبقة) وتلك التطبعات، أو ضروب البرامج ^(٣) (بمعناها في نظرية المعلومات) ذات الإعداد الاجتماعي هي بطريقة معينة أساس لكفاءة المؤثرات (المحرضات) التي تحركها، بما أن هذه المؤثرات المعتادة الشرطية لا تستطيع ممارسة تأثيرها إلا في كائنات عضوية مهيأة (ذات استعداد) لإدراكها.

سؤال

هل تعارض هذه النظرية التحليل النفسي ؟

الإجابة

هذه المسألة أكثر تعقيدا إلى مدى بعيد. وأكتفى بالقول إن التاريخ الشخصي في أكثر جوانبه تفردا وحتى في بُعد الجنس محدد اجتماعيا. وهذا ما تقوله جيدا صيغة كارل شوركسكه Carl Schorske: «ينسى فرويد أن أوديب كان ملكا» ولكن إذا كان محقا في تذكير المحلل النفسي بأن العلاقة بين الأب والابن هي أيضا علاقة خلافة ووراثة، فإن على السوسبولوجي من جانبه أن يتجنب نسيان أن البعد السيكلوجي بالمعنى الخاص للعلاقة بين الأب والابن يمكن أن يكون عقبة في وجه خلافة أو وراثة دون تاريخ، حيث يكون الوارث (الخلف) في حقيقة الأمر موروثا بواسطة الميراث.

سؤال

ولكن حينما يكون التاريخ الذى جعل جسدا
منسجما تماما مع التاريخ الذى جعل شيئا، هل
سيكون لدينا تواطؤ مضمّر من جانب الخاضعين
للسيطرة مع تلك السيطرة ؟

الإجابة

يتساءل بعض الناس أحيانا لماذا لا يكون المجهزون أكثر تمردا. ويكفى أن نأخذ
فى الحسبان الشروط الاجتماعية لإنتاج العناصر الفاعلة والآثار الباقية التى قارسها حينما
يجرى نقشها فى صميم الاستعدادات لكى نفهم أن الناس الذين هم نتاج شروط اجتماعية
مثيرة للتمرد ليسوا بالضرورة على تلك الدرجة من التمرد التى سيكونون عليها إذا كانوا
نتاج شروط أقل إثارة للتمرد (مثل معظم المثقفين) ثم وضعوا بعد ذلك فى تلك الشروط.
وليس معنى ذلك العودة للقول أنهم جعلوا من أنفسهم شركاء للسلطة عن طريق نوع من
التدليس والكذب على النفس. كما لا ينبغي نسيان كل أنواع التباين بين التاريخ المتجسد
والتاريخ المتشئ وكل هؤلاء الناس الذين «يتعلمون سخطا داخل جلودهم» كما يقال كثيرا
اليوم؛ أى داخل وظائفهم وفى الاعمال المخصصة لهم. فهؤلاء الناس الذين ليسوا فى
مكانهم الصحيح، المزاوون خارج طبقتهم الاجتماعية من أسفل ومن أعلى هم ناس لهم
تاريخ وهم فى الأغلب يصنعون التاريخ.

سؤال

هذا الوضع الخاص بالإزاحة خارج المكان
الصحيح، يدفعك إلى الاستياء كما قلت مرارا.

الإجابة

إن الذين يكونون بعيدين عن الاحتمال من الناحية السوسيولوجية يقال عنهم
غالبا أنهم «مستحيلون». ... ومعظم الاسئلة التى أطرحها والتى أطرحها أولا على
المثقفين الذين لديهم الكثير من الاجابات والقليل جدا من الاسئلة تستمد جلورها من

شعوري بكرنى غريبها فى العالم الثقافى العلقى. وأنا أطرح هذه العالم للتساؤل لأنه يجعلنى موضوعا للسؤال، وأطرحه على نحو شديد العمق، يضى إلى ما وراء الشعور البسيط بالاستبعاد الاجتماعى: فأنا لا أشعر بنفسى أبداً مبرراً بالكامل فى أن أكون مثقفاً، لا أشعر بأننى «فى بيتى»، ولدى شعور بأن على حسابا ينبغى أن أقدمه، ولكن لمن؟ - لا أعرف عن ذلك شيئاً - ويبدو لى ذلك امتيازاً لا مبرر له - وتلك التجربة، التى أعتقد أنها جرى التعرف عليها عند كثير من الموصومين اجتماعياً (عند كافكا^(١)) على سبيل المثال) لا تميل نحو التعاطف الفورى مع كل هؤلاء الذين يستشعرون أنهم مبررون تماماً فى أن يوجدوا كما هم حالياً (وهم ليسوا أقل عدداً بين المثقفين بالنسبة إلى خارجهم)، والدراسة السوسولوجية الأكثر بدائية للسوسولوجيا تدل على أن أعظم إسهامات للعلم الاجتماعى تتمثل فى واقع الناس الذين لا يعيشون مثل السمك فى الماء داخل العالم الاجتماعى كما هو عليه.

سؤال

هذا الشعور بالأى يكون الإنسان «فى بيته» قد
يفسر صورة اليأس التى تلصق بك غالباً، وهى
صورة أنت تقاومها.

الإجابة

لم أعد أحب ألا يرى أحد فى كتابى ما يستحق المديح سوى تفاؤله. وتفاؤلى - إن وجد - هو عبارة عن التفكير فى أنه ينبغى استخلاص أفضل جانب ممكن من كل التطور التاريخى الذى أعاد كثيراً من المثقفين إلى نزعة محافظة متحررة من الأوهام وخاتمة الأمل: ويتعلق الأمر بهذا النوع المثير للراء من نهاية التاريخ الذى تتغنى به نظريات «التقارب والالتقاء» (بين الأنظمة «الاشتراكية» و«الرأسمالية»)، و«نهاية الإيديولوجيات» (كتب بورديو ذلك قبل انهيار الاتحاد السوفيتى)، أو يتعلق بشئ أقرب مثل ألعاب المنافسة التى تفرق بين أحزاب اليسار، والتى تكشف عن أن المصالح النوعية «لرجال الجهاز الحزبى» تستطيع أن تسبق مصالح الذين فوضوهم. وعندما لا يكون قد بقى الكثير مما يخشى فقدانه وخاصة فيما يتعلق بالأوهام، تصبح اللحظة لحظة طرح

الأسئلة التي ظلت زمنا طويلا خاضعة للرقابة باسم تفاؤل ذي نزعة إرادية، غالبا ما طويق بينه وبين الاستعدادات ذات النزعة التقدمية. وهذه أيضا هي لحظة ترجيح النظرة الفاحصة إلى النقطة العمياء^(١) لكل فلسفات التاريخ، أى نقطة «وجهة» النظر التي يتبنى الناس هذه الفلسفات انطلاقا منها. لحظة السؤال على سبيل المثال -كما يفعل مارك فيرو Marc Ferro في كتابه حول «الثورة الروسية»- عن المصالح التي كانت للمثقفين القادة فى بعض أشكال «النزعة الإرادية» الخاصة بتبرير «المركزية الديمقراطية» أى سيطرة اللجان الدائمة والممثلين الدائمين وبدرجة أوسع، فى الاتجاه إلى الاعتفاف البيروقراطى الذى اتخذته الوثبة الثورية وهو اعتفاف كامن فى منطق التمثيل والتفويض .. الخ.

لقد كان ديكرت يقول: «من بالغ فى تقدير علمه زاد من حزنه». وليس التفاؤل التلقائى النزعة لدى السوسيولوجين عن الحرية إلا أثرا فى أغلب الأحوال من آثار الجهل. فالعلم الاجتماعى يدمر الكثير من أشكال الادعاء والاحتياى ومعها أيضا الكثير من الأوهام. بيد أننى أشك فى وجود أى حرية أخرى حقيقية غير تلك التى تجعلها معرفة الضرورة ممكنة. ولن يجد العلم الاجتماعى صعوبة ضخمة فى الوفاء بالتزامه إذا ما استطاع الاستعداد لمواجهة النزعة اللامسؤولة والنزعة العلموية القدرية فى آن معا، وإذا ما استطاع أن يسهم بأقل قدر ممكن فى تعريف النزعة الطوباوية العقلانية القادرة على ممارسة معرفة المحتمل لكى تعمل على تحقيق الممكن.



هوامش المترجم « للفصل الخامس »

- ١- العالم قفل (تصور)، ذلك محور فلسفة شوبنهاور، فكل وجود خارجي يرجع إلى الذات، ومنها يمكن استنتاج كل قوانين العالم.
- ٢- السلوكية : مدرسة تقف في علم النفس عند دراسة السلوك، وترفض الاعتراض بالحياة الداخلية، والشعور واللاشعور. والتحلية النفسية الأولى عندها هي الفعل المتعكس الشرطي المؤلف من المحرض والاستجابة مروراً بمركز عصبي (عند واطسون وسكينر).
- ٣- البرنامج في نظرية المعلومات هو مجموعة متدرجة متكاملة من الاجراءات يمكن أن تعمل كوحدة مفردة لتوجيه سلوك نظام ما.
- ٤- فرائز كافكا الكاتب التشيكي المعروف مؤلف المحاكمة والقلعة ... إلخ، وكان يهودياً يتكلم الألمانية فظل منغزلاً اجتماعياً في بيئة رجمية محافظة، بهجد الكتابة عن أمثاله.
- ٥- نقطة محددة في شبيهة العين إذا وقعت عليها صورة جسم ما، فإن تلك الصورة لا يمكن رؤيتها.



الفصل السادس

من أجل سوسيولوجيا تدرس السوسيولوجيين (*)

أريد على سبيل المحاولة أن أطرح سؤالاً شديداً
العمومية. يدور على الشروط العامة لإمكان علم
اجتماعي عن العلم الاجتماعي ولوظائفه العلمية،
وذلك فيما يتعلق بحالة نوعية هي العلم الاجتماعي
للبلاد المستعمرة والمتحررة حديثاً من الاستعمار.
وقد يترتب على الطابع المرتجل لخطابي عدد من
المواقف المحفوفة بالمخاطر الى حد ما .. ولكن من
الأفضل المجازفة.

السؤال الأول : لقد تقرر هنا الكلام عن التاريخ الاجتماعي للعلم الاجتماعي ...
الخ. فهل هناك مصلحة في ذلك؟. وهذا هو النوع من الأسئلة الذي لا يطرحه أحد أبداً؛
فإذا كنا هنا للكلام عنه فمعنى ذلك أننا نرى أن في ذلك مصلحة ما، وأنه جدير بالاهتمام.
ولكن القول أننا مهتمون بمشكلة وأننا نجد مصلحة في مناقشتها هو بمثابة طريقة لطيفة
للتعبير عن شيء بغيبض، عن تسمية واقعة أساسية: وهي أن لنا مصالح حيوية في أنواع
إنتاجنا العلمي. وهذه المصالح ليست إقتصادية أو سياسية على نحو مباشر؛ فهي تزاوُل
الحياة باعتبارها منزهة عن الأغراض، فالخاصية المميزة للمثقفين هي امتلاك مصالح منزهة
عن الأغراض، هي أن تكون لهم مصلحة في التنزه عن الأغراض. فنحن نجد اهتماماً
ومصلحة في مشاكل تبدو لنا جديرة بالاهتمام، ومن المصلحة مناقشتها. ومعنى ذلك أنه

(*) مناخلة في ندوة «الاثنولوجيا والسياسة» المنعقدة في المغرب.

فى لحظة معينة تقوم جماعة علمية معينة ولن يحددها أحد سوى أفرادها، بتأسيس مشكلة معينة باعتبارها مثيرة للاهتمام ومن المصلحة مناقشتها (كلمة مصلحة وكلمة اهتمام لهما لفظ واحد بالفرنسية): فتُعقد الندوات وتصدر المجلات وتكتب المقالات والكتب والعروض التحليلية. ومعنى ذلك أن الكتابة عن هذا الموضوع «تعود بالكسب»، وأنها تدر أرباحا، أقلها فى شكل حقوق المؤلف (وقد تكون مجزية) وفى شكل مكانة، أو مكافآت رمزية .. الخ. وليس كل ذلك إلا توطئة للتذكير على نحو بسيط بأن من الواجب أن يمتنع المرء عن ممارسة السوسيولوجيا وخاصة سوسيولوجيا السوسيولوجيا دون أن يمارس يادئ ذى بدء أو فى الوقت نفسه تحليلا اجتماعيا لذاته (إذا لم يكن ذلك مستحيل التنفيذ). فما هى جدوى سوسيولوجيا العلم؟، ولماذا مزاوله سوسيولوجيا علم دراسة المستعمرات؟

ويجب أن نعيد طرح الاسئلة المثارة حول «موضوع» الخطاب العلمى ونوجهها إلى «ذات» هذا الخطاب العلمى. فكيف يستطيع الباحث من حيث الواقع والحق أن يطرح فيما يتعلق بباحثى الماضى اسئلة لا يطرحها هو على نفسه على نحو متبادل.

ولن تكون أمامنا فرصة الاستيعاب السليم لرهانات الممارسات العلمية التى دارت فى الماضى إذا لم يكن لدينا وعى بأن ماضى العلم هو رهان للمصراعات العلمية الراهنة. فاستراتيجيات رد الاعتبار تخفى فى أغلب الأحوال استراتيجيات المضاربة الرمزية Spéculation symbolique: فإذا وصلت إلى إضعاف الثقة بالخط الذى يوجد عند نهايته خصلك العقلى فإن مسار قيمه سينهار. ولا يقول المرء شيئا آخر عندما يقول إن النبوية أو الماركسية أو الماركسية النبوية قد تخطاها الزمان. وبإيجاز فإن من المفيد سؤال النفس عن المصلحة المحققة فى ممارسة سوسيولوجيا السوسيولوجيا أو سوسيولوجيا السوسيولوجيين الآخرين. وعلى سبيل المثال من السهل جدا الإشارة إلى أن سوسيولوجيا مثقفى اليمين تكاد أن تكون دائما من صنع مثقفى اليسار والعكس بالعكس. وهذه التوضعات objectivations تستمد حقيقتها الجزئية من واقع يدفع الأطراف إلى أن تكون لهم مصلحة فى الكشف عن حقيقة خصومهم، وعما يحدد أفعالهم (وعندما يتعلق الأمر بتفسير مثقفى اليسار يصير مثقفو اليمين عموما ماديين). ولكن الشئ الوحيد الذى لا يُفهم أبدا -لأن ذلك سيفرض على المرء أن يسأل نفسه عما يفعله فى هذا المجال وعن أى مصلحة له فيه .. وما إلى ذلك- هو نظام المواقع الذى تتولد هذه الاستراتيجيات

المتناحرة انطلاقاً منه.

ولا أقل من الإقرار بأن التاريخ الاجتماعي للعلم الاجتماعي ليس له وظيفة سوى أن يهيئ للباحثين في العلوم الاجتماعية مبررات للوجود، وبأنه ليس في حاجة إلى تبرير آخر، إذ ينبغي التساؤل إذا كان لازماً على نحو ما للممارسة العلمية اليوم.

فهل علم العلم الاجتماعي للماضي هو شرط العمل الذي يجب أن ينجزه العلم الاجتماعي اليوم؟ أو على نحو أكثر دقة هل العلم الاجتماعي «للعلم» «الخاص بالمستعمرات» هو من شروط تحرر حقيقى من الاستعمار داخل العلم الاجتماعي لمجتمع لم يتحرر من الاستعمار إلا مؤخرًا؟ وتفويضى محاولة الإقرار بأن ماضى العلم الاجتماعي يشكل دائماً جزءاً من العقبات الرئيسية أمام هذا العلم الاجتماعي، وخاصة في الحالة التي تهمنا الآن. وكان دوركايم يقول على وجه التقريب في «التطور البداجوجي (التربوي) في فرنسا». إن اللاشعور هو نسيان التاريخ. وأنا أعتقد أن لاشعور تخصص ما هو تاريخه، فاللاشعور هو الشروط الاجتماعية المحجوبة المنسية للإنتاج، أو هو ذلك الناتج المنفصل عن الشروط الاجتماعية لإنتاجه، بعد أن يغير معناه واتجاهه ويزول تأثيرا ايدولوجيا. إن معرفة ما يقوم به المرء عندما يمارس نشاطا علميا - هو تعريف بسيط. لنظرية المعرفة (الإبستمولوجيا). وذلك يفترض أن المرء يعرف كيف أنشئت تاريخيا المشاكل والأدوات والمناهج والمفاهيم التي تستخدم. (وبهذا المنطق ما من شيء سيكون أكثر إلحاحاً من القيام بتاريخ اجتماعي للتقليد الماركسي لكي يعاد تحديد موقع أنماط التفكير أو التعبير - التي أدى نسيان التاريخ إلى إضفاء صبغة أبدية وصنمية (فيتشية) عليها - داخل السياق التاريخي لإنتاجها ولاستعمالها المتعاقبة.

وما يستطيع التاريخ الاجتماعي «للعلم» «دراسة المستعمرات» أن يقدمه من وجهة النظر التي تبدو لي مثيرة للاهتمام هو تقدم علم دراسة المجتمع الجزائى الراهن، وسيكون ذلك إسهاماً في معرفة مقولات الفكر التي يستوعب بها فكرنا هذا المجتمع. وقد أوضحت أوراق هذا الصباح أن المستعمرين المسيطرين والخاضعين للسيطرة بواسطة سيطرتهم نفسها كانوا الضحايا الأول لأدواتهم العقلية الخاصة، ومازالوا يستطيعون أن يوقعوا في «فخاخهم» أولئك الذين حينما يكتفون «برد فعل» ضدهم دون تفهم الشروط الاجتماعية لعملهم، فإنهم يخاطرون بالوقوع بكل بساطة في الأخطاء العكسية، ويحرمون أنفسهم في جميع الأحوال من المعلومات الوحيدة المتاحة حول موضوعات معينة. ولكي

نفهم ما فاتنا أى مجموع الكتابات والوقائع والنظريات ينبغى إذن تأسيس سوسولوجيا الشروط الاجتماعية لإنتاج هذا الموضوع. فما معنى ذلك؟

ليس من المستطاع تأسيس سوسولوجيا للشروط الاجتماعية لإنتاج «علم» «المستعمرات» دون أن ندرس أولا ظهور مجال علمى مستقل ذاتيا على نحو نسبي والشروط الاجتماعية التى أحاطت باستقلاله. فالمجال هو بمثابة كون أو عالم تتحدد داخله الخصائص المميزة للمنتجين بواسطة موقعهم داخل علاقات للإنتاج، بواسطة المكان الذى يشغلونه فى حيز علاقات موضوعية. وفى تعارض مع ما تفترضه مسبقا دراسة الأفراد المعزولين كما هى الحال على سبيل المثال فى ممارسة التاريخ الأدبى الذى يدرس «الانسان والعمل»، فالخصائص الأكثر أهمية لكل منتج ماثلة فى علاقاته الموضوعية مع الآخرين أى خارجه، فى علاقة المنافسة الموضوعية .. الخ.

ويدور الكلام أولا عن تحديد ما هى الخصائص النوعية للمجال الذى كان فيه «العلم» «الذى يدرس المستعمرات» عند ماسكرay Masqueray وديبارمييه Desparmet ومونييه Maunier وآخرين ينتج خطابه عن عالم المستعمرات، وكيف تباينت هذه الخصائص حسب العهود. ومعنى ذلك تحليل العلاقة التى يقيمها هذا المجال العلمى المستقل نسبيا مع العلم المعاصر فى العاصمة الاستعمارية. وثمة فى الحقيقة تهمة مزدوجة تستطيع إحداها أن تلغى الأخرى. فهذا المجال المستقل نسبيا يبدو لى وقد تميز فى جملته (مع استثناءات مثل دوتى Doutté، ومونييه Naunier وآخرين) بتبعية شديدة القوة إزاء السلطة الاستعمارية، وباستقلال شديد القوة إزاء المجال العلمى القومى والعالمى. وينجم عن ذلك حشد من خصائص الانتاج «العلمى». وينبغى بعد ذلك تحليل كيف تغيرت العلاقة بين هذا المجال والعلم القومى والعالمى وكذلك المجال السياسى المحلى وكيف أعيدت ترجمة هذه التغيرات فى الانتاج. وتكمن إحدى الخصائص المهمة لمجال ما فى حقيقة أنه يضم ما لا يمكن التفكير فيه أى الأشياء التى لا يدور حولها حتى الجدل. وهناك الأصولية (الأورثوكسية) والرأى المغاير (l'hétérodoxie) ولكن هناك أيضا الرأى السائد أو العقيدة (la doxa) أى مجمل ما يسلم به باعتباره بديهيا طبيعيا، وعلى الأخص أنظمة التصنيف التى تحدد ما الذى يُحكم بأنه مثير للاهتمام أو بلا أهمية، ذلك الذى لا يظن أحد أنه يستحق الكلام فلا يوجد طلب عليه. وهذا الصباح دار حديث طويل عن هذه القضايا الواضحة، وقد استحضّر شارل اندريه جوليان Charles André Julien

سياقات عقلية مذهلة تماما بالنسبة لنا. أما أشد الأشياء خفاء فهي تلك التي يوافق عليها الجميع. وهم يوافقون عليها إلى درجة تجعلهم لا يتكلمون حتى مجرد الكلام عنها، فهي خارج التساؤل بينة بذاتها. وهي تلك التي تخاطر الوثائق التاريخية بحجبها على أكمل وجه، فما من أحد يخطر بباله أن يسجل ما هو بَيِّن بذاته، فهو ما لا يقوله أصحاب المعلومات أو ما لا يقولونه إلا عن طريق الحذف والإغفال، أي عن طريق صمتهم. ولابد من التساؤل حول هذه الأشياء التي لا يقول أحد أنها مهمة عند القيام بتاريخ اجتماعي للعلم الاجتماعي إذا لم تقتصر الرغبة على إدخال السرور على النفس بتوزيع اللوم والمدح. ولا يتعلق الأمر بأن ينصب المرء نفسه قاضيا بل أن يتفهم ما الذي جعل هؤلاء الناس لا يستطيعون تفهم أشياء معينة أو طرح أسئلة معينة، وأن يحدد ما هي الشروط الاجتماعية للخطأ حينما يكون ضروريا، بمقدار ما يكون ناتجا لشروط ومحددات تاريخية. إننا نجد داخل «مسلمات» عهد معين ما لا يمكن التفكير فيه بحكم القانون de Jure (سياسيا على سبيل المثال) وما لا يمكن تسميته والمحرم le tabou - أي المشاكل التي لا يستطيع العكوف عليها- ولكننا نجد أيضا ما لا يمكن التفكير فيه بحكم الواقع de facto، وهو ما لا تسمح أدوات الفكر المتاحة بالتفكير فيه. (وما يحدث هو أن الخطأ لا يترزع تبعا للمشاعر الحسنة أو الرديئة، وأن مع المشاعر الحسنة يمكن ممارسة تلك السوسيولوجيا البغيضة).

ويقودنا ذلك إلى أن نطرح -على نحو مختلف عما يجرى عادة- مشكلة العلاقة الممتازة، الخاصة بالبلد أو الاجنبية، «المتعاطفة» أو المعادية .. الخ بالموضوع الذي تنحصر داخله المناقشة في أغلب الأحوال حوال سوسيولوجيا المستعمرات وإمكان قيام سوسيولوجيا تحرر المستعمرات وأنا أعتقد أنه ينبغي أن نستبدل بسؤال وجهة النظر الممتازة سؤال التحكم العلمي في (أو الرقابة العلمية) على العلاقة بموضوع العلم، وأيا كان الموضوع الذي يختاره السوسيولوجي أو المؤرخ، فإن السؤال الخاص بهذا الموضوع وبطريقة بنائه ليس سؤال السوسيولوجي أو المؤرخ بوصفه ذاتا مفردة بل سؤال العلاقة الموضوعية بين الخصائص الاجتماعية المميزة وثيقة الصلة بالسوسيولوجي والخصائص الاجتماعية لهذا الموضوع. إن موضوعات العلم الاجتماعي وطريقة تناولها تعقد دائما صلة قابلة للتعقل مع الباحث المعرَّك على نحو سوسيولوجي، أي بوساطة منشأ اجتماعي معين، وموقع معين في الجامعة وفرع تخصصي معين ... إلخ. وعلى سبيل المثال فأننا

أعتقد أن أحد التوسطات médiations التي تقارن من خلالها سيادة القيم السائدة في إطار العلم، هو الترتاب (التصاعد الهرمي - الهرارية) الاجتماعية للتخصصات الذي يضع النظرية الفلسفية في القمة والجغرافيا في القاع (وليس ذلك حكم قيمة ولكنه تقرير واقعة: فالنشأ الاجتماعي للطلبة ينخفض مستواه عند الانتقال من الفلسفة إلى الجغرافيا أو عند الانتقال من الرياضيات إلى الجيولوجيا). فهناك في كل لحظة تراتب لموضوعات البحث وتراتب لذوات البحث (الباحثين) يسهمان بجانب محدد في توزيع الموضوعات بين الذوات. فلن يقول أحد (إلا نادرا) عند إلمامه بمن تكون أن لك الحق في أن تكون هذا الباحث وليس ذاك، في تلك الطريقة في تناول «النظري» أو «الإمريقي»، «الأساسي» أو «التطبيقي» وليس في طريقة أخرى «متألقة» أو «رصينة» في عرض النتائج. فهذه الدعاوات «إلى التقيد بالنظام» لا جدوى منها لأنه يكفي في أغلب الأحوال إطلاق حرية الرقابات الداخلية والتي ليست إلا الرقابات الاجتماعية والدراسية المستبطنة في النفوس («أنا لست نظريا») («أنا لا أعرف كيف أكتب»). فليس هناك إذن شئ أقل حيادا -اجتماعيا- من العلاقة بين الذات والموضوع. ومن ثم فالأمر المهم هو معرفة كيف نسيغ على العلاقة بالموضوع طابعا موضوعيا (كيف نجسدها) بطريقة لا تجعل من الخطاب عن الموضوع إسقاطا بسيطا لعلاقة لا شعورية بالموضوع. ولكن بين التقنيات التي تجعل ذلك الطابع الموضوعي ممكنا هناك بكل تأكيد كل المعدات العلمية، بحيث نفهم أن هذه المعدات العلمية نفسها يجب إخضاعها لنقد تاريخي بما أنها تَوَرَّتْ في لحظة ما من العلم السابق.

ولكى أختم كلمتي سأقول إن مشكلة امتياز الدخيل الأجنبي أو الأصل اللصيق بالبلد تحجب بلاشك مشكلة شديدة الواقعية. وهي تطرح نفسها جيدا عندما يتعلق الأمر بتحليل شعائر «القبيلي» Kabyles (بربر المنطقة الساحلية الجبلية شرقي الجزائر)، أو مايدور في هذه القاعة أو في مظاهرة للطلبة أو في مصنع في بلاتكور Bil-lancourt: إنها مشكلة معرفة ما معنى أن تكون ملاحظا (بالمعنى العلمي) أو ذاتا (تقوم بالبحث والفعل)، أي في كلمة واحدة معرفة ما هي الممارسة.^(*)



(*) هناك تطورات تكميلية في دراسة المؤلف المعنونة «المجال العلمي».

الفصل السابع

مفارقة السوسيولوجي^(*)

إن الفكرة المحورية التى أريد تقديمها اليوم هى أن نظرية المعرفة والنظرية السياسية لا يمكن الفصل بينهما: فكل نظرية سياسية تتضمن، فى حانة مضرة على الأقل، نظرية عن إدراك العالم الاجتماعى، كما أن نظريات إدراك العالم الاجتماعى تنتظم تبعا لتقائبات شديدة التماثل مع تلك التى لجدها فى نظرية إدراك العالم الطبيعى. وفى تلك الحالة هناك تعارض تقليدى بين نظرية تجريبية (امبريقية) تذهب إلى أن الإدراك يستعير من الواقع هياكله، ونظرية إنشاء (صياغة عقلية - Constructiviste) تذهب إلى أنه لا وجود للموضوعات المدركة إلا بفعل من أفعال التشييد العقلى. وليس من قبيل الصدفة إذا وجدنا بصدد مشكلة تتعلق بإدراك العالم الاجتماعى، وهى مشكلة الطبقات الاجتماعية نفس النمط من التقائبات. كما نلتقى بموقفين متناحرين لا يعبر كل منهما عن نفسه حقيقة باليساطة الغليظة نوعا ما التى ساقدهما بها: فعند بعض الناس توجد الطبقات الاجتماعية فى الواقع ولا يقوم العلم إلا بتسجيلها وتقرير وجودها، وعند آخرين ليست الطبقات الاجتماعية والانقسامات الاجتماعية إلا إنشاءات، أو تصميمات عقلية من صنع العلماء والعناصر الاجتماعية الفاعلة.

وأولئك الذين يريدون نفى وجود الطبقات الاجتماعية يرددون فى أغلب الأحوال أن الطبقات الاجتماعية نتاج الإنشاء العقلى السوسيولوجى. ووفقا لهم لا توجد الطبقات الاجتماعية إلا لأن هناك علماء يقومون بتشبيدها عقليا.

(وأقول على الفور إن إحدى المشاكل الأساسية التى تطرحها نظرية إدراك العالم الاجتماعى، هى مشكلة العلاقة بين وعى رجل العلم والوعى المشترك. ففعل الإنشاء

(*) محاضرة ألقيت فى مدينة آرس Arras (نوروا، Noroit) فى أكتوبر ١٩٧٧.

العقلى أهو من صنع رجل العلم أو واحد من أبناء البلد الأصليين؟ وابن البلد هذا أيمتلك مقولات للإدراك؟ ومن أين يأخذها؟ وما هى العلاقة بين المقولات التى تنشئ العلم والمقولات التى يعمل بها أحد العناصر الفاعلة العادية فى ممارستها؟.

وأعود إلى سؤالى الأول. كيف يجرى إدراك العالم الاجتماعى؟ وما هى نظرية المعرفة التى تقدم تفسيراً دقيقاً لواقعة أننا ندرك العالم باعتباره منظماً؟. ستقول النظرية الواقعية إن الطبقات الاجتماعية موجودة فى الواقع وأنها تقاس بمؤشرات موضوعية. والاعتراض الرئيسى على النظرية الواقعية مائل فى حقيقة أنه لا وجود فى الواقع أبداً لأى انقطاع فى الاستمرار. وتتوزع الدخول بطريقة متصلة مثل معظم الممتلكات الاجتماعية التى يمكن إلحاقها بأفراد. بيد أن الإنشاء العقلى العلمى أو حتى الإدراك العادى يرى هنا انقطاعاً حيث يرى الملاحظ استمراراً وعلى سبيل المثال: من الواضح أنه من وجهة نظر إحصائية بعصر المعنى من المستحيل القول أين ينتهى الفقراء وأين يبدأ الأغنياء. ومع ذلك فالوعى المشترك يعتقد أن هناك أغنياء وفقراء. وينطبق الشئ نفسه على الشبان والطاعنين فى السن. أين ينتهى الشباب وأين تبدأ الشيخوخة؟ أين تنتهى المدينة وأين تبدأ الضاحية؟. وما هو الفرق بين قرية ضخمة ومدينة صغيرة؟ وسيقال لك إن المدن التى يزيد سكانها على ٢٠٠٠٠ ساكن أكثر ملائمة للسيار من تلك التى يقال سكانها عن ٢٠٠٠٠. ولماذا ٢٠٠٠٠ بالتحديد؟ إن طرح خط القطع للتساؤل له مبرراته. وهذا هو التقابل (التضاد) الأول: أتكون التقسيمات الاجتماعية إنشاءات عقلية أم هى تقارير لواقع؟

وبعد وضع التقابل الأول بلغة سوسيولوجيا المعرفة (أنعرف العالم الاجتماعى بالإنشاء العقلى أم بتقرير الوقائع؟) فإننى أريد أن أعيد وضعه بلغة سياسية (ولنضع قوسين حول المفاهيم الدالة على مذاهب ونزعات) (التي تنتهى بالفرنسية باللاحقة إزم «isme») فمعظم هذه المفاهيم سواء فى تاريخ الفن والأدب والفلسفة أو فى النظرية السياسية هى مفاهيم تاريخية، قد اخترعت لتلبية حاجات هذا الجدل أو ذاك؛ ومن ثم داخل سياق تاريخى محدد بدقة، ثم استخدمت خارج هذا السياق وفيما يتجاوزوه، وهكذا توجد متقلدة قيمة غير-تاريخية (تخترق مراحل متعددة). وينطبق ذلك على الإستعمال اللفظ نوعاً ما الذى سأطبقه هنا على سلسلة من المفاهيم الدالة على مذاهب ونزعات (المنتهية بإزم) «isme». وأعود إلى التقابل الثانى، وبالأصح السياسى، الذى يمكن

إقامته بين نزعة موضوعية ضيقة objectivisme علموية scientiste أو تنظيرية معزولة theoréticiste ونزعة ذاتية subjectivisme أو نزعة تلقائية (عفوية) spontanéisme. ولناخذ إحدى المشاكل التي تسلطت على الفكر الاجتماعي عند نهاية القرن التاسع عشر والتي أطلق عليها التقليد الماركسي مشكلة الكارثة النهائية (للنظام الرأسمالي). ويمكن صياغة تلك المشكلة إجمالاً على النحو الآتي: أستكون الثورة نتاجاً لمسار محتم منقوش في صميم منطق التاريخ أم ستكون نتاجاً لفعل تاريخي؟ فأولئك الذين يعتقدون أن من المستطاع معرفة القوانين الباطنة للعالم الاجتماعي، ومنتظرون أن تؤدي فاعليتها إلى «الكارثة النهائية» سيعارضون الذين يرفضون القوانين التاريخية ويؤكدون صدارة الممارسة وصدارة الذات وصدارة الفعل التاريخي في العلاقة بالقوانين اللامتغيرة للتاريخ.

وهذا التقابل الذي اختزلناه على هذا النحو إلى أبسط تعبير عنه بين العلموية الحتمية والذاتية أو التلقائية يظهر بوضوح تام عندما يتعلق الأمر بالطبقات الاجتماعية. وإذا كنت قد تناولت مثال الطبقات الاجتماعية، فلم يكن ذلك صدفة. فهذا المثال فيه في نفس الوقت شيء ما يحتاجه السوسيولوجيون لكي يفكروا في الواقع، وشيء ما «يوجد» في الواقع، أي في التوزيع الموضوعي للممتلكات، كما يوجد في أدمغة الناس الذين يشكلون جزءاً من الواقع الاجتماعي في آن معاً. وهذه المشكلة هي أكثر المشاكل التي يستطاع التفكير فيها تعقيداً لأنها تتعلق بالتفكير فيما نفكر بواسطته، والذي هو دون شك مُحدّد جزئياً على الأقل بواسطة ما نريد التفكير فيه: ولدي إذن فرص حسنة -وأنا أقول ذلك بإخلاص- لكي أتكلم عن هذه المشكلة كما ينبغي.

أما في الساسية فإن مشكلة المعرفة تُطرح في شكل السؤال عن العلاقة بين الأحزاب والجماهير. والكثير من هذه الاسئلة المطروحة حول هذا الموضوع هي تحويل (أو ترجمة واعية) أو غير واع للمشاكل الكلاسيكية لفلسفة المعرفة حول العلاقة بين الذات والموضوع. وقد طور عالم سوسيولوجي هو سارتوري Sartori الموضوعة الفائقة الذاتية بكثير من المنطق والاتساق: فقد تساملاً عما إذا كان مبدأ الاختلافات (الملاحظ) في وضع الطبقة العاملة الإنجليزية والفرنسية والإيطالية يكمن في التاريخ المستقل ذاتياً على نحو نسبي للأحزاب، أي في هذه الذوات الجماعية القادرة على بناء الواقع الاجتماعي بواسطة «تمثلاتها» (امتثالاتها وتصوراتها) أو في ضروب الواقع الاجتماعي المناظرة. واليوم صارت المسألة مطروحة بدرجة خاصة من الحدة. أتعبر الأحزاب عن الاختلافات أم

هى التى تنتجها؟ ووفقاً للنظرية الوسطى بين النزعة الذاتية المتطرفة والنزعة الموضوعية المتطرفة وهى النظرية التى يعبر عنها جورج لوكاتش Lukacs لا يقوم الحزب إلا بأن يكشف للجماهير عما هو داخلها، عن مكنون ذاتها تبعاً لاستعارة طبيب الولادة.

ولكن ألا يمكن أن ينطبق هذان التقابلان، تقابل وجهة نظر نظرية المعرفة وتقابل وجهة نظر العمل الاجتماعى كل منهما على الآخر؟ وإذا كان علينا أن نوزع داخل ضرب من الحيز النظرى المفكرين المختلفين للعالم الاجتماعى وفقاً للموقف الذى يتخذونه من هاتين المشكلتين فسوف نذكر أن الإجابات ليست مستقلة. وعلى أرضية الأنثروبولوجيا حيث لا مجال لطرح المسألة الأساسية بالمعنى الدقيق، يصير التقسيم الرئيسى هو التقابل بين النزعة الذاتية والنزعة الموضوعية. فالتقليد ذو النزعة الموضوعية يدرك العالم الاجتماعى بوصفه كوناً من الانتظامات الموضوعية المستقلة عن الذات الفاعلة ومبنية انطلاقاً من وجهة نظر ملاحظ (بالخبر) محايد غير متحيز من خارج الفعل يخلق فوق العالم الملاحظ (بالفتح). والإثنولوجى هو ذلك الذى يعيد بناء نوع من الحاجز أو التقسيم غير المكتوب الذى تنظم وفقاً له أفعال الذات الذين يعتقدون أن كلا منهم يربط لحنه على حين أنهم فى الواقع يسلكون سواء فى شؤون مبادلات الزواج أو شؤون المبادلات اللغوية فى تطابق مع نظام من القواعد المتعالية. وإزاء ذلك أنعى سارتر صراحة باللوم على ليفى ستراوس Lévi-Strauss وعلى تأثير التشيز الذى تنجبه النزعة الموضوعية فى كتابه «نقد العقل الجذلى». كما قدم شوتس Schütz وهو أحد تلاميذ هوسرل Husserl دراسة لظواهرات *phénoménologie* التجربة العادية للعالم الاجتماعى؛ وقد حاول أن يصف كيف تزاوَل العناصر الفاعلة الاجتماعية حياة العالم الاجتماعية فى حالة البساطة الساذجة، وقد امتد هذا التقليد إلى الولايات المتحدة فى التيار المسمى بالمنهجية الإثنية *ethnométhodologie* وهو نوع من الظواهرات المتسقة للتجربة الذاتية للعالم. إنه نقيض الموضوع *l'antithèse* المطلق للوصف ذى النزعة الموضوعية. وعند الخط الفاصل بينهما كما توحى بعض نصوص جوفمان Goffmann^(١) يكون العالم الاجتماعى نتاجاً لأفعال فردية. وبدلاً من أن يمتلك الناس ضروباً من السلوك تراعى فروض الاحترام لأن هناك تراتبات (هيرارشيات) اجتماعية، تصبح أفعال الاحترام والتبجيل الفردية اللامتناهية هى التى تؤدى إلى إنتاج التراتب وسرى على الفور المتضمنات السياسية. فمن ناحية هناك لغة البنى الموضوعية للسيطرة، وعلاقات قوى موضوعية، ومن ناحية أخرى هناك حاصل جمع

أفعال احترام لا متناهية الصغر هي التي تنجب موضوعية العلاقات الاجتماعية. أي من ناحية هناك النزعة المحتمية ومن جهة أخرى هناك الحرية والتلقائية (العفوية). «إذا كف كل الناس عن تبجيل العظماء، فلن يعود هناك عظماء»..الخ) ومن الواضح أن ذلك الرهان مهم. وسنرى في نفس الوقت أنه على أرضية المجتمعات المنقسمة إلى طبقات وعلى أرضية السوسيولوجيا، يصبح الفصل بين مشكلة المعرفة ومشكلة السياسة أصعب من ذلك الفصل في الإثنولوجيا مهما كان الفصل يجرى دائما على وجه التقريب.

وفي التقليد الماركسي هناك صراع دائم بين اتجاه موضوعي النزعة يبحث عن الطبقات في الواقع (ومن ثم تنشأ المشكلة الأبدية: «كم يوجد من الطبقات؟») ونظرية ذات نزعة إرادية أو تلقائية تكون الطبقات وفقا لها شيئا نصنعه. فمن ناحية سيدور الكلام عن شروط وأوضاع الطبقة، ومن ناحية أخرى سيدور الكلام بالأولى عن وعي الطبقة. وبالمثل فمن ناحية سيدور الكلام عن الوضع داخل علاقات الإنتاج، ومن ناحية أخرى سيدور الكلام بالأحرى عن «صراع الطبقات» عن الفعل، عن الحشد والتعبئة. وستكون الرؤية ذات النزعة الموضوعية في أكثر الأحوال هي رؤية رجل العلم. وستكون الرؤية ذات النزعة التلقائية هي رؤية المناضل. وأنا اعتقد في الحقيقة أن الموقف الذي يتخذه المرء من مشكلة الطبقات يعتمد على الوضع الذي يشغله في البنية الطبقية للمجتمع.

وقد طرحت في ورقة قدمتها منذ بعض الوقت بعض المشاكل المعنية التي أريد طرحها هذا المساء. فقد اقترح معهد لقياس الرأي على عينة من الذين وجهت إليهم الأسئلة أن يتكلموا عن مارشيه Marchais (سكرتير الحزب الشيوعي) وميتيران Mitterand (زعيم الحزب الاشتراكي) وجيسكار Giscard (رئيس جمهورية سابق) وشيراك Chirac (عمدة باريس الديقولي) وبونياتوفسكي Poniatovski (عينه نابليرين مارشال فرنسا واشترك في معارك كثيرة) وسيرفان شريبه Serven Schreiber (سياسي ومؤلف كتاب التحدى الأمريكي) وفقا لقاعدة «اللعبة الصينية». «إذا كان هذا شجرة فأى شجرة سيكون؟»، وإذا كانت الحالة متعلقة بشجرة فسيستدعى ذلك شجرة الدُكْب والخور والبلوط..الخ، أما إذا تعلق بسيارة فسيستدعى ذلك الرولز والبورش والسي في الخ. وفي الظاهر سيدور الكلام عن لعبة تسلية اجتماعية بدون أهمية أو دلالة. ومع ذلك فإن اللاعبين حينما دعوا إلى إقامة علاقة بين سلسلتين من الموضوعات لا يمتلكون عنها أي مفهوم محدد، أي بين سلسلة من رجال السياسة من ناحية وسلسلة من الأشياء من ناحية

أخرى، قدموا سلسلة من الصفات المميزة المتماكة المعزوة إلى رجال السياسة، فبالنسبة إلى سرفان شريبه على سبيل المثال كانت الإجابة: إذا كان شجرة فسيكون نخلة، وإذا كان قطعة أثاث فستكون من محلات كنول Knoll، وإذا كان سيارة فستكون بورش وإذا كان قريبا أو نسبيا فسيكون زوج الإبنه. ولجد فيها جميعا فكرة أنه يمثل حانة «هل رأيتنى «ما أروعنى!» أى المظهر المبهرج «الذى يبهز العين»، وحقيقة هى قوام البورجوازية الجديدة التى ينتسب إليها سرفان شريبه (الذى يمتلك بالفعل فى باريس محل أثاث كنول). أو بعبارة أخرى هناك حدس شامل للشخصية بوصفه حاملا «لأسلوب» قسم كامل من طبقة.

فالموضوعات الطبيعية (الاشجار، الأزهار .. الخ) التى لم تشكل اجتماعيا على نحو مسبق، يتم تشكيلها بواسطة تطبيق مخططات اجتماعية. ولكن أغطية الرأس (القبعة المستديرة السوداء «البالور» أو القبعة العالية الرسمية أو الكاسكيت أو البيريه .. الخ) أو الألعاب (البريدج والبيلوت before .. الخ) هى موضوعات سبق تصنيفها، فى الواقع نفسه، لأنه بواسطة ارتداء بيريه أو كاسكيت أو السير عارى الرأس .. الخ يقوم الناس بتصنيف أنفسهم فى مراتب، وهم يعلمون انهم يفعلون ذلك. ومن ثم فإن التصنيفات التى يقوم بها السوسولوجى هى تصنيفات من الدرجة الثانية (تصنيف التصنيف). ويمكن القول إن تلك السمات المميزة المعزوة يلمصها الناس بواسطة الحس الاجتماعى وهو بمثابة شبه - سوسولوجيا، وحدس علمى، على أسس ركيته من التناظر بين المراقع الاجتماعية والأذواق.

وأبدأ بالإجابة عن السؤال الذى طرحته فى البداية. أتعذر قشلات العالم الاجتماعى تسجيليا بسيطا لانقسامات موجودة فى الواقع أم هى إنشاء عقلى يجرى إعماله بواسطة تطبيق مخططات تصنيفية؟ فالعناصر الفاعلة تقضى حياتها فى تصنيف نفسها بواسطة امتلاك اشياء هى نفسها قد تم تصنيف مرتبتها (نتيجة لأنها مرتبطة بطبقات معينة). كما تقضيه فى تصنيف الآخرين الذين يجرى تصنيفهم بامتلاكهم لأشياء قاموا بتصنيفها. ومن ثم، فالسؤال مائل فى نفس موضوع تصنيف الموضوع. لأن العناصر الفاعلة لديها جميعا على وجه التقريب نفس نظام التصنيف فى الدماغ، وبالتالي من الممكن القول أن هناك نسقين من الموضوعية: الطبقات الموضوعية التى من المستطاع بناؤها على أساس من المراتب والشهادات الدراسية وعدد الأطفال .. الخ، ثم الطبقات الموضوعية بوصفها توجد فى دماغ كل العناصر الفاعلة التى أخضعت لتصنيف علمى.

وهذه التصنيفات هي رهان من رهانات الصراع بين العناصر الفاعلة. أو بعبارة أخرى، هناك صراع بين التصنيفات هو بُعد من أبعاد صراع الطبقات. وفي إحدى «موضوعات حول فيروباخ» قال ماركس ما يقرب من أن تعاسة طالع المادية يعود إلى أنها تركت للمثالية فكرة أن الموضوع هو نتاج تصميماتنا العقلية، وأنها طابقت بين المادية ونظرية للمعرفة تقول بانعكاس للعالم، على حين أن المعرفة هي إنتاج وعمل جمعي.. الخ. بيد أن هذا الانتاج كما قلت إنتاج تناحري، فأنظمة التصنيف هي نتاج اجتماعي، وبهذه الصفة فهي رهان صراع دائم. وكل ذلك شديد التجريد ولكنني استطيت إن أعود إلى أشياء عيانية إلى أقصى مدى. ولتضرب مثلاً. إن الاتفاقيات الجماعية هي تسجيل للصراع الاجتماعي بين أصحاب العمل والنقابات .. الخ .. ولكنه صراع على ماذا؟ على الفاظ، على تصنيفات وعلى طرز أو أنساق. ومعظم ألفاظنا التي نستخدمها للكلام عن العالم الاجتماعي تتذبذب بين لطف التعبير والسباب. إن كلمة الأبله إهانة وكلمة «مزارع» لطف تعبير وبينهما تقع كلمة «فلاح». ولا توجد إطلاقاً ألفاظ محايدة للكلام عن العالم الاجتماعي. وليس للكلمة نفسها المعنى نفسه حتى عند الشخص الذي ينطقها. ولناخذ كلمة مزدوجة «بورجوازي صغير»، فهذه الكلمة التي تكثف عدداً معيناً من الخصائص المميزة تماماً لهذه الشريحة طالما استخدمت كسباب في الصراع الفلسفي وفي الصراع الأدبي - بورجوازي صغير، بدال (يقال) .. الخ. وعملت بالرغم من كل شيء - كأداة للصراع. ونحن في حياتنا اليومية نقضى أوقاتنا في إضفاء طابع الأشياء على الآخرين. فالسباب هو إضفاء صفات الشيء عليهم (أنت لست إلا .. الخ)، وهو يختزل الآخر إلى إحدى صفاته وبخافء المزايا يختزل الآخر كما يقال إلى «حقيقته الموضوعية». وحينما يقول أحد الناس «أنا نزيه غير مغرض» يُقال له: «أنت كذلك لكي تكسب عيشك»، وتلك هي درجة الصفر في الاختزال. (ولدى المادية ميل خاص للوقوع في النزعة الاقتصادية التي تطابق الاتجاه التلقائي في النضال اليومي حول التصنيفات والذي ينحصر في اختزال الآخر إلى حقيقة الموضوعية. بيد أن الاختزال الأكثر بدائية هو الاختزال إلى المصلحة الاقتصادية).

وهناك في الممارسة اليومية صراع دائم بين النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية؛ وكلاهما يسعى إلى أن يفرض تمثله الذاتي لنفسه باعتباره تمثلاً موضوعياً. فالمسيطر أو صاحب السيادة هو ذلك الذي يمتلك الوسائل اللازمة لأن يفرض على الواقعين تحت نير

السيطرة أن يدركوه. على نحو ما يتطلب هو أن يدركوه ويصبح كل فرد فى الحياة السياسية من أصحاب النزعة الموضوعية الضيقة فى مواجهة خصومه، ومن جهة أخرى نظل جميعا من أصحاب تلك النزعة عند الآخرين.

وهناك نوع من التواطؤ بين النزعة العلمية الموضوعية المطلقة وشكل ما من النزعة الإرهابية. فالميل نحو النزعة الموضوعية المطلقة وهو ميل كامن فى الموقف العلمى مرتبط بأوضاع معينة فى العالم الاجتماعى وعلى الاخص بوضع الباحث الذى يسيطر على العالم بواسطة الفكر، ولديه انطباع بأنه يمتلك فكرة عن العالم ليست متاحة إطلاقا لهؤلاء الغارقين فى الفعل. أما النزعة الاقتصادية فهى إغواء الذين يعرفون كثيرا عن الاقتصاد. وعلى النقيض فإن المنهمكين فى الفعل ميالون إلى النزعة التلقائية. فالتضاد بين النزعة الموضوعية والذاتية ماثل فى طبيعة الأشياء، بل هو الصراع التاريخى ذاته. إن لماركس فرصة أكبر فى الوصول إلى حقيقة باكونين من فرصة باكونين، كما أن لبكونين فرصة أكبر فى الوصول إلى حقيقة ماركس من فرصة ماركس. وليس من المستطاع فى جميع الأحوال أن تكون ماركس وباكونين فى ان معا. فليس من الممكن أن تكون فى موضعين من المكان الاجتماعى فى نفس الوقت. إن واقعة الوجود فى نقطة من المكان الاجتماعى مسئلة بالتزامن مع أخريات عن أخطاء محتملة: الخطأ ذى النزعة الذاتية والخطأ ذى النزعة الموضوعية. وما أن يوجد مكان اجتماعى حتى يوجد الصراع؛ صراع على السيطرة، كما يوجد قطب مسيطر وقطب مسيطر عليه وابتداء من هذه اللحظة سوف توجد حقائق متناحرة. ومهما يفعل المرء فالحقيقة تنأحرية الطابع. فإذا وجدت حقيقة قلن تكون إلا رهانا لصراع.

وأنا أعتقد أن الحركة العمالية عرفت دائما صراعا بين تيار النزعة المركزية العلمية وتيار أقرب إلى التلقائية. وقد اعتمد كل من التيارين من أجل احتياجات الصراع داخل الحزب على تضادات واقعية داخل الطبقة العاملة نفسها: فالأولون توجهوا إلى الشرائح السفلى من البروليتاريا إلى الهامشيين، والآخرين إلى النخبة العمالية. وهذا التضاد هو التاريخ نفسه وإن الزعم الواحدى النزعة moniste الذى يحاول إلغاء هو معاد للتاريخ ومن ثم فهو إرهابى.

ولا أعرف إن كانت حججى صائبة أم لا. وما قلته فى النهاية ليس قانونا للإيمان. فأنا أعتقد أنه نابع من التحليل.

هوامش المترجم «للفصل السابع»

١- جولمان Erving Goffman، عالم كندي متخصص في علم الاجتماع النفسى (١٩٢٢-١٩٨٢)، اهتم بالأشكال الشمولية للتنظيم داخل المؤسسات التى يخضع فيها النزلاء للسيطرة الكاملة (كالسجون والملاجئ)، كما اهتم بالتفاعلات الاجتماعية والعناصر غير المقتننة للسلوك (فى كتابه طقوس التفاعل).



الفصل الثامن

ماذا يعنى الكلام^(*)

إذا كان للسوسولوجى دور فسيكون إعطاء أسلحة أكثر من أن يكون إعطاء

دروس.

وقد جئت للمشاركة فى عملية إنعام التفكير، ولحاولة أن أقدم لأولئك الذين يمتلكون الخبرة العملية بعدد معين من المشاكل التربوية الأدوات التى يقترحها البحث لتفسير تلك المشاكل وتفهمها. إذن لو كان خطابى مخيبا للآمال، بل كان أحيانا مشبها للعزائم فلن يرجع ذلك إلى أننى أجد لذة ما فى بث اليأس، فالأمر على العكس. إن معرفة الوقائع تؤدى إلى الواقعية. وإحدى غوايات حرفة السوسولوجى هى ما أطلق عليه السوسولوجيون أنفسهم النزعة السوسولوجية أى إغراء تحويل القوانين أو الانتظامات التاريخية إلى قوانين أبدية. ومن هنا نجى صعوبة توصيل نتائج البحث السوسولوجى. إذ نيفى أن يحدد الباحث موقعه على نحو دائم بين دورين؛ فمن ناحية دور هادم الفرحة ومن ناحية أخرى دور المشارك فى اليوتوبيا.

وأنا أريد هنا اليوم أن أتخذ نقطة انطلاق تفكيرى من الاستخبار الذى أعده عدد معين منكم بقصد تقديمه إلى هذا الاجتماع. وقد اتخذت تلك النقطة للانطلاق نظرا لاهتمامى بأن أعطى لخطابى مجزرا عينيا بقدر الإمكان، وبأن أنجب (وهذا ما يبدو لى شرطا عمليا لكل علاقة تواصل حقيقية) وضع من له الكلمة، والاحتكار الفعلى للكلام، الذى يفرض بالكامل استبداد أسئلته ومصالحه. وإن الوعى بالطابع التحكمى لإملاء فرص الكلام يفرض نفسه على نحو متزايد اليوم سواء على هؤلاء الذين يمتلكون احتكار الخطاب أو على الذين يخضعون له. ولماذا نمتشعر قلقا أو قمللا إزاء ذلك الاستعراض

(*) مناظرة فى مؤتمر الـ AFEF ليموج Limoges، ٣٠ أكتوبر ١٩٧٧.

للقوة تتضمن دائما فى تصدر الكلام داخل مواقف السلطة والنفوذ، أو إن شئت داخل المواقف المفوضة إليها السلطة، عندما يكون نموذج هذا الموقف هو الموقف التبرؤى؟ ومن ثم فلكى أزيح هذا التلق من أمامى فقد اتخذت نقطة انطلاقى من اسئلة طرحت فى الواقع على مجموعة منكم، ويمكن أن تطرح عليكم جميعا.

وتدور الاسئلة حول العلاقة بين المكتوب والشفاهى ويمكن صياغتها على هذا النحو: «هل من المستطاع تعلم الشفاهى؟»

وهذا السؤال شكل عصرى من استفهام قديم نجده من قبل عند أفلاطون -Platon، فى صيغة أيمكن تعلم الفضيلة؟ ويظل هذا السؤال محوريا تماما. هل من الممكن تعليم ذلك الشئ الذى لا يُلقن؟ هل من الممكن تعليم ذلك الشئ الذى بواسطته يتحقق التعليم؟ أى اللغة؟

وهذا النوع من الاستفهام لا ينشئ فى أى لحظة. فإذا كان قد طُرح فى محاوراة معينة لأفلاطون، فيبدو لى أن ذلك يرجع إلى أن سؤال التعليم يطرح نفسه على التعليم حينما يكون التعليم نفسه فى موضع السؤال. فلأن التعليم فى أزمة فسوف يثور التساؤل النقدي حول معنى التعليم. وفى الأحوال المعتادة أو الوقت السوى، أو فى الأطوار التى يمكن تسميتها عضوية، لا يطرح التعليم أسئلة عن نفسه على نفسه. ومن صفات تعليم يمارس وظيفته على نحو فائق الجودة -أو فائق الرداءة- أن يكون واثقا من نفسه، وأن يمتلك ذلك النوع من الثقة والتحكم المحكم (وليس من المصادفة أن توصف اللغة نفسها بذلك)، وتلك الثقة تنجم عن التيقن من أن المرء لا يلقى إصغاء فحسب بل فهما واتفاقا، وذلك التيقن هو الخاصة المميزة لكل لغة من لغات السلطة أو تفويض السلطة. إذن ليس هذا الاستفهام لا زمنيا، بل هو تاريخى. وأنا أريد أن أنعم الفكر فى هذا الموقف التاريخى. ويرتبط هذا الموقف بحالة من حالات العلاقة التربوية، بحالة للعلاقات بين نظام التعليم وما يسمى بالمجتمع الكلى، أى بالطبقات الاجتماعية، وبحالة اللغة وبحالة المؤسسة التعليمية. وسأحاول توضيح أنه يمكن فى نفس الوقت انطلاقا من هذه الأسئلة العينية التى يطرحها الاستعمال المدرسى للغة، أن تطرح الأسئلة الأكثر جوهرية لمسئوليات اللغة (أو لعلم اللغة الاجتماعى) وللمؤسسة التعليمية. ويبدو لى فى الواقع أن علم اللغة الاجتماعى سيتفادى التجريد على نحو أسرع، إذا عكف على الحيز شديد الخصوصية وإن يكن شديد النموذجية، وهو الحيز المدرسى، باعتباره محلا للتأمل

والتأسيس، إذا عكف على موضوعه المتميز وهو هذا الاستخدام شديد الخصوصية، أى الاستخدام التعليمى للغة. ولنأخذ الزمرة الأولى من الأسئلة: هل تفكر فى تعليم الشفاهى؟، أى صعوبات ستواجهها؟، هل ستواجه مقاومة؟، هل صدمتك سلبية للتلاميذ؟ وأنا أود أن أسأل على الفور: تعليم الشفاهى؟ ولكن أى شفاهى؟.

إن هناك المضرر كما هى الحال فى كل خطاب شفاهى أو مكتوب. وهناك مجموعة من الافتراضات المسبقة، يوردها كل من يطرح هذا السؤال. وإذا سلمنا بأن البنى الذهنية ليست إلا بنى اجتماعية مستبطنة، ستصبح أماننا كل الفرض لأن ندرج فى التضاد بين المكتوب والشفاهى تضادا كلاسيكيا تماما بين المتميز والشائع، بين الرفيع والشعبى بحيث يكون أمام الشفاهى فرص قوية لأن يكتسب حالة ملامحة ذات طابع شعبى. وهكذا سيكون تعليم الشفاهى هو تعليم تلك اللغة التى يجرى تعلمها فى الشارع، مما قد أدى من قبل إلى وضع المفارقة: وبعبارة أخرى أليس السؤال عن طبيعة اللغة التى يجرى تعليمها موضع سؤال؟ أو أليس هذا الشفاهى الذى يراد تعليمه هو بكل بساطة شئ سبق تعلمه، وعلى نحر غير متساو إلى مدى بعيد تبعا للمؤسسات التعليمية؟. فمن المعروف على سبيل المثال أن المستويات المختلفة من التعليم العالى تدرس الشفاهى على نحر متفاوت. فالمستويات التى تعد الطلبة للسياسة مثل معهد العلوم والسياسية والمدرسة القومية للإدارة l'ENA تدرس الشفاهى بقدر أكبر وتولية أهمية أكبر فى تقدير الإدارة بالنسبة إلى التعليم الذى يعد الطلبة إما للتدريس أو للتقنية. وعلى سبيل المثال ففى مدرسة العلوم العسكرية العالية يقومون بإعداد ملخصات وفى المدرسة القومية للإدارة يقومون بإعداد ما يسمى «بالشفاهيات الرفيعة» grand oral، التى لا تتعدى محادثات غرف الاستقبال، وكلها تتطلب نغما معينا من العلاقة باللغة، ونغما معينا من الثقافة فالكلام عن «تعليم الشفاهى» دون زيادة لا جديد فيه وقد حدث كثيرا من قبل. فهذا الشفاهى يستطيع أن يكون شفاهى المحادثة المعتادة، أو شفاهى المؤتمرات العالمية .. الخ.

فهل يكفى أن يضاف إلى التساؤل حول «تعليم الشفاهى» السؤال «أى شفاهى» ذلك الذى يدرس؟. ألا ينبغى التساؤل أيضا من الذى سيحدد أى شفاهى يدرس؟. وهناك قانون فى علم اللغة الاجتماعى يقرر أن اللغة المستخدمة فى موقف معين لا تعتمد نحسب كما تعتقد اللغويات المحضة على قدرة Compétence⁽¹⁾ المتكلم

بالمعنى الذى يقصده تشومسكى Chomsky للمصطلح، بل أيضا على ما أسميه بالسوق اللغوية. فالخطاب الذى تنتجه وفقا للنموذج الذى أقترحه هو «محصلة» قدرة المتكلم والسوق التى يدور فيها خطابه، ويعتمد الخطاب فى جانب منه (ينبغى تقديره بزيادة من الدقة) على شروط الاستقبال.

فكل موقف لغوى يعمل إذن بوصفه سوقا يضع المتكلم فيها منتجاته، ويعتمد المنتج (بافتتاح) الذى ينتجه لهذه السوق على ما يتوقعه المتكلم من أسعار سوف يستقبل بها السوق منتجاته. ونحن نصل إلى سوق التعليم، سواء أردنا ذلك أم لم نرد، نحمل توقعا بالآرباح أو العقوبات التى تنتظرنا. ومن الألفاظ الكبرى التى يجب على علم اللغة الاجتماعى أن يحلها ذلك النوع من معنى دواعى القبول. فنحن لا نتعلم اللغة أبدا دون أن نتعلم «فى نفس الوقت» شروط قبول تلك اللغة، أى أن تعلم لغة هو فى نفس الوقت تعلم أن تلك اللغة ستكون ذات جدوى (مريحة) فى هذا الموقف أو ذاك.

فنحن نتعلم على نحو لا يقبل انفصالا أن نتكلم وأن نقدر استباقا الثمن الذى ستلقاه لغتنا. وفى السوق التعليمية - وتقدم تلك السوق فى هذا الصدد وضعا مثاليا للتحليل - يكون هذا الثمن بمثابة درجات التقييم التى تتضمن فى الأغلب ثمنا ماديا (إذا لم نحصل على درجات حسنة عن ملخصك المقدم إلى مسابقة مدرسة العلوم العسكرية العالية فستكون فى المستقبل موظفا إداريا فى المعهد القومى للإحصاء والدراسات الاقتصادية وسيكون راتبك أقل ثلاث مرات). ومن ثم فكل موقف لغوى يعمل بوصفه سوقا تجرى فيها مبادلة شئ ما. وتلك الأشياء هى كلمات بكل تأكيد، ولكن هذه الكلمات لم تُصنع لكى تُفهم فحسب؛ فعلاقة التواصل ليست علاقة تواصل بسيطة فحسب؛ بل هى أيضا علاقة اقتصادية حيث يجرى تقدير قيمة المتكلم: هل تكلم بطريقة حسنة أو سيئة؟ أهو متائق أم لا، أمن المستطاع الموافقة على كلامه أم لا.

وتمتلك الطلبة الذين يصلون إلى السوق التعليمية توقعا عن فرص المكافأة والعقاب الموعودة لهذا النمط أو ذاك من اللغة. وبعبارة أخرى، يمارس الموقف التعليمى باعتباره موقفا لغويا من نمط خاص رقابة هائلة على كل هؤلاء الذين يتوقعون - من خلال معرفة الأسباب المؤثرة - فرص الكسب والخسارة أمامهم، إذا أخذ فى الاعتبار القدرة اللغوية المتاحة لهم. وليس صمت بعض الناس إلا المصلحة التى فُهمت جيدا.

ومن المشاكل التى يطرحها هذا الاستخيار مشكلة معرفة من الذى يحكم الموقف

اللغوى التعليمى؟، هل المدرس هو سيد الموقف؟ هل يمتلك حقا المبادرة فى تحديد دواعى القبول؟. هل يمتلك السيطرة على قوانين السوق.

إن كل التناقضات التى يواجهها الذين يشعرون فى تجربة تعليم الشفاهى تنبع من القضية التالية: إن حرية المدرس عندما يتعلق الأمر بتحديد قوانين السوق الخاصة بفصوله المدرسية هى حرية مقيدة، لأنه لن يخلق أبداً إلا «إمبراطورية داخل إمبراطورية»، أى حيزاً فرعياً يجرى فيه تعليق قوانين السوق السائدة. وينبغى قبل المضى إلى ما هو أبعد أن نتذكر الطابع شديد الخصوصية للسوق التعليمية: فهى خاضعة لسيطرة المتطلبات الحتمية لمدرس الفرنسية المصرح له بتعليم ما لم يكن من الواجب تعليمه، إذا كان أمام الجميع فرص متساوية للحصول على تلك القدرة، والذي له الحق فى التصحيح بالمعنى المزدوج للكلمة: التصحيح اللغوى (اللغة التى تتعرض للعقاب) ونتاج التصحيح. فالمدرس يشبه أن يكون قاضياً للأطفال فى الشؤن اللغوية: فله حق التصحيح وحق إجازة لغة تلاميذه.

ولنتصور على سبيل المثال مدرسا من أصحاب النزعة الشعبية، يرفض حق التصحيح هذا ويقول: «لأخذ من يريد حق الكلام، إن أجمل اللغات هى لغة العمال سكان الضواحي». وفى الحقيقة، إن هذا المدرس مهما تكن نواياه يبقى داخل حيز لا يطيع هذا المنطق فى المعتاد، لأن هناك فرصاً قوية لأن يوجد إلى جانبه مدرس آخر يتطلب فى اللغة الدقة والصحة وقواعد الإملاء. ولكن لنفترض حتى أن مؤسسة تعليمية بأكملها قد تحولت، فإن توقعات الفرص المتاحة للتلاميذ فى السوق تجذبهم إلى ممارسة رقابة متوقعة، كما سيلزم كثير من الوقت لكى يتنازلوا عن تصحيحهم العادى والزائد الذى يظهر فى كل المواقف على نحو لغوى أى على نحو اجتماعى مختل الانساق (وعلى الاخص فى موقف التحقيق البحثى). ولم يصحح كل إنجاز لابلوف Labov ممكناً إلا مقابل كثير من الحيل والمراوغات الهادفة إلى تدمير ما هو مصطنع لغوياً، وهو الناشئ عن حقيقة وحيدة، عن إقامة علاقة بين «مؤهل» و«غير مؤهل» بين متكلم أعطى صلاحية ومتكلم لا يشعر بأنه أعطى تلك الصلاحية، وبالمثل فليس كل العمل الذى قمنا به فيما يتعلق بالثقافة إلا محاولة التغلب على آثار فرص الشرعية التى لا يحققها إلا طرح أسئلة حول الثقافة. أى طرح أسئلة حول الثقافة فى موقف تحقيق بحثى (وهو يشبه موقفنا تعليمياً) على مفحوصين لا يظنون أنفسهم مثقفين، سوف يستبعد من خطابهم ما الذى يجذب اهتمامهم

بحق، لذلك سيبحثون عن كل ما يستطيع أن يشبه الثقافة، وهكذا فعندما يكون السؤال هل تحب الموسيقى؟ لن نسمع أبداً «أنا أحب داليدا» بل سنسمع «أنا أحب فالدسات ستراوس». لأن ذلك هو ما يشبه فى الفهم الشعبى السائد إلى أكبر مدى الفكرة الرائجة عما يحبه البوزجوازبون. وفى جميع الملابس الثورية يصطلم أصحاب النزعة الثورية دائماً بهذا النوع من انتقام قوانين السوق التى تبدو وكأنها تؤكد نفسها بأكبر قدر حينما يظن الناس أنهم ينتهكونها.

ولنرجع إلى ما كان نقطة انطلاق هذا الاستطرد، فما الذى يحدد دواعى القبول؟ إن المدرس حر فى أن يتنازل عن دور «سيد الكلمة» الذى عندما يخلق غمطاً معيناً من الموقف اللغوى أو حينما يترك الحرية لمنطق الأشياء نفسه (المنصة والكرسى ومكبر الصوت والمسافة وتطبع التلاميذ) أو حينما يطلق حرية القوانين التى تنتج غمطاً معيناً من الخطاب فإنه ينتج غمطاً معيناً من اللغة ليس لدى نفسه فحسب بل لدى محادثيه أيضاً. ولكن بأى قدر يستطيع المدرس أن يدخل تعديلات على قوانين دواعى القبول دون أن يدخل فى تناقضات غير معتادة طوال الفترة التى لم تتغير فيها هذه القوانين العامة؟ اهذا هو السبب فى أن تجربة الشفاهى مثيرة للاهتمام من جميع النواحي. فليس من المستطاع المساس بمثل هذا الشئ المحورى والبديهى فى الوقت نفسه، دون طرح أشد الأسئلة ثورية عن نظام التعليم: فهل من الممكن تغيير اللغة فى نظام التعليم دون تغيير كل القوانين التى تحدد قيمة المنتجات اللغوية للفصول (للصفوف) المختلفة فى السوق، ودون تغيير علاقات السيطرة فى النظام اللغوى؟ أى دون تغيير علاقات السيطرة عموماً؟

وسألنا هنا إلى ماثلة أتردد فى صياغتها على الرغم من أنها تبدو لى ضرورة، الماثلة بين أزمة تدريس الفرنسية وأزمة الطقوس الدينية. فالطقس لغة شعائرية لها قالب رمزى (شفرى) بالكامل (يتعلق بالحركات أو الألفاظ)، كما أن تعاقب مفرداتها قابل للتنبؤ بالكامل. وأداء الطقس باللاتينية هو الشكل الحدى (الأقصى) للغة على الرغم من أنها لغة غير مفهومة؛ إلا أنها لكونها قد قُوضت الصلاحية فستظل تعمل -فى شروط معينة، بوصفها لغة- على إرضاء الذين يرسلونها والذين يستقبلونها. ولكن فى أوضاع الأزمة تكف تلك اللغة عن العمل، ولا تحدث تأثيرها الرئيسى وهو دفع الناس إلى الإيمان والتبجيل والتسليم، أى إلى القبول المقتنع حتى إذا لم يفهموها.

إن السؤال الذى تطرحه الأزمة فى الطقوس، فى تلك اللغة التى لم تعد تعمل،

ولم يعد يفهمها الكثيرون والتي لم يعد يؤمن بها الناس، هو سؤال عن العلاقة بين اللغة والمؤسسة. فعندما تكون لغة ما فى أزمة، وحينما يُطرح السؤال عن معرفة أى لغة نتكلم، فذلك معناه أن المؤسسة هى التى تكون فى أزمة، وذلك يطرح السؤال عن السلطة التى تمنح التفويض - السلطة التى تقول كيف نتكلم والتي تعطى للكلام السلطة والترخيص.

وبهذه الانعطافة عبر مثال الكنيسة أردت أن أ طرح السؤال التالى: هل الأزمة اللغوية قابلة للانفصال عن أزمة المؤسسة التعليمية؟ أليست أزمة المؤسسة اللغوية التجلى البسيط لأزمة المؤسسة التعليمية؟ فلم يكن تعليم الفرنسية فى تعريفه التقليدى فى الطور العصى لنظام التعليم الفرنسى يُعد مشكلة، لقد كان مدرس الفرنسية شديد الثقة، فقد كان يعرف ما ينبغى عليه تدريسه وكيف يدرسه، ويلتقى بتلاميذ على استعداد للإصغاء إليه ولتفهمه وبأباء متعاطفين مقدرين لهذا التفهم. وفى ها الرضع كان مدرس الفرنسية أشبه بمرتل القداس، فقد كان يقيم قداسا لعبادة اللغة الفرنسية، وكان يدافع عن اللغة الفرنسية ويعلى من شأنها، ويعزز فيها القيم المقدسة. ويعمله هذا كان يدافع عن قيمه المقدسة الخاصة: وذلك شديد الأهمية لأن المعنويات والعقيدة هما وعى بمصالحه الخاصة محتجب عنه. أما اذا استثارت أزمة تعليم اللغة الفرنسية أزمات شخصية على تلك الدرجة من الحدة، وعنيفة على هذه الدرجة من الضخامة التى شوهدت فى مايو ١٩٦٨ وفى أعقابها فذلك لأن عددا معينا من الناس من خلال قيمة نتاج السوق هذا الذى هو اللغة الفرنسية، كانوا يدافعون وظهرهم إلى الحائط عن قيمتهم الخاصة، عن رأس مالهم الخاص. انهم مستعدون للموت من أجل الفرنسية أو من أجل القواعد الصحيحة للإملاء، كما أن الذين أمضوا خمس عشرة سنة من حياتهم فى تعلم اللغة اللاتينية حينما صارت لغتهم منتقصة القيمة بفترة صاروا مثل حائزى القروض الروسية القيصرية (التي بلا قيمة) وكان أحد نتائج الأزمة هو توجيه الاستجواب نحو الشروط المضرة، نحو الافتراضات المسبقة لسيروية النظام. وصار من المستطاع حينما كشفت الأزمة عن عدد من الافتراضات المسبقة طرح السؤال النسقى عن الافتراضات المسبقة والتساؤل عما يهيج أن يكون عليه الموقف اللغوى التعليمى الذى تكف فيه المشكلات المطروحة فى موقف الأزمة عن طرح نفسها. وتنضم اللغويات الأكثر تقدما إلى السوسيولوجيا بالفعل فى هذه النقطة؛ فالمرسوع الأول للباحث فى اللغة هو تفسير الافتراضات المسبقة للاتصال. فالأمر الجوهري فيما يحدث فى الاتصال ليس داخل الاتصال: وعلى سبيل المثال فالأمر الجوهري

فى اتصال من قبيل الاتصال التربوى (التعليمى) مائل فى الشروط الاجتماعية لإمكان الاتصال. وفى حالة الشعائر الدينية فلكى تواصل الطقوس الرومانية عملها ينبغى أن يتم انتاج نوع معين من الذين ييثون أو يرسلون الإشارات، ونوع معين من المستقبلين. فينبغى أن يكون المستقبلون على استعداد للإقرار بسلطة المرسلين، وألا يتكلم المرسلون على مسئوليتهم الخاصة بل هم يتكلمون دائما باعتبارهم مفوضين، قسما موكلين أو منتدبين ولا يعطون لأنفسهم أبدا سلطة أن يحدوا بأنفسهم ما ينبغى قوله وما لا ينبغى.

والأمر مماثل لذلك فى التعليم. فلكى يعمل خطاب التدريس المعتاد، المنطوق به والمتلقى باعتباره طبيعيا تلقائيا ينبغى وجود صلة السلطة/ الإيمان، أى علاقة بين مُرسل قد حُرِّل سلطة وبين مستقبل مستعد لتلقى ما يقال، والإيمان بأن ما يقال يستحق أن يقال. فينبغى إذن أن يكون المستقبل المستعد للتلقى قد جرى إنتاجه، وليس الوضع التربوى أو التعليمى هو الذى ينتجه.

ونوجز ما سبق على نحو مجرد سريع: يفترض الاتصال فى مواقف السلطة التربوية مُرسلين شرعيين، ومستقبلين شرعيين، وموقفا شرعيا، ولغة شرعية. ينبغى إذن وجود مرسل شرعى، أى شخص ما يعترف بالقوانين المضرة للنظام، وهو بهذه الصفة معترف به وقد اختير عضوا بين أقرانه. كما ينبغى وجود هؤلاء المرسل إليهم الذين يعترف بهم المرسل باعتبارهم جديرين بالتلقى، ويفترض ذلك أن المرسل له سلطة الاستعداد ويستطيع إقصاء «الذين لا يجب أن يكونوا فى هذا المكان»، ولكن ليس ذلك كل شئ، فينبغى وجود تلاميذ على استعداد للاعتراف بالمدرس باعتباره مدرسا، وأولياء أمور يفتحون ما يشبه الاعتماد (الاثتمان) أو شيكا على بياض للمدرس. كما ينبغى أيضا من الناحية المثالية أن يكون المتلقون متجانسين نسبيا من حيث اللغة (أى من الناحية الاجتماعية). ومتجانسين فى معرفة اللغة وفى الاعتراف باللغة، وألا تعمل بنية المجموعة بوصفها نظاما للرقابة قادرا على منع اللغة التى يجب استخدامها.

وفى بعض المجموعات المدرسية التى يغلب عليها الطابع الشعبى فإن أطفال الطبقات الشعبية يستطيعون فرض المعيار اللغوى لوسطهم وإفقاد الاعتبار لمعايير هؤلاء الذين يسميهم لايوف labov الموزولين أو الحائرين الذين يستعملون لغة «تتمشى» مع المدرسين وهى لغة مدللة متساهلة، ومتعلقة بعض الشئ. ويمكن إذن أن يحدث أن يصطدم المعيار اللغوى المدرسى فى بعض الهياكل الاجتماعية بمعيار مضاد (وعلى العكس فى

بعض الهياكل حيث السيادة للبورجوازية، فإن رقابة مجموعة من المستويات تظل تُمارس فى نفس اتجاه رقابة المدرسين: فاللغة التى لم يطرأ عليها «تهذيب» تُمارس عليها رقابة ذاتية ولا يمكن إظهارها فى المواقف المدرسية).

أما الموقف الشرعى فهو شئ ما يتيح تدخل بنية المجموعة والحيز المؤسسى الذى تعمل داخله تلك المجموعة فى آن معا. فعلى سبيل المثال هناك مجمل العلامات المؤسسية الدالة على الأهمية وعلى الأخص لغة الأهمية، (وللغة الأهمية بلاغياتها الخاصة التى وظيفتها الإشارة إلى ما هو المهم فيما يقال).

ولغة الأهمية هذه تتعلق على وجه الخصوص بالمواقف المتميزة على منصة أو فى موقع رفيع .. الخ. وبين استراتيجيات التحكم فى مجموعة ما هناك التحكم فى بنى الحيز الخاص بها والعلامات المؤسسية للأهمية.

كما أن اللغة الشرعية هى لغة ذات أشكال صوتية وتراكيب شرعية، أى لغة تتفق مع المعايير المعتادة للسلامة النحوية وهى لغة تقول على الدوام بالإضافة إلى ما تقوله، أنها تقوله بطريقة سليمة. وبذلك تفسح الطريق للاعتقاد بأن ما تقوله صحيح، وهذه إحدى الطرق الأساسية لتحرير الباطل محل الحق. وبين الآثار السياسية للغة السائدة هناك هذا الأثر «ولقد قال قوله بطريقة جيدة، إذن أمام هذا القول فرص لأن يكون صوابا».

وهذا المجمل من الصفات التى تشكل نظاما والتى تلتقى معا فى الحالة العضوية لنظام مدرسى ما تحدد دواعى القبول الاجتماعى، والحالة التى تمر بها اللغة: فهى تُسمع (أى تُصَدَّق) وتُطاع ويوصى إليها (تُفهم). بل ويكاد يحدث الاتصال بواسطة أنصاف كلمات ومن صفات المواقف العضوية أن اللغة نفسها -الجزء اللغوى الخاص من الاتصال- ينحو إلى أن يصير ثانويا. وفى دور مرتل القداس الذى ينادى فى أغلب الأحوال بأساتذة (مدرسى) الفن أو الأدب، لا تكون اللغة على وجه التقريب أكثر من أصوات تعجب. فخطاب الاحتفال الخاص بنقاد الفن على سبيل المثال لا يقول شيئا أكثر أهمية من مجرد «صباحات التعجب» و«التعجب» هو التجربة الدينية الأساسية.

وفى وضع الأزمة ينهار نظام الائتمان المتبادل هذا، وتصبح الأزمة مماثلة لأزمة فى النقود: فالجميع يتسائلون عن الأوراق المتداولة جميعا خشية أن تكون أوراقا عتيقة تنتمى إلى الأوراق النقدية المسحوبة من التبادل التى أصدرتها حكومة الثورة الفرنسية (١٧٩٠-١٧٩٥).

وما من شيء يوضح الحرية غير المعتادة التي تعطى للمرسل إقتراناً للعوامل المراتية أفضل من ظاهرة «التصويب الأقل» hypocorrection وهي عكس ظاهرة «التصويب المفرط» hypercorrection، وهي ظاهرة مميزة للكلام البورجوازية الصغيرة، وليس التصويب الأقل ممكناً إلا لأن الذى ينتهك القاعدة (الرئيس السابق چيسكار ديستان على سبيل المثال حينما لا يقيم توافقاً نحوياً بين اسم المفعول Participe passé وفعل الملكية (avoir) يبدى فضلاً عن ذلك، بواسطة جوانب أخرى من لفظة مثل طريقة النطق، وكذلك بواسطة كل ما يكون عليه وكل ما يفعله أنه كان يستطيع الكلام بطريقة صحيحة.

فالموقف اللغوى لا يكون أبداً لغوياً على وجه الحصر، وسنجد غير كل الأسئلة المطروحة فى الاستخبار المأخوذ باعتباره نقطة انطلاق تلك الاسئلة الأخرى الأكثر جوهرية للغويات الاجتماعية وقد طرحت فى الوقت نفسه (ما هو الكلام المستند إلى السلطة؟ ما هى الشروط الاجتماعية لإمكان اتصال ما؟) وكذلك الاسئلة الجوهرية لسوسيولوجيا نظام التعليم التى تنتظم جميعاً حول السؤال النهائى للتفويض.

فالمدرس سواء أراد ذلك أم لم يردده، عرف ذلك أم لم يعرفه -وعلى الأخص حينما يظن نفسه حراً بلا قيود- يظل موثقاً أو مفوضاً لا يستطيع إعادة تحديد مهمته دون أن يدخل فى تناقضات، أو دون أن يضع متلقيه فى تناقضات؛ طالما أن قوانين السوق لم يقرأ عليها تحول، وهى القوانين التى يحدد المدرس بالقياس إليها سلباً أو إيجاباً القوانين ذات الاستقلال الذاتى النسبى للسوق الصغيرة التى يقيمها فى فصله الدراسى. وعلى سبيل المثال فإن مدرساً يرفض ملاحظة أو يرفض تصويب لغة تلاميذه، وهو يملك الحق فى فعل ذلك يستطيع إن فعل ذلك أن يعرض فرص تلاميذه داخل سوق الزواج أو السوق الاقتصادية للخطر حيث تواصل قوانين السوق اللغوية السائدة فرض نفسها. وهو أمر لا يجب أن يؤدى من أجل هذا السبب إلى الاستغناء أو الاستقالة.

ففكرة انتاج حيز مستقل مقتلع من قوانين السوق هى بوتوبيا خطيرة طالما أن المرء لا يطرح فى نفس الوقت مسألة شروط الإمكان السياسية لتعميم تلك 'ليوتوبيا'.

سؤال

من المثير للاهتمام دون شك التعمق فى فكرة القدرة اللغوية من أجل تجاوز نموذج تشومسكى Chomsky عن المرسل المتكلم المثالى، ومع ذلك فإن تحليلاتك للقدرة بمعنى كل ما يمنح الشرعية للقول هى أحيانا عاتمة بما يكفى، وعلى الأخص تحليلك للسوق، فأحيانا أنت تفهم مصطلح السوق بالمعنى الاقتصادى وأحيانا أخرى تطابق بين السوق والتبادل داخل الموقف الكلى، ويبدو لى أن هنا التباسا. فضلا عن ذلك فانت لا تعكس بما يكفى واقعة أن الأزمة التى تتكلم عنها هى نوع من الأزمة الفرعية المرتبطة على نحو أكثر جوهرية بأزمة نظام يضمنا جميعا. لقد كان ينبغى إرهاب تحليل كل شروط مواقف التبادل اللغوى داخل الحيز المدرسى أو فى الحيز التربوى بالمعنى الواسع.

الإجابة

لقد استحضرت هنا نموذج القدرة اللغوية والسوق بعد تردد لأنه من الواضح تماما أن الدفاع الكامل عنهما كان يستوجب منى مزيدا من الوقت، وكان يقتادنى إلى تنمية تحليلات شديدة التجريد لا تقهر كل الناس على الاهتمام بها. وأنا مفتبط لأن سؤالك يسمح لى بإدخال بعض التدقيق فأنا أعطي لكلمة السوق معنى واسعا جدا. ويبدو لى من المشروع تماما أن أصف بكلمة السوق اللغوية العلاقة بين خادمتين تتحدثان فى الشارع مثلما أصف بها الحيز المدرسى وموقف المقابلات أو اللقاءات لتجديد الكوادر.

فما هو موضع سؤال منذ أن يشرع متكلمان فى الحديث هو العلاقة الموضوعية بين قدرتيهما، وليست قدرتاها اللغوية فحسب (تمكنهما التام إلى هذه الدرجة أوتلك من اللغة الشرعية)، بل أيضا مجمل قدرتيهما الاجتماعية، حقهما فى الكلام الذى يعتمد موضوعيا على جنس كل منهما وعمره ودينه ووضعه الاقتصادى ووضعه

الاجتماعى، وبالمثل على معلومات من المستطاع أن تُعرف مقدما أو يمكن استباقها من خلال مؤشرات لا تكاد تدرک (إنه مؤدب ومعه وردة صغيرة .. الخ). وهذه العلاقة تعطى للسوق بنيتها وتحدد نطا معينا من قانون تكوين السعر. فهناك اقتصاد جزئى واقتصاد كلى للمنتجات اللغوية، بشرط أن يكون مفهوما أن الاقتصاد الجزئى ليس مستقلا قط بالنسبة إلى القوانين الاقتصادية الكلية. فعلى سبيل المثال من الملاحظ فى موقف ثنائية اللغة أن المتكلم يغير اللغة بطريقة لا مصادفة فيها. وقد استطعت أن ألاحظ فى الجزائر مثلاً لاحظت فى قرية بيارنيه Béarnais (المنطقة الشرقية من البيرنيه الأطلسى اندمجت مع فرنسا منذ حكم لويس الثالث عشر)، أن الناس يغيرون اللغة تبعاً للموضوع الذى يتناولونه، ولكن أيضاً تبعاً للسوق، وتبعاً لبنية العلاقة بين المتكلمين، فالنزوع إلى تبني اللغة السائدة يتقاطع مع وضع الذى يتجه إليه الحديث داخل التراتب المتوقع للقدرات اللغوية؛ فلو توجه الحديث إلى شخص ما يُعتبر ذا أهمية فسيفرض المرء على نفسه أن يخاطبه بأفضل فرنسية ممكنة فاللغة السائدة تسيطر على نحو متزايد بمقدار ما تكون السيطرة أكثر اكتمالاً على السوق المعينة. ويزداد احتمال أن يتبنى المتكلم الفرنسية للتعبير عن نفسه بقدر ما تكون السوق خاضعة للسيطرة من جانب أصحاب اللغة السائدة؛ وعلى سبيل المثال فى المواقف الرسمية. وبعد الموقف المدرسى جزءاً من سلسلة الأسواق الرسمية. ولن نجد فى هذا التحليل نزعة اقتصادية. فالأمر لا يتعلق بقول إن كل سوق هى سوق اقتصادية. ولكن لا ينفي مواصلة القول إنه لا توجد سوق لغوية لا تشتبك على مبعدة تزداد أو تنقص بالرهانات الاقتصادية.

أما بالنسبة للقسم الثانى من السؤال، فهو يطرح مشكلة الحق العلمى فى التجريد، فإن القيام بتجريد عدد معين من الأشياء لا يتوقف، كما يجرى العمل فى الحيز الذى تم تحديده على هذا النحو.

سؤال

فى النظام المدرسى كما قمت بتحديدده وفقاً لهذا المجلد من الصفات، أظن أن التعليم يحتفظ أو لا يحتفظ بهامش معين للمناورة، وأى هامش هو؟

إجابة

هذا السؤال شديد الصعوبة، ولكننى أظن أن الرد بالإيجاب فلو لم أكن مقتنعا بأن هناك هامش للمناورة لما كنت سأجى هنا.

وعلى نحو أكثر جدية، فعلى مستوى التحليل فإننى أظن أن إحدى العواقب العملية لما قلته هى أن وعيا ومعرفة بالقوانين التوعية للسوق اللغوية التى تتخذ منها طبقة معينة موقعا لها يستطيعان - مهما يكن الهدف المنشود (التحضير للبيكالوريا، تعلم الأدب الحديث أو اللغويات) - التحويل الكامل لطريقة التدريس.

ومن المهم معرفة أن الإنتاج اللغوى مدين بجزء رئيسى من خصائصه لبنية جمهور المتلقين. ويكفى الاسترشاد ببطاقات معلومات لتلاميذ فصل (صف ما) لادراك هذه البنية. ففى فصل (صف) ثلاثة أرباع تلاميذه من أبناء العمال، يجب الإلمام بضرورة الإفصاح عن الافتراضات المسبقة. وكل اتصال يريد لنفسه أن يكون فعالا يفترض أيضا معرفة بما يسميه علماء السوسولوجيا مجموعة مستويات الأقران، والمدرس يعرفها فممارسته التربوية يمكن أن تصطدم فى الفصل بممارسة تربوية مضادة، بثقافة مضادة، وهذه الثقافة المضادة - ويظل ذلك اختيارا - يستطيع هو عندما يحدد ما يريد ترميزه أن يناهضها فى حدود معينه؛ مما يفترض أنه يعرفها. ومعرفتها معناها على سبيل المثال معرفة الوزن النسبى للأشكال المختلفة من القدرة. وهناك بين التغيرات شديدة العمق التى حدثت فجأة فى النظام المدرسى الفرنسى، آثار كيفية لتحولات كمية: انطلاقا من عتية معينة إحصائية فى تمثيل أطفال الضبقات الشعبية داخل فصل ما، يتغير الجو الكلى للفصل وتتغير أشكال الضجيج ويتغير نمط العلاقة مع المدرسين، وبالمثل الكثير من الأشياء التى يمكن ملاحظتها وأخذها فى الحسبان عمليا.

ولكن كل ذلك لا يعنى إلا بالوسائل، وفى الواقع إن السوسولوجيا لا تستطيع الإجابة عن مسألة الغايات النهائية (ما الذى ينبغى تدريسه؟)، فهى تتحدد بينية العلاقات بين الطبقات. وتنتج التغيرات فى تعريف محتوى التعليم، بل والحريّة المتروكة للمدرسين لى يحبروا أزمته، عن حقيقة أن هناك أيضا أزمة فى التعريف السائد للمحتوى الشرعى، وعن أن (الطبقة السائدة تشغلها بالفعل) صراعات حول ما هو جدير بالتدريس.

وأنا لا أستطيع (فسيكون هذا اغتصابا، وسأسلك كما لو كنت متنبأ) تحديد مشروع التعليم؛ ولكننى أستطيع أن أقول ببساطة إن المدرسين يجب أن يعرفوا أنهم مفوضون وموكلون وأن تأثيرهم التنبؤى نفسه يفترض مجددا دعم المؤسسة. وليس معنى ذلك أنهم لا يجب أن يناضلوا من أجل أن يكونوا جزءا مكونا فعالا فى تحديد ما ينبغى عليهم تدريسه.

سؤال

لقد قدمتم مدرس الفرنسية باعتبارها المرسل الشرعى لخطاب شرعى هو انعكاس لإيدلوجية سائدة ولطبقات سائدة. من خلال أداة شديدة «التشبع» بهذه الإيدلوجية السائدة، أداة اللغة. ألا تعتقد أن هذا التعريف هو أيضا اختزالى جدا؟

فهناك فوق ذلك تناقض بين بداية عرضك والنهاية التى قلت فيها إن فصول (صفوف) اللغة الفرنسية والتمارين الشفهية يمكن لها أن تكون موقعا لاكتساب الوعى، وأن هذه اللغة نفسها التى استطاعت أن تكون ناقلة لنماذج الطبقات السائدة، تستطيع أيضا أن تقدم لهؤلاء الذين فى مواجهتنا، ولنا نحن أيضا شيئا ما هو وسيلة الوصول إلى استعمال الأدوات التى هى أدوات لاغنى عنها.

فإذا كنت أنا هنا فى هذا المكان العلمى فإن ذلك يرجع إلى أننى أظن أن اللغة هى أيضا أداة لها طريقتها الخاصة فى الاستعمال، وهى لن تعمل ما لم يحصل المرء على طريقة استعمالها. وذلك لأننا مقتنعون بأننا نتطلب مزيدا من الطابع العلمى فى دراسة تخصصنا، فما رأيك فى ذلك؟ أتظن أن

التبادل الشفوى أو المحادثة الشفهية فى الفصل
ليست إلا صورة لشرعية هى أيضا الشرعية
السياسية والاجتماعية؟ أليس الفصل الدراسى
أيضا موضوعا لتناقض موجود فى المجتمع.. هو
الصراع السياسى؟

إجابة

أنا لم أقل شيئا مما جعلتنى أقولها فأنا لا أقول إطلاقا إن اللغة كانت
الإيديولوجية السائدة. وأعتقد أننى حتى لم أنطق هنا بتعبير الإيديولوجية السائدة ...
ويشكل ذلك لى جزءا من ضروب سوء الفهم المحزنة جدا: فكل جهدى يتألف على
العكس من تحطيم الصيغ الالكية الجاهزة اللفظية والذهنية.

ما معنى شرعى؟ هذه الكلمة تقنية من المعجم السوسيلوجى أستعملها
بمعرفة وتبصر. لأن الكلمات التقنية وحدها هى التى تسمح بالكلام عن الأشياء الصعبة؛
ومن ثم بالتفكير فيها على نحو متسق دقيق. وأن تكون مؤسسة شرعية، أو أن يكون
فعل ما، أو استخدام سائد ومُتجاهل باعتباره كذلك شرعيا فمعناه أن يكون معترفا به
ضمنيا. فاللغة التى يستخدمها المدرسون، واللغة التى تستخدمها لمخاطبتى «صوت: أنت
أيضا تستخدمها». بكل تأكيد. أنا أستخدامها ولكننى أنفق وقتى فى قول إننى أفعل
ذلك فاللغة التى نستخدمها نحن فى هذا الحيز هى لغة سائدة متجاهلة بوصفها سائدة أى
معترف بها ضمنا بوصفها شرعية. إنها لغة تنتج ما هو جوهرى من آثارها متخذة مظهر
أنها ليست ما هى عليه. ومن ثم يبرز السؤال: إذا كان حقا أننا نتكلم لغة شرعية، أليكون
كل ما نستطيع قوله بهذه اللغة مصطنعا بموها (غير طبيعى)، حتى إذا وضعنا تلك
الوسيلة فى خدمة نقل مضامين تريد أن تكون نقدية؟ وهناك سؤال جوهرى: هذه اللغة
السائدة والمتجاهلة بوصفها سائدة، أى المعترف بأنها شرعية، أليست ذات صلة قبرى
بمضامين معينة؟ ألا تمارس تأثيرات رقابية؟ ألا تجعل أشياء معينة صعبة أو مستحيلة
القول؟ هذه اللغة الشرعية ألم تُصنع -بين أشياء أخرى- من أجل منع الكلام بصراحة؟،
ولم يكن من الواجب أن أقول «تصنع من أجل» (وأحد مبادئ السوسيلوجيا هو الطعن
فى صحة النزعة الوظيفية فى صورتها الرديئة، فالآليات الاجتماعية ليست نتاج مقصد

مكيافلئ، فهى أكثر ذكاء إلى حد كبير من أذكى السادة المسيطرين) ولنقدم مثالا لا نزاع فيه، ففى النظام المدرسى أعتقد أن اللغة الشرعية ذات صلة قرابة بعلاقة معينة بالنص الذى ينكر (بالمعنى الذى يقدمه التحليل النفسى للإتكار- أى العملية اللاشعورية التى يتم بها تجاهل أشياء من الواقع لأنها غير مقبولة) العلاقة بالواقع الاجتماعى التى يتكلم عنها النص. وإذا كانت النصوص يقرؤها هؤلاء الذى يقرؤونها بتلك الطريقة التى تجعلهم لا يقرؤونها، فإن جانبنا كبيرا من ذلك يرجع إلى أن هؤلاء قد تشكلوا على أن يتكلموا لغة يدور فيها الكلام لكى يقول المرء إنه لا يقول ما يقوله. فمن خصائص اللغة الشرعية إنها على وجه الدقة تقوم بنزع الطابع الواقعى déréaliser عما نقوله. وقد قال ذلك جان كلود شيفالييه Jean Claude Chevalier على شكل دعاية: «هل تظل المدرسة التى تدرس الشفاهى مدرسة؟، هل اللغة الشفاهية التى تدرس فى المدرسة شفاهية؟»

وسأخذ مثالا شديد الدقة فى مجال السياسة، لقد راعنى عند اصطدامى بواقع أن المتحدثين أنفسهم الذين فى موقف الثروة يقومون بتحليلات سياسية باللغة التعقيد للعلاقات بين الإدارة والعمال والنقابات وفروعها المحلية، قد أصبحوا منزوعى السلاح أو بلا حول، وليس لديهم عمليا ما يقولونه إلا بعض التوافه بمجرد أن أطرح عليهم أسئلة من قبيل الأسئلة التى تطرح فى استطلاعات الرأى أو فى الرسائل الجامعية. أى أسئلة تتطلب انتهاج أسلوب يقوم على الكلام بصيغة معينة لا تطرح أبدا السؤال عما هو صواب (حق) أو خطأ (باطل). فالنظام التعليمى لا يدرس لغة فحسب، بل علاقة باللغة متضامنه مع علاقة بالأشياء، وعلاقة بالكائنات وعلاقة بالعالم قد جرى نزع الطابع الواقعى عنها تماما.



ستجد تطورات تكلمية فى كتابات بورديو:
صنية اللغة، واقتصاد المبادلات اللغوية، واللغة ذات الصلاحية: ملاحظة على الشروط الاجتماعية
لكفاة الخطاب الطبسى.

هوامش المترجم « للفصل الثامن »

١- ناعوم تشومسكى Noam Chomsky، عالم اللغة الأمريكى صاحب الاتجاه التوليدي التحويلي، وعنده أن هناك تقابلا بين القدرة اللغوية والأداء اللغوى فالقدرة هى مجموع الإمكانيات المتاحة لدى متكلم للغة ما ، امكانيات بناء عدد لا متناه من العبارات الصحيحة نحويا والتعرف عليها، وتفسير ما يكون له معنى بينما (وهو عدد متناه)، وعزل العبارات الملتبسة والشعور بأن بعض الجمل المختلفة صوتيا متشابهة نحويا، وأن بعضها المتقارب صوتيا مختلف نحويا، وهذه الإمكانيات مشتركة بين كل المتكلمين بلغة ما.



الفصل التاسع

بعض خصائص المجالات (*)

يقدم كل مجال نفسه إلى الإدراك المتزامن Synchronique (الآتى). بوصفه
حيزا تنتظم عناصره فى بنية من المواقع (أو من المراكز)؛ التى تعتمد خصائصها على
مكانها فى هذا الحيز، والتى يمكن تحليلها باستقلال عن الصفات المميزة لشاغلها (فهى
محددة جزئيا بواسطة الموقع). وهناك قوانين عامة للمجالات فمجالات شديدة
الاختلاف مثل مجال السياسة ومجال الفلسفة ومجال الدين لها مع ذلك قوانين لا متغيرة
(ثابتة) من حيث السيرورة (وهذا ما يجعل مشروع نظرية عامة بعيدا عن الجنون،
ويجعل من المستطاع بدءا من الآن الإنفاذ مما نفهمه عن سيرورة كل مجال معين لطرح
الاسئلة وتفسير مجالات أخرى، متجاوزين بذلك التقيضة القائلة بين الدراسة المفردة
الكثيفة لتفاصيل حالة خاصة monographie idiographique والنظرية الشكلائية
الفارغة). وكل مرة يدرس فيها مجال جديد، سواء أكان مجال فقه اللغة فى القرن التاسع
عشر أو ابتكار الأزياء (الموضة) اليوم أو الدين فى العصر الوسيط تُكتشف سمات
نوعية، تخص مجالا معيناً، وفى الوقت نفسه تدفع إلى تقدم المعرفة بالآليات الشاملة
للمجالات التى تأخذ طابعا نوعيا تبعا لمتغيرات ثانوية. فعلى سبيل المثال تؤدى المتغيرات
القومية إلى أن تجعل آليات عامة مثل الصراع بين المطالبين بالسلطة والمسيطرين
عليها تأخذ أشكالا مختلفة، ولكن من المعروف أنه فى كل مجال ستجد صراعا، ينبغى
أن نبحث كل مرة عن أشكاله النوعية بين القادم الجديد الذى يحاول أن يقتحم مغاليق
حق الدخول، وبين صاحب السيطرة الذى يحاول الدفاع عن الاحتكار واستبعاد المنافسة
(المزاحمة).

(*) عرض قدم فى مدرسة المعلمين العليا E.N.S فى نوفمبر ١٩٧٦، على شرف مجموعة من علماء
اللغة ومؤرخى الأدب.

وحينما يتعلق الأمر بالمجال العلمى، فإن المجال يتحدد بين أشياء أخرى بتحديدته الرهانات والمصالح النوعية التى لا يمكن اختزالها إلى رهانات ومصالح خاصة بمجالات أخرى (فليس من المستطاع أن نجعل فيلسوفا يتسابق على رهان علماء الجغرافيا)، ولا يدركها كل من ليس مُعدًا مدربا للدخول فى هذا المجال (فكل زمرة من المصالح تستتبع علم الاكتراث بالمصالح الأخرى والاستثمارات الأخرى، التى تصبح مكرسة على هذا النحو لأن تُدرك بوصفها لا معقولة معتوهة أو جلييلة منزهة عن الغرض)، ولكى يعمل مجال ما ينبغي أن تكون هناك رهانات ولاعبون مستعدون لأن يلعبوا اللعبة ومزودون بالتطبيع الذى يتضمن معرفة القوانين الباطنة للعبة والرهانات .. إلخ والاعتراف بها.

فتطبيع فقيه اللغة (محقق التصوص) philologue هو فى آن معا «حرفة»، ورأس مال من التقنيات ومن المراجع، ومجموع متناسق من «المعتقدات»، مثل النزوع إلى إِبْلاء قدر من الأهمية للهوامش مماثل للمتون، وهى صفات تتعلق بالتاريخ (القومى والعالمى) الخاص بهذا الفرع من التخصص، وموقعه (الوسيط) فى تراتب التخصصات، والتى هى فى آن معا شرط سيروية المجال وتنتاج هذه السيروية (ولكن ليس على نحو متكامل: فالمجال المعين يستطيع أن يكتفى باستقبال وتكريس نَقط معين من التطبيع قد سبق تشكيله بالكامل إلى هذه الدرجة أو تلك).

إن بنية المجال هى حالة état لعلاقة القوة بين العناصر الفاعلة أو المؤسسات المشتبكة فى الصراع، أو إذا كان ذلك أفضل، هى حالة لتوزيع رأس المال النوعى الذى تراكم فى مجرى الصراعات السابقة وأصبح يوجه الاستراتيجيات التالية. وهذه البنية التى هى مصدر الاستراتيجيات الموجهة إلى تحويلها، هى نفسها مشاركة دائما فى اللعبة: فالصراعات التى يكون المجال مسرحا لها يصير رهانها احتكار العنف الشرعى (سلطة نوعية) وهو الصفة المميزة للمجال المعين، ويعنى ذلك فى النهاية الحفاظ على بنية توزيع رأس المال النوعى أو تدميرها (والكلام عن رأس المال النوعى يعنى ما يساويه رأس المال فى علاقته بمجال معين، ومن ثم داخل هذا المجال وأنه لا يقبل التحويل إلى نوع آخر من رأس المال إلا فى شروط معينة. ويكفيكم على سبيل المثال التفكير فى إخفاق بيبير كاردان Cardin حينما حاول أن يحول إلى الثقافة الراقية رأس مال قد تراكم فى مجال الأزياء الراقية. (وقد وجد أحد نقاد الفن من واجبه أن يؤكد أخيرا تفرقه البنيوى كعضو فى مجال أكثر شرعية بنيوية، بقوله إن كل ما فعله كاردان فى مادة الفن الشرعى كان

بغضاضا فافراضا على رأس ماله أعلى سعر فائدة وأعلى ضريبة للتحويل إلى ما لا يلائمه). وهؤلاء الذين يحتكرون (بالكامل إلى حد ما) الرأسمالى النوعى فى حالة معينة من علاقة القوة، وهو أساس السلطة أو النفوذ النوعى المميز لمجال ما، يميلون إلى استراتيجيات المحافظة، فهم فى مجالات إنتاج السلع الثقافية يميلون إلى الدفاع عن الأصولية (الارثوذكسية orthodoxie أى المعتقدات التى يعلن أصحابها عن أنها قوية ومعيارية). على حين أن الأقل تزودا برأس المال (وهم فى أغلب الأحوال القادمون الجدد كذلك ومن ثم فهم الأحداث سنا) يميلون إلى استراتيجيات التدمير، استراتيجيات الهرطقة hérésie (اختيار يرفض اتباع المذهب المقرر)، وهذه الهرطقة والآراء الغاييرة hetérodoxie باعتبارها قطيعة نقدية مرتبطة على الأغلب بأزمة العقيدة السائدة doxa (معضلة الخيار بين تأكيد العقيدة السائدة أو تعديلها بالشك والإنكار والافتراضات المضادة) هى التى تجعل المسيطرين يخرجون من صمتهم، كما تفرض عليهم أن ينتجوا الخطاب الدفاعى عن الأصولية (الأرثوذكسية)، الفكر المستقيم اليميني (كلمة droite الفرنسية تعنى المستقيم وتعنى اليمين) الهادف إلى استرجاع وتدعيم ما يعادل التمسك الصامت بالعقيدة.

وشمة خاصة أخرى للمجال كانت ماثية على نحو أقل: فكل الذين ينغمسون فى مجال ما يجمعهم معا عدد معين من المصالح الأساسية أى كل ما هو مرتبط بوجود المجال فى ذاته، ومن هنا ثمة تواطؤ موضوعى أساسى ضمنى وراء كل التناحرات وقد ينسى المرء أن الصراع يفترض اتفاقا بين المتناحرين حول ما يستحق الصراع، وحول ما هو مسكوت عنه مكبوت فى البديهي، متروك فى حالة العقيدة السائدة، أى كل ما يشكل المجال نفسه، اللعب والرهانات وكل الافتراضات المسبقة التى تُقبل فى صمت، حتى دون معرفتها، بواسطة واقعة اللعب والدخول فى اللعبة. ويسهم كل الذين يشاركون فى الصراع فى إعادة إنتاج اللعبة بإسهام مهم إلى هذه الدرجة أو تلك وقد يكون بالكامل حسب المجالات فى إنتاج الإيمان بقيمة الرهانات. أما القادمون الجدد فيجب أن يدفعوا مقابل حق الدخول، وهو عبارة عن الاعتراف بقيمة اللعبة (إن اختيار الأعضاء الجدد وضمهم يولى دائما كثيرا من الاهتمام إلى مؤشرات الانغماس فى اللعبة والاستثمار)، والمعرفة (العملية) بمبادئ سيرورة اللعب. إنهم مُكرسون لاستراتيجيات التقويض ولكنهم يظلون قابعين فى حدود معينة خشية الاستبعاد. وفى الواقع إن الثورات الجزئية التى

تكون المجالات على نحو مستمر مسرحا لها لا تطرح للتساؤل أسس اللعبة نفسها وإطار بدهياتها الجوهرى، وقاعدة المعتقدات النهائية التى تركز عليها اللعبة بأكملها.. وعلى العكس، ففى مجالات إنتاج السلع الثقافية، الدين والأدب والفن ينسب التدمير الهرطقى نفسه إلى المتابع والأصول والروح وحقيقة اللعبة ويطالب بالرجوع إليها ضد فرض الابتذال والانحطاط اللذين جعلهما موضوعا له (وأحد العوامل التى تصنع الألعاب المختلفة فى مأمن من الثورات الشاملة التى طبيعتها أن تدمر لا المسيطرين والسيطرة فحسب بل اللعبة نفسها، وتلك على وجه الدقة هى أهمية الاستثمار فى الوقت والجهود ... الخ التى يفترضها الدخول فى اللعبة والتى هى مثل الاختبارات الشاقة فى طقوس الانتقال (تعبير للاثنوبولوجى فان جنيب Van Geunep يعنى به الطقوس التى يمارسها الأفراد عند اجتيازهم مرحلة من مراحل النمر البيولوجى أو الاجتماعى) تسهم فى جعل التدمير الخالص البسيط للعبة غير قابل للعفك كغيره فهى عمليا. وهكذا فإن قطاعات بأكملها من الثقافة وعلى الأخص قطاع فقهاء اللغة (محققو النصوص) -فأنا لأستطيع أن أمتنع نفسى من التفكير فى الفيلولوجيا- قد أنقذوا السعر الباهظ الذى يفترضه امتلاك معارف ضرورية لتدمير أشكالها).

وعبر المعرفة العملية بمبادئ اللعبة المتطلبية ضمنا من القادمين الجدد، يصير كل تاريخ اللعبة وكل ماضيها حاضرا فى كل فعل من أفعال اللعب. وليس من قبيل المصادفة أن من المؤشرات التى تحوز أكبر ثقة عند تشكيل مجال ما، حضور آثار من العلاقة الموضوعية (وأحيانا تكون واعية) داخل عمل معين بينه وبين الأعمال الأخرى ماضية أو معاصرة، وظهور كتلة من حفظة أوجه حياة الشخصيات -كتاب السير الشخصية- وأعمال يقدمها فقهاء اللغة ومؤرخو الفن والأدب الذين يشرعون فى تصنيف المخططات الإجمالية، واللوحات والمخططات وفى تصويبها (إن حق والتصويب هو العنف الشرعى لمحقق النصوص)، وفى فك رموزها .. الخ، ووجود الكثيرين الذين يتفقون على المحافظة على ما يظهر فى المجال، الذين لهم مصلحة فى المحافظة والبقاء سالمين. ومن المؤشرات الأخرى لسيروية المجال بوصفه كذلك، هو ذلك الأثر لتاريخ المجال فى النتائج (وحتى فى حياة المنتج). وينفى القيام بتحليل على غرار التقابل بالنضاد a contrario لتأريخ العلاقات بين رسام يقال عنه «ساذج» (أى دخل المجال جزئيا عن طريق الخطأ دون أن يؤدى حق الدخول ودون أن يدفع الرسم المقرر) مثل موظف الجمرك

روسو Rousseau (هنرى روسو ١٨٤٤ - ١٨١٠) الفنان الذى علم نفسه بنفسه) وقد أشاد بموهبته فنانون معاصرون مثل جارى Garry وأبولينير Apollinaire^(١) أو بيكاسو Picasso وقد لعبوا (بالمعنى الصحيح للعب بكل أنواع الحيل المليئة بالرغبة فى فعل الخير إلى هذه الدرجة أوتلك) بهذا الذى لم يكن يعرف كيف يلعب اللعبة، والذى كان يعلم بأن يكون بوجيرو Bouguereau أو برنا Bonnat (مصور الوجوه) فى عصر المستقبلية والتكعيبية، والذى كسر اللعبة، ولكن رغما عن إرادته ودون أن يعرف ذلك فى جميع الأحوال، مثل الكلب فى لعبة الأوتاد حيث لا يحتاجه أحد، دون وعى بالكامل على العكس من أمثال دوشان Duchamp^(٢) أو حتى ساتى Satie^(٣) الذين يعرفون منطق المجال بما يكفى لتحديه واستغلاله فى نفس الوقت. وينبغى أيضا تحليل تاريخ التفسير اللاحق للعمل، الذى يستفيد من تعدد التفسيرات فيدمجها فى النسق أى فى التاريخ، ويبدل جهده لكى يجعل من تصوير عطله الأحد (والمبادئ الجمالية لتصويرها مثل مبدأ المواجهة الفظة وهى نفس المبادئ التى ينفسم فيها أعضاء الطبقات الشعبية عند التقاط صورهم الفوتوغرافية) عملا ثوريا واعيا وملهما.

وهناك أثر للمجال حينما لا يعود المرء قادرا على فهم عمل ما (والقيمة أى الاعتقاد المناط به) دون معرفة تاريخ المجال الخاص بإنتاج العمل. والذى بواسطته يجد الشراح والمعتقون والمفسرون والمؤرخون وأساتذة العلامات ومحققو النصوص الآخرون مبررا لوجودهم باعتبارهم القادرين على تبرير العمل وعلى الاعتراف بالقيمة التى هو موضوع لها. إن سوسيولوجيا الفن أو الأدب التى تربط على نحو مباشر بين الأعمال وبين وضع منتجها أو زبائنهم فى الحيز الاجتماعى (الطبقة الاجتماعية) دون اعتبار لوضعهم فى مجال الانتاج (وهو اختزال لا تبرير له عند الاقتضاء إلا لدى «السذج») تخفى كل ما يدين به العمل إلى المجال وإلى تاريخه أى بدقة شديدة ما بجعل منه عملا من أعمال الفن أو العلم أو الفلسفة. إن مشكلة فلسفية (أو علمية .. الخ) شرعية هى مشكلة يعترف بها الفلاسفة (أو العلماء .. الخ) بالمعنى المزودج بوصفها شرعية (لأنها مسجلة فى منطق تاريخ المجال وفى نصوصه المؤسسة تاريخيا من أجل الانتماء إلى المجال وبواسطته وهى بموجب السلطة النوعية التى يعترف لها بها تمتلك كل الفرص لأن يُعترف بها على نطاق واسع باعتبارها شرعيته وهنا أيضا يكون مثال السذج هاديا منيرا. إنهم قوم يجدون أنفسهم وقد قذف بهم باسم إشكالية يجهلون عنها كل شئ إلى

وضع رسامين أو كتاب (وثنورين بالإضافة إل ذلك): التناعلات اللفظية لجان پيرير برسيمه Jean pierre Brisset ، متتابعاته الطويلة من الصيغ اللغوية ومن الجنس ومن الكلام المبتور اللى يقدمها إلى الجمعيات العلمية وإلى المؤتمرات الأكاديمية، تظل بخطاً فى المجال يشهد على براءته بمشابة تخيلات جامعة لمخبول، ولكن قد يرى فيها أول الأمر إن كانت «باتا فيزيقا»^(٤) جارى Jarry والجناس اللفظى لأبولينير أو دوشان، والكتابة الآلية التلقائية للسريالين قد خلقت الإشكالية اللى تستطيع تلك الكتابات بالرجوع إليها أن تكتسب معنى. إن شعراء الموضوع المحسوس ورسامى الموضوع المحسوس، والثنورين الموضوعيين يسمحون بأن نلاحظ فى الحالة المعزولة سلطة تحويل طبيعة المجال. ولا تمارس تلك السلطة بقدر أقل وإن يمكن على نحو أقل جاذبية وأكثر رسوخا على أعمال المحترفين الذين يعرفون اللعبة أى تاريخ اللعبة والإشكالية ويعرفون ماذا يفعلون (وهذا دون أن نقول شيئا عن الهازئين)، بحيث أن الضرورة اللى تكشف عنها القراءة التبجيلية لا تظهر بجلاء بديهى كأنها نتاج مصادفة موضوعية (وهى كذلك أيضا، وبالمثل بمقدار ما نفترض انسجاما عجائبيا بين استعداد فلسفى وحالة من التوقعات المسجلة فى المجال). إهيدجر، وهو فى الأغلب نظير لإشبنجلر أو ليونجر Junger مر بموجة المجال الفلسفى. وكان عليه أن نقول أشياء بسيطة جدا: التقنية إنها انحدار القرب؛ فمنذ زمن ديكارت يسير كل شئ من السئ إلى الأسوء .. إلخ. إن المجال أو بطريقة أدق تطيع المحترف المتوافق مقدماً مع مقتضيات المجال (على سبيل المثال مع التعريف السائد للإشكالية الشرعية) سيعمل كأداة للتفسير والترجمة: وأن تكون «ثوريا محافظا» فى الفلسفة معناه تثوير صورة الفلسفة الكانطيه بتوضيح أن فى جذر تلك الفلسفة اللى تقدم نفسها باعتبارها نقدا للميتافيزيقا تكمن الميتافيزيقا. وهذا التحويل النقى للمشاكل والتيمات ليس نتاجا لبحث واع (ومحسوب بطريقة متشككة)، ولكنه نتيجة آلية للانتماء إلى المجال للتمكن من التاريخ النوعى للمجال الذى يلزم عن ذلك. فأن تكون فليسوفا معناه الإحاطة بكل ما ينبغى الإحاطة به من تاريخ الفلسفة لكى تعرف كيف تسلك بوصفك فيلسوفا فى مجال فلسفى.

ويجب أن أصر مرة ثانية على حقيقة أن مبدأ الاستراتيجيات الفلسفية (أو الأدبية .. إلخ) ليس الحساب المدقق المتشكك، أو البحث الواعى عن أكبر ربح نوعى، بل علاقة غير واعية بين تطيع ومجال. فالاستراتيجيات اللى أتكلم عنها هى أفعال

موجهة موضوعيا بالنسبة إلى غايات تستطيع الا تكون الغايات المستهدفة ذاتيا. وتهدف نظرية التطبيع إلى تأسيس إمكان علم للممارسات التي تتجنب البديلين: النزعة الغائية والنزعة الآلية (الميكانيكية). (إن كلمة مصلحة التي استخدمتها مرارا هي أيضا شديدة الخطر، لأنها تغامر باستدعاء نزعة نفعية هي درجة الصفر في السوسيولوجيا. وبعد قول هذا ، فإن السوسيولوجيا لا تستطيع أن تستغنى عن بديهية المصلحة، مفهومة باعتبارها الاستثمار النوعي في الرهانات، الذي هو في آن معا شرط وتنتاج الانتماء إلى مجال ما). أما التطبيع، نظام الاستعدادات المكتسبة بواسطة التدريب (الاحتراف) المضرر أو الصريح الذي يعمل باعتباره نظاما للخطط المولدة فهو مولد لاستراتيجيات تستطيع أن تكون مطابقة على نحو موضوعي لمصالح موضوعية لمؤلفيها دون أن تكون مدركة على نحو صريح باعتبارها تستهدف تلك الغاية. وتلزم إعادة تربية كاملة لتجنب بديلين هما الغائية الساذجة (التي تذهب إلى القول على سبيل المثال أن «الثورة» التي قادت أبولينير إلى انتهاكات قصائده «يوم الاثنين شارع كريستين»، ومذهبه الشعري الجاهز ready made قد ألهمها اهتمامه بأن يضع نفسه على رأس الحركة التي افتتحها سندرار Cendrars^(٥) والمستقبلين أو ديلوني Delaunay^(٦)، وتجنب التفسير الميكانيكي (الذي يعتبر هذا التحويل أثرا مباشرا بسيطا لمحددات اجتماعية). وحينما لا يكون أمام الباحثين إلا أن يدعوا تطبعهم بعمل لكي يطبعوا الضرورة الكامنة في المجال ويلبوا المقتضيات التي توجد منقوشة داخله (وهذا ما يحدد لكل مجال تعريف الامتياز)، فإنهم لا يكونون واعين على الإطلاق بالتضحية من أجل واجب ما، بل وبدرجة أقل بالبحث عن أكبر ربح (نوعى). وسيكون لديهم إذن ذلك الربح الإضافي المائل في أن يروا أنفسهم وأن يراهم الناس باعتبارهم متزيين تماما عن الأغراض.



« زيامش المعرجم » للفصل التاسع

- ١- ألفرد جارى Harry (١٨٧٣-١٩٠٧) كاتب فرنسى، مؤلف ثلاثية أوبرا المسرحية، من أسلاف السريالية. وأبولينير Apollinaire (١٨٨٠-١٩١٨) كاتب وشاعر ومنظر فرنسى من مؤسسى الطليعة الفنية.
- ٢- مارسل دو شان Marcel Duchamp (١٨٨٧-١٩٦٨) رسام فرنسى اقترى من المستقبلية - فى لوحة ال اوية تهبط الدرج، اتجه بعد ذلك بعيدا عن الرسم، نحو الأشياء الجاهزة المعتادة فى الحياة اليومية، وتحولها إلى أعمال فنية. وفى نيويورك كان من رواد الدادية بدءاً من ١٩١٥، ثم الفن الشعبى والحديث والفن الأسورى والفن المضاد.
- ٣- ألفريد إريك ساتى Alfred Erik Satie (١٨٦٦-١٩٢٥) ملحن فرنسى من رواد الدادية والسريالية، ثم الفن التجريبي المضاد.
- ٤- باتاغونى جارى الكتابة هزلية للفلسفة والعلم، والتي تعتبر أن الصفات الرمزية للأشياء هي سماتها المميزة، فالأشياء هي اسقاطات من صنع انفعالاتنا وافتراساتنا.
- ٥- بلوز سندوار Cendrars (١٨٨٧-١٩٦١) كاتب فرنسى من أصل سويسرى، وهو رحالة احتفى بنشوة المغامرة فى أشعاره ورواياته (الذهب والرجل المصعوق).
- ٦- روبر ديلونى Delannay (١٨٥٥-١٩٤١) رسام فرنسى من أوروقة أبولينير قدم للتكعيبية تنمية بلعب التقابلات، وصل إلى التجريد فى الأشكال الدائرية والاقناعية، والاختصار على لون خالص وإيقاعات.



الفصل العاشر

السوق اللغوية (*)

سأحاول عرض ما ينبغي قوله على نحو متتابع، أخذاً في الحسبان تنوع الجمهور الذي ما كان يمكن له أن يكون أكثر تفرقا عما هو الآن، بتنوع التخصصات ويتنوع القدرات داخل التخصصات .. الخ في آن معا، مخاطرا بأن أهدو شديد التبسيط لبعض الناس وكذلك شديد العجلة والتلميح لبعض آخر. وفي البداية سأقدم عددا من المفاهيم والمبادئ تبدو لى جوهرية آملا أن نستطيع بقية اليوم التدقيق والمناقشة والعودة إلى هذه النقطة أوتلك التى استطعت إثارتها فى عجلة شديدة.

وما أريده من حيث الجوهر هو توضيح نموذج شديد البساطة تمكن صياغته على النحو الآتى: تطبيع لغوى + سوق لغوية = تعبير لغوى أى خطاب. ومن هذه المعادلة شديدة العمومية سأمضى تباعا لشرح المصطلحات بدءا بفكرة التطبيع. ولكن على حذر كما أفعل دائما ضد الاتجاه نحو فرض طابع أقنومى على المفاهيم: فينبغى أخذ المفاهيم على محمل الجد والتحكم فيها وعلى الأخص جعلها تعمل تحت السيطرة وتحت الرقابة فى البحث. وبهذه الطريقة تتحسن تدريجيا وليس بواسطة التحكم المنطقى الخالص الذى يحولها إلى حفریات. إن مفهوما جيدا - وهذه هى حالة مفهوم التطبيع كما يبدو لى- يحطم كثيرا من المشاكل الزائفة (مثل البديلين الآلى والغائى على سبيل المثال)، ويجعل الكثير من المشاكل تنبثق ولكنها مشاكل حقيقية. وحينما يكون المفهوم جيد البناء وجيد التحكم فيه فهو يميل نحو الدفاع عن نفسه بنفسه ضد الاختلالات.

ويتميز التطبيع اللغوى -إذا عرّفناه على نحو غليظ- عن القدرة من النوع الذى يقول به تشومسكى، بواسطة حقيقة أنه نتاج شروط اجتماعية وحقيقة أنه ليس

(*) عرض قدم فى جامعة جنيف فى ديسمبر ١٩٧٨.

إنتاجا بسيطا للخطاب، بل هو انتاج للخطاب المتكيف مع سوق أو موقف، أو بالأحرى المتكيف مع سوق أو ميثاق. وفكرة الوضع قد أثبتت في وقت مبكر جدا، (وأنا أفكر على سبيل المثال في بيرو Prieto الذي أصر في مبادئ علم *principes de noologie* الروح (العقل) على حقيقة أن كثيرا من أنواع السلوك اللغوية لا يمكن فهمها في استقلال عن إشارته ضمنية إلى الوضع: فعندما أقول «أنا» ينبغي معرفة أنني الذي أقول أنا، وإلا أمكن أن يكون شخص آخر هو الذي يقول ذلك، كما يمكن التفكير في أخطاء الهوية بين أنا وأنت، التي تستخدمها الحكايات المضحكة .. الخ) كتصحيح لكل النظريات التي اقتضت على تأكيد القدرة. ناسية شروط إعمال تلك القدرة كما استخدمت تلك الفكرة للتساؤل على وجه الخصوص عن الافتراضات المسبقة المضرة للنموذج السوسيري حيث الكلام (مثل الأداء عند تشومسكي) قد اختزل إلى فعل تنفيذ، بالمعنى الذي تقتلحه هذه الكلمة في تنفيذ أو إنجاز عمل موسيقى وكذلك بمعنى تنفيذ أمر. وفكرة الوضع ستذكر بأن هناك منطقا نوعيا للتنفيذ، بأن ما يحدث على مستوى التنفيذ (الأداء) ليس ببساطة قابلا للاستنباط من معرفة القدرة. وانطلاقا من ذلك وصلت إلى أن أطرح على نفسى سؤالا مؤداه أننا إذا احتفظنا بهذه الفكرة التي ما تزال شديدة التجريد، فكرة الوضع أو الموقف، ألن نقع فيما أخذه سارتر على نظرية الميول بأنها تعيد إنتاج العيانى عن طريق تقاطع تجريدين، أى فى هذه الحالة تقاطع الوضع والقدرة.

وكان السوفسطائيون يستشهدون بفكرة تبدو لى شديدة الأهمية هى فكرة المقصد *Kairos*، لقد كانوا أساتذة الكلام فكانوا يعرفون أنه لا يكفى تعليم الناس أن يتكلموا، بل ينبغي بالإضافة إلى ذلك تعليمهم أن يتكلموا فى الموضوع الملائم فى الوقت الملائم. أو بعبارة أخرى إن فن الكلام، الكلام الجيد، صناعة تراكيب ومجازات من الكلمات والفكر، وحسن استعمال اللغة والسيطرة عليها ليس شيئا بدون استعمال هذا الفن فى الموضوع الملائم فى الوقت الملائم إن أصل كلمة *Kairos* هو هدف التصويب، فعندما تتكلم ولديك مقصد فأنت تصيب الهدف، فلكى تصيب الهدف ولكى تصل الكلمات إلى قلب المقصد ولكى تكون ذات جدوى وتؤتى نتائجها فلا ينبغي فحسب قول الكلمات الصحيحة نحويا بل الكلمات المقبولة اجتماعيا.

وفى مقالى «اللغة الفرنسية» حاولت أن أوضح أن فكرة «داعى القبول التى

أعادت مدرسة تشومسكى إدخالها تبقى غير كافية تماما؛ لانها تختزل الجدارة بالقبول فى الجانب النحوى. وفى الواقع إن دواعى القبول (الجدارة بالقبول) فى تعريفها السوسيلوجى لا تنحصر فحسب فى واقعة الكلام السليم بلغة ما، ففى بعض الأحوال إذا لزم الأمر على سبيل المثال اتخاذ مظهر الاسترخاء فإن لغة فرنسية شديدة التمسك بالصواب يمكن ألا تكون مقبولة. فالجدارة بالقبول فى تعريفها الكامل تفترض مطابقة الكلمات لا للقواعد الباطنة فى اللغة وحدها بل أيضا لتلك القواعد التى يتم الإلمام بها حدسيا، والتى هى باطنة فى وضع ما، أو بالأحرى فى سوق لغوية معينة؛ فما هى هذه السوق اللغوية؟ سأقدم تعريفا أول مؤقتا، ويجب أن أدخل عليه تعقييدات لاحقة: فهناك سوق لغوية فى كل مرة ينتج منها شخص ما خطابا موجها نحو مستقبلين قادرين على تقييمه وتقديره وإعطائه ثمنا ولا تسمح المعرفة بالقدرة اللغوية وحدها بالتنبؤ بما سيكون عليه قيمة أداء لغوى فى سوق ما. فالثن الذى ستلقاه منتجات قدرة معينة فى سوق معينة تعتمد على قوانين تكوين الثمن الخاصة بهذه السوق. وعلى سبيل المثال، ففى السوق المدرسية فإن صيغة الفعل الناقص المنصوب L'imparfait du subjonctif قد تلتقت قدرا كبيرا (قيمة كبيرة) من وقت أساتذتى الذى طابقوا بين هويتهم كأساتذة وبين استعماله، على الأخص فى صيغة الغائب المفرد. ولكن ذلك الآن يدفع إلى الابتسام ولم يعد يمكننا استعماله أمام جمهرة من الطلبة إلا بتقديم علامة لغوية شارحة للإشارة إلى أن المرء يستعمل تلك الصيغة وأنه كان يستطيع ألا يستعملها. بل إن الميل المتحكم فيه إلى أقل تصحيح عند المثقفين اليوم يمكن تفسيره بالخشية من المبالغة فى التصحيح وهو مثل ترك رباط العنق هو أحد تلك الأشكال المتحكم فيها من عدم التحكم المرتبطة بتأثيرات السوق.

إن السوق اللغوية هى شئ شديد العيانية وشديد التجريد فى آن معا. فمن الناحية العيانية، إنها وضع اجتماعى رسمى طقسى إلى هذه الدرجة أو تلك، مجموع معين من المتحدثين يوجدون على هذه الدرجة أو تلك من التراتب الاجتماعى، بالإضافة إلى الكثير من الخصائص التى تُدرك وتُقدر على نحو دون مستوى الوعى وهى التى توجه الإنتاج اللغوى بطريقة غير واعية. ومن ناحية التعريف المجرد، أنها نوع من القوانين (المتغيرات) التى تحكم ثمن المنتجات اللغوية. والتذكير بأن هناك قوانين لتكوين الثمن هو التذكير بأن قيمة قدرة معينة تعتمد على السوق المعينة التى تعمل

فيها تلك القدرة؛ أو بدقة أكبر على حالة العلاقات التي تتحدد فيها القيمة المنسوبة إلى النتائج اللغوية للمنتجين المختلفين.

ويؤدي ذلك إلى أن نحل محل فكرة القدرة فكرة رأس المال اللغوي. والكلام عن رأس المال اللغوي معناه أن هناك أرباحا لغوية، فإن أي فرد وكذا في الدائرة السابعة أي في الأحياء الراقية وهذا هو الوضع الفعلي لمعظم الناس الذين يحكمون فرنسا، بمجرد أن يفتح فمه يتلقى ربحا لغويا، ليس خياليا ولا وهميا كما تدعنا نعتقد تلك النزعة الاقتصادية التي فرضنا عليها ماركسية بدائية. إن طبيعة لغته نفسها (التي يمكن تحليلها صوتيا... الخ) تقول إنه مؤهل (مفوض) للكلام بصرف النظر عما يقوله. بل إن ما يقدمه اللغويين باعتباره الوظيفة المتميزة أي وظيفة الاتصال، يمكن ألا تتحقق على الإطلاق دون أن تكف وظيفتها الحقيقية الاجتماعية عن التحقق لهذا السبب، فأوضاع علاقات القوى اللغوية هي الأوضاع التي يتحقق فيها الكلام دون اتصال، وحدها الأقصى هو القداس، ولهذا السبب فقد اهتمت بنظام الطقوس. فهذه هي الحالات التي يوضع فيها متكلم قد خول قدرا ملائما من السلطة، حيث يكون تحت تصرفه على نحو واضح المؤسسة وقوانين السوق وكل الحيز الاجتماعي الذي يمكنه من أن يتكلم لكيلا يقول شيئا ويكون بذلك قد تكلم.

إن رأس المال اللغوي هو السلطة على آليات تكوين الأثمان اللغوية، سلطة جعل قوانين تكوين الأثمان اقتطاع فائض القيمة النوعية (القيمة الزائدة) تعمل من أجل ربحه. إن كل فعل من أفعال تبادل التأثير (التفاعل)، كل اتصال لقوى حتى بين شخصين، بين زميلين بين صبي وصديقه الصغيرة، أي كل التفاعلات اللغوية هي أنواع من الأسواق الصغرى التي تظل دائما خاضعة لسيطرة البنى الكلية.

وكما توضح جيدا الصراعات القومية حيث تكون اللغة رهانا مهما (في كيبيك Québec الكندية على سبيل المثال)، ثمة علاقة تبعية شديدة الواضح بين آليات السيطرة السياسية وآليات تكوين الأثمان اللغوية المميزة لوضع اجتماعي معين. وعلى سبيل المثال فللصراعات بين الناطقين بالفرنسية والناطقين بالعربية التي تلاحظ في عدد من البلاد الناطقة بالعربية والتي احتلتها فرنسا قديما بُد اقتصادي بالمعنى الذي أفهمه، أي بمعنى أنه من خلال الدفاع عن سوق لمنتجات لغوية مخصوصة يدافع حائزو قدرة معينة عن قيمتهم الخاصة كمنتجين لغويين. وأمام الصراعات القومية يتأرجح

التحليل بين النزعة الاقتصادية ونزعة صوفية، وتسمح النظرية التي أقدمها بفهم أن الصراعات اللغوية تستطيع ألا تكون لها أسس اقتصادية واضحة، أو معاد ترجمتها إلى درجة كبيرة، ومع ذلك فهي تشتبك مع مصالح شديدة الحيوية، قد تكون أحيانا أكثر حيوية من المصالح الاقتصادية (بالمعنى المحدد). ومن ثم فإن إعادة إدخال فكرة السوق هي بمثابة التذكير بتلك الحقيقة البسيطة، وهي أن القدرة ليس لها من قيمة إلا طالما وجدت لها سوق. وعلى هذا النحو فإن أولئك الذين يريدون اليرم الدفاع عن قيمتهم بوصفهم حائزي سوق للغة اللاتينية مضطرون للدفاع عن وجود سوق لللاتينية، أى على وجه الخصوص لإعادة انتاج مستهلكين للغة اللاتينية بواسطة النظام التعليمي. وليس من الممكن فهم غلط معين من النزعة المحافظة، قد تكون مرضية أحيانا، فى النظام التعليمي إلا انطلاقا من ذلك القانون البسيط؛ وهو أن قدرة دون سوق تصير بلا قيمة أو بدقة أكبر تكف عن أن تكون رأس مال لغوي لكى تصير قدرة بسيطة بمعناها عند اللغويين.

وهكذا فإن رأس مال ما لا يتحدد بوصفه كذلك، ولا يعمل بوصفه كذلك ولا يدر أرباحا إلا فى سوق معينة. والآن ينبغي إضفاء مزيد من الدقة على فكرة السوق هذه ومحاولة وصف العلاقات الموضوعية التي تضافى على هذه السوق بنيتها فما هي السوق؟ وهناك متتجون أفراد (مثل حدّئى للسوق) يقدمون نتاجهم ثم تتبادل أحكامهم التأثير فيما ويخرج من ذلك سعر للسوق. وتلك النظرية الليبرالية للسوق هي خاطئة أيضا بالنسبة للسوق اللغوية مثلما هي خاطئة بالنسبة لسوق السلع الاقتصادية: فكما أنه هناك فى السوق الاقتصادية احتكارات وعلاقات قوى موضوعية تجعل كل المنتجين وكل المنتجات بعيدة عن التساوى فى البدء. كذلك الحال فى السوق اللغوية؛ فثمة علاقات قوة. ومن ثم فللسوق اللغوية قوانين تكوين للأثمان تفرض بطريقتها ألا يكون المنتجين اللغوية والأقوال متساوين. بيد أن علاقات القوة التي تسود تلك السوق والتي تفرض أن يكون لبعض المنتجين وبعض المنتجات امتياز قوى تفرض أن السوق اللغوية موحدة نسبيا. ولننظر إلى الوثيقة المأخوذة عن جريدة يومية تصدر فى بيارن نشرتها فى مقالة معنونة « وهم الشيوعية اللغوية »: فسنجد فيها جملا تصف نظاما لعلاقات القوة اللغوية. وتتعلق بعمدة پو pou الذى خاطب الجمهور أثناء احتفال على شرف شاعر من أهل البلاد بلفتهم المحلية، وقد كتبت الجريدة وأن هذه الالتفاتة مست

قلب الجمهور» وكان الجمهور يتألف من الذين كانت لغتهم الأولى هي البيارنية، وقد «مس قلوبهم» أن العملة البيارنى يتحدث اليهم بلغتهم ولغته! وقد مست قلوبهم اللغة التي هي شكل من أشكال التنازل، فلكي يكون هناك تنازل ينبغي أن يكون هناك انحراف موضوعي، فالتنازل هو الاستخدام الدياجوجي لعلاقة قوة موضوعية، بما أن الذي يتنازل يستخدم الترتاب لكي ينفيه أو ينكره، وفي عين اللحظة التي ينفى فيها الترتاب فهو يستغله (مثل ذلك الذي يقال عنه إنه «بسيط»). وهذه حالات تشف فيها علاقة التفاعل داخل مجموعة صغيرة بغية عن علاقات قوة متعالية. إن ما يحدث بين عمدة بيارنى وبني قومه لا يمكن اختزاله إلى ما يحدث في التفاعل (تبادل التأثير) بينهم. فإذا كان هذا العملة يستطيع الظهور باعتباره بولى لفتاته إلى مواطنيه فذلك لأنه يلعب على العلاقة الموضوعية بين الفرنسية والبيارنية. وإذا لم تكن الفرنسية لغة سائدة، وإذا لم يكن هناك سوق لغوية موحدة، وإذا لم تكن الفرنسية هي اللغة الشرعية، التي ينبغي تكلمها في المواقف الشرعية، أي في المواقف الرسمية في الجيش ومكتب البريد، وفي مكتب الضرائب وفي المدرسة وفي الخطب.. الخ فلن تكون لواقعه الكلام بالبيارنية هذه النتيجة «المؤثرة». وهاك ما أفهمه بعلاقات القوة اللغوية: إنها علاقات متعالية على الوضع أو الموقف، لا يمكن اختزالها إلى علاقات التفاعل التي يمكن الإمساك بها في الموقف. وترجع أهمية ذلك إلى أنه حينما يدور الكلام عن الوضع أو الموقف فإن المرء يعتقد أنه أدخل مجددا ما هو اجتماعي لأنه أعاد إدخال التفاعل. فالوصف التفاعلي للعلاقات الاجتماعية وهو بعد ذاته مثير جدا للاهتمام يصير خطيرا إذا نسينا أن علاقات التفاعل هذه ليست مثل امبراطورية داخل امبراطورية؛ وإذا نسينا أن ما يحدث بين شخصين، بين سيد وخادمه أو بين زميلين أو بين زميل يتكلم الفرنسية وزميل يتكلم الألمانية، إذا نسينا أن هذه العلاقات بين شخصين هي دائما محكومة بالعلاقة الموضوعية بين اللغات المناظرة، أي بين المجموعات التي تتكلم هذه اللغات. وحينما يتكلم سويسرى ناطق بالألمانية مع سويسرى ناطق بالفرنسية فإن السويسرية الألمانية والسويسرية الفرنسية هما اللتان تتبادلان الكلام. ولكن ينبغي العودة إلى الحكاية الصغيرة التي بدأنا بها. إن العملة البيارنى ما كان يستطيع أن يحدث هذا الأثر، أثر التنازل إلا لأنه كان حاملا لشهادة عالية، فلو لم يكن كذلك لكانت لغته المحلية لغة فلاح، ومن ثم بلا قيمة، كما أن الفلاحين الذين لا توجه لهم هذه «اللغة المحلية المتميزة» من ناحية أخرى (فهم لا يترددون أبدا على

الاجتماعات الرسمية) ليس لهم من هم إلا الكلام بالفرنسية. ولا تُسترجع تلك اللغة المحلية المتميزة إلا في اللحظة التي يتجه فيها الفلاحون أكثر فأكثر إلى التخلي عنها من أجل الفرنسية. وينبغي التساؤل: من له مصلحة في استعادة البيارية حينما يشعر الفلاحون أنهم مضطرون للكلام إلى أطفالهم بالفرنسية لكي يستطيعوا النجاح في المدرسة؟ إن الفلاح البيارنى لكي يفسر أنه لم يخطر بباله أن يكون عمدة لقريته وإن حصل على أكثر عدد من الأصوات يقول «إنه لا يعرف كيف يتكلم» وهو بذلك يمتلك للقدرة الشرعية تعريفا واقعيا تماما، وسوسولوجيا تماما: فالتعريف السائد للقدرة الشرعية هو في الحقيقة كما لو كانت قدرته الفعلية ليست شرعية. (وينبغي الإنطلاق من هنا لتحليل ظاهرة مثل ظاهرة لسان الحال أو المتحدث باسم آخرين، وهي كلمة مثيرة للاهتمام لدى أولئك الذين يفرقون بين اللسان والكلام) بيد أنه لكي تعمل تأثيرات رأس المال والسيادة اللغوية ينبغي أن تكون السوق اللغوية موحدة نسبيا، وهذا يعنى أن يكون مجموع المتكلمين خاضعين لنفس قانون تكوين ثمره المنتجات اللغوية، وهذا يعنى على نحو عيني أن آخر فلاح بيارنى سواء عرف ذلك أو لم يعرفه (وفى الحقيقة هو يعرفه جيدا بما أنه يقول إنه لا يعرف كيف يتكلم) يقاس موضوعيا بمقياس هو معيار الفرنسية الباريسية القياسية. وحتى إذا لم يكن قد سمع (أو فهم) «الفرنسية القياسية الباريسية» (هو في الواقع يسمعه أكثر فأكثر «بفضل» التلفزيون) وحتى إذا لم يكن قد ذهب إلى باريس قط، فإن المتكلم البيارنى يتحكم فيه المتكلم الباريسى وهو يدخل في كل التفاعلات في مكتب البريد والمدرسة.. الخ في علاقة موضوعية معه. ، وهذا هو ما يعنيه توحيد السوق أو علاقات السيطرة اللغوية : ففي السوق اللغوية تعمل أشكال من السيطرة لها منطق نوعي، وكما هي الحال في كل سوق للأموال الرمزية، هناك أشكال من السيطرة النوعية ليست قابلة لإطلاقا للاختزال إلى السيطرة الاقتصادية بالمعنى الدقيق، لا في نطق فعلها ولا في الأرباح التي تدرها.

وإحدى نتائج هذا التحليل تتعلق بموقف البحث نفسه، الذي بوصفه تفاعلا أو تبادلا للتأثير، يصير أحد المواقف التي تتحقق فيها علاقات القوى اللغوية والثقافية، أى السيطرة الثقافية. ولا يمكن الحلم بموقف بحث «نقي» متخلص من كل أثر للسيطرة (كما يعتقد أحيانا بعض دارسي علم اللغة الاجتماعي) والحشية من أخذ بعض النواتج الاصطناعية باعتبارها وقائع حقيقية، يجعلنا لاندخل في التحليل إلا «معطيات»، تحليل

تعيينات اجتماعية للموقف الذى أُنتِجَت فيه، أى تحليل السوق اللغوية التى أقيمت فيها الوقائع التى يجرى تحليلها.

وكنت قد قمت منذ خمس عشرة سنة ببحث عن تفضيلات الناس، عن الأذواق بالمعنى الواسع فى شئون المطبخ والموسيقى والتصوير والملابس والرفقة الجنسية .. إلخ. وقد تلقينا القسم الأكبر من المادة عن طريق تبادلات لفظية. وفى نهاية كل سلسلة من التحليلات وصلتُ إلى أن أطرح على نفسى سؤالا عن الوزن النسبى فى تحديد التفضيلات لرأس المال الثقافى مقيسا بالمزهل الدراسى وبالأصل الاجتماعى، وكيف تتغير الأوزان النسبية لهذين العاملين تبعاً للميادين المختلفة من الممارسة - فالأذواق تبدو على سبيل المثال أكثر ارتباطا بالأصل الاجتماعى فيما يتعلق بالسينما، وأكثر ارتباطا بالتعليم فيما يتعلق بالمرح. وأستطيع الاستمرار دونما نهاية فى حساب معاملات الارتباط ولكن أقصى تصحيح منهجى ينعنى من «استجواب» الموقف الذى حصلت فيه على تلك المادة، أليس بين المتغيرات الشارحة الأكثر أهمية ماهو مختبىء خلف المادة نفسها؟ إنه أثر الخصائص المميزة لموقف البحث نفسه؟ ومنذ بداية البحث، كنت واعيا بأن أثر الشرعية الذى يلعب هذا الدور الشديد الضخامة فى مسألة اللغة يجعل أعضاء الطبقات الشعبية الذين يستجوبون عن ثقافتهم يميلون بوعى أو بدون وعى فى موقف البحث إلى اختيار ما يظهرهم أكثر تطابقا مع الصورة التى لديهم عن الثقافة السائدة، على نحو لا يستطيعون الحصول عليه إذا قالوا ببساطة ما الذى يحبونه فى حقيقة الأمر. وميزة «لابوف» هو أنه أصر على حقيقة أن بين المتغيرات التى يجب أن يأخذها التحليل اللغوى الاجتماعى الدقيق فى حسابه هو موقف البحث: كما تنحصر أصالة دراسته عن كلام سكان حى «هارلم» من الزوج فى مدينة نيويورك فى جانب كبير منها فى حقيقة أنه أبرز تأثير علاقة البحث على إظهار ما نحصل عليه حينما لا يكون الباحث متحدثا بالانجليزية كما يتحدثها البيض بل يكون عضوا فى الحى المغلق (الجيوتو) يتكلم إلى عضو آخر وهكذا إذا أدخل التغيرات فى موقف البحث سنلاحظ أنه كلما أرخى توتر التحكم (السيطرة)، أو كلما ابتعدنا عن الاقسام الأكثر خضوعا للتحكم (السيطرة) من الثقافة زاد ارتباط الأداء بالأصل الاجتماعى. وعلى العكس كلما اشتد إحكام السيطرة ازداد ارتباط الأداء برأس المال التعليمى وبعبارة أخرى، فإن مشكلة الوزن النسبى للمتغيرين لا يمكن حلها فى المطلق، بالإشارة إلى نوع ثابت ما من المواقف، بل لن يستطاع

حلها إلا إذا أدخلنا تغيرا يتعين اعتباره عاملا لهذين المتغيرين، وهو طبيعة السوق التي تطرح فيها المنتجات اللغوية أو الثقافية. (بين قوسين إن نظرية المعرفة العلمية تزخذه غالبا باعتبارها نوعا من مابعد الخطاب أو الخطاب الشارح متجاوزا أو متعاليا على الممارسة العلمية. ولكن في نظري إنها تأمل في الممارسة أو انعكاس لها يغير بالفعل من تلك الممارسة، ويؤدى إلى تفادى أخطاء، من قبيل عدم قياس فاعلية عامل مع تسيان عامل العوامل أى الموقف أو الوضع الذى تُقاس فيه العوامل جميعا. وكان سوسير يقول تنبغى معرفة ما يقوم به اللغوى، ونظرية المعرفة هى واقع العمل من أجل معرفة ما يقوم به اللغويون).

فما يسجله أو يثبته البحث الثقافى أو اللغوى ليس تحليها مباشرا للقدرة، بل تتاجا مركبا للعلاقة بين قدرة وسوق، فهو نتاج لا يوجد خارج تلك العلاقة : إنه قدرة فى موقف، قدرة بالنسبة إلى سوق متعينة (وكثيرا جدا ما يميل عالم اللغة الاجتماعى إلى تجاهل آثار السوق نظرا لأن معطياته قد جمعت فى موقف ثابت من وجهة النظر هذه، أى من حيث العلاقة به هو نفسه، أى بالباحث). والطريقة الوحيدة للتحكم فى العلاقة هى جعلها تتغير مع دخول التغيرات على مواقف (أوضاع) السوق، بدلا من اعطاء امتياز لأحد مواقف السوق من بين المواقف الأخرى (مثلا فعل لايوف Labov على سبيل المثال مع خطاب زنجى من هارلم بالنسبة لزواج آخرين من نفس الجنس) وروية حقيقة اللغة، اللغة الشعبية الدارجة الحقة، فى الخطاب الذى يجرى إنتاجه فى هذه الشروط.

إن تأثيرات السيطرة، وعلاقات القوة الموضوعية للسوق اللغوية، تمارس فعلها فى كل المواقف اللغوية: فى العلاقة مع بارسى، «يفقد» اليورجواى الإقليمى بلفته ذات اللهجة المحلية «وسائله»، وينهار رأس ماله. وقد اكتشف لايوف أن ما يحيط به تحت اسم اللغة الدارجة (الشعبية) فى البحث، هو اللغة الشعبية على نحو ما تظهر فى موقف أو وضع للسوق تسيطر عليه القيم السائدة، أى لغة محاصرة معطلة. أما المواقف التى تمارس بها علاقات السيطرة اللغوية تأثيرها، أى المواقف الرسمية (بالإنجليزية Formal) فهى مواقف تكون فيها العلاقات الفعلية التى أقيمت وتكون التفاعلات مطابقة تماما للقوانين الموضوعية للسوق. ونعود للفلاح البيارنى الذى يقول لا أعرف كيف أتكلم، وهو يعنى انه لا يعرف كيف يتكلم كما ينبغى الكلام فى المواقف الرسمية، فإذا صرت عمدة، سأكون شخصية رسمية ملزمة بالقيام بخطب رسمية، ومن ثم خاضعة للقوانين الرسمية للغة

الفرنسية الرسمية. إذا كنت غير قادر على الكلام مثلما يتكلم جيسكار Giscard فأنا لا أعرف كيف أتكلم. وكلما كان الموقف رسميا زاد القدر الذي يتعين به أن يكون الشخص الذى يرقى إلى مستوى الكلام مفوضا بالكلام أو مخولا صلاحية الكلام. إذ يجب أن يكون حائزا على مؤهلات دراسية، وأن تكون له لهجة جيدة فى النطق، أى يجب أن يكون قد ولد فى المكان المناسب. وكلما اقترب موقف من أن يكون رسميا زاد نصيبه من أن يكون قانون تكوين الأثمان جوهر القوانين العامة. وعلى العكس عند ما يقال «مزاح فى ركن»، فيمكن الاسترسال من ذلك كما هى الحال فى حانة شعبية، لخلق نوع من جزيرة الحرية بالنسبة إلى قوانين اللغة التى تواصل سيروتها، ويقال فى الحانة نحن نعرف ذلك ولكن سنعطى أنفسنا رخصة (ترخيصا) (فالترخيص أو الإذن بالاتحراف عن القاعده هو كلمة نموذجية بالنسبة للمعاجم). ومن الممكن أن يكون للمرء كما يقال «كلامه الصريح»، يمكن هنا الاسترسال بحرية وصراحة. وهذا الكلام الصريح هو الكلام الشعبى (الدارج) فى موقف شعبى (دارج) ما دنا نضع بين قوسين قوانين السوق. ولكن ذلك سيكون خطأ فى القول: إن اللغة الشعبية الحقة هى اللغة الصريحة الحرة. إنها ليست أكثر حقيقة من الأخرى: حقيقة القدرة الشعبية ماثلة أيضا فى واقعة أنها حينما تواجه بسوق رسمية فإنها تصبح معطلة، أما حينما تكون على أرضها داخل علاقة عائلية ذات ألفة مع أهلها فإنها تكون كلاما حرا صريحا. ومن المهم أن نعرف أن الكلام الصريح الحر موجود ولكن بوصفه جزيرة منتزعة من قوانين السوق. ولكنها جزيرة نحصل عليها بالتوافق مع إعفاء ما (فهناك مؤشرات لقول إننا سنؤسس ممارسة استثنائية، يمكن السماح بها لأنفسنا). آثار السوق تمارس فعلها دائما شاملة الطبقات الشعبية التى يفترض دائما أنها تخضع لمقتضى قوانين السوق. وهذا ما أسماه الشرعية، والكلام عن الشرعية اللغوية، معناه التذكير بأنه ما من أحد يُفترض أنه يتجاهل القانون اللغوى. وليس معنى ذلك أن أعضاء الطبقات الشعبية يعترفون بجمال أسلوب جيسكار. ولكن معنى ذلك أنهم إذا وجدوا أنفسهم أمام جيسكار فإنهم سيصابون بالحيرة والاضطراب وفى واقع الأمر ستحطم لغتهم، وسيصمتون أو يُفرض عليهم السكوت ؛ سكوت يقال عنه حافل بالاحترام. فقوانين السوق تمارس تأثيرا وقاهيا شديدا الأهمية على أولئك الذين لا يستطيعون الكلام إلا فى موقف الكلام الحر الصريح (أى بأن يجعلوا من المفهوم أن من الواجب فى لحظة ما التخلّى عن المقتضيات العادية) والذين يكونون محكوما عليهم بالصمت فى المواقف الرسمية حيث

تجرى رهانات سياسية واجتماعية وثقافية مهمة (إن سوق الزواج هى على سبيل المثال سوق يلعب فيها رأس المال اللغوى دورا محدداً (بالكسر)، وأنا أعتقد أن تلك احدى الوسائل التى يتحقق عبرها تجانس طبقة ما). فتأثير السوق التى تفرض الرقابة على الكلام الصريح الحر هو حالة خاصة من تأثير للرقابة أكثر عموماً يؤدي إلى إشاعة لطف التعبير: فكل مجال متخصص يمثل المجال الفلسفى والمجال الدينى والمجال الأدبى.. الخ له قوانينه الخاصة ويميل إلى إحكام الرقابة على الأقوال التى لا تتوافق مع هذه القوانين.

وتبدو لى العلاقات باللغة شديدة القرب من العلاقات بالجسم. وعلى سبيل المثال فلكى تسير بسرعة كبيرة جداً، يتعين أن تكون العلاقة البورجوازية بالجسم أو باللغة علاقة السهولة المرتاحة، علاقة أولئك الذين يعيشون فى مجالهم الملائم والذين تعمل قوانين السوق من أجلهم. إن تجربة السهولة المرتاحة هى تجربة شبه إلهية، فأن يحس المرء بنفسه على مايرام، فى أفضل حال نموذجية هو تجربة التحرر المطلق. بل إن ذلك هو ما يُطلب من الأديان. وهذا الاحساس بأن يكون كما ينبغي أن يكون هو من المكاسب الأكثر اتساماً بالإطلاق للسيطرين. وعلى العكس فإن العلاقة البورجوازية الصغيرة بالجسم واللغة هى علاقة يمكن وصفها بالتهيب والتوتر، والمبالغة فى التصحيح، فأفراد تلك الفئة يسرفون أو لا يصلون إلى ما يكفى، وشعرون بالخرج داخل جلودهم.

سؤال

ما هى العلاقة التى تقيمها بين السجية *ethos* والتطبع *habitus*، وبين مفاهيم أخرى مثل التعود *hexis* التى تستخدمها أيضاً ؟

الإجابة

لقد استخدمت كلمة السجية *ethos* بعد كلمات كثيرة أخرى بالتقابل مع الأخلاق *ethique*، للإشارة إلى مجموع نسق موضوعياً من الاستعدادات ذات البعد الأخلاقى، من المبادئ العلمية (فالأخلاق نسق متسق قصداً من المبادئ المصرح بها). وهذه التفرقة مفيدة وخاصة للتحكم فى الأخطاء العملية: وعلى سبيل المثال فحينما ينسى المرء أننا نستطيع أن نمتلك ميادى فى الحالة العلمية دون أن نمتلك أخلاقية نسقية، علما

للاخلاق، فالمرء ينسى أنه فبواسطة الواقعة المفردة لطرح أسئلة، استجاب فإن المرء يلزم الآخرين بالانتقال من السجية L'ethos إلى علم الاخلاق. بواسطة واقعة اقتراح معايير متشكلة متخذة تعبيراً لغوياً أمام تقديرهم يكون ذلك الانتقال الحاسم مفترضاً. أو بمعنى آخر ينسى المرء أن الناس يستطيعون أن يثبتوا لأنفسهم أنهم غير قادرين على الإجابة عن مشاكل تنتمى إلى علم الاخلاق على حين أنهم قادرون على الإجابة فى الممارسة العملية على مواقف تطرح أسئلة مناظرة.

أما فكره التطبيع فتشمل فكرة السجية لذلك فأنا أستعمل هذه الفكرة على نحو متناقض. إن المبادئ العملية للتصنيف التى تؤسس التطبيع هى منطقية وقيمية على نحو لايقبل انقصاصاً، ولذلك هى نظرية وعملية (ما أن نقول ابيض أو اسود فإننا نقول خير أو شر)، وما أن يتحول المنطق العلمى نحو الممارسة حتى يشتبك حتماً مع القيم. وهذا هو السبب فى أننى أقلعت عن التميز الذى لجأت إليه مرة أو مرتين بين المثال (ماهية كلية) eidos باعتباره نظاماً من المخططات المنطقية والسجية ethos باعتبارها نظاماً من المخططات العملية القيمة (وذلك سيزداد وفقاً لتقسيم التطبيع إلى أبعاد؛ مثل السجية ethos والمثال eidos الاستعداد hexis^(١) مخاطرين بتدعيم الرؤية الواقعية التى تدفع إلى التفكير بلفة أمثلة منفصلة.). ومن جهة أخرى فإن كل مبادئ الاختيار ستصير متجسدة، وستصير أوضاعاً وحالات، واستعدادات للجسم؛ فالقيم هى إيماءات (حركات)، هى طرائق ليظل المرء واقفاً وليمشى وليتكلم. إن قوة السجية ethos هى أن تتحول أخلاق ما إلى استعداد وتعود hexis وحركة ولغة واتخاذ وضع.

وهذا هو السبب فى أننى وصلت رويدا رويدا إلى الاكتفاء باستخدام فكرة التطبيع. ولهذه الفكرة تقليد طويل: فالمدرسيون (الإسكولائيون قديماً)، إستعملوها لترجمة الاستعداد المكتسب L'hexis عند أرسطو. (ومجدها عند دوركايم Durkheim الذى يشير فى كتابه «التطور التربوى فى فرنسا» "L'Evaluation pedagogique en France" إلى أن التربية المسيحية كان من الواجب عليها أن تحل المشاكل التى طرحتها ضرورة تشكيل تطبيع مسيحى بواسطة ثقافية وثنائية، ومجدها عند موس Mauss فى النص الشهير عن تقنيات الجسم. ولكن أياً من هؤلاء المؤلفين لم يجعلها تلعب دوراً حاسماً). فلماذا ذهب باحثاً عن هذه الكلمة العتيقة؟ لأن فكرة التطبيع هذه تسمح بالإفصاح عن شىء ما لصيق بما تستدعيه فكرة العادة، مع تمايزه عنها فى نقطة جوهرية.

إن التطبيع كما تقول الكلمة هو ما يكتسبه المرء، ولكن ما يتجسد على نحو دائم داخل الجسم فى هيئة استعدادات دائمة. وتذكرنا الفكرة إذن على نحو دائم بأنها تشير إلى شيء ما تاريخي، مرتبط بالتاريخ الفردي وأنها منقوشة فى غط من الفكر التوليدي (الذي يدرس النشوء والتاريخ) بالتقابل مع أنماط من الفكر الماهوي، التفسير بالمجاهر الثانية (مثل فكرة القدرة التي نجدتها فى قاموس تشومسكى. ولكن من ناحية أخرى فقد وضع المدرسيون أيضا تحت اسم التطبيع شيئا ما مثل الملكية، هو رأس مال ما. وفى الحقيقة فالتطبيع هو رأس مال، ولكن لأنه قد تجسد فهو يقدم نفسه خارج المظاهر الفطرية. ولكن لماذا لم نقل عادة؟ إن العادة تعتبر على نحو تلقائي بوصفها تكرارية ميكانيكية آلية، ذات طابع بعيد الانتاج أكثر من قيامه بالانتاج. بيد أننا أريد الإصرار على فكرة أن التطبيع هو شيء ما ذو قدرة توليدية قوية. إن التطبيع، لكى نمضى مسرعين، نتاج للاشتراطات التي تقبل إلى إعادة انتاج المنطق الموضوعي للاشتراطات مع إخضاعه لتحويل ما، إنها نوع من الآلة المحوكة التي نجعلها «نعيد إنتاج» الشروط الاجتماعية لإنتاجنا الخاص ولكن على نحو لا يمكن توقعه نسبيا، على نحو لا يمكن معه الانتقال ببساطة وآلية من معرفة شروط الانتاج إلى معرفة المنتجات. وعلى الرغم من أن تلك القدرة على إحياء ممارسات أو خطابات أو أعمال ليست فطرية إطلاقا بل ويجب تأسيسها على نحو تاريخي، إلا أنها ليست قابلة للاختزال بالكامل إلى شروط انتاجها، كما أنها أولا تعمل على نحو نسقي: فلا يُستطاع الكلام عن التطبيع القوي على سبيل المثال إلا بشرط عدم نسيان أنه ليس إلا بُعدا للتطبيع باعتباره نظاما من المخططات المؤلفة للممارسات، ومخططات ادراك الممارسات، وللاحتراز من فرض استقلال على إنتاج الاقوال فى علاقته بانتاج الاختيارات الجمالية، أو الايماءات واللغات أو كل ممارسة أخرى ممكنة. فالتطبيع مبدأ للاختراع أنتجه التاريخ وانتزع نسبيا من التاريخ، فالاستعدادات تعمرو طويلا، وذلك يحدث كل أنواع التأثيرات المتخلفة بعد زوال أسبابها hysteresis (التأخر، الإزاحة ومثالها بامتياز هو دون كيشوت). ويمكن التفكير فى ذلك بعقد قائل مع برنامج عقل الكتروني «كومبيوتر» (قائل خطر لأنه ميكانيكى)، ولكنه برنامج ذاتي التصحيح فهو شكل من مجموع نسقي من المبادئ البسيطة وقابلة جزئيا للاستبدال فيما بينها، والتي يمكن انطلاقا منها اختراع عدد لا متناه من الحلول التي لا تُستنبط مباشرة من شروط إنتاجها.

فالتطبيع وهو مبدأ استقلال ذاتى واقعى بالنسبة إلى التحديدات الفورية بواسطة «الموقف» ليس لهذا السبب نوعا من الماهية أو الجوهر اللاتارىخى الذى لا يكون وجوده بإيجاز إلا التطور لمصير أوقتر قد يتعين مرة وإلى الأبد (على نحو حاسم). وإن ضروب التلازم التى تفرض دون توقف بواسطة ضرورة التكيف على مواقف جديدة غير متوقعة، تستطيع تحديد محويلات طويلة المدى للتطبيع، ولكنها تظل داخل حديد معينة: لأن التطبيع بين أسباب أخرى يحدد أدراك الموقف الذى يعينه.

إن «الموقف» هو على نحو معن الشرط الذى يسمح بتحقيق التطبيع. وحينما لا تكون الشروط الموضوعية لتحقيق التطبيع معطاء فإن التطبيع عندما يواجه بمعارضة على نحو متصل من جانب الموقف يستطيع أن يكون محلا لقوى متفجرة (الاستياء) تستطيع، توقع (أى ترقب) فرصة تحقيق ذاته بالفعل، فهو يعبر عن ذاته بمجرد أن تكون الشروط الموضوعية (موقع سلطة الرئيس الصغير) متاحة أمامه. (فالعالم الاجتماعى هو مستودع ضخم من العنف التراكم يتكشف حينما يجد العنف شروط تحقيقه). وبإيجاز ففى رد فعل ضد الآلية ذات الطابع الآتى، يكون الاتجاه نحو الإصرار على الطاقات والقدرات «الهاضمة» القادرة على التمثل للتطبيع؛ ولكن التطبيع هو أيضا تكيف، وهو يحقق دون توقف نوعا من التلازم مع العالم لا يأخذ إلا على نحو استثنائى شكل تحويل جذرى.

سؤال:

أى فرق تضعه بين مجال وبين جهاز أو أداة؟

الإجابة:

فرق يبدو لى رئيسيا. إن فكره «الجهاز» تعيد ادخال النزعة الوظيفية فى أسوأ صورها، أى آلة جهنمية مبرمجة من أجل تحقيق غايات معينة فليس النظام التعليمى والدولة والكنيسة والأحزاب أجهزة ولكنها جميعا مجالات. ومع ذلك ففى شروط معينة تستطيع أن تشرع فى العمل كأجهزة، وتلك الشروط هى التى ينبغى دراستها. ففى مجال ما، تكون العناصر الفاعلة والمؤسسات داخلية فى صراع مع قوى مختلفة وفقا للقواعد المشكّلة لهذا الحيز من النشاط، للحصول على الارباح النوعية التى يدور حولها اللعب والصراع. والذين يسيطرون على المجال يمتلكون الوسائل التى تجعل اللعب والصراع

بعمالان لصالح أرباحهم، ولكن يجب عليهم أن يدخلوا فى حسابهم مقاومة الذين تقع عليهم السيطرة. ويتحول المجال إلى جهاز حينما يمتلك المسيطرون رسائل إلغاء مقاومة وردود أفعال الذين تقع عليهم السيطرة. أى حينما لا يستطيع أدنى سلم رجال الدين والمناضلون والطبقات الشعبية.. الخ إلا أن يتحملوا السيطرة ؛ حينما تسير كل الحركات من أعلى إلى أسفل وتصبح تأثيرات السيطرة على نحو يوقف الصراع والديالكتيك المشكلين للمجال. فهناك من التاريخ بقدر ما يوجد من الناس الذين يثيرون والذين يصنعون تواريخ. «أما المؤسسة الشاملة» أو ذات الطابع الشمولى مثل المصحات والسجون ومعسكرات الاعتقال كما يصفها جوفمان Goffman فتوجد حيث تحاول الدولة الشمولية أن تؤسس نهاية التاريخ.

ويتضح الفرق بين المجالات والأجهزة جيدا فى الثورات. ويبدو أنه يكفى الاستيلاء على جهاز الدولة، وتغيير برنامج الآلة الضخمة لكى يكون لدينا نظام اجتماعى جديد على نحو جذرى. وفى الحقيقة يجب على الإرادة السياسية أن تأخذ فى الحسبان منطق المجالات الاجتماعية، وهى أكران معقدة للغاية حيث يمكن للمقاصد السياسية أن تجد نفسها معكوسة الاتجاه، منقلبة على أعقابها ويصدق ذلك على فعل الميسيطرين كما يصدق على الفعل الذى يقوِّض السيطرة، كما يشهد على ذلك كل ما يوصف بواسطة اللغة غير المحكمة لاستعادة العافية *recupération* وللإسترجاع من جانب القوى القديمة التى ماتزال ذات نزعة غائية ساذجة). وإن فعلا سياسيا لا يستطيع أن يضمن لنفسه انتاج الآثار المأمولة إلا إذا تعامل مع أجهزة، أى مع تنظيمات تم اختزال الخاضعين للسيطرة فيها إلى مجرد التنفيذ المطيع بل وحتى التنفيذ الميت الخ *exécution perinde ac cadaver* - باللاتينية فى الأصل - (إلى مناضلين» وانضباط عسكري). إن الأجهزة إذن هى حالة -يمكن اعتبارها مرضية- للمجالات.



هوامش المءرم « للءصل العاشر »

١- ءمءود Hexis ءلمة يونانية ءمعنى فى فلسفة أرسطو ءالة أو وءمع شئ؁ وءاصة الاسءمءاء المءءسب أو العاءة؁ والذى يصعب ءءببءه وءؤءر فى ءائزة - مءل الفضائل الأخلاءفة أو المءاءارات العقلفة.



الفصل الحادي عشر

الرقابة^(*)

أريد أن أتكلم بإيجاز عن فكرة الرقابة. فالرقابة التي يحمل كل عمل أثرها هي موضع التناول في هذا التجمع. إن وقت الكلام من الثروات النادرة وأنا أعى جيداً الدرجة التي يكون عندها أخذ الكلمة احتكاراً لوقت الكلام كما يمنعني من الاحتفاظ بالكلمة طويلاً.

وما أريد قوله يمكن اختصاره في صيغة توليدية: فكل تعبير هو تأقلم بين مصلحة تعبيرية ورقابة مشكّلة بواسطة بنية المجال الذي يُقدم فيه هذا التعبير، وهذا التأقلم هو نتاج جهد في إسباغ لطف التعبير يستطيع المضى حتى الصمت وهو حد الخطاب الخاضع للرقابة. وجهد إسباغ لطف التعبير هذا يؤدي إلى إنتاج شيء ما هو تشكيل من الحل الوسط، تركيب أو مزيج من ذلك الذي كان يتعين قوله، الذي يُتظاهر بقوله والذي يمكن قوله عندما تأخذ في الاعتبار البنية المكوّنة لمجال معين. وبعبارة أخرى فإنه المعبّر عنه بكلمات في مجال معين هو محصلة ما يمكن تسميته إضفاء شكل: فالكلام هو اتخاذ أشكال. وأريد بذلك أن أقول إن الخطاب مدين بخصائصه الأكثر نوعية، خصائص شكله وليس مضمونه فحسب إلى الشروط الاجتماعية لإنتاجه، أي إلى الشروط التي تحدّد ما الذي يقال، وإلى الشروط التي تحدّد مجال الاستقبال الذي سيُسمع فيه ما يتعين قوله. وبذلك يمكن تجاوز التضاد الساذج نسبياً بين التحليل الداخلي والتحليل الخارجي للأعمال والخطابات.

ومن وجهة نظر السوسولوجيا التي لها مبدؤها الخاص في وثوق الصلة بالموضوع، أي مبدؤها الخاص في تأسيس موضوعها، فستكون للمصلحة التعبيرية هي ما

(*) مداخل في ندوة عن علم الأعمال (ليل) في مايو ١٩٧٤م.

يمكن تسميته مصلحة سياسية بالمعنى الواسع جدا، فمن المفهوم أن لكل جماعة مصالح سياسية. وهكذا ففي داخل مجال محدود (ذلك الذي تشكله تلك المجموعة على سبيل المثال) فإن «السياسية» هي محصلة تعامل بين ما يتعين قوله والكرايح الخارجية المشكّلة لمجال ما. ولتأخذ مثالا مستعارا من لاکوف Lakoff. فأمام سجادة مضيئة لا يقول الزائر «اوه يالها من سجادة جميلة كم تساوى؟» بل هو بالأحرى سيقول «هل تستطيع أن أسألكم كم تساوى؟» فصيغة «هل تستطيع» تناظر ذلك الجهد من إضفاء لطف التعبير الذي يتألف من إضفاء أشكال. فعندما يتعين على المرء التعبير عن مقصد ما فمن المستطاع أو من عدم المستطاع إضفاء أشكال، وهي تلك الأشكال التي نتعرف بها على سبيل المثال على خطاب فلسفى، فى عين اللحظة التي يعلن فيها عن نفسه، قبل أن يتم استقباله بالكامل لأشكاله، أى بوصفه شكلا لا بوصفه مضمونا. ومن خصائص الخطاب فى الشكل هو فرض معايير إدراكه الخاصة، وقول «عاملونى وفقا للأشكال» أى بالتوافق مع الأشكال التي أنتخذها لنفسى، وعلى الأخص لا تختزلونى إلى ما أنكره بواسطة اتخاذ هذا الشكل. ويعباره أخرى أنتى أذافع هنا عن حق «الاختزال»، فالخطاب الذى يشيع فيه لطف التعبير يمارس عنفاً رمزياً من آثاره النوعية حظر العنف الوحيد الذى يستحقه والذى يتألف من اختزاله إلى ما يقوله ولكن فى الشكل الذى يدعى أنه لا يقوله. إن الخطاب الأدبى خطاب يقول «عاملونى كما أطلب أن أعامل أى بالطريقة السميولوجية»^(١) بوصفى بنيه» فإذا كان تاريخ الفن وسوسيولوجيا الفن متأخرين إلى هذه الدرجة، فذلك لأن الخطاب الفنى قد نجح أكثر من اللازم فى فرض معياره الخاص للإدراك، فهذا خطاب يقول «عاملونى باعتبارى غائبة بدون غاية» وعاملونى بوصفى شكلا وليس بوصفى مادة».

وحيثما أقول إن المجال يعمل باعتباره رقابة، فأننا أقصد بذلك أن المجال هو بنية معينة لتوزيع نوع خاص من رأس المال. ورأس المال يمكن أن يكون السلطة الجامعية، والمكانة القلبية، والسلطة السياسية والقوة المادية وفقا للمجال المعين. ولسان الحال أو الناطق المفوض باسم مجال معين هو حائز سواء بشخصه (تلك هى الكاريزما) أو سواء بالإتابة (ذلك هو القسيس أو المدرس)، لرأس مال مؤسسى من السلطة، يقرض أن يؤلى ثقة، وأن يُعطى الكلمة. ويقول بنفنيست Benveniste وهو محلل الكلمة اليونانية Skeptron (صولجان) إنه شيء ما يجرى تمريره إلى الخطيب الذى يوشك أن يأخذ الكلمة ليبان أن كلامه صادر عن سلطة، فهو كلام تنبئ طاعته ولا يكفى الإضفاء إليه.

إذن فإذا عمل المجال بوصفه رقابة فذلك لأن الذى يدخل فى هذا المجال يحتل على الفور موقعا داخل بنية معينة، بنية توزيع رأس المال: فالمجموعة تعطيه أو لا تعطيه الكلمة، توليه أو لا توليه الائتمان crédit بالمعنى المزوج للكلمة (ثقة أو مال). وبواسطة ذلك نفسه يمارس المجال رقابة على كل ما يريد أن يقال على أحسن وجه، على الخطاب الألهه idios logos ، الذى يريد أن يدعه ويتجنبه ويفرض عليه ألا يمرر إلا ما هو مناسب، ما يعبر عنه بكلمات. وهو يستعيد شيئين ذلك الذى لا يُستطاع قوله إذا عرفنا بنية توزيع وسائل التعبير ؛ أى ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك الذى يمكن أن يقال على أحسن وجه، وبأسهل طريقة ولكنه خاضع للرقابة، إنه ذلك الذى لا يُسمى.

إن الإضفاء البسيط للشكل، أى جهد إشاعة لطف التعبير يعتمد ظاهريا على الشكل ولكن وفقا للشروط فإن ما ينتجه لا يمكن فصله عن الشكل الذى يتبدى فيه. ومسألة معرفة ما كان سيقال فى مجال آخر، أى فى شكل آخر ليست لها معنى إطلاقاً، فخطاب هيدجر ليس له معنى إلا بوصفه خطابا فلسفيا. أما إحلال كلمتى حقيقى وغير حقيقى (أصيل وغير أصيل) بدلا من مميزات (أو فريد) وشائع (أو معتاد) فذلك ادخال لتعبير غير عادى. ففي المحل الأول إن ما يعمل بوصفه لظفا فى التعبير هو النظام بأكمله. وقد استخدمت كلمة لطف التعبير مترددا لأن لطف التعبير يستبدل بكلمة كلمة أخرى (بالكلمة المحرمة). وفى الحقيقية إن إشاعة لطف التعبير التى أريد وصفها هنا هى التى تعمل بواسطة كلية الخطاب. وعلى سبيل المثال فى النص الشهير لهيدجر عن «on» أى ضمير الغائب الذى يترجم عادة بكلمة «المراء» تتعلق المسألة من جانب بعمليات النقل الجمعى، ومن جانب آخر بما يسميه البعض وسائل الاتصال على نطاق كبير» أو الوسائل الإجمالية. وأماننا مشاران إليهما واقعيا جدا هما الموضوع الممكن لخطاب عادى يحجبهما نظام العلاقات المشكل للخطاب الفلسفى. والأمر ليس ببساطة قول كلمة بدلا من أخرى، إنه يتعلق بالخطاب بوصفه كذلك، ومن خلاله كل المجال الذى يعمل بوصفه أداة الرقابة.

وهناك ما هو أكثر من ذلك ؛ فحينما يتعلق الأمر على سبيل المثال بتحديد بنية ما يقال فى الموقع الذى تكون فيه، لا يكفى القيام بتحليل للخطاب من داخله، بل ينبغى الامساك أو الإحاطة بالخطاب بوصفه نتاجا لعمل كامل أجرى على المجموعة (دعوة أو لا دعوة... الخ). وبإيجاز ينبغى القيام بتحليل للشروط الاجتماعية لتأسيس المجال التى ينتج داخلها الخطاب، لأن هنا يكمن المبدأ الحق لما يمكن أن يقال هنا ولما لا يمكن أن يقال.

وعلى نحو أكثر عمقا فإن إحدى الطرق الأكفا من حيث أنها لا يمكن إيقافها بالنسبة إلى مجموعة ما لفرض الصمت على الناس هي استبعادهم من المواقع التي يمكن لهم الكلام إنطلاقا منها وعلى العكس فإن إحدى الطرق المتاحة لمجموعة ما لكي تسيطر على الخطاب تنحصر فى وضعهم داخل المواقع التي منها يدور الكلام عن الناس الذين لا يقولون إلا ما يسمح لهم المجال بقوله ويستدعيه. ولكى نفهم ما استطاع قوله فى نظام للتعليم تنبى معرفة آليات تجنيد هيئة التدريس وسيكون أمرا ساذجا تماما أن نعتقد أن مستوى خطاب المدرسين هو المستوى الذى يمكن من الإحاطة بما يقال فى هذا المجال، ولماذا يقال.

وكل تعبير هو على نحو ما عنف رمزى ولا يمكن ممارسته بواسطة الذى يمارسه ولا يمكن تحمله من جانب الذى يتحمله إلا لأنه مساء فهمه باعتباره كذلك. ويرجع ذلك جزئيا إلى أنه يُمارس من خلال توسط جهد من إشاعة لطف التعبير. وبالأمر آثار شخص ما مشكلة الاستقبال (فيما يتعلق بكفاءة الإيديولوجية)، وما أقوله يشمل الإنتاج والاستقبال. وحينما يسقط فلوير Flaubert على سبيل المثال فى روايته «التربية العاطفية» كل «تمثيله» لبنية الطبقة السائدة أو على نحو أدق العلاقة اثنى يقيمها من موقعه فى الطبقة السائدة تحت شكل استحالة أن يرى تلك الطبقة على نحو مغاير، فهو يسقط شيئا ما يتجاهله هو نفسه، أو على نحو أفضل ينكره ويسىء فهمه، لأن جهد إشاعة لطف التعبير الذى أخضعه لهذه البنية يسهم فى أن يخفيها عنه، إنه شىء ما يسىء فهمه وينكره المعلقون (لأنهم نتاج البنى نفسها التى حفزت إنتاج الرواية). وبعبارة أخرى لكى تتم قراءة فلوير على نحو تأويلى، ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار كل النظام الذى أنتج الخطاب الخاص بفلوير بين أشياء أخرى. وحينما نتكلم عن علم يدرس المؤلفات من المهم إذن أن نعرف أنه بموجب الواقعة البسيطة لاعتبار المؤلفات مستقلة ذاتيا سوف نفتح الأعمال ما تتطلبه هي، أى كل شىء.

هوامش المترجم « للفصل الحاي عشر »

- ١- السيميولوجيا: دراسة العلامات. والمعنى هنا أن العمل الأدبي بنية لغوية ذات استقلال نسبي، وليس تمثيلا لموضوعات خارجية.

□□□

الفصل الثاني عشر

الشباب ليس إلا كلمة (*)

سؤال

كيف يتناول السوسيولوجى مشكلة الشباب ؟

الإجابة

الفعل المنعكس (أو الاستجابة الآلية) للسوسيولوجى هو التذكير بأن تقسيم الأعمار أمر تعسفى وتلك هى مفارقة باريتو Pareto (١١) القائلة بأننا لا نعرف فى أى سن تبدأ الشيخوخة كما لا نعرف متى يبدأ الثراء. والحقيقية إن الحد الفاصل بين الشباب والشيخوخة فى كل المجتمعات هو رهان صراع. وعلى سبيل المثال فقد قرأت منذ عدة سنوات مقالا عن العلاقات بين الشبان وعلية القوم فى فلورنسا أثناء القرن السادس عشر. ويشير المقال إلى أن المسنين اقترحوا على الشباب ايدولوجية الفحولة ؛ أى ايدولوجية الامتياز الرجولى أو «الفضيلة» الرجولية، virtú والعنف وكانت تلك طريقه للاحتفاظ بالحكمة أى بالسلطة. وبالمثل يدلل جورج دوى Georges Duby جيدا كيف أنه فى العصر الوسيط كانت حدود الشباب موضوعا للتلاعب والتحكم من جانب حائزى الإرث، فقد كان يجب أن يحتفظوا بحالة من الشباب أى من عدم المسؤولية، حتى يستطيع النبلاء الشباب أن يطالبوا بانتقال التركة إليهم.

وسنجد أشياء معادلة لذلك تماما فى الأقوال السائرة والحكم، أو ببساطة فى كل القوالب الجاهزة عن الشباب، أو فى الفلسفة من أفلاطون إلى آلان (١٢) Alain وهى التى اختصت كل عمر بعاطفته النوعية (أو بميله النوعى الغالب) فالمرحلة، بالحب والسن

(*) لقاء مع آن ماري ميتايليه Anne Marie Métaillé، ظهر فى «الشباب وأول عمل» باريس.

الناضجة بالطموح. ومنح التمثيل الإيديولوجي للتقسيم بين شباب ومسنين إلى الأكثر شبابا أشياء تجرل في المقابل أكواما من الأشياء متروكة لمن هم أكبر سنا. وذلك واضح جدا في حالة الرياضة في الرجبي على سبيل المثال، بتمجيد «صغار السن الممتازين»، وهم الأقطاظ الحشنون الممتازون الذين يكوسون حياتهم للتفاني الغامض في لعب المراكز الأمامية، والذين يتحمسون للقادة الإداريين والمعلقين (حافظ على قوتك والزم الصمت، لا تفكر). وتذكرنا تلك البنية التي توجد في أماكن أخرى (على سبيل المثال في العلاقات بين الجنسين) بأن ثمة في التقسيم المنطقي بين الشباب والمسنين مسألة سلطة، مسألة تقسيم (بمعنى توزيع) للسلطات. فالتصنيف بواسطة السن (ولكن أيضا بواسطة الجنس أو بكل تأكيد بواسطة الطبقة...) يعاود دائما فرض حدود معينة، وإنتاج نظام يجب أن يتمسك به كل فرد يجب أن يظل داخله كل في مكانه.

سؤال

ماذا تفهم بكلمة المسنين؟ أهم البالغون أو الذين انخرطوا في العمل الإنتاجي؛ أو في المرتبة الثالثة من العمر؟

الاجابة

عندما أقول شباب / مسنون فأنا أتناول العلاقة في أشد أشكالها خواء، فنحن دائما أمام شباب أو شيخوخة شخص ما. وهذا هو السبب في أن خطوط القطيعة أو الانفصال سواء كانت في مراتب العمر أو الأجيال تظل متغيرة تماما، وتظل رهانا للتحكم والتلاعب. وعلى سبيل المثال تشير نانسي مان Nancy Mann وهي عالمة إثنولوجيا إلى أنه في مجتمعات معينة من استراليا تعتبر ممارسة سحر ينبوع الشباب الذي تستعمله النساء العجائز لاستعادة الشباب عملا شيطانيا بالكامل؛ لأنه يوقع الخلل في الحدود بين الأعمار؛ فلا يعود أحد يعرف الشاب من المسن. وما أود التذكير به هو ببساطة كاملة أن الشباب والشيخوخة ليسا معطين بل هما بناءان عقليان أقيما على نحو اجتماعي في الصراع بين الشباب والشيخوخة. كما أن الروابط بين العمر الاجتماعي والعمر البيولوجي بالغة التعقيد. فإذا قارنا بين شباب أقسام مختلفة من الطبقة السائدة؛ على سبيل المثال

كل الطلبة الذين يدخلون المعاهد رفيعة المستوى على غرار مدرسة المعلمين العليا والمدرسة القومية للإدارة L'Ecole Normale, L'Ena فى نفس السنة فسئرى أن هؤلاء «الشباب» سيمتلكون بقدر متزايد صفات البالغين والعجائز والنبلاء وعلية القوم الخ، كلما اقتربوا من قطب السلطة. وحينما يذهب أحد من المثقفين إلى السيد الرئيس المدير العام PDG فكل ما يظهر على أنه سمة للشباب من شعر طويل وملابس من الجينز يختفى. فلكل مجال كما أوضحت فيما يتعلق بالموضة أو الإنتاج الفنى والأدبى قوائمه النوعية للتقدم فى العمر: فلكى نعرف كيف تنفصل الأجيال فيما بينها هنا أو هناك ينبغى أن نعرف القوانين النوعية لسيروية المجال، وهانات الصراع والأقسام التى يدفعها هذا الصراع إلى العمل («مرجة جديدة»، «رواية جديدة» «فلاسفة جدد»، «قضاء جدد».. الخ)، وليس فى ذلك ما هو جديد، فكله شديد العادية، ولكنه يجعلنا نرى أن العمر هو معطى بيولوجى يجرى التحكم أو التلاعب فيه على نحو اجتماعى ؛ وهو قابل لذلك التحكم أو التلاعب الاجتماعى، إن واقعة الكلام عن الشباب كما لو كانوا يشكلون وحدة اجتماعية، كما لو كانوا مجموعة سابقة التشكل مزودة بمصالح مشتركة، ثم نسبة هذه المصالح إلى عمر يتعين بيولوجيا هى واقعة تدل أصلا على تحكم أوتلاعب واضح. فينبغى على الأكل تحليل الفروق بين هؤلاء الشباب، أو لكى نمضى سراجا بين الشبابين. فعلى سبيل المثال من المستطاع عقد مقارنة نسقية بين شروط الوجود وسوق العمل، ووقت اتفاق الدخل.. الخ عند الشباب الذين التحقوا بالعمل من قبل، وعند المراهقين فى السن نفسها (البيولوجية) الذين ظلوا طلبة. فمن ناحية هناك القيود التى لا يكاد يخفف منها التضامن العائلى، للعالم الاقتصادى الواقعى ومن ناحية أخرى هناك تسهيلات اقتصاد متعلق باللعب واللمهز على وجه التشبيه بين المنتفعين مؤسس على المساعدة والعون، كالوجبات الغذائية والسكن بسعر منخفض وحقوق الحصول على اسعار منخفضة فى المسرح والسينما.. الخ. وسنجد فروقا عمالة فى كل ميادين الوجود: وعلى سبيل المثال فإن الصبية من أصحاب الثياب الرثة ذوى الشعر البالغ الطول الذين فى أسمىات السيت يتزهون صديقاتهن الصغيرات متسكعين على دراجات هم الذين يستوقفهم رجال الشرطة. وبعبارة أخرى، إنه لا يمكن أن ندرج تحت مفهوم واحد عالمين اجتماعيين: ليس بينهما عمليا شىء مشترك إلا عن طريق إسائة استعمال بشعة للغة. ففى جانب سبرف نجد عالم المراهقة بالمعنى الحق أى اللامسؤولية المؤقتة، فهؤلاء الشباب يعيشون فى نوع من

المنطقة المشاع اجتماعيا منزوعة السلاح أو المتنازع عليها «أرض لا أحد» No man's land (بالإنجليزية فى الأصل)، فهم بالفن بالنسبة لأشياء معينة، وأطفال بالنسبة لأشياء أخرى، وهم يلعبون على الحصانين معا. وهذا هو السبب فى أن كثيرا من المراهقين البورجوازيين يحلمون بإطالة فترة المراهقة، وتلك هى عقدة فريديريك بطل «التربية العاطفية» لفلوبير، التى تريد أن تجعل من المراهقة مرحلة أبدية. وبعد ذلك فإن هذين «النوعين من الشباب» لا يمثلان شيئا سوى القطبين، سوى طرفى حيز من الإمكانيات المتاحة أمام «الشباب» عموما. ومن الإسهامات المثيرة للاهتمام فى عمل تيفنيو Thevenot الإشارة إلى أننا نجد اليوم بين هذين الموقعين النهائيين (المتطرفين)، موقع الطالب البورجوازي وفى النهاية المقابلة موقع العامل الشاب الذى ليست له حتى فترة مراهقة إطلاقا، كل الأشكال الوسيطة.

سؤال

أليس ما ينتج هذا النوع من الاستمرار حيثما كان هناك اختلاف أكثر حدة بين الطبقات هو تحويل النظام التعليمي ؟

الإجابة

من عوامل هذا التشوش فى التقابلات بين الاختلافات فى شباب طبقة هو حقيقة أن الطبقات الاجتماعية المختلفة قد أتيح لها الوصول -على نحو أكثر أهمية من حيث التناسب- إلى التعليم الثانوى كما اكتشف دفعة واحدة هذا الجزء من الشباب (بيولوجيا) الذين حتى ذلك الوقت لم يكن أمامهم منفذ إلى المراهقة، هذا الوضع المؤقت، «نصف طفل ونصف بالغ»، «ليس طفلا وليس بالغا». وأنا أعتقد أن تلك واقعة اجتماعية شديدة الأهمية. وتظل مهمة حتى فى الأوساط التى هى فى الظاهر أكثر ابتعادا عن الوضع الطلابى للقرن التاسع عشر، أى فى القرية الريفية الصغيرة، لدى أبناء الفلاحين والحرفيين الذين يذهبون إلى كلية التعليم الثانوى CES، فحتى فى هذا الحالة كان المراهقون يوضعون أثناء وقت طويل نسبيا وأثناء السن التى كانوا يذهبون فيها من قبل إلى العمل فى تلك المواقع شبه الخارجية بالنسبة إلى العالم الاجتماعى التى تحدد وضع

المراقبة. ويبدو أن أحد الآثار الأكثر قوة لوضع المراقبة تتبع من هذا النوع من الوجود المنفصل الذى يضعها خارج الحلبة اجتماعيا. إن مدارس السلطة وعلى الأخص المدارس الراقية تضع الشباب فى أماكن مسورة (حظائر) معزولة عن العالم، أماكن تشبه الأديرة حيث يمارسون حياة قد نحيث جانبها، حيث يفرض عليهم التقاعد والانسحاب من العالم والالتكباب بالكامل على التأهب لممارسة «أعلى الوظائف». وهم هناك يقومون بأعمال شديدة المجانية، من قبيل تلك الأعمال التى تمارس فى المدرسة، تدريبات بالطلقات الفارغة. ومنذ عدة سنوات شق كل الشباب على وجه التقريب طرقهم بدرجات متفاوتة إلى شكل تام وممتد، من تجربة الدراسة، ومهما تستطيع هذه التجربة أن تكون قصيرة وسطحية، فإنهما حاسمة لأنها تكفى لا استثارة قطيعة عميقة بدرجة تزيد أو تنقص مع ما هو يديهى «يجرى من تلقاء ذاته». ونحن نعرف حالة ابن عامل المنجم الذى كان يأمل فى النزول إلى المنجم بأقصى سرعة ممكنة لأن ذلك هو الدخول إلى عالم البالغين (ويظل ذلك باقيا حتى اليوم، فمن الأسباب التى تدفع مراهق الطبقات الشعبية لأن يريدوا مغادرة المدرسة والدخول إلى مجال العمل فى وقت مبكر جدا، رغبتهم فى الوصول بأسرع ما يمكن إلى وضع البالغ وإلى القدرات الاقتصادية المرتبطة به: أى امتلاك نقود، وذلك شديد الأهمية لتأكيد الذات أمام الصحاب والفتيات، ومن ثم لأن يحصل على اعتراف الآخرين به واعتراؤه بنفسه باعتباره «رجلا» وبعد ذلك بين عوامل الانحراف والسوء التى تثيرها عند أطفال الطبقات الشعبية فترة الدراسة الطويلة)، ومعنى ذلك أن واقعة أن يضع المرء فى موقف «الطالب» تؤدى إلى حدوث أشياء كثيرة جدا هى عناصر مقومة للموقف المدرسى: فهم يمتلكون حزماتهم من الكتب ملفوفة بحبل رفيع، وهم يجلسون على دراجاتهم مغازلين فتاة ما، وهم بين شباب صبية وبنات، خارج العمل، وهم معفون فى المنزل من المهام المادية باسم أنهم يقومون بالدراسة (وذلك عامل مهم فالتبقيات الشعبية تدعن لهذا النوع من العقد الضمنى الذى ينص على وضع الطلبة خارج المرمى)

وأنا أعتقد أن ذلك الوضع الرمضى: «خارج المرمى» له أهمية معينة، لأنه يرتبط بالآثار الجوهرية للمدرسة التى هى تطويع الطموحات (التحكم فيها). فالمدرسة -وذلك يتعرض للنسيان دائما- ليست مجرد مكان يتعلم فيه المرء أشياء ومعارف وتقنيات.. الخ بل هى أيضا مؤسسة تمنح مؤهلات أى حقوقا وتهب فى نفس اللحظة مطامح. وكان النظام التعليمى القديم ينتج تشوشا أقل من النظام الراهن بتسلسل مراتبه المعقدة التى تجعل

للناس مطامح سيئة التكيف علو، فرصهم الفعلية. وفى الماضى كان هناك تسلسل واضح نسبيا، فإذا ذهب المرء أبعد من الشهادة يدخل فى دورة تكميلية فى كلية أو ليسيه، وكان هذا التسلسل متدرج المراتب بوضوح ولن يعانى المرء فيه من تشوش. أما اليوم فهناك زحام من التسلسلات سيئة التمايز ويتعين أن تكون خيرا محنكا لكى تتجنب تأثير الأوضاع المعلقة أو الشبكات المتداخلة، وشراك التوجهات والمؤهلات منتقصة القيمة. ويسهم ذلك فى إضفاء الحظوة على فرض اشتباك معين مع المطامح بالنسبة إلى الفرص الفعلية. وكان الوضع القديم للنظام التعليمى يعمل على استبطان قوى جدا للحدود، وكان يدفع إلى قبول الإخفاق أو الحدود باعتبارها عادلة أو لا معدى عنها. وعلى سبيل المثال فعملهم ومعلمات المرحلة الابتدائية هم أولئك الذين يجرى اختيارهم وتشكيلهم بوعى أو بغير وعى على نحو يجعلهم مقطوعى الصلة بالفلاحين والعمال على أن يظلوا بالكامل منفصلين عن مدرسى المدارس الثانوية. وحينما كان يوضع فى وضع تلميذ الليسيه، حتى ولو بتخفيض معين، أطفال ينتمون إلى طبقات كان التعليم الثانوى فى الماضى بالنسبة لها غير متاح على الإطلاق، فإن النظام الحالى يشجع هؤلاء الأطفال وعائلاتهم على توقع ما يضمنه النظام التعليمى لتلاميذ الليسيه فى وقت لا يمتلكون فيه منفذ إلى هذه المؤسسات. فالدخول إلى التعليم الثانوى معناه الدخول فى المطامح التى كانت منقوشة فى واقعة الوصول إلى التعليم الثانوى فى مرحلة سابقة؛ فالذهاب إلى الليسيه يعنى ارتداء مطمح أن يصير مدرسا فى الليسيه أو طبيبا أو محاميا أو مسجلا عقد وأشباه ذلك من المناصب التى تتيحها الليسيه فيما بين الحربين. بيد أن أطفال الطبقات الشعبية حينما لا يكونون داخل النظام فإن النظام لا يكون على ما هو عليه. فهناك دفعة واحدة تخفيض للقيمة بالتأثير البسيط للتضخم، ونتيجة أيضا للتغير فى «الكيف الاجتماعى» أو النوعية الاجتماعية لحائزى المؤهلات. بيد أن آثار التضخم المدرسى أكثر تعقيدا مما يشترك الناس فى قوله، نتيجة لأن مؤهلا دراسيا يساوى دائما ما يساويه الذين يحملونه، فإنه عندما يصبح متكرر الوجود بدرجة أكبر يصير لذلك أقل قيمة، ولكنه سيفقد المزيد من قيمته بدرجة أكبر عندما يصير متاحا لهؤلاء الذين يُعدون «بلاقيمة اجتماعية».

سؤال

ماهى عواقب ظاهرة التضخم هذه؟

الإجابة

الظواهر التى وصفتها تجعل المطاعم المنقوشة موضوعيا فى النظام كما كان فى الحالة السابقة محبطة. فالانحراف بين المطاعم التى يحبذها النظام المدرس بواسطة مجمل الآثار التى ذكرتها والفرص التى يكفلها بالفعل هو فى أصل الإحباط والحداد والرفض الجماعى الذى يضع نفسه مقابل التثبيت الجمعى (الذى استحضرت مع ابن عامل المنجم) فى العصر السابق والإذعان المتوقع للفرص الموضوعية وهذا من الشروط الضمنية للسيروية الجيدة للاقتصاد. ويعتبر ذلك أحد أنواع قطع الحلقة المفرغة التى تجعل ابن عامل المنجم يرغب فى النزول إلى المنجم حتى دون أن يسأل نفسه إذا كان يستطيع ألا يفعل ذلك. ومن البيديهى أن ما وصفته هنا لا يصدق على مجمل الشباب، فهناك زمر من المراهقين وعلى الأخص من المراهقين البورجوازيين يظلون داخل الحلقة كالسابق، ويرون الأشياء كسابق العهد ويدرون الدخول فى المدارس الراقية، مثل معهد الإدارة MIT أو مدرسة هارفارد لإدارة الأعمال Harvard business School وكل المسابقات التى يمكن تخيلها كما كانت الحال سابقا.

سؤال

فى الطبقات الشعبية يوجد هؤلاء الأولاد فى فجوات دنيا العمل.

الإجابة

يمكن أن يكون المرحاصلا على تقدير حسن فى النظام التعليمى ثم لا يجد متسعا مماثلا فى مجال العمل، ودون أن يعثر على عمل مناسب لمؤهلاته الدراسية، (وظل ذلك موضوعا عتيقا للأدب المحافظ فى الثمانينات من القرن الماضى، فكان يتحدث عن حملة الشهادات الجامعية العاطلين وكان يخشى آثار قصم دائرة الفرص والمطامح والمواقع المتقدمة المرتبطة بها). ويمكن للمرء أن يكون عاثر الحظ جدا فى النظام المدرسى ويحس أنه

غرب تماما داخله، ولكن ينتمى رغم كل شيء إلى ذلك النوع من الثقافة الفرعية المدرسية، إلى تلك الزمرة من الطلبة الذين لمجدهم في الحفلات الراقصة، ويمتلكون أسلوبي ناجحا للتعامل مع الطلبة ويندمجون على نحو كاف بهذه الحياة حتى لينفصلوا عن عائلاتهم (فهم ما عادوا يفهمون هذه العائلات وما عادت تفهمهم: ومع امتلاكهم لهذه الفرصة^{١١}). ومن ناحية أخرى هناك الشعور بالاضطراب واليأس أمام العمل. وفي الحقيقة فإنه يضاف إلى تأثير الاقتلاع من الدائرة رغم كل شيء الاكتشاف المبهم لما يعد به النظام التعليمى بعض الناس، الاكتشاف المبهم حتى عبر الإخفاق لأن النظام التعليمى يسهم فى إعادة انتاج الامتيازات.

وأنا أعتقد. وقد كتبت ذلك منذ عشر سنوات. أنه لى يستطيع أفراد الطبقات الشعبية أن يكتشفوا أن النظام التعليمى يعمل باعتباره أداة لإعادة إنتاج الوضع القائم، ينبغى لهم أن يمرؤا بالنظام التعليمى. فهم من حيث الأساس يستطيعون اعتقاد أن المدرسة أداة تحريرية، ومهما يقل الناطقون الرسميون باسمهم فلن يفكروا فى شيء يتعلق بالمدرسة طالما ليست لهم علاقة بها إلا على مستوى المدرسة الأولية (الإلزامية). وبالفعل يعمل الاكتشاف الذى لم يجد لفته بعد، اكتشاف أن النظام التعليمى وسيلة لنقل الامتيازات، داخل الطبقات الشعبية لدى البالغين كما هو لدى المراهقين.

سؤال

ولكن كيف تفسر إذن أنه قد ثبت أو سُجل أن
هناك منذ ثلاث أو أربع سنوات ابتعادا عن
التسييس أكثر ضخامة فيما يبدو؟

الإجابة

إن الثورة الغامضة -التي تطرح للتساؤل العمل والمدرسة... الخ هي ثورة شاملة، فهي تشكك فى النظام التعليمى فى مجمله وتضع نفسها على نحو مطلق فى تقابل مع ما كان تجربة الإخفاق فى الوضع القديم للنظام (والذى لم يخف من أجل ذلك بكل تأكيد ويكنى الإصغاء للقاءات: وأنا لا أحب اللغة الفرنسية، أنا ليست مرتاحا فى المدرسة... الخ).

وما يعمل من خلال الأشكال الفوضوية فاقدة المعايير إلى هذه الدرجة أو تلك ليس هو ما نفهمه عادة من التسييس، أى ما تكون الأجهزة السياسية مستعدة لتسبيله قانونيا ووضعه موضع التنفيذ. إن ذلك طرح لتساؤل أكثر عموميه وغموضاً، نوع من المشقة أو الخلل فى العمل، شىء ما ليس سياسيا بالمعنى المألوف ولكنه يستطيع أن يكون كذلك؛ شىء ما يشبه كثيرا بعض أشكال الوعي السياسى التى هى فى آن معا شديدة العمى بالنسبة لنفسها ؛ ولأنها لم تعثر بعد على خطابها وذات قوة ثورية غير متتادة قادرة على تجاوز الأجهزة مثل التى نجدتها عند البروليتاريا السفلى (Sous Proletaires) (أقسام من العمال مجردة من المكاسب التى حصلت عليها الطبقة بنضالها) أو عند عبال الجيل الأول المنحدرين من أصل فلاحى. ولتفسير إخفاقهم الخاص وتحمله يجب على هؤلاء الناس أن يطرحوا للتساؤل كل النظام كتلة واحدة، النظام التعليمى والعائلة أيضا التى يرتبط بها، وكل المؤسسات مع مطابقة المدرسة بالشكته العسكرية، والشكته العسكرية بالمصنع. وهناك نوع من النزعة اليسارية التلقائية التى تستحضر بأكثر من سمة خطاب تلك البروليتاريا السفلى.

سؤال

وهل لهذا تأثير على صراعات الأجيال؟

الإجابة

هناك شىء بسيط جداً لا يفكر فيه أحد، وهو أن مطامح الأجيال المتعاقبة، من الآباء والأبناء تتشكل بالنسبة إلى حالات مختلفة من بنية توزيع الأموال وفرص الوصول إلى أموال مختلفة، وما كان يعد لدى الآباء امتيازاً غير معتاد (فعلى سبيل المثال حينما كانوا فى العشرين من عمرهم كان واحد فى الألف من الذى فى سنهم يمتلك سيارة) أصبح شائعا من الناحية الإحصائية والكثير من الصراعات بين الأجيال هى صراعات بين نظامين من المطامح تشكلا فى عصرين مختلفين. وما كان بالنسبة إلى الجيل الأول يعد فتحا مجيدا المجازا للحياة بأكملها، صار معطى متاحا منذ الميلاد وعلى الفور للجيل التالى. لكن الانحراف يصير قويا على الأخص فى حالة الطبقات المتدهورة التى لم يعد أفرادها يملكون الآن حتى ما كانوا يمتلكونه وهم فى العشرين من عمرهم وهذا فى العصر الذى

أصبحت فيه كل امتيازاتهم أيام كانوا في العشرين، (مثل الانزلاق على الجليد أو حمامات البحر) شائعة معتادة. ليس من قبيل المصادفة أن التحيز أو العنصرية ضد الشباب (وهي واضحة جدا في التطبيقات على الرغم من افتقار أى تحليلات للشرائح الطبقية لسوء الحظ) هي واقع الطبقات التي تتدهور (مثل أصحاب الحرف الصغار أو التجار الصغار) أو الأفراد المهوورين وكبار السن عموما) ومن البديهي أن كل كبار السن ليسوا معادين للشباب ولكن الشيخوخة هي أيضا انحياز اجتماعي وفقدان للسلطة الاجتماعية. ويهذه الطريقة غير المباشرة يدخل كبار السن في علاقة مع الشباب مماثلة لتلك التي تميز الطبقات المنحدرة، أى أن المسنين التجار والمسنين الحرفيين... الخ يجمعون بأعلى درجة كل الأعراض، فهم ضد الشباب ولكنهم أيضا ضد الفنانين وضد المثقفين وضد الاعتراض، فهم ضد كل ما يتغير وكل ما يتحرك... الخ ؛ وذلك بالتحديد لأن مستقبلهم وراهم، لأنهم لا يملكون مستقبلا على حين أن الشباب يمكن تعريفهم بأنهم يمتلكون المستقبل ويحددون المستقبل.

سؤال

ولكن أليس النظام التعليمي ماثلا في أساس الصراعات بين الأجيال، بقدر يمكنه التقريب داخل نفس المواقع الاجتماعية بين الذين تشكلوا في أطوار مختلفة من النظام التعليمي؟

الإجابة

يمكن البدء من حالة ملموسة: فالآن نجد في كثير من المواقع الوسطى للوظيفة العامة -حيث يمكن الترقى بواسطة التدريب في مكان العمل- جنبا إلى جانب وفي المكتب نفسه عددا من الشباب حائزي الشهادة الثانوية وحتى الشهادات الجامعية وقد تخرجوا لتوهم من النظام التعليمي وعددا من الناس بين الخمسين والستين تخرجوا قبل ثلاثين عاما بشهادة إتمام الدراسة الابتدائية في عصر من عصور النظام التعليمي كانت فيه شهادة إتمام الدراسة هذه مازال مؤهلا نادرا نسبيا، ووصلوا عن طريق التعليم الذاتي والاقدمية إلى مناصب «الكادر» التي لم تعد متاحة اليوم إلا أمام حملة شهادات أعلى.

وهنا فإن التعارض هنا ليس بين مستين وشباب بل هو من الناحية العملية بين طورين للنظام التعليمي، طورين من الندرة التفاضلية للمؤهلات. وهذا التعارض يعيد التعبير عن نفسه في صراعات التصنيفات: فالمستون لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا إنهم رؤساء لأنهم من القدامى يشيرون بدلا من ذلك إلى الخبرة المرتبطة بالأقدمية، على حين يفخر الشباب بالكفاءة التي تكلفها المؤهلات ويمكن أن تعثر على التعارض نفسه على الأرضية النقابية (وعلى سبيل المثال في نقابة القوة العمالية FO التابعة لاتحاد العمال) في شكل صراع بين شباب يساري ملتحم ومناضلين كبار في السن من ذوي الاتجاه النقابي القديم .

كما نجد أيضا جنبا إلى جنب في المكتب نفسه وفي الوظيفة نفسها مهندسين تخرج بعضهم من الفنون والصنائع Arts et Metiers وبعض آخر من مدرسة العلوم العسكرية العليا (البوليتكنيك Polytechnique) . ويحجب التماثل الظاهري في الوضع أن بعضهم ينتمون كما يقال إلى المستقبل وأنهم يرون مروراً عابراً بموقع هو بالنسبة للآخرين نقطة نهائية للوصول: وفي هذه الحالة تغامر الصراعات بأن تأخذ أشكالاً مختلفة .

لأن شباب المسنين (ومن ثم فهم محدودو العدد مدبرون جيدا) أمامهم كل الفرص لاستبطان احترام المؤهل التعليمي باعتباره تسجيلا لاختلاف في الطبيعة وهكذا نجد في الكثير من الحالات أن الصراعات التي يُنظر إليها بوصفها صراعات أجيال تتحقق في الواقع من خلال أشخاص أو مجموعات عمر تشكلت حول علاقات مختلفة بالنظام التعليمي. يينبغي (اليوم) البحث عن أحد المبادئ الموحدة (بالكسر) لجيل ما في العلاقة المشتركة بطور معين من النظام التعليمي، وفي المصالح النوعية المختلفة عن مصالح الجيل المحددة بواسطة العلاقة بطور آخر شديد الاختلاف من النظام: أي فيما هو مشترك بين مجموع الشباب أو على الأقل بين كل الذين أفادوا -مهما يكن ذلك ضئيلا- من النظام التعليمي ؛ الذين استخلصوا منه الحد الأدنى من التأهيل ؛ إنها حقيقة أن هذا الجيل على المستوى الكلي أكثر تأهيلا للعمل أو الاستخدام المتساوي من الجيل السابق (وبين قوسين تمكن ملاحظة أن النساء اللاتي -نتيجة لنوع من التمييز أو التفرقة- لا تصلن إلى الوظائف إلا بدفع ثمن تعدد الاختيار Sur-sélection هن دائما في هذا الوضع، أي أنهن دائما على وجه التقريب أكثر تأهيلا من الرجال بالنسبة للوظيفة المعادلة...) ومن المؤكد أن الشباب يمتلك بتجاوز كل الفوارق الطبقية مصالح مشتركة بين الجيل الواحد، ويرجع ذلك إلى أنه باستقلال عن أثر التفرقة المعادية للشباب ((فإن الواقعة البسيطة المتعلقة بأن

لهم صلة بأطوار مختلفة من النظام التعليمي تجعلهم يحصلون دائما على مؤهلات أقل من المؤهلات التي حصل عليها الجيل السابق. فهناك تشويه تاهيلي بنيوي يصيب هذا الجيل. ولا شك في أن ذلك مهم لفهم هذا النوع من التحرر من الأوهام الذي هو مشترك نسبيا بين أفراد هذا الجيل بأكمله. وسنجد حتى بين صفوف البورجوازية أن جانبا من الصراعات الفعلية يمكن تفسيرها دون أى شك بواقعة أن التأخر في الخلاقة (وراثته المناصب) يطول، وكما أوضح لوبر Le Bras في مقال عن السكان أن السن التي يُثقل فيها الإرث أو المنصب تصير أكثر تأخرا، وأن على شباب الطبقة السائدة أن يكظموا غيظهم. وليس ذلك بلا شك غريبا على المنازعات التي تلاحظ في المهن الحرة (المهندسين المعماريين والمحامين والأطباء... الخ) وفي التسليم ومثلما يكون لكبار السن مصلحة في استبقاء الشباب داخل شبابهم يكون للشباب مصلحة في رد المسنين إلى شيخوختهم.

وهناك فترات يكون البحث فيها عن «الجديد» محتدما وهو بحث يدفع فيه «القادمون الجدد» - (وهم أيضا في أغلب الأحوال الأكثر شباهًا من الناحية البيولوجية) - الذين «وصلوا من قبل» إلى الماضي، وإلى انقضاء العهد وإلى الموت الاجتماعي «لقد انتهوا» - في الوقت نفسه تكون الصراعات بين الأجيال قد وصلت إلى أكبر احتدام، إنها اللحظات التي تتداخل فيها مسارات الأكثر شباهًا والأكثر شيخوخة وحيث يتوق الشباب في وقت «بالغ التكبير» إلى الخلاقة (استلام المسؤولية). وسوف يتم تجنب هذه الصراعات بمقدار ما ينجح المستون في الوصول إلى تنظيم وتيرة صعود الأكثر شباهًا، وفي تنظيم سلك المهن ومسارات الترقى، والتحكم في سرعة الحركة داخل المهن. وكذلك بمقدار ما ينجحون في كبح الذين لا يعرفون كيف يتوقفون من تلقاء أنفسهم، الطموحين الذين «يحرقون المراحل»، والذين يندفعون نحو المناصب المرموقة» (في الحقيقة إنهم لا يكونون في أغلب الوقت محتاجين إلى كايح لأن «الشباب» الذين يمكن أن يكونوا في الخمسين قد استبطنوا الحدود، والأعمار الشكلية المشروطة أي العمر الذي يمكن فيه «على نحو معقول المطالبة» بمنصب، بل ولن تطرأ على أذهانهم فكرة أن يطالبوا بذلك قبل الميعاد، قبل أن «تجىء ساعتهم». وحينما يضيع «الاحساس بالحدود» نشاهد ظهور صراعات حول حدود السن، والحدود بين الأعمار رهانها هو نقل السلطة والامتيازات بين الأجيال.

هوامش المترجم «للفصل الثاني عشر»

١- فللفريدو باريتو Pareto (١٨٧٦-١٩٣٦) عالم اجتماع إيطالي يقرم مذهبه على تركيب من الوضعية والتزعة اللاعقلانية الارادية. فالمجتمع نظام تفاعلات بين الأفراد، وسيكولوجيا الأفراد اللاواعية وتفاعلها تزدى إلى توازن اجتماعى دون علاقات سببية. وقدرة الحكام تعتمد على صفات الاقتناع والتلاعب بالمواطن بالاعتماد على الرواسب العاطفية الموروثة واستخدام القوة عند الضرورة. وينقسم المجتمع عنده إلى صفة ودهماء.

٢- إميل أوجيست شارل آلان Alain (١٨٦٨-١٩٥١) مفكر وأديب فرنسى، صاحب «خواطر آلان» Propos، وهى خواطر أخلاقية سياسية معادية للسلطة، وكل سلطة غير عقلانية. وهو يقول إن السلطة هى مبدأ الرئاسة والنظام والانضباط والأوامر والطاعة، والسلطة لئيه تتسع لتشمل الجماهير والرأى العام. ومع ذلك فقد كان ضد الثورة أو العصيان، وكان يدعو إلى سلطان العقل.



الفصل الثالث عشر

أصل وتطور أنواع من حب الموسيقى^(*)

سؤال

لماذا يبدو أن لديك ما يشبه انفور من الكلام فى

الموسيقى؟

الإجابة

إن الخطاب عن الموسيقى فى المحل الأول يشكل جزءاً من مناسبات الاستعراض العقلى المرغوب فيها إلى أقصى مدى. فالكلام عن الموسيقى هو المناسبة بامتياز لإبداء اتساع الثقافة وشمولها. وأنا أفكر على سبيل المثال فى بث الراديو لحفله موسيقية يقدمها فرد واحد، فهناك قائمة الأعمال والأقوال المقصود بها تبرير الاختيار: إن نبوة الثقة الحميمة والملمهة هى هذا النوع من استراتيجيات عرض الذات، المقصود بها أن تعطى عن الذات أشد الصور تملقا واطراء وأشدها توافقا مع التعريف الشرعى «للإنسان المثقف» أى «الأصل» فى حدود التكيف والامتثال العام. فلا يوجد ماهو نظير للأذواق فى الموسيقى من حيث السماح بتأكيد «القيمة»، ولا من حيث معيار للتصنيف لا يخطئ فى امتيازه. ولكن استعراض الثقافة الموسيقية ليس استعراضا ثقافيا كالأستعراضات الأخرى. فالموسيقى إذا أمكن القول هى أشد فنون الروح روحانية، كما أن حب الموسيقى ضمان «لروحانية». ويكفى أن نفكر فى القيمة غير المعتادة التى تضفيها اليوم على معجم «الاستماع» الصيغ ذات الطابع العلمانى (على سبيل المثال طابع التحليل النفسى) للغة الدينية: أو نستحضر الأوضاع والمواقف الجسمية المركزة والمستجمعة للحراس التى

(*) لقاء مع سيريل هوفيه cyril Huvé ظهر فى Monde de Le Musique ٦ رقم ٦ ديسمبر

يستشعر المستمعون أن عليهم اتخاذها في الحفلات العلنية للموسيقى. إن الموسيقى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالروح «الموسيقى الداخلية»؛ ولا توجد عروض موسيقية إلا وهي روحية، وأن يكون المرء «غير حساس للموسيقى» هو شكل من البربرية لا يمكن التصريح به على نحو خاص: فهناك التقسيم الذي يفصل بين النخبة، و«الكتل الجماهيرية»، بين الروح والجسم. ولكن ليس هذا كل شيء. فالموسيقى هي الفن «الخالص» بامتياز فهي إذ تصنع نفسها فيما وراء الكلمات لاتقول شيئاً وليس لديها ما تقوله؛ وهي إذ لا تقتلك وظيفة تعبيرية تضع نفسها في تقابل كامل مع المسرح الذي يظل حتى في أشد أشكاله نقاء حاملاً لرسالة اجتماعية، والذي لا يستطيع «النجاح» إلا على أساس من الاتفاق المباشر والعميق مع قيم الجمهور وتوقعاته. فالمسرح يقسم وينقسم. فالتعارض بين المسرح الضماني ومسرح الضفة اليسرى، بين المسرح البورجوازي ومسرح الطليعة هو تعارض جمالي وسياسي معاً دون انقصاص. ولن نجد شيئاً من ذلك في الموسيقى (إذا نحينا جانباً بعض الاستثناءات النادرة الحديثة): فالموسيقى تمثل الشكل الأكثر جذرية، وإطلاقاً الذي يحققه أي عمل فني من نفي العالم، وعلى الأخص العالم الاجتماعي.

ويكفي أن نضع في الذهن أنه ما من ممارسة أكثر ارتفاعاً بالقيمة، وأكثر تميزاً؛ أي أكثر ارتباطاً على نحو وثيق بالطبقة الاجتماعية وحياسة رأس المال التعليمي من التردد المستمر على حفلات الموسيقى أو العزف على آلة موسيقية «رفيعة المستوى»، (أكثر ندرة إذا تساوت كل الأشياء الأخرى من التردد على المتاحف أو معارض التصوير على سبيل المثال)، لكي نفهم أن الحفلة الموسيقية مهيأة لأن تصير إحدى الاحتفالات البورجوازية الكبرى.

سؤال

ولكن كيف تفسر أن الأذواق فى الموسيقى موحية على هذا النحو العميق؟

الإجابة

إن التجارب الموسيقية عميقة الجذور فى التجربة الجسمية الأكثر بدائية. وبلا شك مامن أذواق -ربما باستثناء الأذواق فى الغذاء- تحاكي الأذواق الموسيقية فى حقيقة أنها موثقة إلى الجسم بأوتاد متينة. مما أدى كما يقول لاروشفوكو Le Rochefou- could^(١) إلى أن «حبنا لذاتنا سوف يعانى من إدانة أذواقنا أكثر مما يعانى من إدانة آرائنا وذلك بدرجة أكبر من نقاد الصبر». وفى الحقيقة إن أذواقنا تعبر عنا أو تفسى أسرارنا أكثر من أحكامنا السياسية على سبيل المثال. وليس هناك دون شك ما هو أكثر قسوة فى المعاناة من معاناة أذواق الآخرين «السقيمة» فعدم التسامح الجعالمى يمكن أن تكون له انفجاراته العنيفة المريعة. إن الذوق لا ينفصل عن «التقزز» (فالاستساغة لا تنفصل عن عدم الاستساغة)، كما أن النفور من أساليب الحياة المختلفة هو بلاشك من أقوى الجواز بين الطبقات. وذلك هو السبب فى القول السائر إنه لا تنبغى المنازعة فى الأذواق والألوان (لامشاحة فى الأذواق) ولنفكر فى الهياج الذى يثيره أقل تحويل فى السياق المعتاد للشبكات الإذاعية المسماة ثقافية.

إن مالا يمكن محمله من جانب الذين يمتلكون ذوقا معينا، أى يمتلكون كما يقول كانط Kant استعداداً معينا مكتسباً «للتمييز والاستحسان» هو كل «اختلاط» للأنواع الفنية، وكل طمس للحدود بين المجالات.

إن مسؤولى الراديو أو التلفزيون الذين يقومون بالتقريب والجمع بين عازف الكمان المدرب والعازف المتجول (والأسوأ من ذلك العازف العجربى)، بين الموسيقى «وغر» صالة المنوعات، بين حديث مع يانوس ستاركر Janos Starker ولقاء مع مغن أرجنتين للتاجر... وما أشبه ذلك يقدمون أحيانا بوعى وأحيانا أخرى بغير وعى أنواعا من الممارسات البربرية الطقسية التى تقوم بانتهاك المقدسات وتدنيها فى مزج ما ينبغى أن يظل منفصلاً: أى المقدس والدنيوى، وفى التوحيد بين ما حكمت التصنيفات الغائصة فى الجسم -أى الأذواق- بفصلها.

الخطأ

وهل ترتبط هذه الأذواق العميقة بتجارب اجتماعية

معينة ؟

الإجابة

بكل تأكيد. وعلى سبيل المثال حينما وصف رولان بارت Roland Barthes مقال جميل جدا الاستمتاع الجمالى بوصفه نوعا من الاتصال المباشر بين الجسم «الداخلى» للمؤدى، مائل فى «طابع صوت» المغنى (أو فى وسائد أصابع عازف القيثارة) وجسم المستمع ؛ فإن بارت يستند إلى تجربة خاصة بالموسيقى تعطى معرفة مبكرة عائلية مكتسبة بالممارسة. وبين قوسين إن بارت محق تماما فى اختزال «اتصال الأوراح» كما كان يقول بروسث Proust إلى اتصال للأجسام. ومن المفيد أن نتذكر أن تيريز دافيدا Thérèse d' Avila^(٢) وجان دى لاكروا Jean de le Croix^(٣) تكلمتا عن الحب الإلهى بلغة الحب الإنسانى. إن الموسيقى إذن هى «شئ جسمى». إنها تستهوى وتثير بقوة، وتحرك وتحدث الانفعالات وهى أبعد من الكلمات بقدر أقل من هذه الناحية، أى فى لفتات وحركات الجسم فى الإيقاعات والاندفاع والتمهل، والتوتر والاسترخاء. إن أشد الفنون «صوفية» وأكثرها «روحية» ربما كان ببساطة أكثرها جسمية. وهذا دون شك هو ما يجعل من الصعب جدا أن نتكلم عن الموسيقى بطريقة تتجاوز إضفاء صفات المديح وعبارات التعجب. وقد قال كاسير Cassirer^(٤) إن الكلمات الرئيسية للتجربة الدينية مانا (قوة فائقة للطبيعة لاشخصية قد تتركز فى الأشياء والأشخاص) وإكاندا أورندا هى صيحات تعجب أى تعبيرات عن افتتان (ذهول).

ولكن لكى نعود إلى تغايرات الأذواق حسب الشروط الاجتماعية، فإننى لن أضيف شيئا إلى أحد عندما أقول إنه يمكن الإشارة أيضا دون إمكان للوقوع فى الخطأ إلى الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها المرء أو إذا أردت «الطبقة» عموما (إن له طبقة أى امتيازاً وتفضيلاً) ابتداء من أنواع الموسيقى المفضلة (أو ببساطة أكثر من شبكات الإذاعة المسموعة) كما هى الحال مع فاتحات الشهية التى يستهلكها، برنو Pernod أو مارتينى أو ويسكى. ومع ذلك فالبحث يدل على أنه من الممكن الذهاب إلى ما هو أبعد - فى وصف وتفسير اختلافات الأذواق- من مجرد التمييز البسيط بين ذوق «مثقف» وذوق «شعبى»

وذوق «متوسط» الذى يربط أشد أنواع الانتاج الشعبى «نبلا» مثل المغنيين برل Brel وبراسان Brarssens بأشد أنواع الأعمار الكلاسيكية شعبية، مثل فالسات شتراوس أو القصيد الراقص للاروكسترا بوليرو Boléro من ابداع موريس رافل Ravel (وفى كل عصر تسقط أعمال «ممتازة» إلى مستوى «العادى» حينما تنتشر وتذيع. والمثال الأكثر نموذجية هو مثال أداچيو البينونى L'Adagio d'Albinoni الذى انتقل فى بضع سنوات من وضع اكتشاف مهم لعلم الموسيقى إلى وضع أغنية قديمة مكورة «متوسطة» على نحو نموذجى، ويمكن أن نقول ذلك بالمثل على كثير من أعمال فيفالدى (Vivaldi).

فالاختلافات الأكثر رهاقة التى تفصل بين دارسى الجماليات والهواة فيما يتعلق بالأعمال الأصلية أو أداء أعمال من الرصيد الشهير جدا (الريبرتوار) لا ترجع إلى التفضيلات النهائية (أو لا ترجع إليها وحدها) بل إلى اختلافات فى غط تحصيل الثقافة الموسيقية، فى شكل التجارب للصيقة بالموسيقى وعلى سبيل المثال كان التضاد الذى يقيمه بارت فى المقال نفسه بين فيشر ديسكاو Fischer Diskau محترف صناعة الاسطوانات، وبانزيرا Panzerá الذى وصل بصفات الهاوى إلى حد الكمال هو تضاد نموذجى لعلاقة خاصة بالموسيقى، ترجع إلى شروط تحصيل معينة تصبح على وجه الخصوص واضحة محسوسة؛ فهى مازال علاقة الاستساغة (الذوق) وعدم الاستساغة (النفور) وترجع إلى «نواحى النقص» فى الثقافة المتوسطة الجديدة المميزة لعصر الميكرو-سيون microsillon (اسطوانات تسمح بسماع ٢٥ دقيقة لكل ٣٠ سم من قطر الوجه)، فهى من جانب فن تعبيرى درامى واضح على نحو ملىء بالعاطفية يحمل صوتا «بلا طابع» ومن جانب آخر فن القول الذى يكتمل فى الميلوديا (القوائد الغنائية) الفرنسية عند دوبار Duparc^(٥)، وفورية Fauré^(٦) فى آخر أعماله، وديبوسى Debussy^(٧).

وكان «موت ميليزاند» وهو عمل نقيض «لموت بوريس» Boris بالغ الفصاحة والدرامية. وبفهم المخطط المؤكد الذى يكمن فى أساس ذلك التضاد، يمكن أن نطيل إلى مالانهاية إحصاء ألوان الذوق والنفور فمن ناحية هناك الأوركسترا المثيرة للعواطف أو الطنانة وهى معبرة على أى حال، ومن الجانب الآخر هناك الطابع الحميم للبيانو، وهى الآلة الأم بامتياز، والألفة فى الصالون البورجوازى.

وتقع فى أصل هذا التصنيف وهذا الذوق طريقتان فى تحصيل الثقافة الموسيقية مرتبطتان بنمطين من استهلاك الموسيقى: فمن جانب هناك الألفة الأصلية مع الموسيقى،

ومن جانب هناك الذوق السلبى والمدرسى لهاوى اسطوانات الميكروسيون. إنهما علاقتان بالموسيقى تطرح كل منهما نفسها للتفكير تلقائيا فى صلتها بالأخرى. فالأذواق هى دائما متميزة، كما أن تمجيد فنانين معينين قدامى مثل بانزيرا (Panzerá) وكورتو (Cortot) يتلقون المديح حتى على نقاط النقص ويستحضرون إلى الذهن حرية الهارى، يجد مقابلا له فى الخط من قيمة المؤدين الحاليين الأكثر توافقا مع المتطلبات الجديدة للإنتاج الكبير (بالجملة) ويمكن القول إن «محكمة» نقاد الاسطوانات تنعقد دائما بانتظام على وجه التقريب وفقا لهذا المخطط المثلث: شهير من الأقدمين مثل شنابل Schnabel، ومحدثون فقدوا الخطوة بواسطة كمالهم المنقوص الخاص بالمحترفين فاقدى الروح، ووافد جديد يجمع الفضائل القدية للهاوى الملهم إلى الإمكانيات التقنية للمحترف مثل بولينى Pollini أو أبادو Abbado.

وستتغير الأذواق مادامت متميزة: فتمجيد فنانى الماضى -والذى يشهد عليه إعادة الطبع التى لا تحصى لثمان وسبعين جولة قديمة أو لتسجيلات راديو صوتية له بلاشك علاقة ما بظهور ثقافة موسيقية مؤسسة على الأسطوانة أكثر مما هى مؤسسة على عزف آلة ما أو التردد على حفلات الموسيقى، وعلى ترويج الكمال الأداتى الذى تفرضه دوغا انفصال صناعة الاسطوانات والمنافسة الاقتصادية الثقافية بين الفنانين والمنتجين.

سؤال

وبعبارة أخرى هل تطور الإنتاج الموسيقى هو على نحو غير مباشر أحد أسباب تغير الأذواق؟

الإجابة

دون أدنى شك. فهنا أيضا يسهم الانتاج فى إنتاج الاستهلاك. ولكن مازال علينا تأسيس علم اقتصاد للإنتاج الموسيقى. ويتحمل المرء مشقة ألا يتجنب الاحتفاء الصوفى إلا لكى يقع فى النزعة الاقتصادية الأكثر ابتذالا فى نزعتها الاختزالية ؛ لذلك ينبغى على المرء أن يصف مجموع التوسطات التى وصلت من خلالها صناعة الأسطوانات إلى أن تفرض على الفنانين وحتى على أعظمهم (وكاراجان Karagan واحد من هؤلاء فيما يتعلق بالمجموعة الثالثة الكاملة لسيمفونيات بيتهوفن كما أعتقد). رصيذا معيناً

(ريبرتوار) بل وأحيانا عزفا وأسلوبا معينين مسهمة بذلك فى فرض تعريف معين للأذواق الشرعية.

وترتبط صعوبة المشروع بحقيقية أنه فيما يتعلق بالسلع الثقافية يتضمن الإنتاج إنتاج مستهلكين، أى بدقة أكثر، إنتاج تذوق للموسيقى، وحاجة للموسيقى وإيمان بالموسيقى ولكى نقدم عرضا واقعيا لذلك الأمر الجوهرى، ينبغي تحليل الشبكة الكاملة لعلاقات المنافسة والتتام والتواطؤ فى المنافسة التى توحد مجموع العناصر الفاعلة المعنية أى الملحنين والمؤدين، مشهورين أو مغمرين ومنتجى الاسطوانات والنقاد ومنظمى ومخرجى الراديو والمدرسين.. الخ، وبايجاز كل هؤلاء الذين لهم اهتمام بالموسيقى، ومصالح فى الموسيقى أو استثمارات بالمعنى الاجتماعى أو السيكولوجى، الذين شرعوا فى اللعب وأصبحوا داخل الحلبة.



هوامش المراجعة «للفصل الثالث عشر»

- ١- الدوق فرانسوا دي لا روشفوكو La Rochefoucauld (١٦١٣ - ١٦٨٠) شخصية مرموقة في النقد اللاذع، وفي التأمّلات والأقوال المأثورة الأخلاقية يعبر عن اشمئزاه من عالم تتحول فيه أفضل العواطف على الرغم من الظواهر إلى أن تكون ملاحظة من المصلحة - على العكس تماما مما يذهب إليه بورديو.
- ٢- تيريز دافيللا Thérèse d'Avila (١٥١٥ - ١٥٨٢) قديسة إسبانية لها كتابات في النصوص «القلعة الداخلية» ومذهب في الدعاء والتضرع للالتقاء بالمسيح.
- ٣- جان دي لا كروا Jean de La Croix (١٥٤٢ - ١٥٩١) أسباني له أشعار (تراتيل روحية) ورسائل صوفية.
- ٤- اوتست كاسير Cassirer (١٨٧٤-١٩٤٥) فيلسوف ألماني حلل الأساطير والرموز في فلسفة الأشكال الرمزية (١٩٢٣-١٩٢٩) على أساس يطور الكانطية.
- ٥- هنري فوك دويار Duparc (١٨٤٨ - ١٩٣٣) ملحن فرنسي ومؤلف أشعار غنائية.
- ٦- جابريل فوريه Fauré (١٨٤٥ - ١٩٢٤) ملحن فرنسي، أستاذ القصيدة الغنائية وموسيقى الحجرة، ومؤلف أوبرا بينيلوبي ومقطوعات للبيانو وكان مديرا للكونسرواتوار.
- ٧- كلود ديبوسي Debussy (١٨٦٢ - ١٩١٨) ملحن فرنسي جدد اللغة الموسيقية بتجاربه في تنقية الصوت وإرهاقه وسبولة اللحن.



الفصل الرابع عشر

التحول الجوهرى فى الأذواق^(*)

سؤال

كيف تتغير الأذواق، وهل من المستطاع القيام
بوصف علمى لمنطق تحول الأذواق؟

الإجابة

قبل الإجابة على هذا السؤال يجب التذكير بكيف تتعدد «الأذواق» (كيف
نقوم بتعريفها)، أى بالممارسات (مثل الرياضة وأنشطة أوقات الفراغ.. الخ) والممتلكات
(الأثاث وأريطة العنق والقبعات والكتب واللوحات والشركاء.. الخ) التى من خلالها
يتجلى اللوق مفهوما برصفه مبدأ الاختيارات التى تعمل على هذا النحو.
ولكن تكون هناك أذواق ينبغي أن توجد ممتلكات (أموال) مصنفة، ذات ذوق
«حسن» أو ذات ذوق «ردى»، «متميزة» أو سوقية (مبتذلة)، مُصَنَّفَة (على اسم
المفعول) مُصَنَّفَة (على اسم الفاعل) دفعة واحدة، منظمة (بالفتح) تراتبيا ومنظمة
(بالكسر) تراتبيا، كما ينبغي أن يوجد ناس مزودون بمبادئ التصنيف، بأذواق، تسمح
لهم بأن يميزوا وسط الممتلكات تلك التى تلائمهم، تلك التى «على ذوقهم». ومن المستطاع
فى الواقع أن يوجد ذوق دون ممتلكات (أموال)، (ذوق مأخوذ بمعنى مبدأ التصنيف، مبدأ
التقسيم، القدرة على التمييز) وأن توجد ممتلكات دون وجود ذوق. ويقال على سبيل
المثال: «لقد قلبت كل حوائث نيوشاتل Neu châtel ولم أجد فيها شيئا يناسب ذوقى».
ويطرح ذلك السؤال عن معرفة ما هذا الذوق الذى يسبق فى الوجود الممتلكات القادرة على

(*) عرض قدم فى جامعة نيوشاتل Neu châtel فى مايو ١٩٨٠.

إشباعه (فى تضاد مع القول السائر: لارغبة فيما مجهل (ignoti mulla Cupido «باللاتينية فى الأصل».

ولكن لدينا أيضا حالات لا تعثر فيها الممتلكات أو السلع على «المستهلكين» الذين يجدونها مناسبة لأذواقهم، وأمثلة هذه السلع بامتياز، وهى السلع التى تسبق أذواق المستهلكين، هى سلع التصوير أو الموسيقى المنتمين إلى المدرسة الطليعية، وقد ظلت تلك السلع منذ القرن التاسع عشر لاجتماع الأذواق التى تنادى بها أو تستدعيها إلا بعد وقت طويل من لحظة إنتاجها، وأحيانا بعد موت المنتج. وذلك يطرح السؤال عن معرفة ما إذا كانت السلع التى تسبق الأذواق (دع جانبنا بكل تأكيد ذوق المنتجين) تسهم فى صنع الأذواق وهو السؤال عن الكفاءة الرمزية لعرض السلع أو على نحو أكثر دقة عن تأثير تجسيد ذوق معين، هو ذوق الفنان فى شكل سلع.

وهكذا نصل إلى تعريف مؤقت: فالأذواق، مفهومة باعتبارها مجمل ممارسات وممتلكات شخص ما أو مجموعة ما هى نتاج التقاء (تناسق سابق) بين السلع وذوق ما (رحيمنا أقول «منزلى يوافق ذوقى» : فإننى أقول لقد وجدت المنزل الملائم للذوق حيث يتعرف ذوقى على نفسه ويعثر على نفسه). وبين هذه السلع ينبغى إدخال كل موضوعات الالتقاء والميل المتعاطف مثل موضوعات المودة والصدقة أو الحب.

وقد طرحت السؤال منذ قليل على نحو إضمارى: إلى أى مدى تصير تلك السلع التى هى تجسيد للذوق بمثابة إمكان تحقيق للذوق الذى يتعرف على نفسه؟ إن حب الفن يتكلم فى الأغلب لغة الحب نفسها: فالحب الصاعق هو الالتقاء المعجز بين توقع وتحقيقه. وتلك هى الصلة بين شعب ما وقائده ونبيه أو الناطق باسمه: «ما كنتم ستبحثون عنى مالم تكونوا قد وجدتمونى». إن ذلك الذى يتكلم هو شخص ما لديه فى حالة الإمكان شىء ما يقوله، ولم يكن يعرفه إلا حينما قاله. وعلى نحو معين فإن النبى - بهذا المعنى الذى لا يقف عند المعنى الدبنى - لا يأتى بشىء، وهو لا يعظ إلا المهتدين ولكن وعظ المهتدين هو أيضا بمثابة عمل شىء ما. إنه إنجاز تلك العملية الاجتماعية على نحو غودجى، والتى هى شبه سحرية، أى ذلك الالتقاء بين ما تموضع سابقا (أخذ شكل الموضوع) وتوقع ضمنى، بين لغة واستعدادات لاتوجد إلا فى الحالة العملية. فالأذواق هى نتاج هذا الالتقاء بين تاريخين، أحدهما فى الحالة التى تموضعت والآخر فى حالة عدم التجسد وهما متوافقان موضوعيا. ومن هنا ينبثق أحد أبعاد معجزة الالتقاء بعمل فنى:

فاكتشاف شيء يتفق مع ذوق شخص ما معناه اكتشاف الذات، اكتشاف ما يريده المرء («هذا بالضبط ما كنت أريد»). معناه ما كان يتعين قوله ودون أن يعرف المرء كيف يقوله والذي يظل بالتالي لا يعرفه.

وفي الالتقاء بين العمل الفني والمستهلك هناك طرف ثالث غائب، ذلك الذي أنتج العمل، الذي صنع شيئا وفق ذوقه بفضل قدرته على تحويل ذوقه إلى موضوع، تحويله من حالة للنفس أو الروح أو بدقة أكثر من حالة للجسم إلى شيء مرئي ومطابق لذوقه (أى قدرته على التمتع) فالفنان هو هذا المحترف في مجال تحويل الضمى إلى مصرح به، فى مجال التمتع. أى الذى يحول الذوق إلى موضوع، الذى يحقق بالفعل الممكن الكامن، أى هذا الحس العملى بالجميل الذى لا يستطيع معرفة ذاته إلا عندما يتحقق. وفى الحقيقية إن الحس العملى بالجميل هو سلبى خالص ومؤلف (بالفتح) على وجه الحصر من «الرفص». فالذى يجسد الذوق فى موضوع هو فيما يتعلق بنتائج تموضعه بشغل نفس العلاقة التى يشغلها المستهلك، فهو يستطيع أن يجده أو لا يجده ملائما لذوقه. وهو يتعرف فيه على القدرة الضرورية لتموضع ذوق ما. أو على نحو أكثر دقة فإن الفنان هو شخص ما نعترف به بوصفه فنانا هنا فى تعرفه على نفسه فيما يفعله، فى تعرفه داخل مافعله على ما كان سيفعله، إذا كان قد عرف كيف يفعله. إنه «مبدع» «خلاق»، وهى كلمة سحرية يمكن استعمالها حين نريد تعريف العملية الفنية باعتبارها إجراء سحرى، أى اجتماعيا على نحو نموذجى. (إن الكلام عن المنتج يجب أن نقوم به فى معظم الأحوال لكى نقطع الصلة مع التمثل المعتاد للفنان باعتباره خالقا. ونتخلص بذلك من كل التعقيدات الفورية التى من المؤكد أن تلك اللغة ستجدها، عند «المبدعين» وعند المستهلكين الذى يحبون أن يفكروا فى أنفسهم باعتبارهم «خلاقين» عند أخذ موضوع القراءة باعتباره إعادة خلق -ولكن دون ذلك الكلام عن «المبدع» قد ينسب المرء أن الفعل الفنى هو فعل من أفعال الإنتاج ذو طبيعة خاصة تماما، بما أنه يوجب إيجادا لشيء ما وإن يكن كامنا من قبل ينتظر الظهور فهو إيجاد يجعله على نحو مغاير تماما، أى بوصفه شيئا مقدسا، موضوعا للإيمان).

فالأذواق إذن باعتبارها مجموع الاختيارات التى قام بها شخص معين هى نتاج التقاء بين الذوق المتموضع للفنان وذوق المستهلك. ويبقى أن نفهم كيف يحدث أنه فى لحظة معطاة من الزمن توجد سلع لكل الأذواق (حتى إذا لم توجد دون شك أذواق لكل

(السلع) ؛ وكيف يحدث أن العملاء المتغيرين إلى أقصى مدى يجدون أشياء تتفق مع أذواقهم (فى كل التحليل الذى قدمته من الممكن استبدال ذهنى للسلع أو الخدمات الدينية بالموضوع الفنى. والمائة بالكنيسة ترىنا كذلك أن التأقلم على التقدم والتطور فى العالم بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية aggiornamento بعد الإسراع به قليلا قد استبدل بعرض قُد من صخرة واحدة (أحادى الجانب) عرضا شديدا للتنوع، مؤكدا أن هناك ما يصلح لكل الأذواق، قداس بالفرنسية أو اللاتينية برداء الكاهن أو بالملابس المدنية.. الخ).

ولتقديم عرض دقيق لهذا التأقلم شبه الإعجازى بين العرض والطلب (مع الاستثناءات التى تمثل تجاوز الطلب بواسطة العرض)، يمكن أن نستحضر -مثلا فعل ماكس فيبر Max Weber - البحث الواعى عن التأقلم، والصفقة المحسوبة للكهنة مع توقعات العلمانيين. وسيكون ذلك بمثابة افتراض أن الكاهن الطليعى الذى يقدم لسكان ضاحية عمالية قداسا «متهورا» أو الكاهن الأصولى الذى يتلو القداس باللاتينية له صلة قائمة على الشك أو صلة معسوبة على أقل تقدير بجمهوره أو زبائنه، وأنه يدخل معهم فى علاقة عرض وطلب واعية تماما، وكأنه قد أحبط علما بالطلب لادبرى أحد كيف، مادام لا يستطيع القيام بصياغته لنفسه، ومادام لا يتعرف على نفسه إلا حين يعترف بنفسه فى تموضعه- ويفرض على نفسه إشباع هذا الطلب. (هناك دائما هذا الارتياح فى علاقة الكاتب بالنجاح: فكتبه نجحت لأنه جارى متطلبات السوق، ومن المفهوم ضمنا أنها المتطلبات الأكثر وضاعة وسهولة والأدنى إلى الإشباع). لذلك يفترض أنه بواسطة نوع من حاسة الشم المتشككة والبعيدة عن الاحترام أو الحافلة بالإخلاص إلى هذه الدرجة أو تلك يتكيف المنتجون مع الطلب، ومن ينجح منهم سيكون هو الذى عثر على «فتحة إطلاق النار» فى الشرفة.

ولكن الفرض الذى سأقترحه لتقديم عرض عن عالم الأذواق فى لحظة معطاة من الزمان مختلف تماما، حتى إذا لم تستبعد قط النوايا والصفقات الرواعية من الإنتاج الثقافى بوضوح. (وبعض أقسام حيز الإنتاج -وهنا نجد إحدى خصائصها المميزة- تطبع على أشد الأنحاء تشككا وافتقارا للاحترام -البحث المحسوب عن الربح، ومن ثم عن «فتحات إطلاق النار»، فهى تقدم موضوعا وستة أشهر وستة ملايين ثم بعد ذلك يجب على «الكاتب» أن يصنع رواية سوف تكون بين «أكثر الكتب مبيعا»). والنموذج الذى أقترحه هو إذن فى وضع القطيعة مع النموذج الذى يفرض نفسه تلقائيا، والذي يميل إلى

أن يجعل من المنتج الثقافي، الكاتب والفنان والقيس والتبى (بالمعنى غير الديني) والساحر والصحفي حاسبا اقتصاديا عقليا يصل بواسطة نوع من دراسة السوق إلى التكهن بالحاجات التي لم تكن تتبلور أو حتى، تلقى التجاهل، وإشباع تلك الحاجات على نحو يمكنه من استخلاص أكبر ربح ممكن من قدرته على الاستباق ومن ثم على التقدم قبل منافسيه. وفي الحقيقة هناك ساحات للإنتاج يعمل المنتجون فيها ويعيرونهم مثبتة على زياتهم أي على ما يسمى بالهدف العام أقل كثيرا مما هي مثبتة على منافسيهم (ولكن تلك الصياغة مازال غائبة تخاطب بإفراط الاستراتيجية الواعية). وبدقة أكثر إنهم يعملون في نطاق معين حيث ما ينتجون يعتمد على نحو وثيق على وضعهم في حيز الإنتاج (أرجو المَعذرة من هؤلاء الذين ليسوا متعددين على السوسيولوجيا فأنا مضطر إلى تقديم تحليل دون أن أستطيع تبريره بطريقة بسيطة). وفي حالة الصحافة فإن ناقد الفيجارو Figaro لا ينتج وعيناه على جمهوره ولكنه ينتج متخذا مسافة من ناقد النوفل اوبرفانتر Le Nouvel Observateur حتى دون أن يصل ذلك إلى مستوى وعيه. ويتضح ذلك في طريقته البلاغية في الكتابة، التي هي طريقة التكذيب المُستَبَق: يقولون أننى أشبه عجوزا رجعيه محافظة لأننى أنقد أرابال Arrabal (المسرحي الإسباني من مدرسة اللامعقول)، ولكننى أفهم أرابال بما يكفى لكى أؤكد لكم أنه ليس عنده ما يُفهم، وهكذا وطمأنته لنفسه يطمئن جمهوره الذى تقلقه الأعمال المثيرة للقلق؛ لأنها غير قابلة للفهم. على الرغم من أن هذا الجمهور يفهمها دائما بما يكفى لكى يشعر بأنها تريد أن تقول أشياء لا يفهمها إلا لاما. ولكى يقول المنتج أشياء على نحو أقل اتصافا بالتموضع والحتمية فإن الموقع الذى يشغله في حيز الإنتاج هو الذى يوجه إنتاجه، فالمنتجون ينتجون منتجات متنوعة بمنطق الأشياء نفسه ودون بحث عن التميز (من الواضح أن ما حاولت الإشارة إليه يناقض على طول الخط كل المواضيع عن الاستهلاك المرموق الذى يجعل من البحث الواعى عن الاختلاف المبدأ الوحيد لتغير الإنتاج والاستهلاك الثقافي).

هناك إذن منطق لحيز الإنتاج يجعل المنتجين سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوه ينتجون سلعا مختلفة. وتستطيع الاختلافات الموضوعية بكل تأكيد أن تكون مضاعفة على نحو ذاتي، ومنذ زمن طويل جدا فإن الفنانين الذين هم متميزون موضوعيا يبحثون كذلك عن تمييز أنفسهم -وعلى الأخص في الطريقة والشكل اللذين ينتميان إلى الفنانين على نحو خاص، بالتقابل مع الموضوع والوظيفة. والقول -كما فعلت أحيانا- بأن

المثقفين مثل الفوينات- أى الوحدات الصوتية اللغوية- لا يوجدون إلا بواسطة الاختلاف لا يلزم عنه أن كل اختلاف يعتمد على مبدأ هو البحث عن الاختلاف: فلا يكفى لحسن الحظ البحث عن الأختلاف. لكى نعتز عليه، فأحيانا فى عالم يبحث معظم الناس فيه عن الاختلاف يكفى ألا تبحث عنه لكى تكون شديد الاختلاف.

أما من ناحية المستهلكين، فكيف يقوم الناس بالاختيار؟ هل حسب أذواقهم أى بالطريقة الأكثر سلبية على الأغلب؟ (فمن المستطاع دائما قول ما لا يريده المرء، أى على الأغلب أذواق الآخرين): حب الذوق الذى يتشكل فى المواجهة مع الأذواق المتحققة من قبل، الذى يعلم نفسه ما يكون عليه أثناء تعرفه على نفسه فى الموضوعات التى هى أذواق متجسده موضوعيا.

إن فهم الأذواق، وممارسة سوسيولوجيا ما لدى الناس، من بضائع وممارسات، هو إذن معرفة من جانب بالشروط التى يجرى فيها انتاج المنتجات المعروضة ومن جانب آخر بالشروط التى يجرى فيها انتاج المستهلكين. وهكذا فلكى نفهم الألعاب الرياضية التى يمارسها الناس تنبغى معرفة استعداداتهم ولكن أيضا معرفة ماهو معروض والذى هو نتاج اختراعات تاريخية. ويعنى ذلك أن الذوق نفسه كان يستطيع فى حالة أخرى من العرض أن يعبر عن نفسه فى ممارسات مختلفة تماما على نحو ظاهر وكلها مع ذلك متعادلة بنويوا. (ان الحدس العملى بهذه التعادلات البنوية بين موضوعات مختلفة جدا فى ظاهرها وإن تكن قابلة عمليا للاستبدال فيما بينها هو الذى يجعلنا نقول على سبيل المثال أن روب جرييه Robbe Grillet^(١) هو فى القرن العشرين ما كانه فلوير فى القرن التاسع عشر وذلك يعنى أن الذى اختار فلوير فى معروضات العصر هو فى موقع مماثل للذى سيختار روب جرييه)

وبعد أن تذكر كيف تتولد الأذواق فى الالتقاء بين عرض وطلب أو بدقة أكثر بين موضوعات مصنفة ونظم للتصنيف، يمكن أن ندرس كيف تتغير هذه الأذواق. فأولا من ناحية الانتاج، من ناحية العرض يكون المجال الفنى محلا لتغير دائم إلى حد أنه -كما- رأينا -يكفى لإفقاد فنان ما الاعتبار وإفقاذه الجدارة بوصفه فنانا أن نرجعه إلى الماضى مشيرين إلى أن طريقته لا تزيد على أن تكون إعادة إنتاج لطريقة مشهودة من قبل فى الماضى، وأنه سواء أكان مزورا مزيفا (بالكسر) أو كان حفرة متحجرة فليس إلا مقلدا، بوعى أو بغير وعى، خاليا بالكامل من القيمة لأنه مجرد تماما من الأصالة

(الاحتكار).

إن المجال الفني هو دائماً محل الثورات الجزئية التي تحدث خلافاً في بنية المجال دون أن تطرح المجال نفسه للتساؤل من حيث هو مجال فني، وكذلك الممارسة التي تدور فيه. وهناك في المجال الديني جدل الأصولية الأرثوذكسية والهرطقة المارقة - أو «الإصلاح» الديني بوصفه نموذجاً للتقويض (التدمير) النوعي. أما المجددون الفنيون فهم يشبهون المصلحين الدينيين الذين يقولون للمسيطرين: «لقد ختمت، وتنبؤى العودة إلى المنبع، إلى الرسالة». وعلى سبيل المثال فإن التضادات التي انتظمت حولها الصراعات الأدبية طوال القرن التاسع عشر بأكمله وحتى اليوم يمكن في التحليل الأخير إرجاعها إلى التضاد بين الشباب أي القادمين المتأخرين، والواقدين الجدد، وبين المسنين أو راسخين الأساس أي المؤسسة «establisment» بالإنجليزية في الأصل». إن تضادات من قبيل: غامض/ واضح، صعب/ سهل، عميق/ سطحي وما إلى ذلك تقابل قطعاً أعماراً وأجيالاً فنية؛ أي مواقع مختلفة في المجال الفني، تقيم اللغة الدارجة تقابلاً بينها على غرار التقابل متقدم/ عفى عليه الزمان، وطليعي/ انتمى إلى المؤخرة... الخ. (نرى عَرَضاً أن وصف بنية مجال، وعلاقات القوى النوعية التي تشكله باعتباره كذلك تضم وصفاً لتاريخ هذا المجال) فالدخول في لعبة الانتاج، وإثبات الوجود الفعلي معناه تسجيل لحظة مهمة في التاريخ (تقديم أحد معالم التاريخ أو مناراته) وفي نفس الشروط إرجاع أولئك الذين سجلوا بالمثل لحظات تاريخية في موعد سابق إلى الماضي (تسجيل لحظة مهمة في التاريخ، أي صنع التاريخ الذي هو نتاج الصراع بل هو الصراع نفسه، فحينما لا يعود هناك صراع لا يعود هناك تاريخ، وطالما ظل الصراع سيكون هناك تاريخ ومن ثم سيكون هناك أمل. ويجرد أن ينقطع الصراع، أي مقاومة المسيطرين سيكون هناك احتكار من جانب هؤلاء المسيطرين ويتوقف التاريخ. إن المسيطرين في كل المجالات يرون سيطرتهم بوصفها «غاية» التاريخ بالمعنى المزدوج لكلمة غاية أي نهاية وهدف، فليس هناك ما هو أبعد منها أو ما وراءها، وتجد نفسها وقد اتسمت بميسم الأبدية) إن تسجيل لحظة تاريخية (تقديم أحد معالم التاريخ أو مناراته) معناه إذن إرجاع آخرين كانوا في وقت ما مسيطرين إلى الماضي، إلى مخزن ما عفى عليه الزمان. وشعب امتياز. وأولئك الذين أعيدوا على هذا النحو إلى الماضي أو المخزن يمكن أن يفقدوا مكانتهم ببساطة، ولكنهم يستطيعون أيضاً أن يصيروا كلاسيكيين، أي يصيروا «خالدين» (وينبغي القيام بدراسة

- لن أستطيع القيام بها هنا- لشروط «التخليد» هذه ودور النظام التعليمي وما أشبه في ذلك). إن الأزياء الراقية هي المجال الذي يتضح فيه بأكبر جلاء النموذج الذي وضعته، وهذا الجلاء يقترب من أن يكون مفرط السهولة فيخاطر الانسان بأن يكون فهمه له بالغ الحد في السرعة والسهولة، ولكنه سيكون فهما جزئيا يقف في منتصف الطريق (وهي حالة كثيرة الوقوع في العلوم الاجتماعية، والموضة هي إحدى هذه الآليات التي لا ينتهي أحد من فهمها لأنها تفهم (بالبناء للمجهول) عادة على نحو بالغ السهولة). وعلى سبيل المثال إن بوهان Bohan خليفة ديور Dior يتحدث عن ثيابه بلغة الذوق الرفيع، والرصانة والاعتدال والاتزان مدبنا ضمنيا كل ضروب الجرأة الصاخبة عند الذين يقعون على «يساره» في المجال، وهو يتكلم عن الذين على «يساره» كما يتكلم صحفي من الفيجارو Figaro (إيمينية) عن صحيفة ليبراسيون Libération (يسارية) أما أصحاب أزياء الطبيعة فإنهم يتكلمون عن الموضة بلغة السياسة (البحث يقع بعد ١٩٦٨ بقليل) قائلين «إنه ينبغي إنزال الموضة إلى الشارع» و«وضع الأزياء الراقية في متناول الجميع» وما إلى ذلك، ونرى هنا أن هناك أنواعا من التعادل بين هذه الساحات المستقلة تجعل من الممكن للغة أن تنتقل من إحداها إلى الأخرى حاملة معاني متماثلة ظاهريا، ولكنها مختلفة في الواقع. وهذا يطرح السؤال عن معرفة طبيعة الكلام ذي الطابع السياسي في ساحات مستقلة نسبيا، أهى من الطبيعة نفسها لكلام أمجارو Ungaro عن ديور Dior؟

إن للأذواق إذن عاملا أول للتغير. ولكن من الناحية الأخرى هل ستتابع حلقات هذا التغير؟ ومن الممكن تخيل مجال للإنتاج جامع السرعة «يهز» المستهلكين. وهذه هي حالة مجال الانتاج الثقافي أو بعض قطاعاته على الأقل منذ القرن التاسع عشر، ولكن لقد كانت هذه هي حالة المجال الدينى منذ عهد قريب، فالعرض قد سبق الطلب، كما أن مستهلكى السلع والخدمات الدينية لم يتطلبوها بهذا القدر «وأمامنا هنا حالة يدور فيها المنطق الداخلى للمجال حول نفسه فى فراغ، محققا الموضوعة المركزية التى أفترضها وهى أن التغير ليس نتاجا لبحث عن التكيف مع الطلب. ودون أن ننسى حالات التباين هذه يمكن القول على نحو عام أن الساحتين ساحة إنتاج السلع وساحة إنتاج الأذواق يتغيران على نحو اجمالى Grosso modo بالإيقاع نفسه. وبين العوامل التى تتحدد تغير الطلب هناك دون أدنى شك ارتفاع المستوى الكمي والكيفي للطلب الذى يصاحب ارتفاع مستوى التعليم (أو مدة الانتظام فى الدراسة)، والذى يؤدي إلى أن تنددوا من الناس

يتزايد دوماً يدخل إلى السوق للاستحواذ على سلع ثقافية، ويمارس ارتفاع مستوى التعليم أثره بين أشياء أخرى من خلال توسط ما أسميه أثر «المستوى المقتن» («النبل يفرض تبعائه Noblesse oblige») والذي يفرض على حائزي مؤهل تعليمي معين، يعمل باعتباره لقباً من ألقاب النبالة، أن ينجزوا ممارسات معينة مثل التردد على المتاحف وشراء جهاز فونوجراف كهربائي (بسماعاته ومكبر صوته)، وقراءة جريدة لوموند Le Monde، وتلك الممارسات منقوشة في تعريفهم الاجتماعي، أو كما يمكن القول في، جوهرهم الاجتماعي. وعلى هذا النحو فإن الإطالة العامة لفترة الدراسة وعلى الاخص تكثيف الاستخدام الذي تستطيع الطبقات المستفيدة منه أصلاً أن توجهه نحو النظام التعليمي يقسمان تطور كل الممارسات الثقافية (والذي تنبأ به في حالة المتحف النموذج الذي بنيناه في ١٩٦٦). ومن الممكن أن نفهم بالمنطق نفسه أن القسم من الناس الذين يقولون عن أنفسهم إنهم قادرون على قراءة النوتة الموسيقية أو العزف على آلة موسيقية ينمو بشدة عندما تنجح نحو الأجيال الأكثر شباباً. ويتضح إسهام تغير الطلب في تغير الأدواق على نحو جيد في حالة مثل حالة الموسيقى حيث يتطابق ارتفاع مستوى الطلب مع انخفاض مستوى عرض الأسطوانة (ولدينا معادل لذلك في ميدان القراءة بالنسبة إلى كتاب الجيب). فارتفاع مستوى الطلب يحدد تحويل بنية الأدواق، وهي بنية تراتبية، تنطلق من الأكثر ندرة، برج Berg أو رافل Ravel اليوم إلى الأقل ندرة، موتسارت Mo-zart أو بيتهوفن Beethoven، وببساطة أكبر فكل السلع المعروضة تميل إلى فقدان ندرتها النسبية وقيمتها المميزة بمقدار ما يتزايد عدد المستهلكين الذين هم مبالغون وقادرون في آن معا على الاستحواذ عليها. فالانتشار يقلل من القيمة، ولا تستمر السلع التي فقدت امتيازها في أن تكون مقياساً للامتياز، فهي سلع كانت تنتمي إلى القلة المحظوظة (السعيدة) happy few (بالانجليزية) صارت شائعة بين الكثيرين. وهؤلاء الذين كانوا يتعرفون على أنفسهم باعتبارهم من القلة المحظوظة بواسطة واقعة قراءة التربية العاطفية لفلوبير أو أعمال بروست Proust أصبح من الواجب عليهم أن يذهبوا إلى روب جرييه أو إلى ما هو أبعد من ذلك أي كلود سيمون (من مدرسة الرواية الجديدة) ودوفير Duvert الخ. إن ندرة النتاج وندرة المستهلك يتناقضان بالتوازي. وعلى هذا النحو فإن الاسطوانة وعشاق الاسطوانة يهددون ندرة حب الموسيقى. كما أن إقامة التضاد بين بانزيرا Panzera وفيشرديسكاو Fisher Discau وهو النتاج المبرء من العيب لصناعة الميكروسيون مثلما

يقيم آخرون تضادا بين منجلبرج Mengelberg وكاراجان، هو إدخال من جديد، أو استعادة مجددة للنكرة الملقاه. ويمكن بالمنطق نفسه فهم عبادة «الشموع الطاعنة في السن» أو التسجيلات المباشرة. وفي جميع الاحوال يتعلق الأمر باعادة إدخال النكرة: لاشئ أكثر شيوعا من فالسات ستراوس وكلن ما أشد فتنتها حينما يعزفها فورتفانجلر Fürtwangler أو حينما يعزف منجلبرج Mengelberg تشايكوفسكى: ولدنا مثال آخر عن شوبان Chopin الذى هبط بقدره عزف البنات الصغيرات من العائلات المحترمة له على البيانو، قدوره يأتى الآن ويجد مدافعين مشتعلى الحماس بين دارسى الموسيقى الشباب. (وإذا حدث أنه لدواعى السرعة استخدم المراء لغة استراتيجية وذات طابع غائى فى وصف هذه العمليات فإنه ينبغى أن يضع المراء فى ذهنه أن مشاريع رد الاعتبار هذه هى مخصصة «ومنزهة عن الأغراض» تماما، ولا تتعلق جوهريا إلا بحقيقة أن أولئك الذين يردون الاعتبار فى مقابل الذين أهذبوا القيمة لم يعرفوا الشروط التى وقف ضدها هؤلاء الذين قللوا من قدر شوبان). فالدكرة تستطيع إذن أن تأتى من طريقة الاستماع (اسطوانة، حفلة موسيقية أو عزف شخصى)، أو من المؤدى، أو من العمل نفسه: وحينما يكون العمل مهددا (بالفتح) من ناحية فمن المستطاع اعادة إدخاله تحت اعتبار آخر. وأفضل اعتبار وأرهفه يمكن أن يكون هو اللعب بالنار سواء بالجمع بين الأذواق الأكثر ندرة فى الموسيقى القائمة على المعرفة وبين الأشكال المقبولة إلى آخر مدى من الموسيقى الشعبية، بطابعها العجائبي المفضل أو بتقدير التفسيرات المنضبطة والمحكومة بدرجة عالية للأعمال الأكثر «سهولة» والاكثر عرضة للتهديد من جانب «الابتذال». ولا جدوى من القول إن ممارسات المستهلك تلقى ببعض ممارسات الملحنين الذين هم مثل مالر Mahler أو سترافنسكى يستطيعون أيضا أن يعجبهم اللعب بالنار مستخدمين فى الدرجة الثانية بعض الموسيقى الشعبية وحتى «المبتذلة»، المستعارة من صالة المنوعات أو من حفلات الرقص الصاخبة.

ولن نجد هنا إلا بعض الاستراتيجيات (هى فى الأغلب غير واعية) التى يدافع بواسطتها المستهلكين عن ندرتهم، بدفاعهم عن ندرة المنتجات التى يستهلكونها، أو ندرة طريقة استهلاكها. وفى الحقيقة إن أشد الأشياء أولية وبساطة ينحصر فى تجنب السلع المنتشرة منقوصة الامتياز والقيمة. ونحن نعرف استنادا إلى بحث أجري فى ١٩٧٩ بواسطة «المعهد الفرنسى للكشف عن السكان» فيما يتعلق بملحنين مثل البيوننى Albi-

Albinoni وفيفالدي vivaldi أو شوبان يعتقد «جمهور الاستهلاك» إلى أن الناس يتجهون نحو الشخصيات الأكثر تقدماً في السن، وأيضاً نحو الشخصيات الأقل ثقافة؛ فالألوان الموسيقى التى يقدمونها هى فى آن معاً متقدمة ومنقوصة القيمة، أى مبتذلة وشائعة.

وهجران ألوان الموسيقى المتقدمة ومنقوصة القيمة يصحبه هروب إلى الأمام نحو ألوان الموسيقى الأكثر ندرة فى اللحظة المعينة، أى بكل تأكيد نحو ألوان لموسيقى الأكثر حداثة: ويلاحظ أن ندرة ألوان الموسيقى مقيسه بالدرجة المتوسطة التى تمنحها لها عينة تمثيلية من المستمعين تعتقد إلى حد ما أن الناس تنجبه نحو أعمال أكثر حداثة؛ كما لو كانت الصعوبة الموضوعية للأعمال تناسب مع زيادة ما تحتوية من التاريخ المتراكم، من الإحالات إلى التاريخ، فهى تتطلب إذن قدرة أكثر امتداداً فى التوصيل ومن ثم أكثر ندرة. وتنتقل من ٣ درجات على خمس من أجل مونتفردى Monteverdi وباخ وموتسارت إلى ٢.٨ درجة من أجل برامز Brahms و ٢.٤ درجة من أجل بوتشيني Buaccini ثم انعكاس طفيف، ٢.٣ من أجل برج Berg (ولكن الأمر يتعلق بلولولول Lulu) و ١.٩ من أجل رافيل Ravel، كونشرتو اليد اليسرى. وبإيجاز، من الممكن التنبؤ بأن الجمهور «الأكثر معرفة» يضى فى انتقاله المستمر نحو الموسيقى الحديثة (وتشهد برامج حفلات الموسيقى على ذلك)، ونحو الموسيقى متزايدة الحداثة. ولكن هناك أيضاً تقلبات الردّة (الرجوع): وقد رأينا مثال شوبان، ومحاولات التجديد حينما يعزف هارنونكورت Harnoncourt أو مالجويرة Malgoire موسيقى الباروك. وتنشأ عن ذلك دورات مشابهة تماماً لدورات موضة الملابس إلا أن الفترة أكثر طولاً. ومن الممكن أن نفهم بهذا المنطق الطرائق المتعاقبة لعزف باخ Bach، ومن يوش إلى ليوناردت Leonhardt مروراً بمونشنجر Münchinger وكل منهم «يقوم برد فعل» معاكس للطريقة السالفة.

ومن الواضح أن «الاستراتيجيات» ذات الامتياز للمتجبن والاستراتيجيات ذات الامتياز للمستهلكين الأكثر معرفة أى الأكثر سموا ستلتقى دون أن تكون فى حاجة إلى أن تبحث إحداها عن الأخرى. وهذا ما يجعل الالتقاء مع العمل يبدو غالباً للنظر داخل منطق المعجزة والصاعقة. فتجربه حب الفن تعبر عن نفسها ومقارس حياتها بلغة الحب.



هوامش المترجم « للفصل الرابع عشر »

١- آلان روب جرييه Robbe-Grillet (١٩٢٢-)، مؤسس مدرسة الرواية الجديدة التي لا تقدم حبكة أو اسقاطات عاطفية وتعتمد على وصف موضوعي محايد للأشياء والسلوك في تفاصيلها، وبعد ذلك استمرارا متطرفا لما دعا إليه فلويمر من دقة شديدة في وصف الأشياء والحركات الفريدة.



الفصل الخامس عشر

كيف يستطيع المرء أن يكون رياضيا^(*)

سأظهر كهنا بين محترفين مادمت لست مؤرخا للممارسات الرياضية، ولا أستطيع أن أطلبكم بشيء إلا وفقا لصيغة الروح الرياضية. ولكننى أعتقد أن السذاجة أو البراءة التى تمنحها واقعة ألا يكون المرء متخصصا تستطيع أحيانا أن تؤدى إلى طرح أسئلة لم يعد المتخصصون يطرحونها على أنفسهم : لأنهم يظنون أنهم قد أمجروا حلولها، ولأنهم يعتبرون بين الخبرات المكتسبة عددا معيناً من الاقتراضات المسبقة قد تكون ضمن أسس تخصصهم. ولكن الأسئلة التى سأطرحها تحيىء من الخارج، فهى أسئلة عالم سوسولوجى يلتقى وسط موضوعاته بالممارسات وألوان الاستهلاك الرياضية فى شكل جداول احصائية على سبيل المثال نقدم توزيع الممارسات الرياضية تبعا لمستوى التعليم، وللجنس وللمهنة : وهو لذلك مسوق إلى أن يتساءل لا عن العلاقات بين هذه الممارسات وهذه المتغيرات وحدها ولكن عن المعنى أيضا الذى تتخذه هذه الممارسات داخل هذه العلاقات.

وأنا أعتقد أنه من المستطاع دون إكراه للواقع اعتبار مجمل الممارسات وألوان الاستهلاك الرياضية المتاحة للعناصر الفاعلة الاجتماعية مثل الرجبي وكرة القدم والسباحة وألعاب القوى والتنس أو الجولف بمثابة عرض مقدر له أن يلتقى بطلب اجتماعى معين. وإذا تبنى المرء نموذجا من هذا الطراز فسيطرح على نفسه مجموعتين متنافستين من الأسئلة، ففى المحل الأول أيجاد ميدان للإنتاج، مزود بمنطقة الخاص وبتاريخه الخاص تتولد داخله «المنتجات الرياضية» ؟ أى عالم الممارسات وألوان الاستهلاك الرياضية المتاحة والمقبولة اجتماعيا فى لحظة معطاة من الزمان. وفى المحل الثانى ماهى الشروط

(*) عرض افتتاحى للمؤتمر العالمى «لرابطة التاريخ الرياضى» HISPA فى مارس ١٩٧٨.

الاجتماعية لإمكان الاستعانة على «المنتجات الرياضية» المختلفة سواء كانت منتجات أو ممارسات للجولف أو انزلاق المسافات البعيدة، أو قراة عن الفريق أو استطلاع تلفزيوني عن كأس العالم في كرة القدم، وكلمات أخرى، كيف ينتج الطلب على «المنتجات الرياضية»، كيف يفهم هذا الناس «ذوق» الرياضة، وذوق هذه الرياضة بدلا من رياضة أخرى، بوصفها ممارسة أو بوصفها ترفيه؟ وعلى نحو أكثر دقة ماهي المبادئ التي وفقا لها تختار العناصر الفاعلة بين «المنتجات الرياضية المختلفة المعروضة أمامها في لحظة معطاه من الزمان باعتبارها ممكنات؟

ويبدو لي أنه ينبغي التمسك أولا عن الشروط التاريخية والاجتماعية لإمكان هذه الظاهرة الاجتماعية التي نقبلها على نحو بالغ السهولة باعتبارها بديهية تلقائية، ظاهرة «الرياضة الحديثة»، أن عن الشروط الاجتماعية التي جعلت من الممكن بناء نظام من المؤسسات والنشطاء مرتبطة على نحو مباشر أو غير مباشر بوجود ألوان من الممارسة والاستهلاك الرياضية بدءا من «المنتجات الرياضية» العامة أو الخاصة التي وظيفتها ضمان تمثيل مصالح ممارسي رياضة معينة والدفاع عنها وفي نفس الوقت تأسيس القواعد التي تحكم هذه الممارسة وتلقيتها، إلى «منتج» رباة السلع (من معدات وأدوات وملابس خاصة وما إلى ذلك) والخدمات الضرورية لممارسة الرياضة (من مدرسين ومعلمي رياضة ومدرين وأطباء رياضيين وصحفيين رياضيين... وما أشبه) وحتى منتج رباة العروض الرياضية والسلع المرتبطة بها (أردية السباحة وصور النجوم أو أوراق المراهات على سبيل المثال). فكيف تشكل على نحو تدريجي ذلك السلك أو تلك الهيئة من المتخصصين الذين يعيشون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على الرياضة (ويعتبر سوسيولوجيو ومؤرخو الرياضة جزءا من هذا السلك ولن يسهم ذلك دون شك في تسهيل ظهور السؤال). وبدقة أكبر متى بدأ هذا النظام من العناصر الفاعلة ومن المؤسسات يمارس وظيفته باعتباره مجالا للمنافسة تتواجه فيه العناصر الفاعلة من أصحاب المصالح النوعية المرتبطة بالموقع الذي تشغله؟ وإذا كان صحيحا كما يتجه بحثي نحو الإيحاء، أن نظام المؤسسات والعناصر الفاعلة التي هي جزء لا يتجزأ من الرياضة يميل إلى أن يعمل بوصفه مجالاً، وينجم عن ذلك أنه ليس من المتطاع أن نفهم على نحو مباشر ما تكونه الظواهر الرياضية في لحظة معطاه داخل بيئة اجتماعية معطاه بوضعها في علاقة مباشرة بالشروط الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات المناظرة: فتاريخ الرياضة هو تاريخ مستقل نسبيا،

وحتى لو كان من الممكن قياس إيقاعاته بواسطة الأحداث الكبرى التاريخ الاقتصادي والسياسي فإن له وتيرته الخاصة، وقوانين تنظمه، والخاصة وأحداث الجاذبة التي لا تتعاقب أحداثه الزمنى النوعي.

ومعنى ذلك أن إحدى المهام الأساسية للرياضة هي تأسيس كيانه وهو يقوم بإعداد شجرة النشوب التاريخية لظهور موضوع ذلك التاريخ الاجتماعي بوصفه واقعاً نوعياً لا يمكن أن يتغير. أما من جهة أخرى، فالتاريخ الرياضي يستطيع بالفعل الإجابة عن السؤال، الذي لاصلة له بالسؤال الأكاديمي عن التعريف المتعلق بمعرفة من أى لحظة ابتدأ (ولا بدور الأسس) في (الرياضة) إن كان الكلام عن الرياضة، أى متى بدأت الرياضة تشكل مجالاً للدراسة في الرياضة داخلها متعددة باعتبارها ممارسة نوعية لا يمكن اختزالها إلى لعبة طبقية بسيطة أو إلى نوع مرح في الأعياد ؛ ونخلص إلى التساؤل عن ظهور الرياضة بالمعنى الحديث للكلمة، اليس هذا الظهور معادلاً لقطيعة (يمكن أن تعمل على نفس الشيء) مع أنشأته ولكن أن تبدو «كأسلاف» للرياضة الحديثة، قطيعة معادلة لتأسيس مجال من الممارسات النوعية تمتلك رهاناتها الخاصة وقواعدها الخاصة. وهنا تتولد وتفرغ وتنفذ بالذات أو قدرة نوعية مكتملة (ويبدو الكلام عن القدرة التي هي ثقافية وبمعنى الرياضة ذي المستوى العالي، أو للقدرة الثقافية للإدراى أو الصحفي الرياضي.. الخ)، وهي ثقافة على نحواً سرية مقصورة على نخبة تفصل المهني المحترف عن العادي العادي، ويؤدي ذلك إلى أن تطرح للتساؤل كل الدراسات التي تربت أو جمعت بواسطة مفارقة زمانية جوهرية (أى بواسطة اسقاط للحاضر على الماضي المختلف عنه) بين الجانب للممارسات المرافقة على الرأس مالية فى أوروبا وخارجها منظور إليها على نحو خاطئ، باعتبارها ممارسات سابقة على الرياضة، قبل رياضة، وبين ألوان الرياضة بمعنى الكلمة التي خاص ظهورها تشكيل مجال لإنتاج «المنتجات الرياضية»، وليست هذه المفارقة مبررة إلا حينما تكون غائبة - إذ تذهب بدقة إلى عكس ما يذهب إليه البحث عن «الأصول» - سبيرة نوربرت إلياس Norbert Elias - الإحاطة بتنوعية الممارسة الرياضية بالمعنى الخاص، أو على نحو أكثر دقة تحديد كيف استطاعت بعض التمارين الجسمية سابقة الزمن أن تتلقى دلالة ووظيفة جديدين جزئياً - حيث تبلغ تلك الجودة درجة عالية من الجذرية فتصير بعض حالات الابتكار البسيط مثل الكرة الطائرة وكرة السلة ألواناً من الرياضة الحديثة، متعددة الأهداف ولها

قواعد لعبها، وفي نفس الوقت محدّدة النوعية الاجتماعية للمشاركين والممارسين أو المشاهدين بواسطة المنطق النوعي «للمجال الرياضي».

لذلك يمكن أن تكون إحدى مهام التاريخ الاجتماعي للرياضة هي تأسيس واقعي لشرعية علم اجتماعي للرياضة بوصفه موضوعاً علمياً متفصلاً (وليس هذا أمراً بديهياً إطلاقاً) وذلك بتحديد متى يبدأ أو بالأحرى انطلاقة من أي مجمل للشروط الاجتماعية يبدأ- إمكان الكلام هنا عن الرياضة Sport (بالتعارض مع اللعب البسيط وقضاء وقت فراغ تمتع في الصيد والقتل مثلاً، وهو معنى مازال ماثلاً في الكلمة الإنجليزية sport، ولكن ليس في الاستعمال الفعلي للكلمة خارج البلاد الأنجلوساكسونية حيث أدخلت الكلمة في نفس الوقت الذي أدخلت فيه الممارسة الاجتماعية، الجديدة جداً، التي تدل عليها). فكيف تشكل هذا النطاق للعب، ممتلكاً منطقاً الخاص، ومحل ممارساته الاجتماعية ذات الطابع المتعين تماماً، التي ستتحدد في مسار تاريخ خاص والتي لا يمكن فهمها إلا انطلاقاً من هذا التاريخ (وعلى سبيل المثال تاريخ القواعد أو اللوائح الرياضية أو تاريخ تسجيل الأرقام القياسية (الفائقة) records (بالإنجليزية في الأصل) وهو تعبير مثير للاهتمام يذكّرنا بالإسهام الذي تجلّبه أنشطة المؤرخين الذين يأخذون على عاتقهم مهمة التسجيل to record (بالإنجليزية أيضاً) وتجميع المآثر، إلى عملية تشكيل مجال ما وثقافته السرية المقصورة على نخبة).

ولأنني لا أملك الثقافة التاريخية الضرورية للإجابة عن هذه الأسئلة، فقد حاولت حشد ما أعرفه عن تاريخ كرة القدم والرجبي من أجل محاولة أن أطرح الأسئلة على نحو أفضل على الأقل (ومن البديهي أنه مامن شيء يسمح بافتراض أن عملية تشكيل مجال ما قد أخذت في جميع الحالات نفس الشكل، ومن المحتمل أنه وفقاً للنموذج الذي وصفه جرشنكرون Gershenkron للتطور الاقتصادي، فإن الرياضيات التي وصلت إلى الوجود في وقت أكثر تأخراً مدينة لهذا «التأخر» بأنها قد عرفت تاريخاً مختلفاً مبنياً على الأخذ عن رياضات أكثر قدماً، ومن ثم فهي أكثر «تقدماً») وينبذ أنه لا جدال في أن الانتقال من اللعبة إلى الرياضة بمعنى الكلمة قد انجز في المدارس الكبرى، المقصورة على «نخب» المجتمع البورجوازي، في المدارس العامة الإنجليزية public schools (مدارس ثانوية داخلية أهلية يرعاها الأغنياء في إنجلترا) حيث تبنى أطفال العائلات الأرستقراطية أو عائلات البورجوازية الكبيرة عدداً معيناً من «الألعاب الشعبية» أي الشائعة بإخضاعها

لتغير في الاتجاه والوظيفة مائل تماماً لما أخضع له مجال الموسيقى المستنيرة الرقصات الشعبية من أمثال «البورية» (الرقصة الجبلية) bourrees، والسريندة أو الجافوتيه الريفية من أجل إدخالها في الأشكال الراقية مثل المتعابة.

ولتشخيص هذا التحول في مبدأه، يمكن القول بأن التمارين الجسمية «للنخبة» مقتطعة من مناسبات اجتماعية عادية تظل الألعاب الشعبية مرتبطة بها (الأعياد الزراعية على سبيل المثال، ومنسلخة من الوظائف الاجتماعية (وبالأحرى الدينية) التي ماتزال ملتصقة بعدد من الألعاب التقليدية (مثل الألعاب الطقسية التي تمارس في عدد من المجتمعات السابقة على الرأسمالية في بعض مراحل السنة الزراعية)

أما المدرسة، محل الـ Skholé أو وقت الفراغ (أصل كلمة مدرسة باليونانية يرجع إلى وقت الفراغ واستخدامه في الدراسة)، هو الموقع الذي تتحول فيه الممارسات ذات الوظائف الاجتماعية والمتدمجة في التقويم الجماعي إلى تمارين جسمية، أنشطة هي غاية في ذاتها، ألوان من الفن للفن في مجال الجسم خاضعة لقواعد نوعيه، لا يمكن ردها على نحو متزايد إلى أي ضرورة وظيفية، ومندمجة في تقويم زمني نوعي. فالمدرسة هي بامتياز محل الممارسة التي يقال عنها مجانية (بالمقابل) حيث يكتسب استعداد بعيد وباعث على الحياء فيما يتعلق بالعالم الاجتماعي، وهو نفسه المتضمن في العلاقة البورجوازية بالفن واللغة والجسم: فالتمارين البدنية تستعمل الجسم استعمالاً شبيهاً بالاستعمال المدرسي للغة، استعمالاً هو غاية في ذاته. وما يتم اكتسابه في التجربة المدرسية وبواسطتها، في حيز الانسحاب خارج العالم والممارسة، حيث يمثل المنتمون النظام إلى مدارس «النخب» الشكل المكتمل، وهو الميل إلى النشاط من أجل لاشيء، وهو بُعد جوهرى لسجية ethos النخب البورجوازية، التي تعتز دائماً بالتزهد عن الأغراض، وتجده نفسها بواسطة المسافة المختارة- المؤكدة في الفن والرياضة- من المصالح المادية. واللعب النزيه fair play (يعدل وانصاف) هو طريقه ممارسة اللعبة عند أولئك الذين لا يتركون أنفسهم يستغرقون في اللعب إلى درجة نسيان أنه لعب، عند أولئك الذين يعرفون كيف يحتفظون «بمسافة بعيدا عن الدور» كما يقول جوفمان Goffman المسافة المتضمنة في كل الأدوار الموعود بها قادة المستقبل.

كما تصاحب تحقيق استقلال مجال الممارسات الرياضية عملية ترشيد rationali-sation (فرض معايير عقلانية) موجهة حسب مصطلحات فيبر Weber نحو تأكيد

القابلية للتنبؤ والقابلية للحساب ومن الجانب الآخر تأكيد الفروق والمميزات الخاصة: تأسيس مجموعة من اللوائح النوعية وهيئة من القادة المتخصصين (أجهزة حاكمة governing bodies) بالانجليزية في الأصل) مختارين على الأقل في البداية من بين الأولاد attending old boys في المدارس العامة public Schools يسيران معا على قدم المساواة وتفرض ضرورة القواعد الثابتة والتطبيق الشامل نفسها حين تنشأ «المبادئ» الرياضية بين مؤسسات تعليمية مختلفة ثم بين مناطق... الخ. ولا يتأكد الاستقلال النسبي لمجال الممارسات الرياضية إطلاقاً بنفس درجة الوضوح إلا في الكليات المتمتعة بالإدارة الذاتية، وبالأنظمة المؤسسة على تقليد تاريخي أو التي تضمها الدولة، والمعترف بها من التجمعات الرياضية: فهذه الهيئات لها حق تحديد المعايير الخاصة بالاشتراك في المسابقات الرياضية التي تنظمها، ويرجع لها - تحت رقابة المحاكم - ممارسة سلطة تأديبية (استبعاد وعقوبات وما إلى ذلك)، تستهدف فرض احترام القواعد النوعية التي تصدرها، وفوق ذلك فهي تستحدث ألقاباً ومناصباً نوعية، مثل الألقاب والمناصب الرياضية وكما في المجال ألقاب ومناصب المدربين. إن تأسيس مجال للممارسات الرياضية يتبادل الاعتراف مع إتضاع فلسفة للرياضة: هي فلسفة سياسية للرياضة. إن نظرية الهواة - وهي أحد أبعاد فلسفة ارسنقراطية - تجعل من الرياضة ممارسة منزهة عن الأغراض، على غرار النشاط الفني، ولكنها أكثر ملاءمة من الفن في تأكيد فضائل الرجولة عند قادة المستقبل: فالرياضة ينظر إليها باعتبارها مدرسة الشجاعة والرجولة، قادرة على «تشكيل الشخصية»، وغرس إرادة الانتصار Will To Win (بالانجليزية في الأصل) التي هي سمة القادة الحقيقيين، ولكنها إرادة الانتصار وفقاً للقواعد - وذلك هو اللعب النزيه fair play، وهو استعداد فروسي يتعارض بالكامل مع البحث المبتذل عن الانتصار بأي ثمن (ينبغي أن نستحضر في هذا السياق، الصلة بين الفضائل الرياضية والفضائل العسكرية التي يفكرون فيها لتمجيد قدامى خريجي أكسفورد وإتون Oxford, Eton من جامعات النخبة في ميادين القتال وفي المعارك الجوية). إن هذه الأخلاقيات ارسنقراطية التي أقامها الأرسنقراطيون (لم أعد أعرف كم ضمت اللجنة الأولمبية الأولى من ذوى ألقاب الدوق والكونت واللورد وكل ألقاب النبالة القديمة). ويكفل سريانها ارسنقراطيون - كل أولئك الذين يؤلفون الأوليغاركية (الأقلية) التي تخلد نفسها self perpetuating oligarchy (بالانجليزية في الأصل) في التنظيمات العالمية والقومية - قد تكيفت على نحو

واضح مع متطلبات الزمان، وكما نرى عند البارون بييردى كوبرتان Pierre de Coubert-tin فهي «تدمج» الافتراضات المسبقة الأساسية للأخلاقيات البورجوازية المتعلقة بالمشروع الخاص والمبادرة الخاصة بعد تعميدها باسم المساعدة الذاتية self help (بالإنجليزية) فالإنجليزية تصلح غالباً لتقديم لطف التعبير. وتمجيد الرياضة بوصفها بعداً للتدريب من نوع جديد، بوصفها داعية إلى مؤسسة تعليمية جديدة تماماً والذي نجد تعبيراً عنه لدى كوبرتان Coubertin (بييردى كوبرتان ١٨٦٣- ١٩٣٧ هو مجدد الألعاب الأولمبية) نجده عند ديمولان Demolins وهو تلميذ آخر لفريدريك لوبلاي Frédéric Le Play^(١) مؤسس مدرسة ديه روش (الصخور) Ecole des Roches ومؤلف كتاب «سر تفوق الانجلوساكسون» والتربية الجديدة، حيث ينقد الليسيه/ السكنى النابوليونية (وهو موضوع صار منذ ذلك الوقت أحد المسائل المطروقة المتذلة لما يسمى «سوسيولوجيا فرنسا» وهو من إنتاج معهد العلوم السياسية Sciences po وهارفارد).

والمطروح للمناقشة فيما يبدو لى داخل هذا الجدل (الذى يتجاوز الرياضة إلى مدى بعيد) هو تعريف للتربية البورجوازية يقف فى تقابل مع التعريف البورجوازي الصغير تعريف الاساتذة: وهو «الطاقة» و«الشجاعة» و«الإرادة» و«فصائل» و«القادة» (فى الجيش أو المشروعات)، وربما على الأخص المبادرة «الخاصة» و«روح المشروع» ضد المعرفة والتبحر فى العلوم و«الطاعة المدرسية» التى يرمز لها بواسطة الليسيه السكنى الكبيرة وأنواع انضباطها.. الخ، وإيجاز من الخطأ نسيان أن التعريف الحديث للرياضة الذى يرتبط غالباً باسم كوبرتان هو جزء لا يتجزأ من «مثل أعلى أخلاقى» أى من تنمية سجيته ethos ينتمى إلى الأقسام السائدة من الطبقة السائدة، ويجد تحققة فى المؤسسات الكبرى للتعليم الخاص، الموجه من حيث الأولوية إلى أبناء قادة الصناعة الخاصة مثل مدرسة ديه روش L'Ecole des Roches، تحققة نموذجياً لهذا المثل الأعلى. إن التقييم المرتفع للتربية ضد التعليم، للشخصية أو للإرادة ضد الذكاء، وللرياضة ضد ثقافته هو بمثابة تأكيد فى قلب العالم التعليمى لوجود تراتب لا يمكن اختزاله إلى التراتب المدرسى بحصر المعنى. (وهو الذى يعطى امتيازاً للحد الثانى من هذه الأضداد) -بمعنى ذلك إذا استطعنا القول هو الانتقاص من جداره قيم معينة والتقليل من أهميتها: وهى القيم التى تلقى اعترافاً من الأقسام الأخرى من الطبقة السائدة، أو من طبقات أخرى وعلى الأخص من الأقسام المثقفة من البورجوازية الصغيرة و«أبناء المدرسين»، المنافسين المباينين لأبناء

البورجوازية على أرضية القدرة التعليمية البسيطة. وذلك بمثابة معارضة «النجاح التعليمي» بمبادئ أخرى «للتجاح»، وبإضفاء الشرعية على النجاح (وكما استطعت إثباته فى بحث حديث عن أصحاب العمل الفرنسيين، فالتضاد بين المفهومين عن التربية يناظر سياقين للوصول إلى إدارة المشروعات الكبرى، الأول يؤدي من «مدرسة ديه روش» أو من الكليات اليسوعية الكبرى إلى كليه الحقوق أو منذ وقت قريب إلى معهد العلوم السياسية، إلى تفتيش المالية أو إلى مدرسة الدراسات العليا التجارية، HEC والثانى يؤدي من لبيسيه الإقليم إلى مدرسة العلوم العسكرية العاليه (Polytechnique). ويتضمن تمجيد الرياضة ومدرسة الشخصية... الخ ظلا من النزعة المعارضة للمثقفين. ويكفى أن نضع فى أذهاننا أن الأقسام المسيطرة فى الطبقة السائدة تميل دائما إلى التفكير فى تقابل مع الاقسام المسودة (الخاضعة للسيطرة)، من «مثقفين» و«فنانين» و«أساتذة أعضاء» من خلال التعارض بين المذكر والمؤنث، الرجولى والمخنث، وهو تعارض يتخذ مضامين مختلفة تبعا للمراحل (فعلى سبيل المثال فى أيامنا شعر قصير / شعر طويل، ثقافة علمية أو «اقتصادية سياسية»/ ثقافة فنية أدبية... الخ)، لكن نهم أهم متضمنات تمجيد الرياضة وعلى الأخص الرياضيات «الرجولية» مثل الرجبي، ولكنى نرى أن الرياضة مثل أى ممارسة أخرى هى رهان الصراع بين أقسام الطبقة السائدة وكذلك بين الطبقات الاجتماعية.

إن مجال الممارسات الرياضية هو محل صراعات تستهدف بين أشياء أخرى احتكار فرص التعريف الشرعى للممارسة الرياضية، والوظيفة الشرعية للنشاط الرياضى، نزعة الهوى ضد نزعة الاحتراف، الرياضة الممارسة ضد الرياضة الفرجة، الرياضة المتميزة -للنخبة- والرياضة الشعبية- للجماهير-... الخ، وهذا المجال نفسه يتدرج فى مجال الصراعات من أجل تعريف الجسم ذى الشرعية، والاستعمال الشرعى للجسم، وهى صراعات بالإضافة إلى المديرين والقادة وأساتذة ألعاب القوى والتجار الآخرين للسلع والخدمات الرياضية، تقيم تعارضا مع دعاة الأخلاق وعلى الأخص رجال الدين، والأطباء وعلى الأخص خبراء الصحة والمربين بالمعنى الأوسع مستشارى الزواج وخبراء التغذية... الخ ومحكمى الأثاق والذوق من أصحاب محلات الأزياء الخ. وتقدم الصراعات من أجل احتكار فرص التعريف الشرعى المناسب لهذه الطبقة المعنية لاستعمالات الجسم التى هى الاستعمالات الرياضية ثوابت (لامتغيرات) تخترق المراحل التاريخية المختلفة، وأنا أفكر

على سبيل المثال فى التعارض من وجهة نظر تعريف التدريب الشرعى بين محترفى التربية (البداوجيا) الجسمية (اساتذة ألعاب القوى.. الخ) والأطباء، أى بين شكلين للسلطة النوعية (بداوجية(تربوية)» / «علمية»، وكذلك التعارض المتكرر بين فلسفتين متناحرتين لا استعمال الجسم، الأولى أكثر اتصافا بالزهد وهى فى ذلك الاقتران للكلمات داخل تعبير «الثقافة الجسمية» نفسه، تؤكد كلمة الثقافة، أى المضاد للطبيعة Physio، وما هو ضد الطبيعة من جهد وتقويم (إصلاح) واستقامة، والثانية أكثر اتصافا بالترعة اللذبة hédoniste وتولى الامتياز للطبيعة le physis، مختزلة ثقافة الجسم، الثقافة الجسدية، إلى ضرب من ليبرالية حرية الفعل «دعه يعمل»، أو من العودة إلى ذلك التحرر، مثل تعبير «جسمى» اليوم، الذى يعلم نسيان أنواع الانضباط والمجهودات غير المجدية المفروضة بين أشياء أخرى بواسطة التدريبات الرياضية العادية. إن الاستقلال النسبى لمجال الممارسات الجسمية الذى يتضمن بحكم التعريف التبعة النسبية، والتنمية داخل المجال لممارسات متجهة نحو هذا القطب أو ذاك، نحو نزعة الزهد أو نحو نزعة اللذة، يتوقف فى جانب كبير منه على وضع علاقات القوة بين أقسام الطبقة السائدة وبين الطبقات الاجتماعية داخل مجال الصراعات من أجل تعريف الجسم «الشرعى»، والاستعمالات الشرعية للجسم. وبالمثل فى كل ما يوضع تحت اسم «التعبير الجسمى» هناك تقدم لا سبيل إلى فهمه إلا فى علاقته بالتقدم الملحوظ على سبيل المثال فى العلاقات بين الآباء والأبناء، وعلى نحو أعم فى كل ما يسمى علم التربية (البداوجيا)، وهذا التقدم هو تقدم لصيغة جديدة من الأخلاقيات البورجوازية، تحمله أقسام معينة صاعدة من البورجوازية (ومن البورجوازية الصغيرة) وتعالى من شأن الليبرالية فى شئون التربية.. وكذلك فى العلاقات التراتبية وفى مسألة العلاقات الجنسية على حساب الصرامة (التشدد) الزهدية (المستنكرة باعتبارها «قمعية»).

وينبغى استحضار هذا الطور الأول الذى يبدو لى طورا محددا (بالكسر) : لأن الرياضة ماتزال تحمل آثار أصولها: فبالإضافة إلى أن الإيديولوجية الاسترقراطية للرياضة باعتبارها نشاطا منزها عن الأغراض وبلا مقابل التى تخلدها موضوعات التنازل الطقسية لخطاب الاحتفال، تسهم فى إخفاء حقيقة جانب متعاطف من الممارسات الرياضية، فممارسة رياضات مثل التنس وركوب الخيل وقيادة اليخوت والجولف مدينة دون شك بجانب من المصلحة فيها والاهتمام بها اليوم كما كانت الحال فى المنشأ إلى أرباح التميز التى

تجلبها (وليس من قبيل المصادفة أن معظم النوادي المقصورة على صفوة أى الأكثر تدقيقا فى منح العضوية منظمة حول أنشطة رياضية هى بمثابة فرصة أو ذريعة لتجمعات متتقة). وتتضاعف أرباح التميز مع التمايز والتفرقة بين الممارسات الممتازة والمتميزة مثل الرياضيات «الأنيقة» والممارسات (السوقية) التى صارت كذلك نتيجة لشيوعتها، مثل بعض الرياضات التى كانت فى الأصل مقصورة على «النخبة»، ككرة القدم (وبدرجة أقل الرجبي الذى احتفظ دون شك لفترة من الوقت بوضع مزدوج وتجنيد اجتماعى مزدوج)، فهذا التمايز يتضاعف بالتعارض الذى يزداد حسما بين ممارسة الرياضة والاستهلاك البسيط للعروض الرياضية. ومن المعروف فى الحقيقية أن احتمال ممارسة رياضة ما فى سن أبعد من المراهقة (وبالأحرى فى السن الناضجة أو فى الشيخوخة) يتناقص بوضوح وجلاء بمقدار الهبوط فى الترتاب الاجتماعى (مثل احتمال الاشتراك فى نادى رياضى) على حين أن احتمال المشاهدة على شاشة التلفزيون (فالتردد على الملاعب كمتفرج يخضع لقوانين أكثر تعقيدا) لإحدى المباريات (العروض) الرياضية التى تعد شديدة الجماهيرية مثل كرة القدم أو الرجبي تتناقص بوضوح شديد بمقدار الصعود فى الترتاب الاجتماعى.

وهكذا فهما تكن أهمية ممارسة الرياضة -وعلى الأخص الرياضات الجماعية مثل كرة القدم - عند المراهقين المنتمين إلى الطبقات الشعبية والمتوسطة فلا يمكن تجاهل أن الرياضات المسماة شعبية مثل ركوب الدرجات وكرة القدم والرجبي تقوم أيضا وعلى الأخص بطريقة مشاهد للفرجة (يمكن أن يرجع جانب من الاهتمام بها إلى المشاركة المتخيلة التى تسمح بها تجربة ماضية لممارسة واقعية): إنها «شعبية» ولكن بالمعنى الذى تتخذه تلك الصفة فى كل مرة تنطبق على المنتجات المادية أو الثقافية لإنتاج بالجملة سيارات وأثاث أو أغنيات. وبإيجاز فإن الرياضة التى ولدت من ألعاب شعبية واقعية، أى أنتجت بواسطة الشعب، تعود إلى الشعب، على طريقة الموسيقى الشعبية folk music (بالإنجليزية)، فى شكل عروض ومشاهد أنتجت من أجل الشعب ويبدو العرض (الفرجة) الرياضى بوضوح أكثر باعتباره سلعة منتجة بالجملة، كما يبدو تنظيم العروض الرياضية باعتباره فرعا بين فروع أخرى من صناعة الاستعراض show-business، إذا كانت القيمة المعترف بها جماعيا لممارسة الرياضة (وعلى الأخص حينما صارت المباريات الرياضية أحد مقاييس القوة النسبية للأمم ومن ثم رهانا سياسيا)، لم تسهم فى إخفاء الانفصال بين الممارسة والاستهلاك ووظائف الاستهلاك السلبي البسيط دفعة واحدة. ومن

المستطاع التساؤل عَرَضاً عما إذا كانت بعض أوجه التطور القريب العهد للممارسات الرياضية -مثل اللجوء إلى تعاطي المخدرات أو استئراء العنف سواء على أرض الملاعب أو داخل الجمهور في جانب منها أثراً للتطور الذي تكلمت عنه من قبل في عجلة. ويكفي التفكير على سبيل المثال في كل ما تتضمنه واقعة أن رياضة مثل الرجبي (ويصدق الشيء نفسه في الولايات المتحدة على الكرة بالمعنى الأمريكي) قد صارت من خلال توسط التلفزيون فرجة جماهيرية، منتشرة جيداً خارج نطاق دائرة «الممارسين» الحاليين أو السابقين، أي لدى جمهور مزود على نحو بعيد جداً من الاكتمال بالقدرة النوعية الضرورية على فك شفرتها بكفاءة، إن «الخبير» يمتلك مخططات للإدراك والتقدير تسمح له برؤية ما لا يراه الجاهل بأصول الفن، وملاحظة ضرورة ما حيث لا يرى السوقي إلا عنفاً واختلاطاً وتسمح له بالتالي أن يجد في الحفة الرشيدة للفتة ما وفي الضرورة التي لا يمكن توقعها لتدابير متوافقة ناجحة أو في التوزيع المنسجم شبه المعجز لحركة إجمالية، متعة لتقل كثافة ولا تقل إرهافاً عن التي يحصلها عاشق للموسيقى من أداء ناجح على نحو خاص لعمل مألوف؛ وكلما ازداد الإدراك سطحية وعمى إزاء كل هذه الأمور الدقيقة في الفن وكل هذه التدرجات والفوارق وكل هذه البراعات نقص مقدار ما يجده من متعة في العرض حين تأمله في ذاته ولذاته، وازداد تعرضه للبحث عما هو «إثاري»، ولعبادة المآثر والمنجزات الظاهرية، والمهارة البادية للعيان وازداد على الأخص ولعه المقصور على ذلك البعد الآخر من الفرجة الرياضية، بعد التوتر المترقب، والقلق على النتيجة مشجعاً بذلك عند اللاعبين وعلى الأخص عند المنظمين البحث عن الانتصار بأي ثمن. وبعبارة أخرى فإن كل شيء يبدو وكأنه يشير إلى أنه فيما يتعلق بالرياضة وفيما يتعلق بالموسيقى يصبح اتساع الجمهور إلى نطاق أبعد من دائرة الهواة عاملاً يسهم في تدعيم هيمنة المحترفين الأقحاح. وحينما أقام رولان بارت في مقالة له تقابلاً بين بانزيرا Panzera، المغني الفرنسي في فترة ما بين الحربين وبين فيشر ديسكاو Fisher Diskau الذي رأى فيه نموذجاً أولياً لنتاج الثقافة المتوسطة، فقد جعلنا نفكر في أولئك الذين يقيمون تقابلاً بين العزف الملهم لكل من فريقى دوجيه Dauger أو بونيفاس Boniface وبين «ميكانيكا» فريق بزييه Béziers أو فريق فرنسا بقيادة فورو Fouroux. فوجهة نظر «الممارس» السابق أو الحالي بالتعارض مع المستهلك البسيط، «محب الاسطوانات» أو المستهلك الرياضي عن طريق التلفزيون تعترف بشكل من التفوق هو الحد الأقصى لقدرة الهاوى العادى.

وبإيجاز، فإن كل شيء يسمح بافتراض أنه فى حالة الموسيقى كما فى حالة الرياضة، تصبح القدرة السلبية المحضة المكتسبة خارج كل ممارسة لأنواع من الجمهور سيطر عليها التلفزيون أو سيطرت عليها الأسطوانة حديثا، هى عامل يسمح بتطور الإنتاج (ومن الملاحظ على نحو عابر التباس بعض الاستنكارات لرذائل الإنتاج الكبير فى مجال الرياضة كما فى مجال الموسيقى التى تعطى غالبا حيننا أرستقراطيا إلى زمن الهواة) وكلما ازدادت ألوان التشجيع التى يتيحها ذلك للنزعة المتعصبة قويا وللزعة المتعصبة للذكور والتى ترجع إلى القطيعة بين المحترفين، خبراء التقنية السرية الخفية، والجهلة بأسرار الفن المختزلين إلى دور المستهلكين فحسب، والتى تتجه إلى أن تصبح بنية عميقة للوعى الجمعى، ازدادت الآثار السياسية للرياضة على نحو أكثر حسما؛ فليس فى مجال الرياضة وحده يتم اختزال بسطاء الناس إلى أدوار المشجعين المعجبين fans (بالانجليزية) وهى الحدود الكاركتيرية للمناضل الذى قد كُرس لاشتراك متخيل، ليس إلا تعويضا وهما عن ضياع امتلاكه لمكسب الخبراء. وفى الحقيقة، قبل الذهاب بعيدا فى تحليل الآثار تنبنى محاولة إرهاب تحليل محدّدات الانتقال من الرياضة بوصفها ممارسة للنخبة مقصورة على الهواة، إلى الرياضة بوصفها فرجة يتبعها المحترفون وموجهة للاستهلاك الجماهيرى. وليس من المستطاع فى الواقع الاكتفاء باستحضار المنطق المستقل نسبيا لمجال إنتاج السلع والخدمات الرياضية أو بدقة أكبر التطور داخل هذا المجال لصناعة فرجة رياضية خاضعة لقوانين العائد (الربحية) ومتجهة نحو تحقيق الحد الأقصى من الكفاءة، مع تحقيق الحد الأدنى من المخاطر (وذلك يخلق على وجه الخصوص الحاجة إلى دائرة موظفين ذوى تدريب متخصص وإلى إدارة علمية حقيقية قادرة على التنظيم الرشيد لتدريب وصيانة رأس المال الجسمى للمحترفين. ويرد على الخاطر هنا مثلا لعبة الكرة الأمريكية حيث يتجاوز سلك المدربين والأطباء والعلاقات العامة Public relations سلك اللاعبين عددا، والذى يقوم دائما على وجه التقريب بالدعم الدعائى لصناعات المعدات والأدوات التكميلية الرياضية)

وفى الواقع فإن تطور ممارسة الرياضة ذاتها وصولا إلى أوساط شباب الطبقات الخاضعة للسيطرة ينجم من دون شك فى جانب منه عن واقعة أن الرياضة كانت مهياة لأن تزاوّل على مستوى شديد الاتساع الوظائف نفسها التى كانت أساسا لاختراعها فى المدارس العامة (الراقية) الانجليزية فى نهاية القرن التاسع عشر؛ وحتى قبل أن يرى أحد فى تلك

المدارس وسيلة لتشكيل الشخصية وتحسينها (To improve character) «بالإنجليزية» وفقا للمعتقد الفكتوري القديم، فإن هذه المدارس العامة مؤسسات شاملة بمعنى الكلمة عند جوفمان Goffman يجب عليها أن تضطلع بمهمتها فى التدريب طوال أربع وعشرين ساعة فى كل أربع وعشرين ساعة، وطوال سبعة أيام فى الأسبوع، فقد رأت فى الرياضة وسيلة لشل وقت المراهقين بأقل تكلفة، وكانت هذه المدارس تحمل مسؤولية هؤلاء المراهقين طوال الوقت وكما لاحظ أحد المؤرخين فحينما يكون التلاميذ على أرضية الرياضة يكون من السهل مراقبتهم، فهم منهمكون فى نشاط «صحى»، وهم ينقلون عنفهم إلى رفاقهم بدلا من أن ينقلوه إلى المباني أو إلى إزعاج أساتذتهم. ومجد هنا دون شك أحد مفاتيح ذبوع الرياضة وتضاعف الروابط الرياضية التى كانت منظمة فى الأصل على أساس مباريات دون مقابل (مجانية)، لذلك فقد تلقت تدريجيا اعتراف ومساعدة السلطات العامة لقد كانت هذه الوسيلة الاقتصادية إلى أقصى حد لتعبئة المراهقين وشل أوقاتهم والتحكم فيهم مهياة لأن تصير أداة ورهانا لصراعات بين كل المؤسسات المنظمة كليا أو جزئيا بهدف تعبئة الجماهير سياسيا وكسبها والفوز فى المنافسة الدائمة حول الاستيلاء الرمزى على الشباب بين الأحزاب والنقابات، والكنيسة بكل تأكيد ولكن أيضا بين أصحاب العمل ذوى النزعة الأبوية.

وقد منح أصحاب العمل هؤلاء -فى حرصهم على ضمان تطور مستمر شامل للسكان من العمال- أجراهم فى وقت شديد التمييز بالإضافة إلى المستشفيات والمدارس ملاعب ومؤسسات رياضية أخرى (لقد أقيم عد من الروابط الرياضية بمساعدة أصحاب العمل الخاص وتحت سيطرتهم كما يشهد على ذلك اليوم أيضا عدد الملاعب التى تحمل اسم أصحاب العمل). ويعرف الجميع المنافسة ابتداء من مستوى القرية (مع المزاومة بين الروابط العلمانية أو الدينية أو فيما هو أقرب منا، المجادلات حول الأولوية التى يتعين منحها إلى المعدات الرياضية) حتى مستوى الأمة فى مجملها (مع التصاد على سبيل المثال بين اتحاد الرياضة فى فرنسا الذى تسيطر عليه الكنيسة واتحاد الرياضة للعمال FSGT الذى تسيطر عليه أحزاب اليسار) لم تكف عن معارضة المستويات السياسية المختلفة فيما يتعلق بالرياضة. وفى الواقع فإن الرياضة هى أحد رهانات الصراع السياسى، على نحو متزايد الاستخفاف بمقدار ما يتصاعد اعتراف الدولة ومساعدتها وفى الدفعة نفسها بمقدار ما تتصاعد مظاهر حياد المنظمات الرياضية ومستوى هذه المنظمات:

فالمنافسة بين المنظمات هي من العوامل الأكثر أهمية لتنمية حاجة اجتماعية أى متشكلة اجتماعيا إلى الممارسات الرياضية، وإلى كل المعدات والأدوات والهيئات والخدمات المتلائمة بيد أن فرض الحاجات فيما يتعلق بالرياضة لا يكون شديد الوضوح يمثل ما هو واضح فى الوسط الريفى، حيث يكون ظهور معدات وفرق دائما مثل نوادى الشباب أو الجيل الثالث اليوم من ثمار عمل البورجوازية الصغيرة أو البورجوازية القروية التى تجد فى ذلك فرصة لفرض خدماتها السياسية الخاصة بالتحريض والتأطير وتكديس أو صيانة رأس مال من الشهرة والجدارة بالاحترام يظل دائما قابلا لأن يتحول إلى سلطة سياسية.

ومن اليديهى أن انتشار الرياضة ابتداء من مدارس «النخبة» حتى الروابط الرياضية الجماهيرية يصاحبه بالضرورة تغير فى الوظائف الموكلة إلى الممارسة بواسطة الرياضيين أنفسهم وبواسطة الذين يحيطون بهم، ويصاحبه فى الدفعة نفسها تحول فى ممارسة الرياضية نفسها يمضى فى نفس اتجاه تحول توقعات ومتطلبات الجمهور، الذى اتسع نطاقه من الآن فصاعدا كثيرا إلى ما هو أبعد من الممارسين القدامى: وبمثل فإن تجسيد البسالة الرجولية وعبادة روح الفريق وهما ما يربطه المراهقون ذوو الأصل البورجوازي أو الأرستقراطي من طلبة المدارس العامة الانجليزية أو أقرانهم الفرنسيون أثناء العصر الجميل (نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين) بممارسة رياضة الرجبي ليس من المستطاع تخليدها وسط الفلاحين والمستخدمين أو التجار فى جنوبى غرب فرنسا إلا مقابل ثمن هو إعادة تفسير عميقة. ومن المفهوم أن أولئك الذين احتفظوا بالحنين إلى الرجبي الجامعى الذى تسوده «تجليقات الاتجاهات الثلاثة» يشعرون بصعوبة فى الاعتراف يتمجيد الرجولة manliness (بالإنجليزية) وعبادة روح الفريق team spirit (بالإنجليزية) داخل ذوق العنف، وتمجيد التضحية المبهمة ذات الطابع العامى النموذجى حتى فى الاستعارات القفز فى النار والنفاذ فى الحديد) والتى تميز لاعبي الرجبي الجدد وعلى الأخص (طلّاع الرجوب). ولفهم الاستعدادات شديدة الابتعاد عن معنى المجانية (بذل الجهد بلا مقابل) واللعب النزيه fair play (بالإنجليزية) المرتبطة بالأصول الأولى ينبغى أن نضع فى أذهاننا بين أشياء أخرى حقيقية أن المهنة الرياضية وهى من الناحية العملية مستبعدة من مجال المسارات المسموح بها لأحد أبناء البورجوازية -مع تنمية التنس أو الجولف جانبا- تمثل طريقا مفردا للصدور الاجتماعى بالنسبة لأبناء الطبقات الخاضعة للسيطرة فالسوق الرياضية هى بالنسبة للرأسمال الجسمى لدى الصبيان معادلة لسباقات الجمال وللمهن التى

تتيحها مثل المضيقات والمثلاث.. الخ بالنسبة للرأسمال الجسمى لدى الفتيات. ويدل كل شىء على أن «المصالح» والقيم التى يجلبها الممارسون القادمون من الطبقات الشعبية والمتوسطة فى مزاوله الرياضة منسجمة مع المتطلبات اللازمة لإشاعة الاحتراف (الذى يستطيع بوضوح أن يتطابق مع مظاهر نزعة الهواية) ولترشيد الإعداد (التدريب)، ومزاولة التمرين الرياضى الذى يفرض البحث عن تحقيق الحد الأقصى من الكفاءة النوعية (مقيسة «بالانتصارات»، «الألقاب»، والأرقام القياسية») وهو بحث متلازم كما يرى الجميع مع تطور صناعة -خاصة أو عامة- للفرجة الرياضية وأماننا هنا حالة للاتقاء بين العرض، أى الشكل المتعين الذى تتخذه الممارسة وألوان الاستهلاك الرياضية المقدمة فى لحظة معطاة من الزمان، والطلب، أى التوقعات والمصالح والقيم لدى الممارسين الممكنين أخذاً فى الاعتبار أن تطور الممارسات وألوان الاستهلاك الواقعية هو نتيجة المواجهة والتكيف الدائم بين العرض والطلب. ومن البديهي أنه فى كل لحظة على كل واقد جديد أن يأخذ فى حسابه حالة معينة من ألوان الممارسة والاستهلاك الرياضة ومن توزيعها بين الطبقات، وهى حالة لا يرجع إليه تعديلها فهى نتيجة لكل التاريخ السابق للمنافسة بين العناصر الفاعلة والمؤسسات المنغمسة فى «المجال الرياضى» ولكن إن صبح هنا كما يصح فى كل مكان آخر أن مجال الإنتاج يسهم فى إنتاج الحاجة إلى منتجاته الخاصة، فسوف يبقى أنه ليس من المستطاع فهم المنطق الذى توجه العناصر الفاعلة نفسها وفقاً له، نحو تلك الممارسة الرياضية وهذه الطريقة أو تلك فى تحقيقها، دون أخذ فى الحساب للاستعدادات المتعلقة بالرياضة، التى بما أنها هى نفسها بُعد من أبعاد علاقة معينة بالجسم ذاته منقوشة فى وحدة نسق الاستعدادات أو التطبع الذى هو مبدأ أساليب الحياة (سيكون من السهل على سبيل المثال الإشارة إلى التماثلات بين العلاقة بالجسم والعلاقة باللغة وهى تماثلات مميزة لطبقة ما أو لقسم من طبقة).

وفى مواجهة الجدول الإحصائى الممثل لتوزيع الممارسات الرياضية المختلفة تبعاً للطبقات الاجتماعية والذى ذكرته فى البداية، يجب التساؤل أولاً عن تغاير الدلالة والوظيفة الاجتماعيتين اللتين تمنحهما الطبقات الاجتماعية المختلفة للرياضيات المختلفة. وسيكون من السهل إيضاح أن الطبقات الاجتماعية المختلفة. لا تتفق حول الآثار المتوقعة للتمارين الجسمية : أهى آثار على الجسم من خارجه مثل القوة البادية لجهاز عضلى مرئى وهو ما يفضل به بعض الناس، أو الرشاقة وانسياب الحركة والجمال وهو ما يختاره آخرون، أو

الأثار على الجسم الداخلى مثل الصحة والاتزان النفسى الخ؛ وبعبارة أخرى فإن تغاير الممارسات وفقا للطبقات لا يرتبط فحسب بتغاير العوامل التى تجعل من الممكن أو من المستحيل الاضطلاع بالتكاليف الاقتصادية أو الثقافية لذلك بل يرتبط أيضا بتغاير إدراك وتقدير الأرباح العاجلة أو المؤجلة، التى يفترض أن تجعلها تلك الممارسات ومن ثم فإن الطبقات المختلفة تولى اهتماما بعيدا عن التماوى إلى درجة كبيرة بالأرباح والجوهرية» (ولا يهم أن تكون واقعية أو متخيلة فهى واقعية بمقدار ما تكون منتظرة على نحو واقعى) المتوقعة من أجل الجسم نفسه. ويوضح جاك ديفرانس Jacques De-france على سبيل المثال أن من الممكن أن نتطلب من ألعاب القوى -وهذا هو الطلب الشعبى الذى يجد تلبية له فى رياضة كمال الاجسام، تحقيق جسم قوى يحمل العلاقات الخارجية لقوته، أو على العكس تحقيق جسم صحى سليم وهذا هو الطلب البورجوازى الذى يجد تلبية له فى أنشطة ذات وظيفة تتعلق بالصحة جوهريا. ليس من قبيل المصادفة أن «حملة الأثقال» مثلوا مدة طويلة أحد أهم العروض الشعبية على نحو نموذجى ويتجه الذهن إلى ديديه لابلوتاج Dédé La Boulange الذى كان يؤدى عروضه فى ميدان أنقرس d'Anvers موقفا بين المحازاته وتعليقاته الجذابة. كما أن الأثقال وقضبان الرفع التى يفترض أنها تنمى الجهاز العضلى ظلت زمنا طويلا وعلى الأخص فى فرنسا- الرياضة المفضلة للطبقات الشعبية، ولم يكن من قبيل المصادفة فضلا عن ذلك أن السلطات الأولمبية تأخرت كثيرا فى منح اعترافها الرسمى لهذا الإعجاب بالأدوات الرياضية فى لعبة كمال الاجسام وهى التى كانت فى أعين المؤسسين الاستقراطيين للرياضة الحديثة ومزا للقوة المحضة للوحشية الحشنة، وللغفر العقلى المدقم، أى للطبقات الشعبية. وبالمثل فإن الطبقات المختلفة تهتم على نحو شديد التفاوت بالأرباح الاجتماعية التى تدرها ممارسة بعض الرياضيات. ومن المعروف على سبيل المثال أن للجولف بالإضافة إلى وظائفه المتعلقة حصرا بالصحة دلالة توزيعية تلقى إجماعا فى معرفتها والاعتراف بها (قلدى الجميع معرفة عملية بالاحتمالات أمام الطبقات المختلفة لممارسة الألعاب المختلفة) هى مضادة تماما لدلالة لعبة الكرات الحديدية فى جنوب فرنسا، والتى ليست وظيفتها الصحية البحتة شديدة الاختلاف عنها والتى لها دلالة توزيعية شديدة الاقتراب من دلالة شراب البرنو Pornod وسائر ألوان الغذاء، التى ليست اقتصادية فحسب بل قوية أيضا (بمعنى التيلات) والتى من المفروض أن تعطى القوة لأنها ثقيلة

ودسمة ومتبلة وكل ذلك يسمح فى الحقيقة بأن نفترض أن منطق التمييز يسهم فى جانب حاسم مع وقت الفراغ فى توزيع ممارسة معينة بين الطبقات، لا تتطلب عملياً رأس مال اقتصادى أو ثقافى أو حتى رأس مال جسمى ؛ وتنمو على نحو منتظم حتى تبلغ أقوى تكرار لها فى الطبقات الوسطى وعلى الأخص لدى المدرسين فى المدارس الابتدائية وموظفى الخدمات الطبية، وتتضاءل بعد ذلك بقدر يتناسب مع قوة الاهتمام بالتمايز عما هو شائع- مثلما هى الحال لدى الفنانين وأعضاء المهن الحرة. وينطبق ذلك بالمثل على كل الرياضات التى إذا لا تتطلب إلا صفات «طبيعية» وقدرات جسمية تبدو شروط امتلاكها موزعة بالتساوى على وجه التقريب وفى المتناول بالتساوى فى حدود الوقت، وفى المحل الثانى فى حدود طاقة جسمية متاحة: فاحتمال ممارستها يزداد دون أى شك بمقدار الارتفاع فى التراتب الاجتماعى إذا كان الاهتمام بالتمييز وغياب الذوق لا يصرف عنها أعضاء الطبقة السائدة وذلك وفقاً لمنطق لوحظ فى ميادين أخرى (مثل ممارسة الصور الفوتوغرافية). وعلى هذا النحو فإن معظم الرياضات الجماعية مثل كرة السلة وكرة اليد والرجبى وكرة القدم التى تبلغ ممارستها المعلنة ذروتها لدى موظفى المكاتب والتقنيين والتجار، وكذلك دون شك الرياضات الفردية الشعبية على نحو نموذجى مثل الملاكمة أو المصارعة التى تجمع كل أسباب إبعاد أعضاء الطبقة السائدة: مثل التركيب الاجتماعى لجمهورها الذى يضاعف الابتذال المتضمن فى شيوعها، القيم المرتبطة بها مثل تمجيد المنافسة والفضائل المطلوبة مثل القوة والمقاومة والميل للعنف وروح «التضحية» والطاعة والخضوع للنظام الجمعى وهى النقيض الكامل «للمسافة المتخذة من الدور» المتضمنة فى الأدوار البورجوازية، الخ.

وكل ذلك يسمح إذن بافتراض أن احتمال ممارسة الرياضات المختلفة يتوقف بدرجات مختلفة بالنسبة إلى كل رياضة على رأس المال الاقتصادى، وفى المحل الثانى على رأس المال الثقافى، وكذلك على وقت الفراغ، وذلك عبر توسط الملامسة التى تنشأ بين الاستعدادات الأخلاقية والاجتماعية المرتبطة بموقع معين فى النطاق الاجتماعى والأرباح التى تبدو موعودة بواسطة الرياضات المختلفة تبعاً لهذه الاستعدادات كما أن العلاقة بين الممارسات الرياضية المختلفة والسن هى أكثر تعقيداً حينما لا تتحدد عبر توسط كثافة المجهود الجسمى المطلوب والاستعداد فيما يتعلق ببذله -وهو بعد لمسجية الطبقة- إلا فى العلاقة بين رياضة وطبقة: وبين خصائص الرياضات «الشعبية» فإن أكثرها أهمية هو

حقيقة أنها مرتبطة على نحو مضر بالشباب، ويعزى إليها تلقائياً وضمنياً نوع من التحرر الزائد المؤقت يعبر عن نفسه بين أشياء أخرى بواسطة تهديد لطاقة شديدة التدفق جسمية (وجنسية) ثم الإقلاق عن ذلك فى وقت مبكر جداً (فى أغلب الأحيان فى لحظة الزواج التى تحدد الدخول فى حياة البلوغ) ؛ وعلى العكس فإن الرياضات «البورجوازية» التى تمارس من ناحية رئيسية من أجل وظائفها فى الحفاظ على الجسم، ومن أجل الريح الاجتماعى الذى تدره، لها جميعاً استطاعة أن تؤخر إلى ما بعد سن النياب حد السن الملائمة لممارسة الرياضة، وربما إلى ما بعد ذلك بكثير بقدر ما يكون ذلك أكثر حقراً للمكانة وأكثر تفرداً. (مثل الجولف)

وفى الحقيقة فخارج كل بحث عن التميز تكون العلاقة بالجسم ذاتة باعتبارها بعداً ممتازاً للتطبع هى التى تفصل الطبقات الشعبية عن الطبقات صاحبة الامتيازات كما تفصل داخل تلك الطبقات الممتازة بين أقسام يباعدها عنها عالم كامل من أسلوب الحياة. وهكذا فإن العلاقة الأداتية بالجسم ذاتة التى تعبر عنها الطبقات الشعبية فى كل الممارسات التى تتخذ من الجسم موضوعاً أو رهاناً، مثل النظام الغذائى أو تدابير العناية بالجسم والعلاقة بالمرض أو العناية بالصحة تتجلى أيضاً فى اختيار الرياضة التى تتطلب استثماراً ضخماً من الجمهور، وأحياناً بعض المشقة والمعاناة (مثل الملاكمة) كما تقتضى فى بعض الحالات المخاطرة بالجسم نفسه مثل سباق الدراجات البخارية والهبوط بالمظلات وكل أشكال الألعاب الپلهوانية، وإلى حد ما كل رياضات الممارك التى يمكن ضم الرجبى إليها. وعلى النقيض من ذلك فإن ميل الطبقات المتميزة إلى «إعطاء الحياة أساليب معددة» يعرف نفسه ويعترف بنفسه فى الاتجاه إلى معاملته الجسم باعتباره غاية باستعمال عدة صيغ يشدد المرء وفقاً لها الثبر على أداء الجسم لوظائفه نفسه باعتباره كياناً عضوياً، ويميل ذلك نحو نزعة عبادة الصحة فيما يتعلق «بالشكل» أو على مظهر الجسم باعتباره هيئة مدركة حسياً، باعتباره «بنية» (أى الجسم) من أجل الآخرين ويبدو أن كل ذلك يشير إلى أن الاهتمام بتربية الجسم يظهر فى الشكل الأكثر أولية، أى باعتباره عبادة لقواعد الصحة فيما يتعلق بسلامة الجسم، مما يتضمن غالباً تعجيداً متنسكاً لبساطة الحياة وللصرامة الدقيقة فى الغذاء، لدى الطبقات المتوسطة التى تعكف بطريقة كثيفة على التمارين الرياضية بشكل خاص، وهى الرياضة المتقشفة بامتياز حينما تختزل إلى لون من التدريب من أجل التدريب، أما التمارين الرياضية والرياضات التى تحافظ على الصحة

بشكل حاسم مثل المشى والسير على الأقدام هي أنشطة ورشيقة وتامة الترشيده، في المحل الأول لأنها تفترض إيماناً راسخاً بالعقل وبالمكاسب المؤجلة غير الملموسة غالباً التي تعد بها (مثل الحماية من سريان الشيخوخة أو الحوادث الملازمة لها، وهو مكسب مجرد وبالسلب ولا يوجد إلا في علاقته بمرجع إشاري نظري بالكامل)، وبعد ذلك لأنها لن تصير ذات معنى في أغلب الأحوال إلا تبعاً لمعرفة مجردة لآثار التمرين الذي غالباً ما يكون هو نفسه مختزلاً كما هي الحال في الألعاب الرياضية إلى سلسلة من الحركات المجردة التي تفككت وأعيد تنظيمها بالرجوع إلى غاية نوعية واعية (على سبيل المثال تمارين البطن) وهي قائل في علاقتها بالحركات الشاملة والموجهة نحو غايات عملية في المواقف اليومية المشى عند تفكيكه إلى حركات أولية في «كتيب ضباط الصف» بالنسبة إلى المشى العادي. وعلى هذا النحو نفهم أن هذه الأنشطة تلبى وتشبع التوقعات المتشقة للأفراد الصاعدين المتأهبين لأن يجدوا إرضاءهم في بذل المجهود ذاته، ولأن يقلبوا -وهذا هو معنى كل وجودهم- مكافآت مؤجلة مقابل التضحية في الحاضر وقيل الوظائف الصحية أكثر فأكثر إلى أن ترتبط -أي إلى أن تُخضع نفسها- بوظائف يمكن تسميتها جمالية بمقدار ما يصعد المرء في التراتب الاجتماعي (ولدى النساء على الأخص عند تساوى جميع الأشياء فهن مدعوات بقوة للخضوع إلى معايير تحدد ما يجب أن يكون عليه الجسم لا في هيئة المدركة حسياً فحسب بل أيضاً في مشيته وأسلوبه... الخ). وفي النهاية لاشك أنه في المهن الحرة وعند بورجوازية الأعمال ذات الأصول العريقة ترتبط الوظائف الصحية والجمالية بأكثر الأشكال وضوحاً مع الوظائف الاجتماعية، وتصير الرياضات مسجلة مثل ألعاب غرفة الاستقبال أو ألوان الاتصالات الاجتماعية (حفلات الاستقبال وتناول الطعام) في عدد من الأنشطة «المجانية» والمنزهة عن الغرض التي تسمح بتراكم رأس مال اجتماعي ويحدث ذلك لأن ممارسة الرياضة في الشكل المحدود الذي تتخذه مع الجولف والصيد والبولو (الكرة على ظهور الخيل بالعصى الطويلة) في النوادي الاجتماعية الراقية قيل إلى أن تصير ذريعة بسيطة للقائه المختار، أو إذا فضل المرء تقنية للمخاطبة الاجتماعية بالصفة نفسها التي لممارسة البريدج أو الرقص.

وفي الختام سأقتصر على الإشارة إلى أن مبدأ تحويلات ألوان الممارسة والاستهلاك الرياضية يجب أن ندرسه في العلاقة بين تحويلات العرض وتحويلات الطلب: فتحويلات العرض (اختراع أو استيراد رياضات أو معدات جديدة، أو إعادة تفسير

رياضات أو ألعاب قديمة، الخ) تتولد فى صراع المنافسة من أجل فرض ممارسة رياضية شرعيه ومن أجل الاستيلاء على زبائن الممارسين العاديين (تحول فى العقيدة الرياضية)، وهى صراعات بين الرياضات المختلفة وداخل كل رياضة، بين المدارس والتقاليد المختلفة (مثل الالتزاق فوق طريق مرسوم أو خارجه أو من أسفل .. الخ)، وصراعات بين الفئات المختلفة من النشاط المنغمسين فى تلك المنافسة (مثل الرياضيين ذوى المستوى الرفيع والمدربين وأساتذة التمارين الرياضية ومنتجى المعدات .. الخ). أما تحولات الطلب فهى بعد من أبعاد التحول فى أساليب الحياة، وهى من ثم تطيع القوانين العامة لهذا التحول ويرجع التناظر الملحوظ بين السلسلتين من التحولات دون شك هنا كما فى أماكن أخرى إلى حقيقة أن نطاق المنتجين (أى مجال العناصر الفاعلة والمؤسسات التى توجد فى وضع يمكنها من الإسهام فى تحويل العرض) يميل إلى أن يعيد إنتاج الالتباسات داخل نطاق المستهلكين فى أجزائها المنفصلة؛ وبعبارة أخرى إن صانعى الذوق - taste makers (بالإنجليزية) الذين فى مستوى يمكنهم من إنتاج أو من فرض (أى. بيع) ممارسات جديدة أو أشكال جديدة من الممارسات القديمة (مثل الرياضات الكاليفورنية أو الأنواع المختلفة من التعبير الجسمى) يشبهون أولئك الذين يدافعون عن الممارسات القديمة أو طرائق الممارسة القديمة فى دفع الاستعدادات والمعتقدات المشكّلة لتطيع ما إلى المشاركة بما يفعلون، حيث يعبر وضع معين فى مجال المتخصصين وكذلك فى النطاق الاجتماعى عن نفسه، وهم مستعدون نتيجة لذلك لأن يعبروا ومن ثم لأن يحلقوا بفضل التوضع التوقعات الواعية إلى هذا الحد أو ذاك عن الاقسام المناظرة من جمهور العامة.



هوامش الترجمة «للفصل الخامس عشر»

- ١- فرديريك لوبلاي (١٨٠٦ - ١٨٨٢)، اقتصادي ومهندس فرنسي له مذهب قائم على منهج الاستقصاء الاجتماعي المباشر. أثر في النزعة الاجتماعية الكاثوليكية من زاوية أبوية.



الفصل السادس عشر

الآزياء الراقية والثقافة الراقية^(*)

ليس عنوان هذا العرض مزاحا. فسأتكلم إليكم بالفعل عن العلاقات بين الخطابة الراقية والثقافة. إن الموضة هي موضوع ذو مكانة في التقليد السوسيولوجي في نفس الوقت الذي يكون فيه من حيث الظاهر موضوعا لعويا على نحو ما. ومن الموضوعات شديدة الأهمية في سوسيولوجيا المعرفة تراتب موضوعات البحث، وبين المزاوغات التي تمارس من خلالها ألوان الرقابة الاجتماعية يبرز على وجه الدقة هذا التراتب للموضوعات التي تعتبر جديرة أو غير جديرة بأن تدرس. وكان ذلك واحدا من أقدم مباحث التقليد الفلسفي على الرغم من أن الدرس القديم لمحاورة بار منيدس Parménide الأفلاطونية والتي تؤكد أن هناك مثلاً Idées لكل الأشياء بما فيها القذارة والشعر (بفتح الشين) لم يفهم إلا بقدر شديد الضآلة من جانب الفلاسفة الذي كانوا على وجه العموم الضحايا الأول لهذا التعريف الاجتماعي لتراتب الموضوعات وأنا أعتقد أن هذا التمهيد ليس بلا جدوى لأنني إذا كنت أريد توصيل شيء ما هذا المساء فهو على وجه التحديد تلك الفكرة القائلة بأن هناك أرباحا علمية تُجتنى من الدراسة العلمية للموضوعات التي تعد غير جديرة بهذه الدراسة. ويرتكز اقتراحي على التماثل أو التشاكل في البنية بين مجال إنتاج هذه الفئة المخصصة من سلع الترف التي هي سلع الموضة ومجال إنتاج الفئة الأخرى من الثقافة الشرعية مثل الموسيقى والشعر والفلسفة... الخ. وسيؤدي ذلك إلى أنه أثناء حديثي عن الآزياء الراقية لن أكف عن الكلام عن الثقافة الرفيعة وسأحدث عن إنتاج التعليقات والشروح على ماركس أو هيدجر، عن إنتاج اللوحات والخطابات عن اللوحات. وستقولون لي «لماذا لانتكلم عنها مباشرة؟» ؛ وسأجيب لأن هذه الموضوعات الشرعية تحميها

(*) عرض قدم في نوروا (آراس) Noroit (Arras) ١٩٧٤ ونشر في مجلة Noroit في ١٩٧٤

شرعيتها من النظرة العلمية ومن جهد التدنيس (نزع القداسة) الذى يفترضه الدراسة العلمية للموضوعات المقدسة. (وأنا أعتقد أن سوسولوجيا الثقافة هى سوسولوجيا الدين فى عصرنا). وعند الكلام عن موضوع لاهوته المحاذير إلا قليلا فإننى آمل أيضا أن أسهل فهم ما سيتصلل الجميع منه دون شك إذا قلته بصدد أشياء أكثر قداسة.

ومقصدى هو أن أقدم إسهاما فى سوسولوجيا ألوان الانتاج العقلى، أى فى سوسولوجيا المثقفين وفى نفس الوقت فى تحليل النزعة الصنمية (الفيثية) والسحر. وسيقال لى هنا أيضا «ولكن لماذا لا نقضى نحو دراسة السحر فى المجتمعات البدائية فذلك أولى من دراسته عند ديور Dior وكاردان Cardin ؟ وأنا أعتقد أن من وظائف الخطاب الإثنولوجى قول أشياء يمكن الدفاع عنها عندما تطبق على مجموعات سكانية نائية عن مصدرها، مع الاحترام الواجب لهذا الخطاب والذى سيقبل كثيرا عندما يتعلق بمجمعاتنا. وقد تسامل موس Mauss فى نهاية مقالته عن السحر «أين المعادل فى مجتمعتنا؟» وأنا أريد أن أشير إلى أن هذا المعادل ينبغى البحث عنه فى مجلات مثل «هى» Elle أو لوموند Le Monde (وخاصة فى الصفحة الأدبية). و سيكون البحث الثالث للتفكير هو مم تتألف وظيفة السوسولوجيا؟ أليس السوسولوجيون قوما من مفسدى البهجة يشعرون فى تدمير المشاركات والقداسات السحرية؟ تلك أسئلة سيكون لديكم متسع لتناولها بعد أن تكونوا قد استمعتمهم إلى.

وسأبدأ بوصف سريع جدا لبنية مجال إنتاج الأزياء الراقية. وأنا أطلق كلمة مجال على حيز للعب، على حقل علاقات موضوعية بين أفراد أو مؤسسات تتنافس حول الرهان نفسه والمسيطر فى هذا المجال المعين الذى هو عالم الأزياء الراقية هم أولئك الذين يستحذون بأعلى قدر على سلطة تشكيل موضوعات معينة باعتبارها نادرة بواسطة أن يجهروها «بالختم»، ويكون للختم لديهم أعلى ثمن. وفى مجال ما، وهذا هو القانون العام لكل مجال، فإن حائزى الموقع المسيطر، أولئك الذين يملكون أكبر رأسمال نوعى، يواجهون فى كثير من العلاقات هؤلاء القادمين الجدد (وأنا استعمل قصدا هذه الاستعارة المقتبسة من الاقتصاد) الوافدين الجدد، أى الوافدين المتأخرين، حديشى النعمة الذين لا يملكون الكثير من رأس المال النوعى. إن القدامى لديهم استراتيجيات محافطة تستهدف انتزاع الربح من رأس مال قد تراكم تدريجيا. أما الوافدون الجدد فلديهم استراتيجيات تقويض موجهة نحو تراكم لرأس المال النوعى الذى يتطلب قلبا جذريا إلى هذا الحد

أوذلك لجدول القيم، وإعادة تعريف ثورية إلى هذا الحد أو ذاك لمبادئ إنتاج وتقدير المنتجات وخفض قيمة رأس المال في حوزة المسيطرين دفعة واحدة. وخلال المناظرة التي عرضها التلفزيون بين بالمان Balmain وشيرر Scherrer لابد أنكم قد فهمتهم على الفور من مجرد كلامهما من كان على «اليمين» ومن كان على «اليسار» (في الحيز المستقل نسبيا للمجال). (ويجب أن أفتح هنا قوسا: فعندما أقول «يمين» أو يسار» فأنا أعرف حين أقول ذلك أن المعادل العلمى الذى لدى كل واحدنا -بالحالة الخاصة إلى المجال السياسى- للبناء النظرى الذى أقترحه، يعرض عن نقص الكفاية الحتمى للنقل الشفاهى. ولكننى فى نفس الوقت أعرف أن هذا المعادل العلمى يخاطر بأن يكون حاجزا، لأننى إذا لم يكن فى ذهنى اليمين واليسار من أجل الفهم فلن أكون قد فهمت شيئا. والصعوبة الخاصة للسوسولوجيا تحبب من أنها تعلم أشياء يعرفها كل الناس على نحو ما، ولكنهم لا يريدون معرفتها بالمعنى العلمى أو لا يستطيعون معرفتها لأن قانون النظام هو أن يخفيها). وأعود إلى الحوار بين بالمان وشيرر فبالمان كان يصوغ عبارات طويلة جدا، طنانة بعض الشيء. دافع بها عن النوعية والجودة الفرنسية والابتكار.. الخ أما شيرر قد تكلم كأنه زعيم من زعماء مايو ١٩٦٨ أى عبارات لا توضع لها نهاية، ونقاط معلقة فى كل موضع .. الخ. وبالمثل فقد اكتشفت فى الصحافة النسائية الصفات المرتبطة عادة بمجلات الأزياء المختلفة فمن جانب سيكون لديكم: «فاخر خصوصى عالى القيمة -تقليدى، رفيع الذوق، متنقى متوازن، يدوم طويلا» وفى الطرف الآخر هناك (فاتق الأثانة، خليط، مرح جذاب، غريب، مشع، حر، مندفع له طراز خاص وظيفى). وانطلاقا من المواقع التى تشغلها العناصر الفاعلة المختلفة أو المؤسسات فى بنية المجال التى تناظر فى هذه الحالة على نحو وثيق تاريخها السابق، يمكن أن نفهم ويمكن أن نتنبأ فى كل الحالات بتلك المواقف التى تتخذها تلك العناصر جماليا على نحو ما تعبر عنها بالصفات المستخلصة لوصف منتجاتها أو بأى مؤشر آخر: وكلما ابتعدنا عن القطب المسيطر نحو القطب الخاضع للسيطرة زادت السراويل فى التشكيلات وقلت تجارب المقاس، وزادت قطع النسبج المخملى الوبرى الرمادية، كما يحل محل علامات الإرشاد باتعات ترتدين التنوره القصيرة جدا والألومنيوم، كلما انتقلنا بعيدا عن الضفة اليمنى نحو اليسرى.

وفى مواجهة استراتيجيات التقويض من جانب الطليعة، يتمسك حائزو الشرعية، أى شاغلو الموقع المسيطر بالخطاب الغامض الفخم القائل «بالديوى» الذى يعجز

عنه الوصف: ومثل المسيطرين فى مجال العلاقات بين الطبقات ستكون لديهم استراتيجيات محافظة دفاعية تستطيع أن تظل صامته مضمرة على حين أن عليها فقط أن تكون ماهى عليه لكي تكون ما ينهى عليها أن تكونه.

وعلى النقيض فإن لدى أصحاب محلات الأزياء على الضفة اليسرى استراتيجيات تهدف إلى قلب مبادئ اللعبة ذاتها ؛ ولكن باسم اللعبة، وروح اللعبة. وتنحصر استراتيجيتهم الرامية إلى العودة إلى المنابع والأصول فى إقامة تعارض بين المسيطرين والمبادئ ذاتها التى يبررون بها سيطرتهم وتلك الصراعات بين المسكين بالمقاليذ والطامحين إلى الحلول محلهم والذين يتحدونهم وينازعونهم وقد حكم عليهم كماهى الحال فى الملاكمة بأن «يخوضوا مباراة التحدى» وأن يتحملوا المخاطر هى من حيث المبدأ تغيرات يكون مجال الأزياء الراقية محلا لها.

ولكن شرط الدخول فى المجال والاعتراف بالرهان والاعتراف بالحدود التى يتعين عدم تجاوزها دفعة واحدة، وإلا كانت العقوبة الاستبعاد خارج اللعبة. وينجم من ذلك أن الصراع الداخلى لا يؤدى إلا إلى ثورات جزئية قادرة على تدمير التراتب فحسب لا اللعبة نفسها. إن الذى يريد إحداث ثورة فى السينما أو التصوير يقول: «ليس تلك هى السينما الحقيقية» أو ليس هذا هو التصوير الحقيقى» وهو يلتقى باللغات وألوان التحريم ولكن باسم تعريف أكثر نقاء وحقيقة بالقياس إلى ذلك الذى يسيطر المسيطرون باسمه.

ومن ثم فلكل مجال أشكاله الخاصة من الثورة، وبالتالى له تحقيقه (تقسيمه إلى مراحل) الخاص. وليس من الضرورى أن تكون الانقطاعات فى المجالات المختلفة متوافقة. ويبقى أن للثورات النوعية علاقة معينة بالتغيرات الخارجية. فلماذا أحدث كورييج Courrèges ثورة، وفى أى شىء يختلف التغير الذى أدخله كورييج عن التغير الذى جرى إدخاله طوال الأعوام تحت الشكل الخاص «أقصر قليلا أطول قليلا». فالخطاب الذى يتمسك به كورييج يتجاوز الموضة تجاوزا كبيرا، فهو لم يعد يتكلم عن الموضة بل عن المرأة الحديثة التى يجب أن تكون حرة طليقة رياضية تفعل ما يحلو لها. وفى الحقيقة إننى أعتقد أن الثورة النوعية التى بمثابة علامة طريق داخل مجال معين هى توافقت ثورة داخلية مع شىء ما يحدث فى الخارج فى العالم المحيط بالمجال. فماذا فعل كورييج؟ إنه يتحدث عن الموضة بل عن أسلوب الحياة وقال: «إننى أريد أن أكسو المرأة الحديثة التى يجب أن تكون نشطة وعملية فى نفس الوقت». وكان ذوق كورييج «تلقائيا» أى ناتجا عن

شروط اجتماعية معينة جعلت من «أثباعه ذوقه» ذريعة كافية لأن يستجيب لذوق بورجوازية جديدة تخلت عن آداب سلوك معينة، وتخلت عن موضه بالمان Balmain الموصوفة بأنها موضه للنسوة العجائز. لقد تخلى كوريج عن تلك الموضه من أجل موضه تعرض الجسم وتكشف عنه للعيون وتفترض من ثم أنه برونزي رياضى. لقد أحدث كوريج ثورة نوعية فى مجال نوعى لأن منطق التمايزات الداخلية قاده إلى الالتقاء بشيء ما كان موجودا من قبل خارج المجال.

فالصراع الدائم داخل المجال هو محرك المجال. ونرى عَرَضاً أنه ما من تناقض لا يقبل الحل بين البنية والتاريخ، وأن ما يحدد بنية مجال كما أراها هو أيضا مبدأ ديناميته. ويعمل الذين يناضلون من أجل السيطرة على أن يتحول المجال وتشكل بنيته دوما من جديد فالتضاد بين اليمين واليسار، بين المؤخرة والقيادة، بين المتسم بالتركيس والمتسم بالهرطقة، بين الرأى الأصولى والرأى المغاير تضاد يتبدل دوما من حيث مضمونه الجوهري، ولكنه يظل من حيث بنيته ماثلا لذاته. ولا يستطيع الوافدون الجدد الإطاحة بالقدامى إلا لأن القانون الضمنى للمجال هو التمايز بكل معانى اللفظ: فالموضه هى آخر موضه، آخر اختلاف، ويتلاشى شعار أو رمز طبقة ما (بكل معانى اللفظ) حينما يفقد قوة التميز، أى حينما يصير منتشرًا بين الجميع. وحينما وصلت التنوره باللغة القصر «ميتى جوب» إلى أحياء عمال المناجم فى بيتون Béthune كان ذلك بمثابة البداية من الصفر.

ومجد جدل التظاهر (الادعاء) والتميز الذى هو أساس التحولات فى مجال الاتجاج ماثلا فى حيز ألوان الاستهلاك. وهو يميز ما أسميه صراع المنافسة، صراع طبقات مستمر وبلاتهاية. فطبقة ما تحوز ملكية معينة والأخرى تلحق بها وهلم جرا. ويتضمن جدل المنافسة المسار نحو الهدف نفسه والاعتراف الضمنى بهذا الهدف. ويرحل التظاهر دائما مهزوما مادام يفرض على نفسه هدف السباق مقرا دفعة واحدة بالعائق الذى يجهد نفسه لكى يتخطاه (السباق هنا سباق عوائق handicap «بالإنجليزية» يفرض فيه على الأقوى عبئا أو عائقا إضافيا فتصبح فرص الكسب متساوية بين الأقوى والأضعف). فما هى الشروط الملازمة (لأن هذا لن يتحقق بواسطة تحول فى الرعى) لكى يكف بعض المتسابقين عن الجرى ويخرجوا من السباق، وعلى الأخص الطبقات المتوسطة التى هى فى الوسط من المتسابقين؟ ماهى اللحظة التى يكون فيها احتمال أن ترى مصالحها متحققه بالبقاء فى

السباق قد كفت عن التغلب على احتمال أن ترى مصالحها متحققة فى الخروج من هذا السباق؟ وأنا أعتقد أن المسألة التاريخية للثورية تطرح نفسها على هذا النحو.

ويجب هنا أن أنتج قوسا يتعلق بالبدائل العتيقة مثل نزاع/ توافق وثباتى/ دينامى التى هى بلاجدال العقبة الرئيسية أمام المعرفة العلمية بالعالم الاجتماعى. وفى الحقيقية هناك شكل للصراع يلزم عن التوافق مع رهانات الصراع وهو شكل ملحوظ على نحو واضح على أرضية الثقافة بوجه خاص. وهذا الصراع الذى يأخذ شكل سباق ملاحقة (مطاردة) (سأخذ ما تملكه ... الخ) هو صراع تكاملى، فذلك تغير يتجه نحو ضمان البقاء. وسأضرب مثل التعليم لأن النموذج يبدو لى بوضوح فى هذا الصدد. وعندما نحسب احتمالات الوصول إلى التعليم العالى فى لحظة ما «ت» نجد توزيعا شاملا سواء بالنسبة لأبناء العمال أو أبناء الطبقات الوسطى... الخ، فنقاس احتمالات الوصول إلى التعليم العالى فى اللحظة ت + ١، وتكون النتيجة بنية متماثلة؛ فالقيم المطلقة ارتفع مقدارها ولكن الشكل الكلى للتوزيع لم يتغير. وفى الحقيقة فإن التحول الملاحظ على هذا النحو ليس ظاهرة ميكانيكية. ولكنه الناتج المتراكم لحشد من المسارات الضئيلة المفردة (والآن من المستطاع إرسال الطفل إلى اللبسية... الخ)؛ محصلة شكل خاص من المنافسة التى تتضمن الاعتراف بالرهانات. انها استراتيجيات لا تحصى تشكلت بالنسبة إلى أنظمة مرجعية شديدة التعقيد هى مبدأ عملية تصفها الاستعارة الميكانيكية للتحول. وقد جرت العادة أكثر من اللازم على التفكير بواسطة ثنائيات بسيطة: «إما أن يتغير هذا أو لا يتغير»، ثباتى أم دينامى، وكان أوجيست كونت يفكر على هذا النحو وليس ذلك عدوا. وما أحاول توضيحه هو أن هناك لا متغيرا (ثابتا) هو نتاج التغير.

ولمجال الإنتاج مثل مجال الطبقات الاجتماعية وأساليب الحياة بنية هى نتاج تاريخه السابق ومبدأ تاريخه اللاحق. ومبدأ تغيره هو الصراع من أجل احتكار التميز أى احتكار فرض آخر اختلاف شرعى، آخر موضوعة، ويكتمل هذا الصراع بالسقوط التدريجى للمهزوم فى رقة الماضى. ونصل بذلك إلى مشكلة أخرى هى مشكلة التعاقب (الحلقة). وقد وجدت فى المجلتين النسائيتين إل ومارى كلبير مقالا رائعا عنوانه «هل من المستطاع إيجاد بديل لشانل Chanel؟». وقد تساءل الكثيرون زمنا طويلا ماذا سيحدث فى مسألة خلافة الجنرال ديغول، وكانت تلك مسألة جذرية بجريدة لوموند، أما خلافة مصمم الأزياء شانيل فهى مناسبة لمجلة مارى كلبير، ولكننا فى الحقيقة أمام المشكلة

نفسها. وهى التى أطلق عليها ماكس ثيبر اسم «إضفاء الطابع الروتينى على الكاريزما»، كيف تحول إلى مؤسسة دائمة هذا الابتثاق الفريد الذى يدخل انقطاعا فى استمرار عالم ما؟ كيف تصنع المتصل من المنقطع؟ «منذ ثلاثة أشهر فإن جاستون برتلو Gaston Berthelot الذى عُين فى وقت وجيز (عُينَ هى بالأحرى لفظة من معجم البيروقراطية، ومن ثم فهى مناقضة تماما لمعجم الإبداع (الابتكار)) مسؤولا فنيا (هنا يختلط المعجم البيروقراطى بمعجم الفن) لبيت شانيل فى يناير ١٩٧١ عند وفاة «المدموازيل»، قد «سُرح» بسرعة ماثلة. ففقد لم يجدد. وتشير الهمهمات المتطفلة شبه الرسمية إلى «أنه لم يعرف كيف يفرض نفسه» وينبئ القول أن التروى (الحرص) الطبيعى لجاستون برتلو كان قد لقى تشجيعا قويا من جانب الإدارة»، وهنا ما يشير الاهتمام، لقد أخفق ولكن لأنه وضع فى شروط تجعل من المحتم أن يفشل «لا أحاديث صحفية، لا إبراز لشيء، لا بيع» (ولذلك طابع لغة صحفية ولكن ذلك فى الحقيقه أمر جوهري. وكانت هناك أيضا تعقبات من فريقه أمام كل اقتراح من اقتراحاته هل الموديل على عارضة الأزياء مطابق ودقيق ومحترم؟ لاجابة لمعجم أزياء لهذا، نأخذ الخياطين القدامى ونبدأ من جديد. ولكن إزاء تنورة جديدة وجبب قد تغير: ما كانت «المدموازيل» لتسمح بذلك». إن ما وصفناه هنا هى تقاضى التعاقب (الخلاقة) القائم على الجاذبية السحرية (الكاريزما).

ويشير مجال الموضة اهتماما كبيرا لأنه يشغل موقعا وسيطا (داخل حيز نظرى مجرد بطبيعة الحال) بين مجال قد هبى، لتنظيم التعاقب (الخلاقة) مثل مجال البيروقراطية حيث ينبغى أن تكون العناصر الفاعلة بحكم التعريف قابلة للاستبدال فيما بينها، ومجال آخر حيث يكون شاغلوه غير قابلين للاستبدال على نحو جذرى مثل مجال الإبداع الفنى والأدبى والنبنى. فلا يقول أحد كيف نجد من يخلف يسوع؟ أو كيف نجد من يحل محل بيكاسو. فذلك لا يمكن تصوره. أما هنا فنحن نواجه حالة مجال يوجد فيه تركيز لسلطة كاريزمية للمبدع وتوكيد لإمكان استبدال ما لا يمكن استبداله. وإذا كان جاستون بيرتلو لم ينجح فذلك لأنه قد انحصر بين غطين من المتطلبات المتناقضة. وكان الشرط الأول الذى وضعه خليفته هو القدرة على الكلام. وحين يفكر المرء فى التصوير الطبيعى والتصوير المفهومى فإنه يدرك أن من الجوهري أن يستطيع المبدع إبداع ذاته بوصفه مبدعا عن طريق التمسك بالخطاب الذى يمنح الثقة لقدرة الخلاقة.

وتظهر مشكلة الخلاقة ماهو مدار التساؤل، إنها إمكان نقل سلطة أو قدرة

إبداعية، يقول الإثنولوجيون إنها نوع من المانا Mana (تجسيد قوى الطبيعة)، ويقوم مبتكر الأزياء بتحقيق عملية تحويل للجوهر transsubstantiation (مماثلة لتحويل خبز القربان وتبنيذه إلى جسد المسيح ودمه). وأنت تحصل على عطر مونوبري Monoprix مقابل ثلاثة فرنكات. وقد جعلت العلامة المصقة منها عطرا لشانيل يساوي ثمنه ثلاثين ضعفا. ولجذب السر نفسه في ميولة دوشاب Duchamp التي تشكلت بوصفها موضوعا فنيا وذلك لأنها في آن معا موسومة بسمة مصور وقع عليها بامضائه، ولأنها قد أرسلت إلى موضع مكرس للفن يجعل استقباله لها عملا فنيا، فتحوّلت بذلك إقتصاديا ورمزيا. فالعلامة أو الإنشاء سمة مميزة «ماركة» لا تغير الطبيعة المادية بل الطبيعة الاجتماعية للموضوع. ولكن هذه السمة المميزة «الماركة» اسم علم. وتطرح مشكلة الخلاقة نفسها دفعة واحدة لأن الناس لا ترث إلا أسماء نكرة أو وظائف مشتركة ولكنها لا ترث اسم علم. ويعد قول ذلك كيف يجرى إنتاج ما لاسم العلم من سلطة ونفوذ؟ ويبرز سؤال عما يجعل المصور على سبيل المثال حاصلًا على قدرة خلق القيمة. وهنا يجرى استحضار أكثر الحجج سهولة وضوحاً: تفرد العمل. وفي الحقيقة إن موضع المخاطرة هنا ليس ندرة النتائج بل ندرة المنتج (بالكسر) ولكن كيف نتجت تلك الندرة؟ ينهض هنا استعادة مقالة موس Mauss عن السحر لقد بدأ بالتساؤل: «ما هي الخصائص المميزة للساحر؟» وتساءل بعد ذلك: ما هي الخصائص المميزة للعمليات السحرية؟ ورأى أن ذلك لن يجدي. ومن ثم تساءل: «ما هي الخصائص النوعية للتمثلات السحرية؟» ووصل إلى العثور على أن المحرك هو الاعتقاد الذي يرجع إلى الجماعة ويلفتي الخاصة إن ما يمنح سلطة المنتج (بالكسر) هو المجال، أي نسق العلاقات في مجملها. فالطاقة هي المجال. إن ما يحركه ديور Dior ويحشده هو شيء ما لاسبيل إلى تعريفه خارج المجال. إن ما يحشده الجميع، هو ما أنتجته ممارسة اللعبة، أي سلطة تتركز على الإيمان بالحياطة الراقية (بالأزياء المبتكرة). كما أن الذين يشغلون المراكز الأعلى في التراتب المؤسس لذلك المجال هم الذين يستطيعون حشد جانب يزداد ضخامة مع علو مراكزهم.

وإذا كان ما أقوله صحيحا، فإن انتقادات كوريج ضد ديور، وهجمات هشتيه Hechter ضد كوريج أو ضد شيريه Scherrer تسهم في تأسيس سلطة كوريج وشيريه، وهشتيه وديور. ويتفق طرفا المجال على الأقل في القول بأن موديلات ما قبل عام ١٩٤٠ Retro والفتيات اللاتي يرتدين هذه الأزياء، مهما يكن ذلك جيذا جدا وجميلا جدا

فقيمته تقف عند حد ما.. فما الذى تفعله فى الحقيقية الفتيات اللاتى يرتدين الثياب العتيقة؟ إنهن ينازعن احتكار الاستعمال الشرعى لهذه المحيطة أو المهارة النوعية التى هى بمثابة المقدس فى ميدان الأزياء مثلما ينازع الهراطقة الاحتكار الكهنوتى للقراءة الشرعية. فإذا شرع (بالبناء للمهجول) فى منازعة احتكار القراءة الشرعية، وإذا استطاع أول قادم قراءة الأناجيل أو اصطناع الرداء فإن المجال ذاته هو الذى يتعرض للتدمير ولهذا السبب فللثورة دائما حدودها. ولمعارك الكتاب دائما حدودها الماثلة فى احترام الأدب.

فما يجعل النسق فعالا هو ما يسميه موس الاعتقاد أو الإيمان الجمعى. أو كما سأقول أنا الجهل الجماعى وقد قال موس فيما يتعلق بالسحر: إن المجتمع يسد بنفسه النقود المزيفة لأحلامه». ويعنى ذلك أنه فى تلك اللعبة يجب الخضوع لقواعدها: إن الذين يجاوزون الحد يتعرضون لتجاوز الحد، ويزدادون خداعا كلما ازدادوا اتخاذا. ولممارسة هذه اللعبة ينبغى الإيمان بأيدولوجية الابتكار والإبداع، وحينما يكون المرء من صففى الموضوع لن يكون ملتما أن تكون له وجهة نظر سوسيولوجية إلى الموضوع.

إن ما يخلق القيمة وما يخلق سحر العلامة المميزة هو تواطؤ كل العناصر الفاعله فى نظام انتاج السلع المقدسة. وهو تواطؤ يتم دون وعى بكل تأكيد. إن حلقات (دورات) التكريس (والتقديس) تزداد قوة كلما استطالت وصارت أكثر تعقيدا، وأكثر استخفاء حتى عن عيون الذين يشاركون فيها ويفيدون منها، ويعرف كل الناس مثال نابوليون Napoleon وهو يأخذ التاج من يد البابا لكى يضعه بنفسه على رأسه. وتلك حلقة تكريس شديدة القصر لها قدر ضئيل من فاعلية الجهل. فحلقة التكريس الفعالة هى حلقة تبدأ بأن يكرس الأول الثانى الذى يكرس بدوره ثالثا وهذا الثالث يكرس رابعا يعود لتكريس الأول. وكلما ازدادت حلقة التكريس تعقيدا ازدادت استخفاء وتعاطف جهل بنيتها، واتسع نطاق الإيمان بها، (ينبغى أن نحلل بهذا المنطق التداول الدائرى للتعليقات التقريبية أو التبادل الطقسى لشهادات التوصية) وبالنسبة إلى المنتجين أو المستهلكين من بين أهل المجال فإن النظام هو الذى يقف حاجزا. فبين شائل وعلامته المميزة ينتصب النظام بأكمله، وهو نظام لا يعرفه أحد أفضل من شائل ولا أسوأ منه فى آن معا.



الفصل السابع عشر

ولكن من الذى أبدع المبدعين؟^(*)

إن السوسيولوجيا والفن لا يتفقان. ويتعلق ذلك بالفن، وبالفنانين الذين لا يطبقون كل ما ينتهك الفكرة التى لديهم عن أنفسهم: فعالم الفن هو عالم الإيمان : الإيمان بالموهبة بتفرد المبدع الذى لم يبدعه أحد (ذاتى الخلق) ويعتبر الظهور المفاجئ. للسوسيولوجى الذى يريد أن يفهم ويفسر ويحلل بمثابة الفضيحة. إنه يتزع السحر والافتتان ويقدم نزعة اختزالية أو بكلمة واحدة يدخل الفظاظه (الغلظة) أو مرادفها تدنيس المقدسات: فالسوسيولوجى هو ذلك الذى يشبه فولتير Voltaire فى مطاردة ملوك التاريخ، فهو يريد أن يطارد فنانى تاريخ الفن. وينطبق ذلك أيضا على السوسيولوجيين الذين مهروا فى تأكيد الأفكار المقبولة المتداولة^(١) المتعلقة بالسوسيولوجيا وعلى الأخص بسوسيولوجيا الفن والأدب. والفكرة الأولى المتداولة: هى أن السوسيولوجيا تستطيع أن تقوم بتحليلات للاستهلاك الثقافى وليس للإنتاج. وتقبل معظم العروض العامة فى سوسيولوجيا الأعمال الثقافية هذا التميز وهو تميز اجتماعى محض. فهو يتجه فى الواقع إلى أن يحتفظ للعمل الفنى وللمبدع ذاتى الخلق حيزا منفصلا مقدسا، ومعاملة بتمتازة تاركا للسوسيولوجيا المستهلكين أى الجانب السفلى الأدنى أى المكبوت (وخاصة فى بعده الاقتصادى) من الحياة العقلية والفنية. وتقدم الأبحاث الهادفة إلى تحديد العوامل الاجتماعية للممارسات الثقافية (التردد على المتاحف والمسارح والحفلات الموسيقية.. الخ) تعزيزا ظاهرا لهذا التمييز الذى لا يركز على أى أساس نظرى: وفى الحقيقة وكما سأحاول التوضيح : ليس من المستطاع فهم الانتاج نفسه من حيث خصائصه النوعية أى من حيث أنه إنتاج للقيمة (وللاعتقاد) إلا إذا أدخلنا فى حسابنا فى نفس الوقت حيز المنتجين

(*) عرض قدم فى المدرسة العليا للفنون الزخرفية فى ابريل ١٩٨٠.

وحيز المستهلكين. والفكرة الثانية المقبولة: هي أن السوسيولوجيا بأداتها المفضلة -الإحصاء- تقلل من قيمة الإبداع الفنى وتسحقه وتهبط به وتختزله، وتضع على المستوى ذاته الأعمال العظيمة والأعمال الضئيلة تاركة ما يشكل عبقرية الأعمال الأكثر عظمة يفلت منها. وهنا أيضا وعلى نحو أكثر دقة دون أى شك نجد السوسيولوجيين فى المحل الأول قد قدموا ذريعة لنقادهم. وسأمر دون إصرار على الإحصاء الأدبى الذى يؤكد سواء بنواحى القصور فى مناهجه أو بفقر نتائجه وعلى نحو درامى الآراء الأكثر تشاؤما لحماة المعبد الأدبى، وسأستحضر بالكاد تقليد جورج لوكاتش ولوسيان جولدمان الذى أجهد نفسه فى إقامه علاقة بين مضمون العمل الأدبى والخصائص الاجتماعية المميزة للطبقة (أو للقسم من الطبقة) التى تعتبر المتلقى الممتاز لهذا العمل. وهذا المنحى فى تناول فى أشكاله المسوخة كاريكاتيريا يخضع الكاتب أو الفنان إلى أنواع من القسر مستمدة من وسط ما، أو إلى المطالب المباشرة لزيائن معينين، كما يدعى هذا المنحى لنزعة غائبة أو لنزعة وظيفية ساذجة فى استنباطه العمل على نحو مباشر من الوظيفة التى خصصت له اجتماعيا. وبواسطة نوع من «الدائرة القصيرة» أو الطريق المختصر يدفع المنطق الخاص لحيز الإنتاج الأدبى إلى الاختفاء.

وفى الحقيقة ففى هذه النقطة أيضا يكون «المؤمنون بالفن» على حق فى مواجهة السوسيولوجيا ذات النزعة الاختزالية حينما يذكرونها باستقلال الفنان وعلى الاخص بالاستقلال الذى ينتج عن التاريخ الخاص للفن. ومن الصواب على حد قول أندريه مالرو Malraux أن «الفن يحاكى الفن» وأنه ليس من المستطاع تقديم تفسير لعمل فنى انطلاقا من الطلب وحده أى التوقعات الجمالية والأخلاقية للأقسام المختلفة من الزبائن ولا يعنى ذلك أن من الواجب الرجوع إلى التاريخ الداخلى للفن بوصفه التكملة الوحيدة ذات الصلاحية للقراءة الداخلية للعمل الفنى.

إن سوسيولوجيا الفن والأدب فى شكلها المعتاد تنسى فى الواقع الأمر الجوهري أى هذا العالم الاجتماعى المزود بتقاليد الخاصة وقوانين سيره والالتحاق به الخاصة، ومن ثم تاريخه الخاص الذى هو عالم الإنتاج الفنى. وليس استقلال الفن والفنان -الذى يقبله تقليد سير القديسين باعتباره بديهيا، باسم ايديولوجية العمل الفنى بوصفه «خلقا» أو إبداعا والفنان باعتباره خالقا من صنع ذاته- إلا الاستقلال (النسبى) لهذا الحيز من الممارسة الذى أسميه مجالا، وهو استقلال يتأسس شيئا فشيئا، وفى شروط معينة عبر

التاريخ. والموضوع الخاص لسوسيولوجيا الأعمال الثقافية ليس الفنان المفرد (ولا هذا المجموع الاحصائى الخالص أو ذاك من الفنانين الأفراد) وليس العلاقة بين الفنان (أو وهو ما يؤدى إلى الشئ نفسه: المدرسة الفنية) وهذه المجموعة الاجتماعية أو تلك مدركة (بالفتح) إما بوصفها سببا كافيا ومبدأ محدد (بالكسر) لمضامين التعبير وأشكاله أو باعتبارها علة غائية للانتاج الفنى أى باعتبارها طلبا مادام تاريخ المضامين والأشكال مرتبطا مباشرة بتاريخ المجموعات المسيطرة ونضالاتها من أجل السيطرة.

وفى اعتقادى يجب أن تتخذ سوسيولوجيا الأعمال الثقافية كموضوع لها مجمل العلاقات (الموضوعية أو المتحققة فى شكل تفاعلات بين الأفراد) بين الفنان والفنانين الآخرين، ووراء ذلك مجموع العناصر الفاعلة المنغمسة فى إنتاج العمل أو على الاقل إنتاج القيمة الاجتماعية للعمل (مثل النقاد ومدبرى المعارض ورعاة الفنون.. الخ)، وهى تتعارض فى الوقت نفسه مع وصف وضعى النزعة للخصائص الاجتماعية المميزة للمنتجين (التربية العائلية والتعليمية.. الخ) ومع سوسيولوجيا التلقى كما قدمها أنتال Antal بالنسبة للفن الايطالى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر فهى تقيم صلة مباشرة بين الأعمال والنظرة إلى الحياة عند أقسام مختلفة من جمهور أنصار الفن، أى «والمجتمع مأخوذاً فى قدرته على التلقى بالنسبة للفن» وفى الحقيقة فى معظم الوقت يختلط هذان المنظوران كما لو كان من المفترض أن الفنانين ذوو استعداد مسبق بواسطة أصلهم الاجتماعى لاستشعار مسبق لطلب اجتماعى معين وتلبيتته (ويسترعى النظر أنه بهذا المنطق يسبق تحليل مضمون العمل تحليل شكله -ويصدق هذا حتى عند أنتال- فالمضمون هو الذى ينتسب إلى المنتج خاصة وحقيقة). ولجمال الموضوع أريد الإشارة إلى أن أثر الدائرة المختصرة لا يقتصر على أن تلقاه لدى كباش الفداء أو الذين تقذف عليهم الأحجار والنكات والمصنفين (على اسم المفعول) من جانب المدافعين عن الجماليات المحضة مثل أرنولد هاوزر Hauser المسكين، أو حتى عند ماركسى مهمتهم بالتميز مثل أدورنو (حينما يتكلم عن هيدجر)، بل عند واحد من أكثر المتشبهين باستنكار «النزعة السوسيولوجية المبتذلة» والمادية الحتمية، هو امبرتو إكو Umberto Eco وفى الواقع إنه يقيم فى «الكتاب المفتوح» على نحو مباشر علاقة (بلاشك باسم الفكرة القائلة بوجود وحدة تجمع كل الأعمال الثقافية لعصر ما) بين الخصائص التى ينسبها إلى «الكتاب المفتوح» مثل تعدد الأصوات المطالب بها، وعدم القابلية للتنبؤ المقصود، ..

الخ وخصائص العالم كما يقدمها العلم، وذلك على حساب تماثلات همجية يتم تجاهل أساسها.

إن سوسيولوجيا الأعمال الثقافية كما أتصورها إذ تقطع صلتها بالطرائق المختلفة لتجاهل الإنتاج ذاته فإننا نتخذ لها موضوعا من مجال الانتاج الثقافي ومعه دون أى انفصال العلاقة بين الانتاج ومجال المستهلكين. وتحقق الحتميات الاجتماعية التى يحمل العمل الفنى، أثرا منها، من ناحية عبر تطبيع المنتج (بالكسر) الراجع على هذا النحو إلى الشروط الاجتماعية لانتاجه بوصفه ذاتا اجتماعية (العائلة.. الخ) (بوصفه منتجا (بالكسر) (المدرسة والصلات المهنية.. الخ)، ومن ناحية أخرى عبر المطالب والقيود الاجتماعية المنقوشة فى الموضوع الذى يشغله داخل مجال انتاج (مستقل إلى هذه الدرجة أو تلك). وإن ما يسمى «بالإبداع» هو التقاء بين تطبيع متشكل اجتماعيا وموضع قد تعين من قبل أو ما يزال ممكننا داخل تقسيم العمل الثقافى (ومن خلال الارتفاع إلى الدرجة الثانية فى تقسيم عمل السيطرة)، العمل الذى بواسطته يصنع الفنان نتاجه ويصنع نفسه باعتباره فنانا دون انفصال بين هذا وذاك، (وبما أن ذلك جزء من طلب المجال باعتباره أيضا فنانا أصيلا متفردا) يمكن وصفه باعتباره العلاقة الجدلية بين موقعه الذى غالبا ما يسبقه فى الوجود ويواصل البقاء بعده (مع الالتزامات مثل «حياة الفنان» والصفات والتقاليد وأنماط التعبير.. الخ) وتطبعه الذى يجعله مستعدا كل الاستعداد إلى هذه الدرجة أو تلك لشغل هذا الموقع أو هو ما يمكن أن يكون من المتطلبات المسبقة المنقوشة فى الموقع -تحويله تحويلا كاملا. وبإيجاز ليس تطبيع المنتج (بالكسر) على الإطلاق نتاجا بالكامل للموقع (فيما عدا داخل بعض التقاليد الحرفية المعينة أو التكوين العائلى ومن ثم فإن الاشتراطات الاجتماعية الناشئة أصلا عن الطبقة والتكوين المهني يتم الخلط بينهما تماما). وعلى العكس من ذلك لا يمكن أبدا الانطلاق مباشرة من الخصائص المميزة الاجتماعية للمنتج (بالكسر) أى الأصل الاجتماعى والوصول إلى السمات المميزة لنتاجه: فالاستعدادات المرتبطة بأصل اجتماعى معين عامى أو بورجوازي تستطيع أن تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة جدا مع الاحتفاظ بطابع العائلة فى مجالات مختلفة. وتكفى المقارنه على سبيل المثال بين الزوجين المتوازيين من العامى ورفيع المقام، روسو -فولتير ودوستويفسكى - تولستوى. فإذا كان الموقع يصنع التطبيع (بالكامل إلى هذه الدرجة أو تلك) فالتطبيع الذى هو مصنوع سلفا (بالكامل إلى هذه الدرجة أو تلك) وفقا

لموقع (نتيجة للآليات التى تحدد المهنة واختيار المضمين) ومصنوع من أجل الموقع، يسهم أيضا فى صنع الموقع، ويتعاطف ذلك دون شك كلما اتسعت المسافة بين شروط إنتاجه الاجتماعية والمقتضيات الاجتماعية المنقوشة فى الموقع، كما يتعاطف أيضا هامش الحرية والتجديد المنقوش صراحة أو ضمنا فى الموقع. فهناك هؤلاء الذين صنعوا لكى يستولوا على المواقع المصنوعة وأولئك الذى صنعوا لكى يصنعوا مواقع جديدة. وتعليل ذلك يتطلب تحليلا مفرط الطول ولكننى أريد فقط أن أوضح أنه حينما يتعلق الأمر بفهم الثورات العقلية أو الفنية ينبغى أن نضع فى الذهن أن استقلال مجال الإنتاج هو استقلال جزئى لا يستبعد التبعية؛ فالثورات النوعية التى تقلب علاقات القوة داخل مجال ما، لا تكون ممكنة إلا بمقدار ما يجد هؤلاء الذين يدخلون استعدادات جديدة والذين يريدون فرض مواقع جديدة دعما على سبيل المثال خارج المجال فى الجمهور الجديد الذى يعبرون عنه كما ينتجون مطالبه فى آن معا. إذن إن الذات الفاعلة للعمل الفنى ليست فنانا مفردا وهو العلة الظاهرة، وليست مجموعة اجتماعية (البورجوازية الكبيرة المصرية والتجارية التى وصلت إلى السلطة فى فلورنسا القرن الرابع عشر عند أنتال، ولا نبالة الرداء عند لوسيان جولدمان) ولكن مجال الإنتاج الفنى فى مجمله (الذى يقيم علاقة استقلال نسبي تكبر إلى هذه الدرجة أو تلك وفقا للعصور والمجتمعات، مع المجموعات التى يجرى منها مستهلكو منتجاته، أى الأقسام المختلفة من الطبقة القائدة). إن السوسيولوجيا أو التاريخ الاجتماعى لن يستطيع أحدهما فهم أى شىء عن العمل الفنى وخاصة ما يصنع له تفرده حينما يتخذ موضوعا له من مؤلف وعمل فى حالة انعزال. وفى الحقيقة فإن كل الأعمال المكرمة لمؤلف معزول وتريد تجاوز سير القديسين وسرد الحكايات قد وجهت (بالبناء للمجهول) إلى أن تأخذ فى الاعتبار مجال الإنتاج فى مجمله، ولكن لانتقاد العكوف على ذلك التركيب باعتباره مشروعا مصرحا به فإن تلك الاعمال تقوم بذلك على وجه عام بطريقة جزئية بعيدة عن الاكتمال. وعلى العكس مما يمكن اعتقاده فليس التحليل الإحصائى أفضل حالا بما أنه عند تصنيف المؤلفين فى فئات كبرى مشيدة سلفا (مدارس وأجيال وأنواع.. الخ). فإنه يدمر كل الاختلافات وثيقة الصلة بالموضوع بسبب غياب تحليل تمهيدى لبنية المجال يجعله قادرا على ادراك أن بعض المواقع (وخاصة المواقع المسيطرة مثل تلك التى شغلها سارتر فى المجال العقلى الفرنسى بين ١٩٤٥ و ١٩٦٠) تستطيع أن تكون فى مكان واحد وأن الطبقات المناظرة تستطيع ألا تضم إلا شخصا

واحدة، ويتحدى ذلك كل الاحصائيات.

إن ذات العمل (أى فاعله) هى إذن تطيع فى علاقة مع موقع، أى مع مجال. ولتوضيح ذلك وللتدليل عليه ينبغي أن نستعيد هنا التحليلات التى كرستها فلويربى والتى حاولت فيها أن أبين كيف أن حقيقة المشروع الفلويربى التى بحث سارتر عنها مصغىصا (وعلى نحو لامتناه) فى السيرة الشخصية الفردية لفلويربى مائله فى العلاقة الموضوعية من جهة بين تطيع قد تشكل فى شروط اجتماعية معينة (محددة بواسطة الوضع «المحايد» للمهن الليبرالية، وللطاقات» داخل الطبقة المسيطرة وكذلك بواسطة الوضع الذى يشغله الطفل جوستاف داخل عائلته تبعا لترتيب ميلاده وعلاقته بالنظام التعليمى) وموقع محدد من جهة أخرى فى مجال الانتاج الأدبى وهو نفسه مجال يقع داخل موضع محدد ضمن مجال الطبقة المسيطرة.

وسأذكر بعض الشيء، إن فلويربى بوصفه منافعا عن الفن من أجل الفن يشغل داخل مجال الانتاج الأدبى موضعا محايدا، محددًا بواسطة علاقة مزدوجة سالبة (ينظر إليها بوصفها رفضا مزدوجا) «بالفن الاجتماعى» من جانب و«بالفن البورجوازى» من جانب آخر. وهذا المجال الذى يقع كلية فى وضع خاضع للسيطرة داخل مجال الطبقة المسيطرة (ومن هنا تحبىء ضروب استنكار «البورجوازى»، والحلم المتكرر «بجماعة المثقفين» والتى يتفق عليها عموما فنانون ذلك الوقت) ينتظم عقده وفقا لبنية مماثلة لبنية الطبقة المسيطرة فى مجموعها (وهذا التماثل هو كما سنرى مبدأ تكيف تلقائى آلى لا يبحث (بالبناء للمجهول) عنه على نحو كلى (وقح) بين المنتجات والفئات المختلفة من المستهلكين). وتنبغى الإطالة هنا. وسنرى على الفور أنه انطلاقا من مثل هذا التحليل، يتحقق تفهم منطق بعض الخصائص الأكثر جوهرية لأسلوب فلويربى، وأنا أفكر هنا على سبيل المثال فى الخطاب الحر غير المباشر الذى فسره باختين Bakhtine بوصفه علامة علاقة ملتبسه تتخذة إزاء المجموعات التى يعبر عن مقاصدها، علامة ضرب من التردد بين إغراء التطابق معها والاهتمام بالاحتفاظ بنفسه على مبعده؛ وأنا أفكر هنا أيضا فى البنية المتقاطعة chiasmaticque التى توجد على نحو تسلطى مستحوذ فى رواياته، وعلى نحو أكثر وضوحا فى مشروعاته حيث يعبر فلويربى فى شكل قد جرى تحويله والتفصل منه عن العلاقة المزدوجة الخاصة بالنفى المزدوج التى تضعه بوصفه «فنانا» فى تضاد مع «البورجوازى» ومع «الشعب» فى آن معا، وبوصفه فنانا «بحتا» فى تضاد مع

«الفن البورجوازي» و«الفن الاجتماعي». وبعد بناء الموقع على هذا النحو أى موضع فلوير فى تقسيم العمل الأدبى (ودفعة واحدة فى تقسيم عمل السيطرة) يمكن أيضا أن نستدير إلى الشروط الاجتماعية لإنتاج التطيع وأن نتساءل ماذا كان ينبغي على فلوير أن يكونه لكى يشغل وينتج (دوغا انفصال) موقع «الفن للفن» ويخلق موضع فلوير. ومن المستطاع محاولة تحديد ماهى السمات المنوطة بالشروط الاجتماعية لإنتاج جوستاف نفسه (وعلى سبيل المثال وضع «أبله العائلة» الذى حلله سارتر جيدا) التى تسمح بفهم أنه استطاع أن يشغل وينتج موقع فلوير.

وعلى عكس مما يدعنا نؤمن بالتمثل ذى النزعة الوظيفية فإن تكيف الانتاج مع الاستهلاك ينجم من حيث الأساس عن التماثل البنىوى بين حيز الانتاج (المجال الفنى) ومجال المستهلكين (أى مجال الطبقة المسيطرة) فالانقسامات الداخلية لمجال الانتاج تعيد انتاج نفسها داخل عرض تمايز تلقائيا وآليا (وعلى نحو واعد أيضا فى جانب منه) يفتح الطريق أمام المطالب المتمايزة (آليا ووعى) لدى فئات مختلفة من المستهلكين. ومن ثم فخارج كل بحث من التكيف وعن كل خضوع مباشر لطلب قد صيغ على نحو صريح (بمنطق «الطلبية» أو الرعاية)، تستطيع كل فئة من الزبائن أن تعثر على منتجات تلائم ذوقها كما يصبح لدى كل فئة من المنتجين فرص لأن تلتقى على الأقل لأجل مسمى (ويعنى ذلك أحيانا بعد الوفاة) بمستهلكين لمنتجاتهم.

وفى الحقيقة إن معظم أفعال الانتاج تعمل وفقا لمنطق الضربة المزدوجة: فحينما ينتج منتج (بالكسر) ما (على سبيل المثال الناقد المسرحى للفيجارو) منتجات متكيفة مع ذوق جمهورة (وهذه هى الحال دائما على وجه التقريب، وهو نفسه يقول ذلك) فليس معنى ذلك -ونستطيع تصديقه فى ذلك حينما يؤكد- أنه بحث عن تعلق ذوق قرائه أو أنه أطاع التعليمات الجمالية أو السياسية أو دعوة مديره للالتزام بالنظام أو قرائه أو الحكومة (والكثير من الأشياء التى تفترض مسبقا صيفا مثل خادم الرأسمالية أو الناطق باسم البورجوازية والتى تكون النظريات المعتادة أشكالا منها أكثر تطفلا) على نحو واعد إلى هذه الدرجة أو تلك). وفى الحقيقة أنه وقد اختار الفيجارو لأنه وجدها مناسبة له واختارته الفيجارو لأنها وجدته مناسبة لها، لم يبق أمامه إلا أن يسلم نفسه كما يقال لذوقه وما يستسيغه (والذى تكون له فى مسائل المسرح متضمنات سياسية واضحة) أو بالأولى للمذاق البغيض للآخرين، فالذوق هو دائما النفور من ذوق الآخرين - أو يسلم نفسه للربع

الذى يستشعره إزاء المسرحيات التى لن يتردد ناقد مجلة «نوفل أوبزرفاتور» شريكه ومنافسه فى أن يجدها متفقة مع ذوقه، لكى يلتقى- كما لو كان بواسطة معجزة - بذوق قرائه (الذين هم بالقياس إلى قراء نوفل أوبزرفاتور مماثلون له بالقياس إلى ناقد تلك المجلة). وسيقدم لهم بالإضافة إلى ذلك شيئا ما يقع ضمن مسئولية المهنى المحترف، أى هجوما مضادا لثقافت ضد مثقف آخر وهو نقد مطمئن للبورجوازية، يشمل حججا رفيعة الإرهاف يبرر بها المثقفون ذوقهم الطليعى.

فالتطابق الذى يتحقق على نحو موضوعى بين المنتج (بالكسر) (الفنان والناقد والصحنى والفيلسوف) وجمهوره ليس بكل وضوح ناتجا ليحث واع عن التكيف، عن صفات واعية ذات مصلحة ولتنازلات محسوبة لمطالب الجمهور. ولن يفهم شيئا من عمل فنى حينما يتعلق الأمر بمضمونه الذى يثبت ثقافة معينة وموضوعاته وقضاياها، بما يطلق عليه كلمة غامضة هى «إيديولوجيته» بربطه مباشرة بمجموعة ما. وفى الحقيقة لا تتحقق تلك العلاقة إلا على سبيل الإضافة فى نهاية المطاف كما لو كانت تتحقق عرضا من خلال تلك العلاقة التى يقيمها المنتج تبعا لوضعه فى حيز المواقع المقومة لمجال الإنتاج مع اتخاذ مواقع جمالية وأخلاقية تكون ممكنة على نحو فعال فى لحظة معطاة من الزمان أخذاً فى الاعتبار التاريخ المستقل نسبيا للمجال الفنى. وحيز اتخاذ المواقع هذا الذى هو نتاج التراكم التاريخى هو النظام المرجعى المشترك الذى يتحدد وفقا له على نحو موضوعى أولئك الذين يفدون على المجال. وإن ما يصنع وحدة عصر ما ليس الثقافة المشتركة بل الإشكالية المشتركة التى ليست شيئا مغايرا لمجمل ضروب اتخاذ المواقع الملحقه بمجمل الأوضاع البارزة فى المجال. ولا يوجد معيار آخر لوجود مثقف ما، أو فنان ما أو مدرسة ما إلا القدرة على جعل نفسه أو نفسها معترفا به أو بها بوصفه أو بوصفها شاغلا أو شاغلة موقع فى المجال، موقع يتحدد موضع الآخرين بالنسبة إليه، كما يتحدد تعريفهم الذاتى، وليست إشكالية الزمان شيئا آخر غير مجمل علاقات اتخاذ موقف من اتخاذ الموقع، دون انفصال بين الاثنين. وعلى نحو عيانى فإن ذلك يعنى ظهور فنان أو مدرسة أو جماعة أو حركة بصفة الموقع المشكّل لمجال ما (فنى أو سياسى أو غير ذلك) تتم عنه حقيقة أن وجوده «يطرح مشكلات كما يقال» على شاغلى المواقع الأخرى، وأن الأطروحات التى يؤكدّها تصير رهانا للصراعات، وتقدم أحد طرفى التقابلات الكبرى التى ينتظم حولها الصراع، والتى تساعد على جعل هذا الصراع موضوعا للتفكير (على سبيل

المثال يمين/ يسار، واضح/ غامض، نزعة علمية/ نزعة معادية للحلم... الخ)، معنى ذلك أن الموضوع الحق لعلم يدرس الفن والأدب أو الفلسفة لا يمكن أن يكون إلا مجمل هذين الحيزين اللذين لا ينفصلان، حيز المنتجات وحيز المنتجين (فنانين أو كتاب ولكن أيضا نقاد وناشرين... الخ). واللذين يشبهان ترجمتين لعبارة واحدة. وذلك يعارض فرض استقلال ذاتي على الأعمال، وهو أمر لا مبرر له من الناحية النظرية أو العملية، فالقيام بتحليل سوسيولوجي أى اجتماعي منطقي لخطاب ما بالعكوف على العمل نفسه هو بمثابة حرمان النفس من الحركة التى تؤدى فى ذهاب وإياب دون انقطاع انطلاقا من السمات التيماتية أو الأسلوبية للعمل حيث يتكشف الموقع الاجتماعي للمنتج (مصالحة وصورة الذهنية عن المجتمع... الخ) إلى الخصائص المميزة للموقع الاجتماعي للمنتج حيث تتبدى «انتماؤه» الأسلوبية وبالعكس. وبإيجاز إن شرط تجاوز التضاد بين التحليل الداخلى (اللغوى أو غيره) والتحليل الخارجى هو الذى يمكن من الفهم المكتمل للخصائص «الداخلية» الأكثر عمقا للعمل.

وبالإضافة إلى ذلك ينبغي أيضا تجاوز البديل الاسكولاتي فى الاختيار بين البنية والتاريخ. فالإشكالية التى توجد راسخة داخل المجال فى شكل منارات من المؤلفين والأعمال هى معالم طريق تتحدد بها مراكز المؤلفين الآخرين والأعمال الأخرى، هى من جهتها إشكالية تاريخ. ورد الفعل ضد الماضى الذى يصنع التاريخ هو أيضا ما يصنع تاريخه الحاضر الذى يتحدد بما ينفيه وينكره. وبعبارة أخرى، إن الرفض الذى هو مبدأ التغيير يطرح ويفترض ويسترجع للحاضر ذلك الذى يضعه فى مواجهة نفسه حينما يضع نفسه فى مواجهته. إن رد الفعل ضد الرومانسية المعادية للعلم الذى دفع البارناسيين إلى الإغلاء من قيمة العلم وإدماج منجزاته فى أعمالهم دفعهم إلى أن يجدوا فى «عبقريّة الأديان» بقلم كينيه Quinet (أو فى أعمال برنوف Burnouf باعث الملاحم الاسطورية الهندية) نقيضا وترياقا لعبقريّة المسيحية، بقلم شاتوبريان، كما مال بهم نحو عبادة بلاد اليونان وهى نقيض القرون الوسطى والرمز للشكل الكامل الذى بواسطة طريقه فى رأيهم يتشابه الشعر مع العلم ويحالفه.

وهنا تحدونى الرغبة فى أن أفتح قوسا، لكى أذكر بالواقع مؤرخى الأفكار الذين يعتقدون أن مايجرى تداوله فى المجال العقلى وعلى الأخص بين المثقفين والفنانين هو أفكار، وأنا أذكر ببساطة أن البارناسيين لم يربطوا بين اليونان وفكرة الشكل الكامل

وحده الذى مجده جوتييه Goutier ولكنهم ربطوا بين اليونان وفكرة الانسجام Harmo-nie التى كانت منتشرة فى جو العصر، فنحن نعثر عليها فعلا فى نظريات المصلحين الاجتماعيين مثل فوريه Fourier وكان ما يجرى تداوله فى مجال ما وخاصة بين متخصصى الفنون المختلفة لا يزيد عن قوالب جاهزة جذالية إلى هذا الحد أو ذاك وذات طابع اختزالى (وعلى المنتجين أن يضعوا ذلك فى حسابهم)، وعلى غرار عناوين الأعمال التى يتكلم عنها الجميع مثل «قصص حب وفروسية دون أقوال» وهو عنوان لفرلين Ver-laine مستعار من مندلسون Mendelssohn، وكلمات حسب الموضة والأفكار سيئة التحدد التى تنقلها مثل كلمة ساتورنى (زحلى أو المنسوب إلى العصر الذهبى) أو موضوع Fêtes galantes الاحتفالات العاطفية الذى أطلقه الأخوان جوناكور. وبإيجاز نستطيع أن نساءل إذا لم يكن المشترك بين كل منتجى السلع الثقافية فى عصر ما هو ذلك النوع من النص المقبول المشهور vulgate distinguée، ذلك المجموع من الأفكار المطروقة الأنيقة التى تنتجها تلك الجماهرة من كتاب المقالات والنقاد والصحفيين أشباه المثقفين وتتجول لبيعها والذى لا يمكن فصله عن أسلوب وعن مزاج معينين. وهذا النص المقبول الذى هو بوضوح كل ما هنالك مما هو أكثر تمثيا مع الموضة ومن ثم أكثر تقادما وقابلية للفناء فى إنتاج عصر، وهو بلاشك كل ما هنالك مما هو أكثر شيوعا بين مجموع المنتجين الثقافيين. وأعود إلى مثال كينيه الذى أبان عن إحدى الخصائص الأكثر أهمية فى كل مجال للإنتاج، وهى الحضور الدائم لماضى المجال الذى يجرى تذكره دون انقطاع حتى من خلال الانقطاعات ذاتها التى تحيل إلى الماضى، والتى تشبه التداعيات والاشارات والإيماءات المباشرة.. فكلها بنفس القدر غمرات عين موجهة إلى المنتجين الآخرين وإلى المستهلكين الذين يتحددون بوصفهم مستهلكين شرعيين بواسطة إثبات أنهم قادرون على ملاحظتها. إن «عبقريّة الأديان» بطرح نفسه فى معارضة «عبقريّة المسيحية». وإن التمييز الذى يعيل الماضى إلى الماضى يفترضه ويستدعيه حتى فى الحيدة عنه. وتتمثل إحدى الخصائص الأكثر جوهرية التى يتصف بها مجال الإنتاج الثقافى على وجه التحديد فى حقيقة أن الأعمال التى تتحقق فيه والمنتجات التى تنتج فيه تتضمن الإحالة العمليّة (صراحة فى بعض الأحيان) إلى تاريخ المجال. وعلى سبيل المثال إن ما يفصل كتابات يونجر Jünger أو شبنجلر Spengler حول التقنية والزمان والتاريخ عن كتابات هيدجر فى المواضيع ذاتها هو أن هيدجر فى اتخاذ موقعا داخل الإشكالية الفلسفية أى داخل المجال

الفلسفى أدخل مجددا جملة تاريخ الفلسفة التى تعد هذه الإشكالية نتيجتها. وبالمثل فقد أوضح لوك بولتانسكى Luc Boltanski أن بناء مجال سلسلة الرسوم الهزلية يصاحب تطور هيئة من المؤرخين الرسميين وفى نفس الوقت ظهور أعمال تتضمن الرجوع «المتبحر» إلى تاريخ هذا النوع الفنى. ومن المستطاع القيام بمثل ذلك الإيضاح ، فيما يتعلق بتاريخ السينما.

ومن الصحيح أن «الفن يحاكى الفن» أو على نحو أكثر دقة إن الفن يولد من الفن أى فى أغلب الأحوال من الفن الذى يضع نفسه فى معارضة. ولا يجد استقلال الفنان أساسه فى معجزة عبقريته الخلاقة ولكن فى النتائج الاجتماعى للتاريخ الاجتماعى لمجال مستقل نسبيا فى مناهجه وتقنياته ولغاته.. الخ. إنه التاريخ الذى بتحديدده وسائل وحدود ما يمكن التفكير فيه يقضى بأن ما يحدث داخل المجال ليس على وجه الإطلاق الانعكاس المباشر لضوابط أو مطالب خارجية، بل هو تعبير رمزى منكسر (بالمعنى الضوئى) بواسطة المنطق الخاص للمجال بأكمله. والتاريخ الذى هو مودع فى بنية المجال ذاتها وكذلك فى تطبيع العناصر الفاعلة هو ذلك المنشور (المشور) الذى يضع نفسه بين العالم الخارجى بالنسبة للمجال والعمل الفنى دافعا إلى معاناة كل الاحداث الخارجية من أزمة اقتصادية رد فعل سياسى وثورة علمية أى إلى انكسار حقيقى.

ولكى اختتم قولى أريد إغلاق الدائرة والعودة إلى نقطة البداية أى إلى التناقض بين الفن والسوسيولوجيا وأن أخذ مأخذ الجدل لا استنكار التدنيس العلمى للفن بل ما يعلن عن نفسه فى ذلك الاستنكار أى الطابع المقدس للفن والفنان. وأنا أفكر فى الواقع أن سوسيولوجية الفن يجب أن تتخذ لنفسها موضوعا لا يقف عند الشروط الاجتماعية لإنتاج المنتجين (أى المحددات الاجتماعية لإنتاج مجال الانتاج باعتباره محلا ينجز فيه الجهد الذى يميل (لا الذى يهدف) إلى انتاج الفنان بوصفه منتجا للأشياء المقدسة، لتحاتم (فتيشات) أو -وهو ما يؤدى إلى نفس الشيء- للعمل الفنى بوصفه موضوعا للإيمان وللحب وللملة الجمالية.

ولكى أسهل الفهم سأستشهد بالأزياء الراقية التى تقدم صورة غليظة فظة لما يدور فى عالم التصوير. ونحن نعرف أن سحر العلامة (الماركة) يستطيع فى انطباقه على أى شيء، كائنا ماكان، على عطر أو أحذية أو حتى مفسل المرحاض يضاعف على نحو غير معتاد من قيمته. فالأمر يتعلق هنا بفعل سحرى من أفعال كيميائية تحويل المعادن

الحسيسه إلى ذهب مادامت الطبيعة الاجتماعية والقيمة الاجتماعية للشيء. قد تغيرت دون أن تتعرض الطبيعة الفيزيائية أو الكيميائية للشيء إلى أى تعديل. (وأنا أفكر فى العطور).

إن تاريخ التصوير منذ دوشان Duchamp قد قدم أمثلة لاختصاص ماثلة كلها فى الأذهان، لأفعال سحرية وهى مثل نظائرها لدى أصحاب بيوت الأزياء مدينة بقيمتها على نحو واضح للقيمة الاجتماعية لمن أنتجها ويصبح المرء مضطرا لأن يتسائل لاعما صنعه الفنان ولكن عما يصنع من الفنان فنانا. أى قدرة تحويل طبيعة الأشياء إلى طبيعة أسمى وهى التى يمارسها الفنان، ويعثر المرء هنا على السؤال ذاته الذى طرحه موس Mauss حينما دفعه الاستيثاس بعد أن بحث كل الأسس الممكنة لقدرة الساحر وسلطته إلى الانتهاء بالتساؤل عما يصنع من الساحر ساحرا. وقد يعترض أحد بأن المبولة وعجلة الدراجة عند دوشان (وهناك ماهو أفضل منذ ذلك الحين) ليستا إلا حدا يتجاوز ماهو معتاد. ولكن يكفى تحليل العلاقات بين الأصل (الحقيقى) والزائف : أى الصورة المنقولة والنسخة المطابقة أو آثار الإسناد attribution (حمل النتائج على شهرة منتج وإحاطة بها وهو موضوع رئيسى إن لم يكن وحيدا لتاريخ الفن التقليدى الذى يخلد (بكسر وتشديد اللام) تقليد الإحصائى المتمكن والخبير) حول القيمة الاجتماعية والاقتصادية للعمل، لكى نرى أن ما يضع قيمة العمل ليس ندرة (فرد) النتائج ولكن ندرة المنتج المتجلىة بواسطة التوقيع (الإمضاء) المعادل للماركة المسجلة أى الإيمان الجمعى بقيمة المنتج (بالكسر) ونتاجه. ويتجه الذهن إلى فارول Wahrol الذى دفع إلى أقصى مدى مافعله يامير جوتز عندما صنع علبة بيرة باللاتين Ballantine من البرونز ووقع على علب الحساء «الشُرَّة» soup cans (بالانجليزية) المحفوظة ماركة كاميل Campbell وباعها مقابل ستة دولارات للعلبة بدلا من خمسة عشر سنتا.

وينبغى أن ترهف التحليل وأن ندخل عليه ضروبا من الفوارق، ولكننى سأكتفى بأن أشير هنا إلى أن إحدى المهام الرئيسية لتاريخ الفن ستكون وصف تولد (نشوء) مجال للإنتاج الفنى قادر على إنتاج الفنان (فى تضاد مع الحرفى) بوصفه فنانا. ولا بدور الأمر هنا على التساؤل -كما جرت العادة حتى الآن- على نحو تسلطى فى التاريخ الاجتماعى للفن، متى وكيف تحرر الفنان من وضع الحرفى. ولكنه يتعلق بوصف الشروط الاجتماعية والاقتصادية لتشكيل مجال فنى قادر على تأسيس الإيمان بالقدرة شبه اللاهوتية التى

يعترف بها للفنان الحديث. وبعبارة أخرى، لا يتعلق الأمر فقط بتحطيم ما يسميه فالتر بنيامين «صنم» «فيتيش» اسم الاستاذ» (وهنا لون من هذا التدنيس السهل الذى أسلمت السوسيولوجيا نفسها لتناوله مثل السحر الأسود، فالقلب الذى يقوم به التدنيس يتضمن شكلا من الاعتراف بالمقدس. كما أن ألوان الإشباع التى يقدمها محو التقديس تعوق أخذ واقعة التقديس والمقدس مأخذالجد ومن ثم تعوق تحليلها). ومدار الأمر اتخاذ موقف من حقيقة أن اسم الاستاذ أصبح صنما ووصف الشروط الاجتماعية لإمكان الشخصية البارزة للفنان بوصفه أستاذا أى بوصفه منتجا لهذا الصنم الذى هو العمل الفنى، وبإيجاز إن الأمر يتعلق بالإشارة إلى كيف تأسس على نحو تاريخى مجال الإنتاج الفنى الذى بوصفه كذلك ينتج الإيمان بقيمة الفن وبقدرة مبدع قيمة الفنان. ونكون من ثم قد أسسنا ما كان مطروحا فى البدء بصفته مصادرة منهجية، أى أن «ذات» الانتاج الفنى -بمعنى فاعل- ونتاجه ليس الفنان بل مجمل العناصر الفاعلة ذات الصلة الوثيقة بالفن، التى يشير الفن اهتمامها والتى مصلحة فى الفن وفى وجود الفن، التى تحيا بالفن ومن أجل الفن، والحديث هنا عن منتجى الأعمال التى تعتبر فنية (الكبار والصغار والمشاهير أى المحترفين بهم والمجهولين) من نقاد وجامعى أعمال ووسطاء ومديرى متاحف ومؤرخى فن.. الخ.

وهنا تلقى الدائرة. وقدجرى اقتيادنا إلى الداخل.



هوامش الترجمة «للفصل السابع عشر»

١- الأفكار المتداولة idée reçue في قاموس فلوبيير تعني الأفكار التي تؤكد دون اختبار مثل الكليشيهات، وترتبط بالتقديس الغيبي لقوالب جاهزة.

□□□

الفصل الثامن عشر

الرأى العام لا وجود له (*)

أود أولاً أن أحدد بدقة أن قصدى ليس الاستنكار على نحو ميكانيكى سهل لاستطلاعات الرأى، بل أن أمضى نحو تحليل بالغ الصرامة لسيورتها ووظائفها. ويفترض ذلك أن نطرح للتساؤل المصادرات الثلاث التى تلتزم بها على نحو مضمر. فكل تحقيق حول الرأى العام يفترض أن كل الناس يستطيعون أن يكون لهم رأى أو بعبارة أخرى أن تكوين رأى فى متناول الجميع. وحتى إذا صدم ما أقوم به شعوراً ديموقراطياً ساذجاً فسأعترض على هذه المصادرة الأولى. أما المصادرة الثانية: فتذهب إلى أن كل الآراء متساوية وأنا أعتقد أن من الممكن البرهنة على أنها ليست من ذلك فى شىء، وعلى أن واقعة تكديس آراء ليست لها على الإطلاق نفس القوة الواقعية تؤدى إلى نتاج اصطناعى زائف artefact مجرد من المعنى. والمصادرة الثالثة المضمرة هى أن واقعة طرح السؤال نفسه على الناس جميعاً، تتضمن القائل بوجود إجماع حول المشاكل، أو بعبارة أخرى، وجود اتفاق حول الاسئلة الجديرة بأن تطرح. ويبدو لى أن هذه المصادرات الثلاث تتضمن سلسلة كاملة من التشويهات تتم ملاحظتها بمجرد أن تراعى كل شروط الضبط المنهجي فى جمع المعطيات وتحليلها.

وغالباً ما تؤخذ على استطلاعات الرأى مأخذ تقنية. فعلى سبيل المثال يكون موضوع الجدال مدى تمثيلية العينات. وأعتقد أنه فى الوضع الراهن للوسائل المستخدمة من جانب مكاتب انتاج الاستطلاعات لا يكون للاعتراض أساس. كما يوجه إليها اللوم لأنها تطرح أسئلة مراوغة أو بالأحرى تجعل الاسئلة مراوغة فى صياغتها: وذلك اللوم أكثر صواباً، فقالها ما يحدث أن المرء يستطيع أن يستدل على الإجابة من خلال طرح السؤال.

(*) ظهر هذا العرض فى الأزمئة الحديثة العدد ٣١٨ وكان قد ألقى فى (Noroit (Arras فى يناير

ومن ثم فعلى سبيل المثال غالبا ما يحذف فى الأسئلة أو الأجوبة المقترحة أحد الخيارات الممكنة أو يُقترح مرارا كثيرة نفس الخيار فى صياغات مختلفة؛ وذلك بمثابة انتهاك للقاعدة الأولى فى تصميم الاستخيار التى تتطلب «ترك كل الفرص» أمام كل الإجابات الممكنة. وهناك كل أنواع المراوغات من هذا القبيل، وسيكون مثيرا للاهتمام أن نطرح للنقاش الشروط الاجتماعية لظهور هذه المراوغات والحيل. وهى ترتبط فى معظم الأحوال بالشروط التى يعمل فيها الذين ينتجون الاستخبارات. ولكنها ترتبط على الأخص بحقيقة أن الإشكاليات التى تصطنعها معاهد قياس الرأى منوطة بطلب ذى غلط خاص. ومن ثم فعند الشروع فى تحليل تحقيق قومى ضخ من رأى الفرنسيين فى نظام التعليم كنا قد سجلنا فى عدد معين من مكاتب الدراسات كل الأسئلة المتعلقة بالتعليم. وذلك جعلنا نرى أن مايزيد على مائتى سؤال عن نظام التعليم قد طرحت منذ مايو ١٩٦٨ مقابل ما يقل عن عشرين سؤالا بين ١٩٦٠ و ١٩٦٨. ويعنى ذلك أن الإشكاليات التى تفرض نفسها على هذا النوع من الهيئات وثيقة الارتباط بالوضع العام وملاساته كما أنها خاضعة لنوع معين من الطلب الاجتماعى. فمسألة التعليم على سبيل المثال لا يمكن طرحها بواسطة معهد لقياس الرأى العام إلا حينما تصير مشكلة سياسية. ونستخلص من ذلك على الفور الفرق الذى يفصل هذه المؤسسات عن مراكز الأبحاث التى تتجنب إشكالياتها كما لو كانت فى سماء صافية، متخذة فى كل حالة مسافة أكبر كثيرا من الطلب الاجتماعى فى شكله المباشر الفورى.

ويكشف لنا التحليل الإحصائى الموجز للأسئلة المطروحة أن معظمها كانت مرتبطة مباشرة بالشواغل السياسية «للهيئة السياسية». وإذا رفهنا عن أنفسنا هذا المساء بلعبة قصاصات الورق وطلبت منكم كتابة الأسئلة الخمسة التى تبدو لكم الأكثر أهمية فيما يتعلق بالتعليم فستحصل بالتأكيد على قائمة شديدة الاختلاف عن تلك التى حصلنا عليها من تسجيل الأسئلة التى طرحت بالفعل فى استطلاعات الرأى. فاسؤال «أينبقى إدخال السياسة فى مدارس الليسيه؟» أو «صينغ أخرى منه» قد طرح كثيرا جدا، على حين أن السؤال «أينبقى تعديل المناهج؟» أو «أينبقى تعديل غلط نقل المضامين؟» لم يطرح إلا نادرا. وبالمثل أتنبهى إعادة تأهيل المدرسين؟ والكثير من الأسئلة المماثلة التى هى شديدة الأهمية، على الأقل من منظور آخر.

فالإشكاليات التى قدمتها استطلاعات الرأى تابعة للمصالح السياسية، ويحكم

ذلك بقوة كبيرة دلالة الإجابات، والدلالة المعطاة لنشر النتائج فى آن معا. إن استطلاع الرأى فى الوضع الراهن أداة للتأثير السياسى ووظيفته الأكثر أهمية قد تنحصر فى فرض وهم مؤداه وجود رأى عام بوصفه حاصل جمع ناشئ عن مجرد إضافة الآراء الفردية معا، وفرض فكرة وجود شى ما هو بمثابة متوسط الآراء أو الرأى المتوسط. وليس «الرأى العام» المعلن عنه فى الصفحات الأولى من الجرائد فى شكل نسب مئوية (٦٠٪ من الفرنسيين يؤيدون...) إلا شيئا مصطنعا مختلفا بكل وضوح، ووظيفته إخفاء أن وضع الرأى العام فى لحظة معطاة من الزمان هو محصلة قوى (فى صيغة الجمع) وتوترات وأنه ما من شىء أشد قصورا فى تمثيل وضع الرأى العام من تلك النسب المئوية.

ومن المعروف أن كل مزاوله للقوة يصاحبها خطاب يهدف إلى إضفاء شرعية على قوة الذين يزاولونها. بل من الممكن القول إن خاصية كل علاقة قوة هى ألا تمتلك كل قوتها إلا بمقدار ما تحتجب بوصفها قوة. وبمساطة فالرجل السياسى هو الذى يقول «الله معنا» ومعادل ذلك القول الآن هو «الرأى العام معنا»، وذلك هو الأثر الجوهرى لقياس الرأى العام: تكوين فكرة أن هناك رأيا عاما إجماعيا، ومن ثم إضفاء شرعية على سياسة ما وتدعيم علاقات القوة التى تؤسسها أو تجعلها ممكنة.

أما وقد قلت فى البداية ما أريد قوله فى النهاية قما حاول الإشارة فى عجلة إلى ماهى العمليات التى ينشأ بواسطتها «مفعول الإجماع». والعملية الأولى التى نقطة انطلاقها المصادرة التى وقلالها يجب أن يكون للجميع رأى تنحصر فى تجاهل الذين لم يقدموا إجابة. وعلى سبيل المثال أنت تسأل الناس هل تؤيد حكومة بومبيدو Pompidou ؟ ثم تسجل إن ٣٠٪ لم يجيبوا و ٢٠٪ قالوا نعم و ٥٠٪ قالوا لا. وأنت تستطيع أن تقول إن عدد غير الموافقين أعلى من عدد الموافقين ثم هناك ذلك الراسب (أو تلك البقية) الذى يشكل ٣٠٪ وتستطيع أيضا أن تعيد حساب النسب المئوية المؤيدة والمعارضة مع استبعاد الذين لم يجيبوا. وهذا الاختيار البسيط هو فى نظرى ذو أهمية خارقة ساطرحه للتفكير معكم.

إن الغاء الذين لم يجيبوا هو القيام بما يقومون به فى استفتاء انتخابى حيث توجد أوراق اقتراح بيضاء أو فارغة، وذلك معناه أن نفرض على استطلاع الرأى الفلسفة المضمرة للاستفتاء الانتخابى. وحينما ننظر عن كثب، نلاحظ أن نسبة الذين لم يجيبوا أكثر ارتفاعا بوجه عام لدى النساء قياسا إلى الرجال، وأن الانحراف بين النساء والرجال هو

بنفس القدر أكثر اتساعا عندما تكون المشاكل المطروحة ذات طابع سياسى على وجه الخصوص. وهناك ملاحظة أخرى فكلما ارتكز السؤال على مشاكل العلم والمعرفة زاد الانحراف بين نسب الذين لا يجيبون وسط الأعلى تعليما والأدنى تعليما. وعلى العكس عندما تركز الأسئلة على المشاكل الأخلاقية فإن التغاير وسط من لا يجيبون وفقا لمستوى التعليم يصير ضئيلا (والمثال: أينبغى أن نكون متشددين مع الأطفال؟) وهناك ملاحظة ثالثة: فكلما طرح السؤال مشاكل يدور حولها النزاع وتتركز على نواة من التناقضات (مثلا عندما يكون السؤال عن الموقف فى تشيكوسلوفاكيا موجها إلى الذين يصوتون للحزب الشيوعى) وولد توترات عند فئة محددة تكررت حالات عدم الاجابة بين هذه الفئة. وبالتالي فإن التحليل الإحصائى البسيط للذين لم يجيبوا يقدم معلومات عن دلالة السؤال وكذلك عن الفئة المأخوذة فى الاعتبار، علما بأن هذه الفئة تتحدد باحتمال مرتبط بها وهو، أن يكون لها رأى مثلما تتحدد باحتمال الشرطى بأن يكون لها رأى مؤيد أو معارض.

ويكشف التحليل العلمى لاستطلاعات الرأى عن أنه من الناحية العملية لا وجود لمشكلة محل اتفاق من الجميع، ولا لسؤال لا يعاد تفسيره تبعاً لمصالح الذين يطرح عليهم، والواجب الأول هو تطلب معرفة عن أى سؤال اعتقدت الفئات المختلفة من المجيبين أنها قد أجابت. ومن أشبع آثار استطلاع الرأى على وجه الدقة إيجاب الناس على الالتزام بالإجابة عن أسئلة لم يطرحوها على أنفسهم. ولنأخذ على سبيل المثال المسائل التى تدور حول مشاكل أخلاقية والتى تتعلق بمسائل عن تشدد الوالدين والعلاقات بين المدرسين والتلاميذ، وعلم التربية التوجيهى أو غير التوجيهى ... إلخ. وهى مشاكل يجرى إدراكها بأكبر قدر بوصفها مشاكل أخلاقية كلما هبطنا بدرجة أكبر فى التراتب الاجتماعى، ولكن من المستطاع أن تكون مشاكل سياسية بالنسبة إلى الطبقات الأعلى: ومن آثار الاستطلاع تحويل الإجابات الأخلاقية إلى إجابات سياسية عن طريق التأثير البسيط لفرض الإشكالية.

وتوجد فى الحقيقية مبادئ كثيرة يمكن انطلاقاً منها توليد إجابة. فهناك أولاً ما يمكن تسميته بالصلاحيات السياسية بواسطة الرجوع إلى تعريف للسياسة تحكمى وشرعى فى آن معا، أى مسيطر ويخفى سيطرته. وتلك الصلاحيات السياسية ليست منتشرة على نحو شامل. فهى تتغاير إجمالاً *Grosso modo* على غرار مستوى

التعليم. وبعبارة أخرى فإن احتمال امتلاك رأى حول كل الاسئلة هو الذى يفترض معرفة سياسية تمكن مقارنته باحتمال الذهاب إلى المتحف. ونلاحظ انحرافات هائلة: فحيث يدرك هذا الطالب المنخرط فى حركة يسارية خمس عشرة فصيلة على يسار الحزب الاشتراكى لا يدرك كادر متوسط (موظف) شيئا منها. فعلى حين أن أقسام الصعيد السياسى (أقصى اليسار، اليسار، يسار الوسط، الوسط، يمين الوسط، اليمين، أقصى اليمين.. الخ) تستخدمها استطلاعات «العلم السياسى» باعتبارها بديهية، نجد بعض الفئات الاجتماعية تستخدم بكثافة ركنا صغيرا لأقصى اليسار، وفئات أخرى تستخدم الوسط وحده، وتستخدم ثالثة الصعيد بأكمله. وفى النهاية يصبح الانتخاب تجميعا لمساحات مختلفة تماما، وتجبر إضافة أفراد يقسون بالسنتيمترات إلى أفراد يقيسون بالكيلو مترات، أو بالأحرى أفراد يعطون درجات من صفر إلى ٢٠ وأفراد يعطون ما بين ٩ و ١١. وتقاس تلك الصلاحية بين أشياء أخرى بدرجة رهاقة الادراك (وهو الشيء نفسه فى الجمليات حيث يستطيع بعض الناس تمييز الطرائق الخمس أو الست المتعاقبة لصور واحد)

ويمكن دفع هذه المقارنة إلى أبعد من ذلك. ففى مسألة الإدراك الجمالى هناك فى المحل الأول شرط للإجازة والترخيص، فينبغى أن يتصور الناس العمل الفنى فى أذهانهم بوصفه عملا فنيا ثم بعد إدراكه بهذه الصفة ينبغى أن تكون لديهم مقولات للإدراك لكى تقوم بإدراك نسقه وبنيته.. الخ. ولنفترض سؤالا قد صيغ على هذا النحو: أأنت مع تربية توجيهية أم تربية ليست توجيهية». وبالنسبة لبعض الناس يمكن اعتبار السؤال سياسيا، فتتمثل العلاقات بين الآباء والأبناء يندمج عندهم فى رؤية نسقية للمجتمع، ولكن بالنسبة لآخرين هذا سؤال ينتمى خالصا للأخلاق. ومن ثم فالاستخبار الذى أعدناه والذى طلبنا فيه من الناس أن يجيبوا عما إذا كانوا يعتبرون القيام بإضراب وإطالة الشعر والاشتراك فى احتفال لموسيقى وغناء البوب pop (موسيقى شعبية شبابية سريعة الايقاع صاخبة).. الخ تنتمى جميعا إلى السياسة أم لا، أظهر أماننا بتاينات ضخمة جدا حسب الطبقة الاجتماعية. فالشرط الأول للإجابة السديدة عن مسألة سياسية هو إذن القدرة على تأسيسها بوصفها سياسة. والشرط الثانى بعد ذلك هو القدرة على تطبيق مقولات سياسية بمعنى الكلمة عليها، مقولات يمكن أن تكون محكمة مطابقة إلى هذه الدرجة أو تلك، مفرطة الدقة إلى هذه الدرجة أو تلك. فهذه هى الشروط النوعية لإنتاج الآراء، تلك التى يفترض استطلاع الرأى على نحو شامل، وعلى نمط واحد أنها متحققة مع المصادرة

الأولى التى وفقا لها يستطيع كل فرد أن يكون رأيا. والمبدأ الثانى الذى انطلقا منه يستطيع الناس تكوين رأى ما هو ما اسميه «سجية ethos الطبقة» (حتى لا أقول أخلاقيات الطبقة) أى نظام من القيم المضمرة التى استبطنتها الناس منذ الطفولة وانطلقا منها يستحدثون استجابات لكل المشاكل المختلفة إلى أقصى مدى. فالآراء التى يستطيع الناس تبادلها عند الخروج من ميازة كرة قدم بين فريقى روبييه Roubaix وفالنسيان Valenciennes مدينة بجانب كبير من تماسكها لسجية الطبقة. وإن حشدا من الاستجابات التى تعتبر استجابات سياسية هى فى الواقع قد نتجت انطلاقا من سجية الطبقة وهى تستطيع دفعة واحدة أن تتخذ دلالة مختلفة تماما عندما تفسر (بالبناء للمجهول) على الأرضية السياسية. وهنا يجب أن أشير إلى تقليد سوسيولوجى منتشر على وجه الخصوص بين بعض سوسيولوجى السياسة فى الولايات المتحدة، الذين يتكلمون على سبيل العادة عن نزعة محافظة وعن نزعة سلطوية لدى الطبقات الشعبية. وقد أسست هذه الأطروحات على المقارنة العالمية لاستطلاعات الرأى، أو على الانتخابات ؛ وهى قيل إلى بيان أنه فى كل مرة يجرى سؤال أفراد الطبقات الشعبية فى أى بلد كانا ما كان عن المشاكل المتعلقة بعلاقات السلطة وبالحرية الفردية وحرية الصحافة.. الخ، نجدهم يقدمون إجابات أكثر «سلطوية» من الطبقات الأخرى، ويستنتج السوسيولوجيون من ذلك على وجه الإجمال أن هناك صراعا بين القيم الديمقراطية (وعند المؤلف الذى أفكر فيه، المستر ليبست Lipset يتعلق الأمر بالقيم الديمقراطية الأمريكية) والقيم التى استبطنتها الطبقات الشعبية، وهى قيم من نمط تسلطى قمعى. ومن هنا يتم استخلاص ضرب من الرؤية الأخرى (التي تنتمى إلى العالم الآخر بعد البحث): فلنرفع مستوى المعيشة، ولنرفع مستوى التعليم. وما أن الميل للقمع والنزعة التسلطية وما إلى ذلك مرتبط بالدخول المنخفضة، وبمستوى التعليم المنخفض وما أشبه، فسوف تنتج بذلك الرفع مواطنين صالحين للديموقراطية الأمريكية. ومن زاوية فهمي فإن المطروح للتساؤل هو دلالة الإجابات على أسئلة معينة. ولنفترض مجموعا من الأسئلة على النمط الآتى: هل تؤيد المساواة بين الجنسين؟ هل تؤيد الحرية الجنسية للأخذان؟ هل تؤيد تربية غير قمية؟ هل تؤيد المجتمع الجديد؟.. الخ ولنفترض مجموعا آخر من الأسئلة على النمط الآتى: هل يجب أن يقوم الأساتذة والمدرسون بإضراب حينما يكون وضعهم مهددا؟ هل يجب أن يتضامن المدرسون مع الموظفين الآخرين فى فترات الصراع الاجتماعى؟.. الخ ؛ فسيعطى هذان

المجموعان من الأسئلة إجابات ذات بنية عكسية على نحو صارم تحت علاقة الطبقة الاجتماعية. فالمجموع الأول من الأسئلة الذى يتعلق ينمط معين من التجديد فى العلاقات الاجتماعية وفى الشكل الرمزي للعلاقات الاجتماعية يستثير إجابات أكثر تأييدا بمقدار ما ترتفع فى الترتاب الاجتماعى، وفى الترتاب وفقا لمستوى التعليم، وبالعكس فالأسئلة التى تركز على التحويل الواقعى لعلاقات القوة بين الطبقات سوف تستثير إجابات يتزايد عدم تأييدها كلما ارتفع المجهبون فى الترتاب الاجتماعى.

وبإيجاز إن القضية القائلة بأن «الطبقات الشعبية قمعية» ليست صحيحة وليست خاطئة. فهي صحيحة بمقدار ما يتعلق الأمر بمجموع من المشاكل التى تقس الأخلاقيات المنزلية، وبالعلاقات بين الأجيال أو بين الجنسين؛ فلدى الطبقات الشعبية ميل نحو أن تبدو أكثر صرامة وتصلبا من الطبقات الاجتماعية الأخرى. وبالعكس فحينما تتعلق الأسئلة بالبنية السياسية التى تحرك عملية المحافظة على النظام السياسى أو عملية تحويله ولا تقف عند المحافظة على أنماط العلاقة بين الأفراد أو عند تحويلها، فإن الطبقات الشعبية تؤيد بدرجة كبيرة التجديد أى تحويل البنى الاجتماعية. وأنتم ترون كيف أن بعض المشاكل التى طرحت فى مايو ١٩٦٨، وغالبا ما طرحت بطريقة رديئة، فى الصراع بين الحزب الشيوعى واليساريين ترتبط على نحو مباشر وثيق بالمشكلة المحورية التى حاولت طرحها هذا المساء، مشكلة طبيعة الإجابات، أى المبدأ الذى جرى انطلاقا منه إنتاجها. ويرجع التضاد الذى أقمته بين هاتين المجموعتين من الأسئلة فى الحقيقية إلى التضاد بين مبدأين لانتاج الآراء، مبدأ سياسى على وجه الخصوص، ومبدأ أخلاقى، فمشكلة النزعة المحافظة عند الطبقة الشعبية هى نتاج الجهل بهذا التمييز. وننجم مفعول فرض الإشكالية، وهو مفعول يزاوله كل استطلاع للرأى وكل استجواب سياسى (ابتداء من الاستفتاء الانتخابى) عن حقيقة أن الاسئلة المطروحة فى استطلاع الرأى ليست اسئلة تطرح نفسها فى واقع الأمر على كل الذين يجرى استجوابهم، وأن الاجابات لا تفسر (بالبناء للمجهول) تبعا للإشكالية التى، بالنسبة إليها قد أجابت الفئات المختلفة من الذين أجابوا فعلا؛ ومن ثم فالإشكالية السائدة التى تقدم قائمة الأسئلة المطروحة منذ سنتين بواسطة معاهد قياس الرأى صورة لها، أى الإشكالية التى تعنى من حيث الأساس هؤلاء الذين يستحوذون على السلطة والذين يفتنون إلى أن يحاطوا علما بوسائل تنظيم نشاطهم السياسى، هى إشكالية تتوزع من حيث الإحاطة بها على نحو غير متساو بين

الطبقات الاجتماعية المختلفة. والشئ المهم أن تلك الطبقات قادرة إلى هذه الدرجة أو تلك على إنتاج إشكالية مضادة. وقد طرح أحد معاهد قياس الرأي فيما يتعلق بالمناظرة التلفزيونية بين سيرفان شريبه Servan- Schreiber وجيسكار ديستان أسئلة من غط «هل النجاح التعليمي دالة (وظيفة) للمواهب أو الذكاء أو العمل أو الجدارة» وقد كشفت الإجابات المتلقاة في الحقيقة عن معلومات (مجهولة عند الذين أنتجوها) عن درجة وعي الطبقات الاجتماعية المختلفة بقوانين النقل الوراثي لرأس المال الثقافي؛ فالتشبث بأسطورة الموهبة والصعود عن طريق المدرسة والعدالة التعليمية والمساواة في توزيع المناصب تبعاً للمؤهلات .. الخ شديد القوة وسط الطبقات الشعبية. وتستطيع الإشكالية المضادة أن توجد بالنسبة إلى بعض المثقفين ولكن دون أن تمتلك قوة اجتماعية على الرغم من أنها قد أقرت عند عدد معين من الأحزاب والجماعات. فالحقيقة العلمية تخضع لنفس قوانين انتشار الإيديولوجية، فالقضية العلمية مثل المنشور البابوي عن تنظيم النسل، لا تعظ إلا المهتمين.

وترتبط فكرة الموضوعية في استطلاع الرأي بواقعة طرح السؤال بألفاظ شديدة الحياد بهدف إعطاء كل الفرص لكل الاجابات. وفي الواقع سيكون استطلاع الرأي بلا شك أكثر قرباً مما يحدث في الواقع إذا جرى انتهاك كامل لقواعد «الموضوعية» وقُدمت للناس وسائل وضع أنفسهم في الموقع الذي يشغلونه فعلاً في الممارسة الواقعية، بالنسبة إلى الآراء التي سبقت صياغتها؛ أي إذا استبدلنا بالقول على سبيل المثال «هناك موافقون على تنظيم النسل وغير موافقين فأين أنت؟» عرضاً لسلسلة من المواقف المصرح بها للمجموعات المفوضة لتكوين الآراء ونشرها بطريقة تمكن الناس من تحديد موقعهم بالنسبة إلى الإجابات المشككة (بتشديد الشين وفتحها) سلفاً. ويتكلم الناس عادة بوجه العموم عن «اتخاذ موقف»؛ وهناك مواقف متنبأ بها من قبل ويتحقق اتخاذها. ولكنها لا تتخذ (بالبناء للمجهول) بمحض الصدفة. فالناس تتخذ المواقف التي لديهم الاستعداد لاتخاذها تبعاً للموقع الذي يشغلونه في مجال معين. ويهدف التحليل المدقق إلى تفسير العلاقات بين بنية المواقف التي يتعين اتخاذها وبنية مجال المواقع التي يشغلها الناس موضوعياً. وإذا كانت استطلاعات الرأي تحيط على نحو معيب جداً بالحالات الكامنة للرأي وبدقة أكثر بحركات الرأي، فإن ذلك يرجع بين أسباب أخرى إلى أن الوضع الذي يدركون فيه الآراء هو وضع مصطنع تماماً. فالأوضاع التي يتشكل فيها الرأي وخاصة أوضاع الأزمة

يقف الناس فيها أمام آراء اكتمل تشكيلها، آراء تدعمها مجموعات من الناس، بحيث يعنى الاختيار بين الآراء بكل وضوح الاختيار بين مجموعات من الناس. وهذا هو مبدأ مفعول التسييس الذى أنجبته الأزمة: يتبقى الاختيار بين المجموعات التى تتحدد سياسيا كما تتحدد على نحو متزايد اتخاذ موقف تبعا لمبادئ سياسية على نحو ضريح. وفى الحقيقة فإن ما يبدو لى مهما هو أن استطلاع الرأى يعامل الرأى العام بوصفه حاصل جمع بسيط لآراء فردية قد جُمعت فى وضع هو من حيث الأساس وضع حجرة الاقتراع، حيث يعبر الفرد خلصة وفى انعزال عن رأى معزول. ولكن فى الأوضاع الواقعية فإن ما يكوّن الآراء هو قوى وتصير العلاقات بين الآراء صراعات قوى بين مجموعات.

وينبثق قانون آخر من هذه التحليلات، فسيكون هناك مزيد من الآراء حول مشكلة ما بمقدار ما ترفع هذه المشكلة من درجة الاهتمام، أى حينما يكون هناك إهتمام بهذه المشكلة. وعلى سبيل المثال فإن معدل الإجابات حول نظام التعليم يرتبط على نحو وثيق بدرجة الاقتراب من نظام التعليم، كما يتفاير احتمال تكوين رأى تبعا لاحتمال امتلاك سلطة على الموضوع الذى يتعلق به الرأى. كما أن الرأى الذى يؤكد نفسه تلقائيا هو رأى الذين لآرائهم وزن كما يقال. فإذا سلك وزير التعليم القومى تبعا لأحد استطلاعات الرأى (أو على الأقل انطلاقا من قراءة سطحية للاستطلاع)، فلن يفعل ما يفعله حينما يتصرف بالفعل كرجل سياسى، أى انطلاقا من عدد المكالمات التليفونية التى يتلقاها ومن زيارة مثل هذا المسؤول النقابى أو ذاك العميد... الخ. وفى الحقيقة إنه يسلك تبعا لقوى الرأى هذه المتشكلة، بالفعل والتى لا تتوافد على إدارته إلا بمقدار ما تمتلك القوة، أو بمقدار ما تمتلك القوة لأنها قد جرى حشدها وتحريكها (استنفارها). وحينما يتعلق الأمر بالتنبؤ بما ستصير إليه الجامعة فى السنوات العشر المقبلة، فإننى أعتقد أن الرأى المستنفر (على صيغة اسم المفعول) يشكل أفضل قاعدة. بيد أن الحقيقة التى مصداقها وجود المتنوعين عن الإجابة الذين لم يجيبوا والمتعلقة بأن ميول بعض الفئات لا ترقى إلى مستوى الرأى، أى إلى خطابات تامة التشكل تطمح إلى التماسك وإلى فرض نفسها.. الخ، هى حقيقة لا يجب أن نجعلنا نستنتج أنه فى أوضاع الأزمة سيختار الذين ليس لديهم رأى بطريقة عشوائية؛ فإذا كانت المشكلة قد اتخذت طابعها سياسيا بالنسبة إليهم (مشاكل الأجور وإيقاع العمل بالنسبة للعمال) فسيختارون وفقا للكفاءة السياسية؛ وإذا تعلق الأمر بمشكلة لم تتخذ طابعها سياسيا بالنسبة إليهم (إجراءات القمع فى العلاقات

داخل المشروع) أو بمشكلة فى طريقها إلى أن تتخذ ذلك الطابع، فسيستردون بنسق الاستعدادات اللاواعية بعقم التى توجه اختياراتهم فى الميادين شديدة الإختلاف، ابتداء من الجماليات أو الرياضة إلى التفضيلات الاقتصادية. ويتجاهل استطلاع الرأي التقليدى فى آن معا مجموعات الضغط والاستعدادات الكامنة التى تستطيع ألا تعبر عن نفسها فى شكل خطاب مصرح به. وذلك هو السبب فى إنها غير قادرة على أن تقدم حتى أقل التنبؤات معقولة حول ما سيحدث فى وضع الأزمة.

ولنفترض مشكلة مثل مشكلة نظام التعليم. ومن المستطاع توجيه السؤال: «ما رأيك فى سياسة إدجار فور Edgar Faure؟» وهو سؤال شديد القرب من الاستفتاء الانتخابى بمعنى أنه الليل حيث تكون كل الأبقار سوداء. وكل الناس متفقون بصورة إجمالية دون أن يعرف أحد على ماذا: فالجميع يعرفون ما كان يعنيه التصويت بالإجماع على قانون فور فى الجمعية الوطنية. ثم يجرى السؤال التالى: «هل توافق على إدخال السياسة فى اللبسيه؟» وهنا نلاحظ انشقاقا واضحا لاتخطئه العين فالأمر مماثل لما يحدث عند السؤال «هل من حق المدرسين القيام بإضراب؟»، ففى هذه الحالة يعرف أعضاء الطبقات الشعبية عن طريق تحويل كفاءتهم السياسية النوعية بماذا يجبون. ومن المستطاع أيضا السؤال: «أينبغى تغيير البرامج؟ هل توافق على الرقابة المتصلة؟»، «هل توافق على إدخال آباء التلاميذ فى مجالس المدرسين؟» «هل توافق على إلغاء مسابقة تعيين اساتذة الجامعة agrégation؟»، فوراء السؤال «هل تؤيد إدجار فور؟» كانت هناك كل هذه الأسئلة، واتخذ الناس موقفهم دفعة واحدة من مجموع المشاكل التى ماكان اختبار جيد يستطيع طرحها إلا بواسطة ستين (٦٠) سؤالا على الأقل يمكن بصدها ملاحظة تغيرات فى جميع الاتجاهات. وفى إحدى الحالات ستكون الآراء مرتبطة على نحو إيجابى بالموقع فى التراتب الاجتماعى، وفى حالة أخرى ستكون مرتبطة على نحو سلبى، وفى بعض الحالات على نحو شديد القوة وفى أخرى على نحو ضعيف أو بلا ارتباط على الإطلاق. ويكفى التفكير فى أن الاستفتاء الانتخابى يمثل الحد الأقصى لسؤال مثل «هل توافق على إدجار فور؟»، لكى نفهم أن المتخصصين فى السوسيولوجيا السياسية يستطيعون ذكر أن العلاقة الملاحظة عادة فى جميع ميادين الممارسة الاجتماعية بين الطبقة الاجتماعية والممارسات أو الآراء هى علاقة شديدة الضعف عندما يتعلق الأمر بالظواهر الانتخابية إلى درجة جعلت بعض المتخصصين لا يترددون فى استنتاج انه لا توجد

أي علاقة بين الطبقة الاجتماعية وواقعة التصويت لليمين أو اليسار. فإذا وضعتم فى الأذهان أن الاستفتاء الانتخابى يضع فى سؤال واحد توفيقى ما لا يستطيع الإحاطة به بطريقة معقولة إلا فى مائتى سؤال، وأن بعض الناس يقيسون بالنسبمترات على حين يقيس بعض آخر بالكيلو مترات، وأن استراتيجىة المرشحين تنحصر فى إساءة طرح الاسئلة وفى اللعب إلى أقصى حد على إخفاء الشقوق لكسب الأصوات المترددة، بالإضافة إلى الكثير من الآثار الأخرى، فسوف تستنتجون أنه ربما ينبغي طرح السؤال معكوسا، وهو السؤال التقليدى عن العلاقة بين الصوت الانتخابى والطبقة الاجتماعية، والتساؤل كيف حدث أن صارت هناك منازعة رغم كل شيء فى علاقة حتى ولو كانت ضعيفة هو تساؤل حول وظيفة النظام الانتخابى، وهو أداة بحكم منطقها ذاته تميل إلى تخفيف الصراعات والانشقاقات. ولكن من المؤكد أنه بدراسة عملية استطلاع الآراء، يصير من المستطاع تكوين فكرة عن الطريقة التى يعمل بها هذا النمط المعين من قياس الرأى، الذى هو الاستفتاء الانتخابى وعن الأثر الذى يحدثه.

ويأبىحاز لقد أردت أن أقول إن الرأى العام لا وجود له فى الشكل المنسوب إليه من جانب الذين لهم مصلحة فى تأكيد وجوده. وقد قلت إن هناك، من ناحية، آراء مكتملة التشكل فى وضع الاستنفار، وجماعات ضغط معبأة القوة حول نسق من المصالح التى صيغت على نحو مصرح به، وأن هناك من ناحية أخرى استعدادات ليست بحكم تعريفها رأيا إذا قهنا من ذلك كما فعلت طوال هذا التحليل شيئا ما من المستطاع صياغته فى خطاب ذى طموح لأن يكون متسقا. وهذا التعريف للرأى ليس رأيا فى الرأى. بل هو ببساطة شرح للتعريف الذى تضعه استطلاعات الرأى فى التطبيق عندما تطلب من الناس اتخاذ موقف من آراء مكتملة الصياغة، وعندما تنجب على سبيل المثال بواسطة تجميع إحصائى لآراء جرى انتاجها على هذا النحو هذا الشئ المصنوع المخلوق الزائف الذى هو الرأى العام. وأنا أقول ببساطة إن الرأى العام بالمعنى المقبول ضمنا عند الذين يقومون باستطلاعات الرأى وعند الذين يستخدمون نتائجها لا وجود له فى الواقع.



الفصل التاسع عشر

الثقافة والسياسة (*)

أقننى كثيرا تجنب طقوس المؤقر، وأعتبر أن ما سأقوله نوعا من العرض آملا أن يتحدد تبعا للعرض الذى أقدمه طلب ما وأن نعقد صفقة. وترجع إحدى الصعوبات التى تعترض التواصل بين السوسيوولوجى وقرائه إلى حقيقة أن القراء يجدون أنفسهم إزاء نتاج لا يعرفون إلا على نحو سئ فى أغلب الأحوال كيف تم إنتاجه. بيد أن معرفة شروط انتاج النتاج تشكل جزءا لاغنى عنه -بكل دقة- لشروط توصيل عقلانى لنتائج العلم الاجتماعى، فالقراء يكونون على صلة بنتاج تام الصنع قد قدم (بالبناء للمجهول) اليهم وفق ترتيب ليس هو ترتيب جهد الكشف (وفق ترتيب يميل إلى أن يشبه ترتيبا استنباطيا، وبعاذل ذلك عند السوسيوولوجى أن يُظن (بالبناء للمجهول) أنه قد أنتج نظرياته كاملة العدة والسلاح دفعة واحدة ثم وجد بعد ذلك تيريرات تجريبية إمبيريقية لكى توضحها). فالنتاج التام، العمل المنجز opus operatum (باللاتينية فى الأصل) يخفى طريقة العمل. modus operandi وما يجرى تداوله بين العلم وغير المتخصصين بل حتى بين علم ما وبين متخصصى علوم أخرى (وأنا أفكر على سبيل المثال فى علم اللغة حينما سيطر على العلوم الاجتماعية)، وما تنقله الأجهزة الضخمة للاحتفال هو فى أفضل الأحوال التتائج، وليس اجراً؛ لت العمل على الإطلاق. فما من أحد يدخل مطابخ العلم. ومن المؤكد أننى لن أستطيع أن أقدم هنا شريطا مصورا وأقبعيا عن البحث الذى قادنى إلى مأسأرويه لكم. لكننى سأحاول أن أعرض عليكم تتابعا خاطف السرعة، يخالطه التدبير المسبق (أو قليل من الغش)، ولكن القصد هو إعطاء فكرة عن الطريقة التى يعمل بها السوسيوولوجى.

(*) عرض قدم فى جامعة جرينويل فى ٢٩ إبريل ١٩٨٠

وقد بدأت بعد مايو ١٩٦٨ منتويا دراسة الصراعات التى موقعها ورهاتها هو نظام التعليم، فى تحليل كل استطلاعات الرأى التى قامت بها معاهد قياس الرأى فيما يتعلق بنظام التعليم، وكذلك فى تحليل نتائج استطلاع عن التحولات المأمولة فى النظام المدرسى تم انجازه عن طريق الصحافة. وكانت المعلومات الأكثر إثارة للاهتمام، التى حققها هذا الاستطلاع هى البنية السكانية للمجيبين موزعة وفق مستوى التعليم والجنس والسن.. الخ: وعلى سبيل المثال إن احتمال قيام الطبقات المختلفة بالإجابة على هذا الاستطلاع ينظر على نحو وثيق فرصها فى الوصول إلى التعليم العالى. وكانت الإجابة على مثل هذا الاستخبار يدور التفكير فيها بمنطق الالتماس أو الطلب، فالعينة التلقائية من المجيبين لم تكن إلا مجموعة ضغط تتألف من الذين يشعرون أن من حقهم الاجابة لأنهم امتلكوا الحقوق فى نظام التعليم. وكانت هذه المجموعة السكانية غير التمثيلية بالمعنى الإحصائى للكلمة، تمثيلية جدا بالنسبة لمجموعة الضغط التى كانت فى الواقع de facto ماضية نحو توجيه المصير النهائى للنظام التعليمى. ومن ثم فإذا نحينا جانباً المعلومات التى أتى بها الاستطلاع عن النظام التعليمى وعن علاقات القوة بين المجموعات التى تطالب بتحويله .. الخ فمن المستطاع المكوف على الخصائص المميزة للمجيبين الذين صمموا على الإجابة تبعاً لعلاقتهم الخاصة بموضوع الاستجواب، قائلين قبل كل شئ: يهمنى نظام التعليم، وأنا موضع اهتمام هذا النظام، ويجب أن يصغروا إلى.

وهذا المنطق أجدنى مسوقاً إلى أن أنظر بعين أخرى إلى الذين لم يجيبوا، وكان مكانهم من الاستطلاع مائلاً تقريباً لمكان المتنوعين عن التصويت فى الاستفتاء الانتخابى، وهى ظاهرة تبلغ من العادية فى ظاهرها درجة تمنع التساؤل عن معناها. إن ظاهرة الامتناع عن التصويت من الأشياء التى يعرفها الجميع، ويتكلم عنها الجميع، ويتبنى «دارسو السياسة» وجهة نظر معيارية خالصة تجاهها، وهم يبدون أسفهم على نحو طقسى لأنها عائق أمام السير الصحيح للديموقراطية، دون أن يأخذوها مأخذ الجد فى حقيقة الأمر.

بيد أن الروح التى ترشد تحليل بنية عينة تلقائية (وفق متغيرات مختلفة) ترى على الفور أنه فى حالة عينة تمثيلية (وفيما يتعلق بأسئله معينة ترتفع أحيانا نسبة الذين لم يجيبوا بالقياس إلى الذين أجابوا، مما يطرح سؤالاً حول جدارة التمثيل الإحصائى لهؤلاء) ويحتجز الذين لم يجيبوا معلومات شديدة الأهمية دفعت (بالبناء للمجهول) إلى

الاختفاء بواسطة واقعة إعادة حساب النسب المئوية المستبعدة لغير المجيبين. فكل جماعة تجدد نفسها في مواجهة مشكلة، تتميز باحتمال أن تمتلك رأياً؛ وامتلاك الرأي هو احتمال شرطى، أى من الدرجة الثانية وبالتالي ثان وثانوى بالنسبة لا متلاك رأى إيجابى أو سلبى. وحينما نضع فى الذهن ما الذى يُستخلص من تحليل العينة التلقائية للمجيبين على استطلاع حول النظام التعليمى نستطيع أن نرى فى احتمال الإجابة المميزة لمجموعة أو فئة (على سبيل المثال الرجال بالنسبة للنساء وسكان المدينة بالنسبة إلى سكان الأقاليم) مقياساً «لميلها» العاطفى لأن تكون فى آن معاً ذات صلاحية وجديرة بالإجابة، وأن تكون صاحبة إجابة شرعية ولها الحق فى إبداء رأيها. فالآلية التى يجدد رأى وفقاً لها تعبيراً عنه ابتداءً من إعطاء الصوت هى آلية قصر الحق على دافعى ضريبة الرؤوس، ولكنها آلية مستترة.

ولكن كان ينبغي أن نتساءل فى البداية عن العوامل التى تدفع الأشخاص المستجوبين إلى الإجابة أو إلى «الامتناع» (أكثر من إلى الاختيار بين إجابة وأخرى). فالتباينات المسجلة فى معدل عدم الإجابة كانت ترجع إلى شيئين: إلى صفات المجيبين وإلى صفات السؤال. وأخذ عدم الإجابة مأخذ الجد أى أشكال الامتناع وأشكال الصمت بواسطة محضر (تقرير) رسمى هو فى حقيقته تأليف لموضوع هو بمثابة إدراك فوري لأن المعلومات الأكثر أهمية التى يكشفها الاستطلاع عن جماعة ما ليست نسبة نعم إلى لا ولا نسبة مع إلى ضد بل نسبة الامتناع عن الإجابة أى احتمال أن يكون لهذه الجماعة رأى. وفى حالة استطلاعات الرأى (التي تطيع منطقاً مشابهاً تماماً لمنطق التصويت) تقع تحت تصرفنا معلومات ضرورية لتحليل العوامل التى تحدد هذا الاحتمال فى شكل معدل الذين لم يجيبوا وفقاً لمتغيرات مختلفة مثل الجنس ومستوى التعليم والمهنة والمشكلة المطروحة. ونلاحظ من ثم أن النساء يمتنعن على نحو متكرر أكثر من الرجال، وأن الفجوة بين الرجال والنساء تزداد اتساعاً كلما كانت الأسئلة أكثر ارتباطاً بالسياسة - بالمعنى العادى للكلمة (أى كلما استدعت بدرجة أكبر ثقافة نوعية مثل تاريخ المجال السياسى مع معرفة - على سبيل المثال - أسماء الشخصيات السياسية. فى الماضى والحاضر) أو الإشكالية الخاصة بمحترفى السياسة (مع المشاكل الدستورية أو مشاكل السياسة الخارجية. وكانت الحالة الحديثة حيث بلغ معدل عدم الإجابة أقصاه هى السؤال أعتقد أن هناك علاقة بين النزاع الخاص بفتينام والنزاع الخاص بإسرائيل؟). وعلى النقيض حينما تكون المشاكل

متعلقة بالأخلاق (مثل أيتبنغ إعطاء حبات منع الحمل للبنات قبل الثامنة عشرة؟) تختفى الفجوات بين الرجال والنساء. أما التباين الثانى ذو الدلالة القوية فهو أن معدل غير المجبيين متلازم بشدة مع مستوى التعليم: فكلما ارتفع المرء فى الترتاب الاجتماعى انخفض معدل عدم إجابته، مع تساوى كل الأشياء الأخرى. كما يتعلق الترابط الثالث -وهو جزئيا استطراد لسابقه- بأن معدلات عدم الإجابة متلازمة بشدة مع الطبقة الاجتماعية (أو الفئة المهنية -الاجتماعية-)، وهى مترابطة بشدة أيضا مع التقابل بين الإقليم والعاصمة (باريس) وبإيجاز فإجمالا يتغير معدل عدم الإجابة تبعا لسبب مباشر يرجع إلى الموقع فى تراتبات مختلفة.

ويبدو ذلك عمائلا للقول بأن الناس من المحتمل أن يمتنعوا عن الإجابة بقدر متزايد كلما كان السؤال أكثر إغفالا فى السياسة، وبأنهم قليلو الكفاءة السياسية. ولكن ذلك تحصيل حاصل. وفى الحقيقية ينبغي التساؤل مامعنى أن يكون المرء متصفا بالصلاحية (أو الأهلية أو الكفاءة). فلماذا تكون النساء أقل صلاحية أو أهلية من الرجال من الناحية التقنية. وستقدم السوسيولوجيا التلقائية على الفور عشرين تفسيراً: لديهم وقت أقل، ويدبرن شؤون البيت ويبدن اهتماماً أقل. ولكن لماذا لا يعنيهن الأمر إلا قليلاً؟ لأن لديهن صلاحية أقل؟ وتؤخذ الكلمة هنا هذه المرة لاهلمعنى التقنى بل بالمعنى القانونى كما يقال عن صلاحية محكمة (ولايتها ونطاق سلطانها) فامتلاك صلاحية (أو كفاءة أو أهلية) معناه أن يكون من حقه ومن واجبه أن تتركس نفسك لشيء بعينه. وبعبارة أخرى، إن القانون الحقيقى المستتر وراء تلك التضايقات (التلازمات) التى تبدو بلا قيمة، هو أن الصلاحية (الكفاءة) السياسية والتقنية مثل كل الصلاحيات هى صلاحية اجتماعية. ولا معنى ذلك أن الكفاءة التقنية لا وجود لها بل يعنى أن النزوع إلى تحصيل ما يسمى بالكفاءة التقنية يزداد كلما كان المرء أكثر كفاءة من الناحية الاجتماعية، أى كلما كان معترفاً به اجتماعياً بوصفه مؤهلاً ومن ثم باعتباره ملزماً بتحصيل تلك الكفاءة.

وتلك الدائرة التى لها أيضاً هذه المرة مظهر تحصيل الحاصل هى بمعنى الكلمة شكل العمل الاجتماعى الذى يتألف من إحداث اختلافات حيث لم تكن هناك فروق. ويستطيع السحر الاجتماعى تحويل الناس بواسطة أن يقال لهم إنهم مختلفون، وهذا ما تفعله المسابقات (فالترتيب رقم ٣٠٠ (الثلاثمائة الأوائل) شىء ما أما رقم ٣٠١ فليس

شيئا)، أو بعبارة أخرى إن العالم الاجتماعى يؤسس الاختلافات والفروق بواسطة مجرد الإشارة إليها أو تسميتها. (فالدين الذى هو عند دوركايم يتحدد بإقامة تخوم بين المقدس والدنيوى، ليس إلا حالة خاصة من كل أفعال تأسيس الحدود التى بواسطتها تقام اختلافات فى الطهيعة بين أوجه واقع هى «فى الواقع» ليست منفصلة- إلا بواسطة اختلافات متناهية الصغر لا تمكن الإحاطة بها أحيانا) فالرجال أكثر صلاحية من ناحية التكنيك السياسى لأن السياسة من صلاحياتهم. والفرق بين الرجال والنساء الذى نقبله كأنه بديهي لأننا نعرش عليه فى كل الممارسات قد تأسس على قسـر اجتماعى، على تخصيص للصلاحية. فتقسيم العمل بين الجنسين يعطى للرجل السياسة كما يعطيه النشاط خارج العائلة فى المجال العام والعمل مقابل أجر على حين يكرس المرأة للنشاط داخل البيت، للعمل المنزلى غير المرئى، وكذلك للسيكولوجيا والعاطفة وقراءة الروايات.. الخ. وفى الحقيقة ليست الأشياء بهذه البساطة، فالعلاقة بين الجنسين تتغير وقتا للطبقة والقسم من الطبقة وتتبع الصفات المضفاة على كل جنس فى كل حالة. ومن ثم فعلى سبيل المثال عندما نتجه فى الحيز الاجتماعى المكون من بعدين (من ثلاثة أبعاد فى الحقيقة) الذى أقمته فى كتاب «التميـز»، من أسفل إلى أعلى ونحو اليسار، فى اتجاه أقسام الطبقة المسيطرة الأكثر ثراء فى الرأسمال الثقافى، والأكثر فقرا فى الرأسمال الاقتصادى؛ أى فى اتجاه المثقفين، فإن الاختلاف بين الجنسين يميل إلى الاختفاء، عند المدرسين على سبيل المثال، كما أن قراءة جريدة «لوموند» أكثر شيوعا بين النساء بالنسبة إلى الرجال. وعلى العكس عندما نصعد إلى اليمين نحو البورجوازية التقليدية فإن الاختلاف يتضام أيضا ولكن على نحو أقل شدة، ويميل كل شيء إلى تأكيد أن النساء اللاتى يقعن بجوار القطب الثقافى يعترف لهن اجتماعيا بالصلاحية السياسية، يمتلكن فى أمور السياسة استعدادات وكفاءات تختلف اختلافا متناهى الضآلة عن استعدادات وكفاءات الرجال المناظرين لهن، والتى لا تختلف عن كفاءات نساء الأقسام الأخرى من الطبقة أو الطبقات الأخرى.

ومن ثم يمكن الإقرار أن أصحاب الصلاحية التقنية هم أولئك الذين أعَدُّوا أو اختيروا اجتماعيا ليكونوا أصحاب صلاحية، وبأنه ويكفى تحديد شخص ما باعتباره صاحب صلاحية لكى يُفرض عليه نزوع لاكتسابه الصلاحية التقنية؛ التى تؤسس بدورها صلاحيته الاجتماعية وينطبق هذا الفرض أيضا على تفسير آثار رأس المال التعليمى.

وهنا يجب أن أقوم بانعطافة؛ فقد لوحظ في كل الاستطلاعات تلازم قوى جدى بين رأس المال التعليمى المقيس بالمؤهلات التعليمية والصلاحيات فى ميادين لا يقوم النظام التعليمى بتدريسها على الإطلاق، أو قد يتظاهر بتعليمها ؛ مثل الموسيقى وتاريخ الفن وما أشبه، وليس اللجوء إلى التفسير المباشر بواسطة الغرس فى الذهن. وفى الحقيقة. فهناك بين الآثار الأكثر توازيا والأكثر سرية للنظام التعليمى ما أطلق عليه أثر التخصيص اللاتصى أثر «النيل يفرض التزاماته» الذى يقوم به النظام التعليمى دون توقف من خلال تعيين المواقع (واقعة وضع شخص ما فى مرتبة رفيعة، تدعوه إلى أن يكون فى قمة الفئة التى ينسب إليها)

وتحمل المؤهلات الدراسية وعلى الأخص أعلاها مكانة وفقا لنفس المنطق: فهى توضع حامايها فى فئات تدعوه أن يكونوا فى المستوى الرفيع لتلك «الفئة». وواقعة تثبيد الوضع على أنه خارج الكفاءة التعليمية ودين ثم وضع الصلاحية الاجتماعية «يازم» عنه على سبيل المثال قراءة لوموند والتردد على المتاحف وشراء كل شارات الوضع، كما يلزم عنه تأكيد - وهو ما يعنينا هنا - الحصول على صلاحية سياسية. وثمة صلة وثيقة يفعل آخر لهذا النوع من السلطة السحرية المتعلقة بإبراز بعض الناس، بواسطة قول إنهم مختلفون ومتميزون بلهجة آصرة أو بالأحرى بواسطة منطق المؤسسات ذاته، مثل مؤسسة منح الألقاب والرتب والأوسمة، أو المؤسسة التعليمية التى تشكّل الأفراد ليكونوا مختلفين والتى تولد فيهم اختلافات دائمة سواء أكانت خارجية يمكن فصلها عن الشخص كأنها الأشرطة وعلامات الرتب أو منقوشة فى دخيلة الشخص مثل طريقة معينة فى كلام أو نبرة أو لهجة أو ما يسمى بالتميز. وبإيجاز فحيث يستطيع القول بسذاجة إن الناس يكونون أكثر إلما بالسياسة وأكثر صلاحية لها كلما كانوا أفضل تعليما ينغى القول فى رأى إن هؤلاء الذين جرى اصطفاؤهم بوصفهم أصحاب صلاحية، بوصفهم يمتلكون حقا وواجبا فى الساحة السياسية، ستكون لديهم فرص أكثر اتساعا ليصيروا ما يفترض أن يكونوا، وما يقال لهم إنهم على غرار أى أصحاب صلاحية فى السياسة. وتجعل تلك الآلية التى وصفناها عددا معينا من الناس يتأرون بعيدا عن اللعبة السياسية (مثلا يتسربون من النظام التعليمى قائلين إن الأمر لا يسترعى اهتمامهم)، بيد أن هؤلاء الذين يتأرون بأنفسهم تلقائيا هم على وجه التقريب أولئك الذين كان المسيطرون سيقصونهم لو كانت لهم سلطة القيام بذلك. (ومن المعروف أن الأنظمة القائمة على الملكية العقارية فى الماضى

كانت تقصى بحكم القانون من لم يكن لهم حق ابداء الرأي لعدم امتلاكهم أنصبة الملكية أو المؤهلات التعليمية أو ألقاب النبالة). ولكن نظامنا القائم على نوع آخر من الملكية هو نظام يرتدى حجابا وهنا يكمن كل الاختلاف. فالذين يتأون بأنفسهم يشكلون جزءا كبيرا لأنهم لا يعترفون لأنفسهم بالصلاحيات في ممارسة السياسة. فالتمثيل الاجتماعي للصلاحيات أو الكفاءة الذي أوكل إليهم (وعلى الأخص بواسطة النظام التعليمي الذي صار أحد العناصر الفعالة الرئيسية لتخصيص الصلاحيات) يصير استعدادا لاوعيا، أي ذوقا. وبذلك يتواطأ الذين يتأون من تلقاء أنفسهم على نحو ما مع عملية إبعادهم، وهي عملية يعترف ضحاياها بأنفسهم بشرعيتها.

ومن ثم فإن احتمال الإجابة عن سؤال سياسي من الناحية الموضوعية (ولا يدرك (بالبناء للمجهول) بوصفه سياسيا إلا على نحو شديد التفاوت، وفقا للمتغيرات ذاتها التي تحكم فرص الإجابة) مرتبط بمجموع من المتغيرات تشبه تماما المتغيرات التي تحكم الوصول إلى الثقافة. وبعبارة أخرى إن فرص تكوين رأي سياسي موزعة تقريبا على غرار فرص الذهاب إلى المتحف. ولكن لقد رأينا أيضا أن عوامل التفرقة بين فرص الإجابة عن أي أسئلة كائنة ما كانت، تؤثر بطريقة أكثر فعالية كلما كانت الأسئلة مصوغة بلغة أكثر اتصافا بالسياسة -ومن أجل مزيد من الفهم- بلغة تنتمي إلى «معهد العلوم السياسية». وبعبارة أخرى إن الفجوة بين الرجال والنساء وعلى الأخص بين الأعلى تعليميا والأدنى تعليميا تصير ضخمة على وجه الخصوص كلما تعلقت بأسئلة من طراز أسئلة معهد العلوم السياسية PO أو المدرسة القومية للإدارة ENA (من نوع: أنظن أن المساعدة إلى البلاد النامية يجب أن تزيد الناتج القومي الإجمالي؟)

وما معنى ذلك؟ إن الإجابة عن سؤال: «هل أصدقاء أصدقائي هم أصدقائي؟» تجعلني كما يلاحظ بيير جريكو Pierre Greco إما أن أفكر في أصدقاء «معينين لي (هل آل فلان Les untels أصدقاء لآل علان؟) وإما أن أجا إلى الحساب المنطقي وهو ما ستفعلونه بكل سهولة. (وهذه هي طريقة الإجابة التي يطليها النظام التعليمي، فالمرء يجيب دون أن يفكر في شيء يذكر). نلاحظ أن هاتين الطريقتين في الإجابة مرتبطتان بعلاقتين مختلفتين باللغة والألفاظ والعالم الآخرين. فالأسئلة «السياسية بحصر المعنى» هي أسئلة تنبغى الإجابة عنها وفقا لنمط الحساب المنطقي. إنها أسئلة تتطلب موقفا أو وضعاً «نقيا» مثل الذي يتطلبه النظام التعليمي والاستعمال المدرسي للغة. ويقول

أفلاطون في مكان ما «تكوين الرأي هو كلام»، فهناك في تعريف الرأي «مد مضر نرساه عادة لأتنا نتاج نظام ينبغى فيه الكلام (غالبا من أجل الكلام وأحيانا لكى لايقال شىء) إذا ما أريد البقاء. والرأى كما قمت بتعريفه على نحو مضر حتى الآن هو رأى صيغ فى الفاظ وتمكن صياغته فى ألفاظ، وقد أنتج (بالبناء للمجهول) إجابة عن سؤال قد صيغ صراحة فى ألفاظ، وفق نموذج يقضى بأن تفترض الإجابة علاقة باللغة قد فرض عليها الحياء كما تفرض هى الحياء. وللإجابة عن أحد أسئلة العلوم السياسية من قبيل سؤال سبق أن استشهدت به لتوى (هل هناك علاقة بين حرب اسرائيل وحرب فيتنام؟) ينبغى اتخاذ موقف أو وضع مماثل لذلك الذى تتطلبه الرسالة الجامعية على سبيل المثال، وامتلاك استعداد مفترض مسبقا من جانب عدد كبير من ألوان السلوك مثل النظر إلى لوحة فى عكوف على الشكل والتكوين بدلا من قصر الاهتمام على موضوع التمثيل. ومعنى ذلك أنه من المستطاع أن تكون هناك -إزاء الرأي المعرّف «بتشديد الراء» بأنه كلام، وبأنه كلام يفترض تلك العلاقة التى تفرض الحياء كما فرض عليها الحياء بالموضوع- عناصر من عدم التساوى ماثلة لتلك التى تلاحظها إزاء العمل الفنى، دون أن نستطيع لهذا السبب أن نستنتج أن أولئك الذين لايعرفون كيف يبدون رأيا بالكلام، ليس لديهم شىء ما، لا أستطيع بطبيعة الحال أن أسميه رأيا سياسيا بما أن الرأى يفترض الخطاب وأساميه الحس السياسى. وعلى سبيل المثال فحول مشكلة الطبقات الاجتماعية، يستطيع المستجنون (على اسم المفعول) أن يظهروا أنفسهم بمظهر العاجزين تماما عن الإجابة عن سؤال وجود طبقات اجتماعية أو حتى عن وضعهم الخاص فى النطاق الاجتماعى (هل أنت جزء من الطبقات الدنيا أو الوسطى أو العليا؟) على الرغم من أنهم يمتلكون حسا طبقيا لا يخطئ أبدا. كما أنهم لا يستطيعون أن يتخذوا من موقعهم مبحثا أو موضوعا، لأن ما يحكم كل موقفهم من موجه السؤال هو احساس بالمسافة الاجتماعية التى تحدد بدقة أين هم وأين موجه السؤال وماهى الصلة الاجتماعية بينهما. وهاكم مثلا يخطر على بالى: إن سوسيولوجيا أمريكيا قد لاحظ أن احتمال الكلام عن السياسة إلى شخص ما يزداد كلما كانت آراء هذا الشخص أكثر اقترابا من آرائك، فماذا يفعل الناس ليعرفوا أن هؤلاء الذين سيتكلمون معهم فى السياسة يماثلونهم فى الآراء السياسية؟ وهذا مثال جيد للحس العملئ. فهناك تحليلات رائعة لجوفمان Goffman عن اللقاءات بين الذين لم يسبق لهم التعارف، وعن كل الجهد الذى يبذله الناس لتمييز ما لا يستطيعون قوله وما

يستطيعون، وإلى أى مدى يستطيع المرء المواصلة.. الخ. وفى حالة عدم التأكد فإنه يمكن الكلام عن المطر والطقس الحسن، وهو مادة الكلام الأقل تعرضا للمنازعة على الإطلاق. وقد تكون للسيولوجى صلة يقوم يعرفون أفضل منه من الناحية العلمية ماذا يهدفون إلى معرفته: وحينما يتعلق الأمر بأصحاب الأعمال أو بالطبقة العاملة السفلى يجب أن تنقل الأشياء التى يعرفها الناس جيدا ولكن فى صيغة أخرى أى دون أن يعرفوها فى الحقيقة إلى مستوى التصريح. وكثيرا ما لا يجد أى عون فيما يقوله الناس عما يفعلون وعما يعرفون. فإن حسن التوجه السياسى يستطيع أن يقود بعض الخيارات السياسية العملية دون أن يصل إلى مستوى الخطاب، وسيصير هذا الحس حائرا منذهلا إزاء الأوضاع التى ينبغى فيها أن يجب على مستوى الخطاب (وهذا ما يجعل استطلاعات الرأى فيما عدا تلك المتعلقة بالانتخابات ضعيفة القدرة على التنبؤ، لأنها لا تستطيع أن تحيط بالأشياء التى لم تتشكل فى صياغة لغوية). ويعنى ذلك أنه على النقيض مما يستطيع اعتقاده، حول أن الذين يمتنعون عن الإجابة، أى الذين لا يجيبون بالمصادفة (ويبدو أن كل شيء يشير إلى أن احتمال أن يكون اختيار إحدى الإجابات المقترحة صدفة يزداد طرديا مع ارتفاع معدل الذين لا يجيبون من الفئة نفسها) ليسوا مستعدين لأى عمل مهما يكن. (وسيكون ذلك أيضا وهما لدى المثقف). فقد تم اختزال هؤلاء إلى ما كان لاهوتيو العصر الوسيط يسمونه بالإيمان المضمّر *Fides implicita* (باللاتينية فى الأصل) وهو إيمان يقع على الجانب الآخر من الخطاب مختزلا إلى الحس العملى. ولكن كيف يختارون؟ إن أفراد الفئات الأكثر حرمانا من القدرة على إبداء الرأى، المختزلين إلى حالة «الإيمان المضمّر» يقومون باختيارات على درجتين. فإذا قيل لهم: اتعتقدون أن هناك صلة بين هذا وذاك، فهم لا يعرفون ولكنهم يفوضون جهة ما يختارونها فى أمر القيام باختياراتهم بالنيابة عنهم. وتلك واقعة اجتماعية شديدة الأهمية. وتعيد كل الكنائس ذلك الإيمان المضمّر: ففى فكرة الايمان المضمّر تكمن فكرة تسليم الذات لآخرين والتخلى عنها.

وبالإضافة إلى ذلك يمكن وصف السياسة بواسطة التماثل مع ظاهرة من ظواهر السوق هى العرض والطلب: فإن سلكا من محترفى السياسة، يعرفون (بالبناء للمجهول وتشديد الرأى) بأنهم حازو احتكار فعلى لانتاج الخطابات المعترف بها بوصفها سياسية ينتجون مجموعا من الخطابات المعروضة على قوم وهبوا ذوقا سياسيا أى قدرة متفاوتة جدا على التمييز بين الخطابات المعروضة. وهذه الخطابات سيجرى استقبالها وفهمها

وادراكها والانتقاء منها واختيارها وقبولها تبعا لصلاحية تقنية، وبدقة أكبر تبعا لنسق من التمييز. سوف يستغابر حديثه ورهافة تمييزه تبعا للمتغيرات التي تقوم بتعريف الصلاحية الاجتماعية. وسيرحم المرء نفسه من فهم الأثر الرمزي بالمعنى الصحيح للمنتجات المعروضة إذا ظن أنها استحدثت مباشرة بواسطة الطلب، أو أن نوعا من الصنفقة المباشرة أو المسارمة الراعية مع الجمهور هو ملهمها. وحينما يقال عن صحفي إنه ذلك الذى يتقيأ قمامة هيئة الأساقفة، أو إنه نادى الرأسمالية فذلك معناه تقديم فرض عن أنه يبحث بوعى عن التكيف مع توقعات جمهوره، وعن أنه يستهدف الإرضاء المباشر لهذه التوقعات. وفى الحقيقة إن تحليل عالم الأنتاج الثقافى بكل ما فيه من نقاد المسرح والسينما والصحفيين السياسيين ومن مجال ثقافى ومجال دينى، يشير إلى أن المنتجين لا ينتجون ومرجعيتهم جمهورهم - وذلك فى كل حالة بدرجة أقل كثيرا مما هو معتقد عموما - بل وعيونهم على مناقسيهم، ولكن ذلك وصف يتسم أيضا بالنزعة الغائية المفرطة يستطيع أن يدفعنا إلى الاعتقاد بأنهم يكتبون وهمهم الواعى هو أن يتميزوا. وفى الحقيقة إنهم يكتبون على الأرجح تبعا للموقع الذى يشغلونه فى حيز معين من المناقشة.. ويمكن على سبيل المثال إيضاح أن الأحزاب - مثل الصحف فى هذا الحيز من المناقشة - تجد نفسها مدفوعة دائما بواسطة ميلين متناحرين: الأول يوجهها إلى زيادة حدة الاختلافات ولو على نحو مفتعل من أجل تمييز نفسها ولكى تكون بارزة ملحوظة من جانب أولئك الذين يمتلكون نسقا معيناً للتصنيف، والميل الثانى. يحثها على توسيع قاعدتها بإلغاء الاختلافات..

إذن هناك من ناحية الإنتاج حيز المناقشة الذى يمتلك منطقة المستقل وتاريخه (ومؤتمر تور Tours الخاص به أى مؤتمره التأسيسى على سبيل المثال - مؤتمر تور قد انعقد فى مدينة تور الفرنسية من ٢٠ - ٣٠ ديسمبر ١٩٢٠) وانقسم فيه الحزب الاشتراكى إلى أغلبية من الشيوعيين استقلت بحزبها وأقلية اشتراكية ديمقراطية). وذلك مهم جدا لأنه فى السياسة كما فى الفن لن نستطيع أن نفهم الامتراجيات الأخيرة إذا لم نعرف تاريخ المجال، وهو تاريخ مستقل نسبيا عن التاريخ العام. ومن ناحية الاستهلاك هناك حيز من الزبائن سيدركون ويقدرون النتاج المعروض تبعا لمقولات ادراك وتقييم تبدل وفقا لمتغيرات مختلفة. ومن ثم فحالة توزيع الآراء السياسية فى لحظة معطاة هى التقاء تاريخيين مستقلين نسبيا، التقاء عرض جرى إعداده لاتبعيا للطلب بل تبعا للضوابط الخاصة بحيز سياسى له تاريخه المستقل، بطلب هو على الرغم من أنه نتاج كل التواريخ

المفردة التي تشكلت فيها الاستعدادات والصلاحيات السياسية، فإنه ينتظم وفقا لبنية قنائية.

وهناك نقطة أريد الرجوع إليها بسرعة لأننى استعصرتها بطريقة تقوم على الحذف والإيجاز، ويمكن أن تؤدي إلى الاختلاط ؛ إنها مشكلة العلاقة بين الأحزاب وعلو الاخص الحزب الشيوعى فى مرحلته المتهالنية والإيمان المضمير Fides implicita. ويبدو أن كل شىء يشير إلى أن حزبا ما سوف يقع فى الحيز المستقل نسبيا لانتاج الآراء أى سيكون مطلق اليدىن حينما يجد عددا مهذا متزايدا من جمهوره (زيانته) يفتنمون إلى قطاع حيز المستهلكين المكرسين للإيمان المضمير وسوف تتسع حرية يديده وسوف يتسع نطاق استقلالة النسبى. فكلما زاد حرمان فئة اجتماعية ومجردها من الموارد (ولنأخذ حدا أقصى، بعض عضوات بعض الاتحادات النسائية وكن بالإضافة إلى ذلك يشبهن أغلبية فتنهن، فهن ريفيات أميات صلاحيتهن القانونية منعدمة وصلاحيتهن التقنية قريبة من ذلك) زاد اعتبارها فى أعين حزبا الذى اختارته، أسيرة وضع التسليم المطلق لذاتها. ويترتب على ذلك حينما يتعلق الأمر بحزب يقع داخل الحيز المستقل نسبيا للأحزاب - أن تكون لاستراتيجياته حرية أن تتحدد بالكامل على نحو متزايد تبعا لظرووات المنافسة مع الأحزاب الأخرى (وتقدم أحداث أواخر السبعينات تحقيقا تجريبيا لذلك يبلغ من الوضوح درجة تجعلنى لست فى حاجة للتدليل) كما يترتب على ما سبق أن يزداد ذلك الجزء من زيانته الذى أعطاه نهائيا شيكا على بياض. وذلك ما ينبغى أخذه فى الحسبان عند تحليلات ظاهرة استفحال البيروقراطية داخل الأحزاب الثورية، سواء تعلق الأمر بالحزب الشيوعى الفرنسى أو الحزب الشيوعى السوفييتى. (وينبغى أيضا أن نأخذ فى الحسبان بكل تأكيد المنطق النوعى للتفويض، الذى يتجه نحو نزاع ملكية أولئك الذين لم يتخلوا عن ذواتهم بالكامل لصالح المحترفين والقيادات الدائمة) ومعنى ذلك أن القوانين الحديدية لحكم الاقليات، أى نزوع السلطة حتى إذا كانت ثورية، إلى أن تتركز بين أيدي آحاد، وهو نزوع يقدمه المكيافليون الجدد باعتباره قدرا للبيروقراطيات السياسية هو أمر تحبذه على نحو مخيف علاقة الإيمان المضمير.

لذلك ينبغى على أن استعصر بسرعة لكى أنهى كلامى مشكلة شروط الانتقال إلى الحالة الصريحة الجلية للحس السياسى العملى. لقد أوضح «لابوف» Labov أن العمال فى الولايات المتحدة يبدون مقاومة قوية للتأقلم على الثقافة فى مسألة نطق

الكلمات لأنهم كما يقول يطابقون بطريقة لا واعية بين لهجتهم وبين فحولتهم.. كما لو أن حسهم الطبقي قد سكن في عمق الحلق، وكما لو أن طريقة حنجرية معينة أى رجولية فى الكلام هى رفض لاواع تماما لنمط التعبير السائد، ودفاع عن هوية الطبقة العاملة التى تستطيع أن تعجز مثنوى لها أيضا فى طريقة إدارة الاكتئاب.. الخ. (ولذلك دور شديد الأهمية فى اختيار المفوضين، فلمفوضى الاتحاد العام للعمال سى جيه تى CGT الذى يقوده الحزب الشيوعى، مظهر من نمط خاص. ومن المعروف أنه فى العلاقات بين اليسار المتطرف والشيوعيين تلعب المؤشرات الجسمية مثل الشعر الطويل أو القصير و أسلوب ارتداء الثياب دورا مهما جدا). فهناك إذن هذا الحس الطبقي الدفين داخل الجسم الذى هو علاقة بالطبقة : ثم هناك ما يسمى بالوعى واكتساب الوعى. وهنا نجد أحد الميادين المفضلة لسرد الأساطير لدى النزعة الشعبوية. وابتداء من الأصل نجد عند ماركس نفسه أن مشكلة اكتساب الوعى قد طرحت -على نحو ما أو جزئيا- كنما تطرح مشاكل نظرية المعرفة. وأنا أعتقد أن ما قلته هذا المساء قد يساعد فى طرح هذه المشكلة على نحو أكثر واقعية بعض الشيء. باعتبارها مشكلة الانتقال من هذه الأنواع من الاستعدادات العميقة الجسمية، التى تقارن فيها الطبقة حياتها دون أن تحول نفسها كطبقة إلى موضوع للتفكير، أو إلى أنماط من التعبير اللفظى وغير اللفظى (وهذا هو التبدى). وأمامنا تحليل مستفيض ينبغى القيام به للطرائق التى تنتجها جماعة ما لتشكيل نفسها كجماعة، لتشكيل هويتها، وتصنع رموزا لنفسها وتنتقل من جماعة سكانية عمالية إلى حركة عمالية أو إلى طبقة عاملة. وهذا الانتقال الذى يفترض «التمثيل» بمعنى التفويض، ولكن بالمعنى المسرحى أيضا هو نوع من الكيمياء القديمة (تحويل المعادن الخسبسة إلى معادن نفيسة) شديدة التعقيد، حيث يلعب الأثر المخصوص للعرض اللغوى ولعرض الخطاب المتشكل سلفا ولنماذج العمل الجماعى (مثل التظاهر والاضراب.. الخ) دورا شديدا الأهمية. ويتضح ذلك فى البحث بواسطة استطلاع الرأى، فحينما يكون على أكثر الناس حرمانا أن يختاروا بين إجابات متعددة «سابقة التشكيل» فهم يستطيعون دائما أن ينتقوا آراء قد صيغت فى السابق (وعلى هذا النحو يتحقق نسبيا الأمر الجوهرى أى أنهم ليسوا بالضرورة قادرين على صياغتها وخاصة فى هذه الألفاظ المقترحة). ولكنهم حينما تكون فى متناولهم مؤشرات تسمح لهم بالتعرف على الإجابة «الجيدة» أو العلاقات التى تدلهم عليها، يستطيعون أن ينتقوا أشدها مطابقة لانتماعاتهم السياسية المعلنة. وإلا أصبحوا

مكرسين لما أسميته مجازة الرأى المغاير allodoxia أى واقعة اخذ رأى على أنه رأى آخر، مثلما يدفعنا النظر من على ميعدة أن نظن شخصا شخصا آخر (والمعادل لذلك هو ما يقودنا فى المجال الغنائى إلى الخلط بين ثمرة ذابلة صفراء وبين تفاحة وكذلك إلى الخلط بين الجلد الصناعى والطبيعى أو فالسات شتراوس والموسيقى الكلاسيكية) وسيظلون معرضين دوما لأن يخدعوا أنفسهم فيما يتعلق بجودة النتائج، لأنهم يختارون مدفوعين بالحس الطبقي وحده حيث كان ينبغى أن يرشدهم الوعى الطبقي. فمن الممكن اختيار رجل سياسة من أجل حسن مظهره. أو من أجل أقواله. وأثر مجازة «الرأى المغاير» Allodoxio يرجع فى جانب منه إلى حقيقة أن منتجى الآراء يتلاعبون دون وعى بتطبيع الطبقة، بواسطة ضروب اتصال تؤسس نفسها داخل جسم الطبقة دون أن تمر بالوعى، وهى لاتزيد عند المرسل عنها عند المستقبل؛ ويحدث على هذا النحو أن حلقا طبقيا يخاطب حلقا طبقياً. ومن الواضح أن ما أقدمه هنا إشكالى، وأنه ليس الكلمة الأخيرة على الإطلاق؛ ولكننى أود أن أبين ببساطة أن هذه المشاكل تُطرح فى العادة بطريقة مفرطة فى التجريد ومفرطة فى التبسيط فى آن معا.

وعلى أى حال فإن كلمتى الأخيرة هى أنه مالم نأخذ مأخذ الجد هذه الوقائع التى جعلها الاستخدام الواضح المتكرر وكأنها بلا قيمة أو بلا أهمية، أى هذه الأشياء المبتذلة التى يعتبرها معظم أولئك الذى يجاهرون بالكلام عن العالم الاجتماعى أو التفكير فيه غير جديرة بتقديرهم، فلن يمكننا أن نصل إلى بناء نماذج نظرية شديدة العموم دون أن تكون «فارغة». مثل تلك التى اقترحتها هنا لتحليل انتاج الآراء السياسية واستهلاكها والتى تصدق كذلك على السلع الثقافية الأخرى.



الفصل العشرون

الإضراب والعمل السياسى (*)

أليس الإضراب أحد الأشياء «سابقة التجهيز» التى يدع الباحثون أنفسهم يفرضونها؟ وسيكون هناك اتفاق فى البداية على الإقرار بأن الإضراب لا يأخذ معناه إلا إذا أعيد وضعه داخل مجال صراعات العمل، وهو البنية الموضوعية لعلاقات القوى التى يحددها الصراع من ناحية، بين العاملين - حيث يشكل سلاحهم الرئيسى - ومن ناحية أخرى أصحاب العمل، بالإضافة إلى طرف ثالث فعال هو الدولة، ربما لم يكن ضمن تلك العلاقات مباشرة.

وبذلك نلتقى بمشكلة درجة توحيد هذا المجال، (وهى التى تطرحها على نحو مباشر فكرة الإضراب العام). وأنا أريد أن أعطيها صياغة أكثر عموماً بالرجوع إلى مقال للاقتصادى الأمريكى أ.و. فيلبس O. W. Phelps : الذى لاحظ فى مواجهة النظرية الكلاسيكية التى تتصور سوق العمل بوصفه مجموعاً موحداً من الصفقات الحرة، أنه لا توجد سوق واحدة بل هناك عدة أسواق للعمل لكل منها بنيتها الخاصة، وهو يفهم بذلك «مجموع الآليات التى توجه على نحو دائم مسألة الوظائف المختلفة للتشغيل -التجنيد والانتقاء والتعيين والمكافأة- وهى إذ تستطيع استمداد أصلها من القانون والتعاقد والعرف أو السياسة الوطنية فإن وظيفتها الرئيسية هى تحديد حقوق وامتيازات المشتغلين وإدخال الانتظام والقابلية للتنبؤ فى إدارة شئون العاملين وفى كل ما يتعلق بالعمل». ولكن أليس الاتجاه التاريخى هو الانتقال التدريجى من أسواق العمل (أى من مجالات الصراع) المحلية إلى سوق واحدة للعمل أكثر تكاملاً، حيث تصبح أمام النزاعات المحلية فرص أكبر لإشعال نزاعات أكثر اتساعاً؟

(*) قرئت الورقة فى ختام المائدة المستديرة الثانية حول التاريخ الاجتماعى الأوروبى التى نظمتها دار

علوم الانسان فى باريس فى ٢٠ مايو ١٩٧٥

فما هي عوامل التوحيد؟ من المستطاع تمييز عوامل اقتصادية وعوامل «سياسية» بالمعنى الدقيق؛ أي وجود جهاز للتعينة (للحشد والتحرك) مائل في النقابات.. وقد افترض (بالبناء للمجهول) دون أنقطاع أن هناك علاقة بين توحيد الأليات الاقتصادية وتوحيد مجال الصراع، كما افترض وجود علاقة بين توحيد أجهزة الصراع وتوحيد مجال الصراع. وفي الحقيقة يبدو أن كل شيء يوحى بأن «تأميم» الاقتصاد يحبذ تطور أجهزة على النطاق القومي تكتسب شيئا فشيئا استقلالاً ذاتياً إزاء قاعدتها المحلية، مما يتيح فرض طابع عام على النزاعات المحلية. فإلى أي درجة يوجد الاستقلال النسبي لأجهزة الصراع السياسية، وإلى أي مدى يمكن أن نعزو أثر التوحيد إلى العمل التوحيدي لهذه الأجهزة؟ ألا تدفعنا واقعة أن كل إضراب يحدث يمكن أن يتخذ صفة العموم (ومن الواضح أن الفرص المتاحة تزيد أو تقل وفقاً لذلك القطاع من الجهاز الاقتصادي الذي يقع فيه وثقله الاستراتيجي - أو الرمزي - إلى هذه الدرجة أو تلك) إلى المبالغة في تقدير الهدف التوحيدي لهذا المجال؟ فقد كان من المستطاع أن يكون هذا التوحيد أكثر انحصاراً بالنزعة الإرادية وأكثر قابلية لأن يعزى (بالبناء للمجهول) إلى تنظيمات معينة بالقياس إلى ألوان التضامن الموضوعية. ومن المستطاع أن تكون إحدى مشاكل المستقبل الكبرى هي مشكلة الفجوة بين الطابع القومي للتنظيمات النقابية والطابع العالمي لمشروعات الاقتصاد.

ولكن من المستطاع التساؤل فيما يتعلق بكل وضع من أوضاع المجال عن درجة انفلاته، والتساؤل كذلك على سبيل المثال عما إذا كان المركز الفعلي لوجود الطبقة العاملة مستقراً داخل المجال أو خارجه؟ وستكون المسألة مطروحة على سبيل المثال في حالة عالم عمالي ما يزال وثيق الارتباط بالعالم الفلاحي الذي يعاود الرجوع إليه أو يضع فيه ما يكسبه، أو بالأحرى في حالة طبقة عاملة سفلى (محرومة من جميع المكاسب) أجنبية كما هي الحال في أوروبا اليوم. وعلى العكس من ذلك فإن مجموع السكان العاملين يمكن أن ينفصلوا انفصالاً شديداً عن العالم الخارجي وتصبح كل مصالحهم مدرجة في مجال الصراع. كما يمكن تسجيل تنوعات شتى وفقاً لتأثير ذلك الانفصال إما في الجيل الحالي أو طوال أجيال متعددة.

إن أقدمية الدخول إلى المجال تقيس مدة ما يمكن تسميته عملية تعميق الصفة العمالية أو الصفة المصنعية (إذا أردنا قبول هذا المفهوم اللفظي بعض الشيء)، الذي

صاغ على نموذج فكرة التأقلم على وضع الاحتجاز Asilisation، التي صاغها «جوفمان» لتدل على عملية تكيف نزلاء السجون والشركات وكل «المؤسسات الشمولية» تدريجيا مع المؤسسة، بل وعلى توافقهم وانسجامهم معها على نحو ما ؛ أى العملية التي يستحوذ بواسطتها العاملون على مشروعاتهم كما يستحوذ عليهم المشروع، يستحوذون على أداة العمل مثلما تستحوذ عليهم، يستحوذون على تقاليدهم العمالية وتستحوذ عليهم، يستحوذون على نقاباتهم وتستحوذ عليهم... الخ. وفى هذه العملية يمكن تمييز جوانب متعددة ؛ أولاها سلبى خالص هو التخلي عن الرهانات الخارجية. ويمكن أن تكون تلك الرهانات واقعية: فالعمال المهاجرون يرسلون نقودهم إلى عائلاتهم ويشترون عندهم أرضا أو ممتلكات زراعية أو دكاكين، كما يمكن أن تكون الرهانات متخيلة، ولكنها لا تكون لذلك أقل فاعلية، فهؤلاء العمال المهاجرون على الرغم من أنهم فقدوا تدريجيا كل أمل فى العودة إلى أهلهم يظلون «عابرين» ولا تستقر داخلهم السمات الطبقيّة العمالية تماما. وبعد ذلك يستطيع العاملون مهما تكن حالة صلاتهم الخارجية أن يطابقوا بين أنفسهم وبين وضعهم فى مجال الصراع وأن يتبنوا بالكامل المصالح المرتبطة به دون أن يغيروا من استعداداتهم العميقة، على نحو ما يلاحظ هوبسبام Hobsbawm، إذ يستطيع بعض الفلاحين الرافدين مؤخرا إلى المصنع أن يشاركوا فى المعارك الثورية دون أن يفقدوا شيئا من استعداداتهم الفلاحية. وفى مرحلة أخرى من العملية يمكن أن يجدوا انفسهم وقد طرأ تعديل على استعداداتهم العميقة بفعل القوانين الموضوعية للوسط الصناعى ؛ فهم يستطيعون أن يفهموا قواعد السلوك التي يتعين عليهم احترامها بشأن إيقاع العمل والحياة، أو بشأن التضامن. فهم لكى يلقوا قبولا يستطيعون التشبث بالقيم الجماعية مثل احترام أدوات العمل أو تراث التاريخ الجمعى للفئة وتقاليدها وخاصة تقاليد النضال... الخ، ويستطيعون فى النهاية أن يندمجوا فى العالم العمالي المنظم، ذاتين فى تلك المرتبة من التمرّد (الرفض) التي يمكن تسميتها «بالأولية»، مرتبة الفلاحين الذين ألقوا (بالبناء للمجهول) بوحشية داخل العالم الصناعى الذى كثيرا ما يكون عنيفا يفتقر إلى التنظيم، لكى يصلوا إلى مرتبة الرفض «التالية» المنظمة. فهل تفتح النزعة النقابية مروحة (مدى) بنية المطالب أو تغلقها؟ وهذا سؤال يمكن طرحه بهذا المنطق.

وقد ألح «تيللى» Tilly على ضرورة أن يؤخذ فى الاعتبار نسق العناصر الفاعلة المشتبكة فى الصراع فى مجمله أى أصحاب العمل والعمال والدولة. كما أن مشكلة

الصلات مع الطبقات الأخرى تظل عنصرا شديدا الأهمية لفت إليه هيمسون Haimson الأنظار عند ماوصف تأرجح (ازدواج) بعض أقسام الطبقة العاملة فى موقفها) من اليورجوازية. وهنا يأخذ التعارض بين المستوى المحلى والقومى كل معناه. فالعلاقات الموضوعية التى توصف فى شكل الثلاثى «صاحب عمل- مستخدم- دولة» تأخذ أشكالا عيانية شديدة الاختلاف وفقا لحجم المشروع وكذلك وفقا للبيئة الاجتماعية لحياة العمل: أيرى العمال صاحب العمل أم لا يرونه؟ أيرون ابنته وهى ذاهبة إلى القداس أم لا يرونها؟ أيرون أسلوب حياته أم لا يرونه؟ وما إلى ذلك. إن أنماط السكن هى احدى الوسائط الملموسة بين البنية الموضوعية لسوق العمل والبنية الذهنية، أو هى على نحو فورى التجربة التى يمكن للناس مزاولتها عن الصراع.. الخ. فالعلاقات الموضوعية التى تحدد مجال الصراع يجرى إدراكها فى كل التفاعلات الملموسة وليس فى موقع العمل وحده (وهنا نجد أسس النزعة الأبوية) وبهذا المنطق من المستطاع محاولة فهم أن المدينة كما يذهب «هيمسون» تبدو أكثر ملائمة لاكتساب الوعى، على حين أن اكتساب الوعى فى المدينه الصغيرة (الضاحية) ذات الطابع العمالى أبطأ ولكنه أكثر جذرية. ويبدو أن بنية الطبقة كما تمى نفسها عى المستوى المحلى هى حلقة وسيطة مهمة لفهم استراتيجيات الطبقة العاملة عموما.

ويبقى أمامنا الآن أن نتساءل كيف يعمل مجال الصراع فى كل حالة من الحالات؟. فهناك لا متغيرات (ثوابت) للبنية ويمكن بناء «نماذج» لها شديدة التجريد تستهدف تحليل المتغيرات. وبين الأسئلة الأولى التى يطرحها «تيلى» سؤال عن معرفة ما إذا كان هناك موقعان أو ثلاثة مواقع، فهل الدولة نافذة زائدة تضاف إلى صاحب العمل؟ وقد حاول «تيلى» أن يوضح أن الدولة فى وضع فرنسا هى عنصر فاعل حقيقى، ولكن أى عنصر فاعل واقعى أم هى تعبير ملطّف قد اكتسب شرعية عن العلاقة بين أصحاب العمل والعمال؟ (يوجد على أقل تقدير بواسطة اتخاذ مظهر واقعي). وذلك السؤال لمجده مطروحا بواسطة المقارنة بين صراع الطبقات فى روسيا بين ثورة ١٩٠٥ وثورتى ١٩١٧ (فبراير وأكتوبر)، وفى فرنسا أثناء الجمهورية الثالثة (ويمكن أيضا التفكير فى حالة السويد: فما هو الشكل المخصوص الذى يأخذه الصراع حينما تخضع الدولة لرقابة قوية من جانب النقابات؟). فينبغى إذن تصميم نموذج لكل الأشكال الممكنة للعلاقات بين الدولة وأصحاب العمل (دون استبعاد النموذج السوفييتى).

وثمة سؤال أساسي لم يُطرح على وجه مكتمل: فعند الكلام عن علاقات الدولة وأصحاب العمل والعمال ليس من المشروع إطلاقاً إقامة تعارض بين الحقيقة الموضوعية لهذه العلاقات (فالدولة وأصحاب العمل أحما في تبعية متبادلة أم لا، أحما متعالفان أم هناك وظيفة الحكم (بفتح الحاء والكاف) المحايد تقوم بها الدولة؟) وبين الحقيقة الذاتية لوجهة نظر الطبقة العاملة (سواء أكانت وعياً طبقياً أم وعياً زائفاً): فواقعة أن الدولة يُنظر إليها بوصفها مستقلة (إنها «دولتنا»، «جمهوريةنا») هي في حد ذاتها عامل موضوعي. وفي حالة فرنسا- وعلى الأخص في لحظات معينة وفي ظروف معينة- يُنظر إلى الدولة من جانب الطبقة العاملة بوصفها مستقلة، بوصفها مستوى التحكيم النزهي، وذلك بمقدار ما تعمل الدولة لإتقاء النظام (غالباً ما يكون ذلك ضد الطبقة المسيطرة التي تصاب بعنصرية مفرطة، فتدفع المنشار ليقطع فرع الشجرة التي تستقر فوقه دفاعاً عن مصالحها في الزمن القصير)، فتبدو وعلى الأقل إن لم تكن تستطيع أن تكون بالمثل مستوى التحكيم النزهي. وبالأفاظ أخرى حينما يدور الكلام عن الدولة أيفخص الكلام بقوتها المادية (الجيش والبوليس وما إلى ذلك) أو بقوتها الرمزية؟ (التي يمكن أن تتألف من التعرف على الدولة تعرفاً لازماً عن جهل الدور الفعلي لها)، إن الشرعية تعنى الجهل، وما يفسر بأشكال النضال المشروعة (الإضراب مشروع ولكن التخريب ليس مشروعاً) ليس إلا تعريفاً سائداً ولكنه لا يدرك (بالبناء للمجهول) بوصفه كذلك، ويظل المسودون يعترفون به بمقدار ما يجهلون مصلحة الطبقة السائدة في هذا التعريف.

وينبغي أن ندرك في وصف مجال الصراع مستويات لم تتحدد قط بالإسم. مثل المدرسة التي تسهم في غرس رؤية عن عدالة حكم أصحاب الاستحقاق والمجادلة عند توزيع المواقف-الراتبية بواسطة ضبط ملازمة المؤهلات التعليمية للمناصب، ومثل الجيش صاحب الدور الرئيسي في إعداد المجندين ليتحولوا إلى عمال. وربما ينبغي أن نضيف إليهما النظام القانوني الذي يحدد في كل لحظة الوضع القائم لعلاقات القوة؛ مسهماً بذلك في الحفاظ عليها، وكذلك مؤسسات المعونة الاجتماعية ذات الدور الكبير، وسائر المؤسسات المسؤولة عن الأشكال الرقيقة من العنف. فالفكرة التي تفرسها المدرسة في الأذهان عن أن الناس يحصلون في الواقع على المناصب التي يستحقونها تبعاً لتعليمهم ومؤهلاتهم تلعب دوراً محدداً في فرض أنواع من التراتب داخل العمل وخارجه. إن اعتبار اللقب التعليمي مثل لقب النبالة في مجتمعنا ليس تشبيهاً فظاً، فله

دور رئيسى فى عملية غرس اللياقة وأدب المعاشرة فى العلاقات الطبقيّة ويضاف إلى القانون الاتّجاهى لتوحيد الصراعات، الانتقال من أشكال العنف الخشنة إلى أشكال رقيقة رمزيّة.

والسؤال الثّانى: كيف تتحدد فى هذا الصراع الرهانات والوسائل المشروعة؟ أى من أجل أى شىء يصير الاقتتال مشروعاً؟ وماهى الوسائل المشروع استعملها؟ فهناك صراع حول رهانات ووسائل الصراع الذى يضع السائدين فى مواجهة المسودين، وصراع بين المسودين أنفسهم. ومن الأشياء الدّقيقة البارعة فى علاقة القوة بين السائدين والمسودين أن السائدين فى هذه العلاقة يستطيعون استخدام الصراع بين المسودين حول الوسائل والغايات المشروعة (مثل التضاد بين المطلب الكمي والمطلب الكيفي وكذلك التضاد بين الإضراب الاقتصادي والإضراب السياسي). هناك إذن تاريخ اجتماعي تنبئ كتابته للمناقشة حول صراع الطبقات المشروع: فما هى حدود المشروع فى الموقف من صاحب العمل؟ ومن الناحية العملية يعاد هذا السؤال بواسطة حوادث احتجاز أصحاب العمل ابتداء من مايو ١٩٦٨: فلماذا اعتبرت هذه الأفعال ضد شخص صاحب العمل أفعالاً فاضحة؟ ومن الممكن التساؤل عما إذا كانت كل ضروب الإقرار بعدم شرعية بعض الوسائل أو بعض الغايات تضعف المقهورين. إن النزعة الاقتصادية على سبيل المثال هى استراتيجية المسيطرين، فهى تقول بأن المطلب المشروع الوحيد للخاضعين للسيطرة هو الأجر ولاشئ غيره. وحول هذه النقطة فأنتى أرجع إلى كل مقالته «تيلي» عن المصلحة غير المعتادة لصاحب العمل الفرنسي فى الدفاع عن سلطته: عن واقعة أنه يستطيع التنازل فى مسألة الأجر ولكنه سوف يرفض أن يعامل الخاضعين لسيطرته بوصفهم مفاوضين وأصحاب كلمة مستوفى الشّروط، بل سوف يتصل بهم عن طريق المصقات فى الأماكن العامة. ومم يتألف إذن تعريف المطلب المشروع؟ الأمر الرئيسى هنا كما لاحظ ميشيل بيرو Michèle Perrot هو دراسة منهية نظام المطالب وكذلك كما لاحظ «تيلي» دراسة منهية أدوات الصراع. وليس من المستطاع دراسة مطلب مثل ذلك الذى يتعلق بالأجر بمعزل عن نظام المطالب الأخرى (شروط العمل وما أشبه). وبالمثل ليس من المستطاع دراسة أداة للصراع مثل الإضراب بمعزل عن نظام الوسائل الأخرى للصراع، لكنى نلاحظ أنها لا تستخدم عند الاقتضاء. إن التفكير البنيوي يجعلنا نرى أهمية حالات الغياب.

ويبدو أنه فى كل لحظة من النضالات العمالية يمكن تمييز ثلاثة مستويات: ففى المحل الأول هناك ما يغفل الصراع التفكير فيه (مايسلم به taken for granted (بالإنجليزية فى الأصل)، ما يُعد بديهيا أو عقيدة doxa). ومن آثار «كسباب الطابع العمالى الاقتصادى النزعة الإيماني بأن هناك أشياء لن يفكر أحد فى مناقشتها أو المطالبة بها لأنها لا تخطر على البال، أو لأنها ليست «معقولة». وهناك فى المحل الثانى «ملا يمكن التفكير فيه» أى ذلك الذى يتم استنكاره صراحة (فهذا ما لا يستطيع صاحب العمل التنازل فيه) مثل طرد رئيس عمال أو الكلام مع مندوب عمال... الخ). وفى النهاية أو فى المحل الثالث هناك ما تمكن المطالبة به، أى الموضوع المشروع للمطالبات. وتصدق التحليلات نفسها على تعريف الوسائل المشروعة (إضراب أو تخريب أو احتجاز موظفى الإدارة.. الخ). إن النقابات مكلفة بتحديد الاستراتيجية «العادلة» و«السليمة» ولكن أيعنى ذلك الاستراتيجية الأشد فاعلية على نحو مطلق مادامت كل الوسائل مسموح بها، أو تلك التى تكون أكثر فاعلية لأنها «الأكثر ملاءمة» فى سياق اجتماعى يتضمن تعريفا معينا للشرعية ولعدم الشرعية. وفى الإنتاج الجماعى لهذا التعريف للغايات والوسائل المشروعة، لهذا الذى يُعد إضرابا «صائبا» «معقولا» أو لذلك الذى يُعد إضرابا متهورا يخرق القانون يلعب الصحفيون اليوم وكل المحللين المحترفين (متخصصى السياسة)، وقد يكونون فى الأغلب الأشخاص، أنفسهم دورا رئيسيا. وفى هذا السياق فإن التمييز بين الإضرابات السياسية والإضرابات غير السياسية (أى الاقتصادية على نحو محض) هو استراتيجية تحددها المصلحة، ولا يستطيع العلم أن يأخذها فى حسابه دون أخطار. فهناك تلاعب سياسى فى تعريف السياسة. إن وهان الصراع هو أحد رهانات الصراع: ففى كل لحظة هناك صراع حول تحديد أمن «المناسب» أن يخاض النضال من أجل هذه النقطة أو تلك؟ وتلك الممارسة هى: إحدى المزاوغات أو المخاتلات التى يتحقق بها العنف الرمزى بوصفه عنفا رقيقا متنكرا. وينبغى تحليل تلك اللياقات الجمعية، أى مجمل المعايير المتغيرة جدا وفقا للعصور والمجتمعات على نحو جلى، والتى تفرض نفسها على الخاضعين للسيطرة فى لحظة معطاة من الزمان، والتى تجبر العاملين على أن يفرضوا على أنفسهم حدودا بواسطة نوع من الحرص على الجدارة بالاحترام. مما يؤدى بهم إلى قبول التعريف السائد للنضال الملائم (وعلى سبيل المثال الحرص على عدم مضايقة الجمهور بالإضراب). وسيكون مثيرا للاهتمام أن نجمع على نحو

نسقى كل نداءات التذكير بمعايير اللياقة، وكذلك رؤية كل الآليات مثل آليات الرقابة اللغوية التى تعمل فى هذا الاتجاه.

والسؤال الثالث: ماهى عوامل قوة الخصوم الماثلة والمتاحة؟ ومن المطروح كإجابة أن استراتيجياتهم ستعتمد فى كل لحظة -جزئيا فى أقل تقدير- على القوة التى يمتلكونها موضوعيا فى علاقات القوة (البنية)، أى القوة التى أحرزوها وكسبها بواسطة النضالات السابقة (التاريخ) وذلك بمقدار ماتكون علاقات القوة هذه مدركة ومقدّره بدقة تبعا لأدوات الإدراك (النظرية أو المؤسسة على «تجربة» الصراعات السابقة) التى تمتلكها العناصر الفاعلة.

وفى حالة العاملين، فإن الإضراب هو الأداة الرئيسية للنضال ؛ لأن أفضل الأسلحة التى لا يمتلكون غيرها هو على وجه الدقة الانسحاب من العمل، انسحابا كليا (بتركه أو بالإضراب) أو انسحابا جزئيا (بالإبطاء والعرقلة.. الخ). وسيكون جديرا بالاهتمام تحديد تكاليف وأرباح الطرفين من هذين الشكلين المختلفين للامتناع عن العمل، وتقديم وسيلة لتحليل كيف ينتظم نسق الاستراتيجيات التى تكلم عنها «تيلى» تبعا لنظام التكاليف والإرباح. ومن الممكن العثور على توضيح للقضية الفائلة بأن الاستراتيجيات المعتمدة على وضع علاقة القوي فى الدبالكتيك الذى وضعه «مونتجومرى» Montgomery بخصوص بدايات «التيلورية» Tylorisme^(١) فى الولايات المتحدة. إن انتشار النقابات الذى يزيد من قوة الطبقة العاملة يؤدى إلى تخفيض الإنتاجية، ويرد أصحاب العمل على ذلك بواسطة التيلورية ومجموعة من التقنيات الجديدة للتدريب والإشراف (وهى منشأ سوسيولوجيا العمل الأمريكية). وهناك فى المقابل سلاح يمتلكه العمال هو القوة الجسمية (وهى تشكل مع الأسلحة الأخرى أحد مكونات القوة النضالية). وينبغى بهذا المنطق تحليل قيم الرجولة والقيم النضالية (وتلك إحدى المخاتلات التى يستطيع الجيش بها أن يوقع فى شركه الطبقات الشعبية بتمجيد قيم الرجولة والقوة الجسمية). ولكن هناك أيضا العنف الرمزي ؛ وبهذا الصدد فإن الاضراب أداة للعنف الواقعى لها آثارها الرمزية من خلال توسط مظاهر تأكيد تماسك الجماعة والقطيعة الجماعية مع النظام المعتاد التى يسببها الاضراب. والأمر المهم فى استراتيجيات العمال أنها لن تكون فعالة ما لم تكن جماعية، ومن ثم واعية ومنهجية أى دخل عليها توسط جهاز منظم ما يحمل مسؤولية تحديد الأهداف وتنظيم الصراع.

وسيكفى ذلك لتفسير أن الوضع العمالي يميل إلى تجنيد الاستعدادات ذات النزعة الجمعية (بالتضاد مع الاستعدادات ذات النزعة الفردية)، إذا لم يعمل مجموع من العوامل المشكلة لشروط الوجود في الاتجاه نفسه: مخاطر العمل، والأحداث غير المتوقعة التي تفرض التضامن، وتجربة قابلية العمال للاستبدال فيما بينهم (والتي تدعمها استراتيجيات تخفيض المهارات)، والمخضوع لحكم سوق العمل التي تتجه نحو استبعاد فكرة «الضمن العادل» للعمل (وهي شديدة القوة عند الحرفيين وأعضاء المهن الحرة). (وهناك اختلاف آخر مع الحرفي، فلدى العامل فرص أقل في أن يخدع نفسه، وأن يجد إشباعا رمزيا في فكرة أن عمله أكبر من شأنه، وأنه يقيم بذلك علاقة تبادل لا تقوم على النقود مع زبائنه). إن غياب كل فكرة عن التفوق في «سلوك المهنة» (وتلعب الأقدمية أحيانا دورا سلبيا) يدخل أيضا اختلافا جوهريا بين العمال والموظفين الذي يستطيعون الاستثمار في التنافس الفردي من أجل الترقية، فالعمال (على الرغم من التراتب داخل الطبقة العاملة) لا يستطيعون أن يستثمروا جهدهم إلا في النضال الجماعي: لذلك تشكل حقيقة أنهم لا يستطيعون تأكيد قوتهم وقيمتهم إلا على نحو جماعي بنية رؤيتهم للعالم بأكملها، مما يضع علامة فارقة مهمة بينهم وبين البورجوازية الصغيرة. وينبغي اتساقا مع هذا المنطق تحليل «الأخلاق الاقتصادية» للطبقة العاملة كما فعل طومسون Thompson (وهو مؤرخ المجليزي عمالي) بالنسبة للعصر الذي سبق الصناعة، وتحديد ميادى تقييم ثمن العمل (علاقة زمن العمل بالأجر، ومقارنة الأجر الممنوحة لأعمال متعادلة؛ وعلاقة الحاجات -العائلة- بالأجر وما إلى ذلك).

وينجم عن ذلك أن قوة باعة قوة العمل تعتمد أساسا على تعبئة طبقتهم وتنظيمها. ومن ثم فهي تعتمد في جانب منها على الأقل على وجود جهاز نقابي، قادر على القيام بوظائف التعبير والتعبئة والتنظيم والتمثيل. ولكن ذلك يطرح مشكلة لم تلق تفكيراً عميقاً بحق من جانب السوسيولوجيين، وهي مشكلة طبيعة الجساعات وأنماط تكتلها، فهناك نمط أول للتجمع هو غط الجماعة عن طريق الإضافة أو التكرار (١+١+١...)، وتتجه الاستراتيجيات السائدة دائما إلى أن تحاول بشكل ما ألا تكون هناك جماعة بل حاصل جمع أفراد فحسب (وفي القرن التاسع عشر مال أصحاب العمل إلى مناقشة العمال مأخوذين كأفراد، واحدا بعد واحد) ويُستشهد على ذلك دائما باستطلاع الرأي حيث الاقتراع السري في مواجهة التصويت برفع اليد أو التفويض (الإثابة)، وبالمثل

فإن نظام المنحة أو عددا من أقطاب مكافآت العمل هما بنفس القدر استراتيجيات للترقية (ويث الانقسام) أى لإلغاء الطابع السياسى (وذلك أحد أسس رعب البورجوازية من الوحدة الجمعية وتجيدها للشخص المفرد). والنمط الثانى هو التبعيته الجماعية. فالجماعة هى التى تحتشد فى جسم واحد فى مكان واحد وهى التى تبدى قوتها بواسطة عددها (ومن هنا أهمية النضال فيما يتعلق بالعدد ؛ فالبوليس يقول دائما لقد كان هناك عشرة آلاف متظاهر، وتقول النقابات إنهم عشرون ألفا) وأخيرا هناك التفويض (الإثابة) فكلمة الممثل النقابى تساوى ٥٠٠,٠٠٠ شخص (ولا يستبعد النمط الثانى والثالث كل منهما الآخر). فبنغى، إذن تأسيس سوسيولوجيا مقارنة وتاريخ مقارن لأنماط طرق التفويض (وعلى سبيل المثال هناك إصرار على حقيقة أن التقاليد الفرنسية تمنح امتيازا للجمعية التصورية)، وأنماط تعيين (تسمية) المندوبين والخصائص المميزة لهم، (فعلى سبيل المثال إن مندوب الاتحاد العام للعمال CGT هو فى الأغلب رب عائلة متين البينان يطلق شاربه جاد ومحترم وله أقدمية فى المشروع... الخ). وبعد ذلك ينبغى تحليل طبيعة التفويض» فما معنى تفويض سلطة التعبير والتمثيل والتعبئة والتنظيم إلى شخص ما؟ وماهى طبيعة الرأى الذى ينتجه هذا التوكيل؟ ومم يتألف تفويض سلطة إنتاج الآراء التى تصدم الوعى البورجوازى بهذا القدر: فهو وعى شديد التشبث بما يسمى «الرأى الشخصى» المحمى .. الخ» والذى يعرف عنه أنه ليس إلا النتائج المجهول للأكليات نفسها. وماذا يفعل المندوبون المفوضون؟ أيفلقون أم يفتحون مروحة المطالب؟ ومم يتألف تعبير المتكلم باسم العمال؟ هنا نجد نوعا من الاعتلال أو التوعك ثم نجد لغة لتسميته (ويوجه التفكير إلى الصلات بين الأمراض والأطباء) فاللغة تقدم وسيلة التعبير عن الاعتلال ولكنها فى الوقت نفسه تعيد إعلان مروحة المطالب الممكنة إنطلاقا من اعتلال عام: إنها توجد (بكسر الجيم) المرض وتسمح بتملكه بتأسيسه موضوعيا، ولكنها فى الوقت نفسه تنزع تلك الملكية (عندى مرض فى الكبد قبل أن تعتل جميع أعضائى) (عندى مرض فى الأجر قبل أن يعتل كل شىء قبل أن تعتل شروط العمل... وما إليها). ويمكن لفكرة اكتساب الوعى أن تتلقى تعريفا أقصى أو أدنى. أيتعلق الأمر بالوعى الكافى للتفكير فى الموقف والتعبير عنه (مشكلة نزاع ملكية أدوات التعبير وإعادة امتلاكها)، لتنظيمه وإدارته، أو يتعلق فحسب بالوعى الكافى لتفويض هذه الوظائف إلى الأجهزة القادرة على مزاولتها من أجل أفضل مصالح الذين قاموا بتفويضها (الإيمان

المضمر). وفي الحقيقة إن طريقة عرض هذه المشكلة هي الطريقة ذات النزعة المثقفة على نحو نموذجي. فهي منهج طرح المشكلة الذي يفرض نفسه بأكثر الطرق طبيعية وتلقائية على المثقفين. إنه المنهج الأكثر توافقا مع مصالح المثقفين بما أنه يجعل منهم الرسيظ الذي لاغنى عنه بين الطبقة العاملة وحقيقتها الثورية. وفي الحقيقة إن اكتساب الوعي - كما أوضح طومسون كثيرا - والتمرد يستطيعان أن ينشقا عن تلك العملية التي لايربطها شيء بهذا النوع من «الكوجيتو»^(٧) الثوري الذي يتخيله المثقفون (مثل السخط والتمرد اللذين يستثيرهما الدم المراق).

ويبقى أن تعبئة الطبقة العاملة وثيق الصلة بوجود جهاز رمزي لإنتاج أدوات ادراك العالم الاجتماعي وصراعاته والتعبير عنها جميعا. وكثيرا ما تمثل الطبقة السائدة دون توقف إلى إنتاج وفرض نماذج للدراك والتعبير تصفى التعبئة والاستعمار (على سبيل المثال إن الخصوم في صراع العمل يوصفون اليوم باعتبارهم «الشركاء الاجتماعيين»).

وإذا أقر المرء - كما توحى بعض نصوص ماركس في الايديولوجية الألمانية حول أن اللغة هي الواقع الفعلي الأول للفكر - بأن من المستطاع المطابقة بين اللغة والوعي، فإن طرح مسألة الوعي الطبقي سيكون بمثابة السؤال عن ماهو جهاز الإدراك والتعبير الذي تمتلكه الطبقة العاملة لكي تستوعب وضعها بالتفكير والتعبير؟ وسيكون التاريخ المقارن لفردات الصراع شديد الأهمية قشيا مع هذا المنطق: فماهى الألفاظ المستخدمة (صاحب عمل كوارد) والتعبيرات المملطة (مثل الشركاء الاجتماعيين)، وكيف يجرى إنتاج ونشر هذه التعبيرات المملطة من المعروف على سبيل المثال دور مجالس الخطبة في إنتاج هذه التعبيرات المملطة، وإنتاج خطاب جماعي يعيد الخاضعون للسيطرة أخذه لحسابهم).

وفيما يتعلق «بأصحاب العمل» ينبغي أن نحلل بين أشياء أخرى تمثلهم لصراع العمل ورهائاته (التي ليست اقتصادية حصرا ولكنها تستطيع أن تطرح لمناقشة التمثل الذي يصنعه أصحاب العمل أو المديرون لأنفسهم عن سلطتهم ودورهم)، والعلاقة التي يقيمونها مع الدولة القادرة في بعض الحالات على الدفاع عن مصالحهم ضدهم هم أنفسهم (أو على الأقل عن مصالح الطبقة في مجموعها على حساب مؤخرة تلك الطبقة)، وما إلى ذلك.

وبعد إقامة نظام العوامل المحددة لبنية علاقة القوى، ينبغي في النهاية إقامة العوامل الخاصة لتقوية أو إضعاف فعل هذه العوامل. ولنأخذ على سبيل المثال الوضع

الاقتصادي الراهن وعلى الخصوص درجة توتر سوق العمل، والموقف السياسى وكثافة القمع، وتجربة الصراعات السابقة التى تجند عند المسيطرين تطوير وسائل للتحكم والتلاعب ولقن التنازلات، كما تجند عند الخاضعين للسيطرة التمكن من الوسائل العمالية للنضال (مع ميل ملازم لإضفاء طابع طقسى على الاستراتيجيات)، بالإضافة إلى درجة مجانس أو عدم مجانس الطبقة العاملة، وشروط العمل.. الخ. وفى كل وضع تاريخى، فإن مجمل هذه العوامل والتى ليست من جهة أخرى مستقلة جميعاً) والتى تتفاير هو الذى يحدد وضع علاقة القوى، ومن ثم الاستراتيجيات التى تهدف إلى تحويله.



هوامش المترجم «للفصل العشرون»

- ١- **العلو رة:** أسلوب للتنظيم الدقيق للعمل: نسبة إلى مهندس أمريكي (١٨٥٦ - ١٩١٥)، ويهدف إلى ترتيب تفاصيل العمل ووضع خطة محكمة له تستغل الوقت استغلالا مكثفا دون فاقء، كما تحء الأجر وفقا لوقت العمل وهي طريقة لاعتصار طاقة العامل الجسمية والعصبية إلى أقصى مءى.
- ٢- **الكوجيتو:** من قضية ديكارت الشهيرة «أنا أفكر إذن أنا موجود»، والكوجيتو الشورى هنا هو ضرورة أن يمر الموقف بعملية ادراك عقلى وبرهنة منطقية لا يستطيعها العمال إلا بمساعدة المثقفين.

□□□

الفصل الحادى والعشرون

النزعة العنصرية للذكاء (*)

أريد أن أقول أولا إنه ينبغي أن نضع فى أذهاننا أنه لا توجد نزعة عنصرية واحدة بل توجد عنصريات متعددة، فهناك من تلك النزعات بمقدار ما هنالك من جماعات فى حاجة إلى أن تبرر لنفسها وجودها على نحو ماتوجد، وهذا ما يشكل الوظيفة اللامتغيرة للنزعات العنصرية.

ويبدو لى أن من المهم جدا مد التحليل إلى أشكال العنصرية التى هى بلاشك الأكثر رهاقة واستخفاء والأكثر قابلية لأن تجهل، ومن ثم التى يندر استنكارها، ربما لأن المستكرين المعتادين للعنصرية يمتلكون بعض الصفات التى تميل إلى هذا الشكل من العنصرية وأنا أقصد عنصرية الذكاء. وعنصرية الذكاء هى عنصرية الطبقة السائدة التى تتسم بحشد من الصفات تميزها عما يسمى عادة بالعنصرية، أى العنصرية البورجوازية الصغيرة التى هى الهدف المركزى لعظم الانتقادات الكلاسيكية للعنصرية، ابتداء من أشدها قوة مثل انتقادات سارتر.

وتلك العنصرية تخص طبقة سائدة يعتمد إعادة إنتاجها فى جانب منه على نقل رأس مال ثقافى، رأس مال موروث؛ خاصيته أنه رأس مال متدمج لصيق بالكيه، ومن ثم فهو يبدو طبيعيا فطريا. وعنصرية الذكاء هى التى بواسطتها يستهدف المسيطرون انتاج فلسفة عن العدل الإلهى (theodicée) (١) لامتيازهم الخاص، كما يقول فيبر، أى إنتاج تبرير للنظام الاجتماعى الذى يسيطرون عليه. إنها التى تجعل المسيطرين يستشعرون تبريرا لوجودهم بوصفهم مسيطرين، يستشعرون أنهم مصنوعون من جوهر أصمى، وكل عنصرية هى نزعة عن الطبايع الجوهرية الأصلية، وعنصرية الذكاء هى

(*) مداخله فى ندوة عامة MRAP مايو ١٩٨٧ ظهرت فى القانون والحريه العدد ٣٨٢.

الشكل التبريري لعدل اجتماعي مقابل العدل الإلهي (sociodicee) لطبقة ترتكز سلطتها جزئيا على امتلاك مؤهلات تشبه المؤهلات التعليمية في أن من المفترض أن تكون ضمانات للذكاء، والتي تأخذ في الكثير من المجتمعات من أجل مجرد الوصول إلى السلطة الاقتصادية مكان المؤهلات والألقاب القديمة مثل مؤهلات الملكية وألقاب النبالة.

وتدين هذه العنصرية ببعض خصائصها لواقعة أن ألوان الرقابة واللوم المطلقة على أشكال التعبير الفظة والوحشية عن العنصرية قد تدعمت، وأن الدافع العنصري لم يعد يستطيع التعبير عن نفسه إلا في أشكال رفيعة من لطف التعبير، وراء قناع تنكّر هو الإنكار أو الإغفال (إعفاء في التحليل النفسي) - وهو آليه دفاعية للذات تؤدي إلى أن يغفل المرء بدافع لاشعوري رؤية أو سماع مالا يحب. فبعض الاتجاهات تدافع عن خطاب يتضمن العنصرية ولكن في صيغة تشبه تماما إغفال قولها. وحينما تُدفع العنصرية إلى هذه الدرجة العالية من لطف التعبير فإنها تصبح شبه قابلة لأن تجهل (بالبناء للمجهول). إن العنصرين الجدد قد وُضِعوا أمام مشكلة تتعلق بالوصول إلى الحد الأمثل: إما زيادة فعوى الخطاب من العنصرية المعلنة (بتأكيد أنهم على سبيل المثال يناصرون نزعة تحسين النسل (تجديد الخصائص الممتازة الموروثة للأجناس العليا وتعقيم الأجناس الدنيا (eugénisme) ولكن مع المخاطرة بإحداث صدمات وبفقدان القدرة على التوصل وعلى نقل الأفكار، وإما القبول بالكلام الموز في شكل رفيع من لطف التعبير يتطابق مع معايير الرقابة سارية المفعول. (بالكلام تحت ستار علم الوراثة أو تأثير البيئة) وزيادة فرص «تمرير» الرسالة يجعلها تمر غير ملحوظة.

وأكثر صيغ لطف التعبير انتشارا اليوم هي بوضوح إضفاء طابع علمي ظاهري على الخطاب. فإذا استدعى (بالبناء للمجهول) الخطاب العلمي لتبرير عنصرية الذكاء، فلن يرجع ذلك فحسب إلى أن العلم يمثل الشكل المهيمن للخطاب المشروع، بل يرجع أيضا وعلى وجه الخصوص إلى أن السلطة التي تظن أنها مبنية على العلم، السلطة من الطراز التكنوقراطي (حكم المتخصصين) ستطلب من العلم تلقائيا أن يؤسس السلطة؛ وذلك لأن الذكاء هو الذي يؤسس شرعية الحكم حينما تدعى الحكومة أنها مؤسسة على العلم وعلى الصلاحية «العلمية» للحكام (ويخطر على الذهن دور العلوم في الخيار التعليمي حيث صارت الرياضيات مقياسا لكل ذكاء). فالعلم وثيق الصلة بما يُطلب منه تبريره.

وترتيبها على ما سبق فإنني أعتقد أنه ينبغي على الفور الطعن في هذه

المشكلة -التي عمل السيكولوجيون على تضمينها أسسا بيولوجية أو اجتماعية « للذكاء». ومن الأولى بدلا من السعى وراء الحسم العلمى للمسألة محاولة الطرح العلمى للمسألة نفسها ؛ بمحاولة تحليل الشروط الاجتماعية لظهور هذا النوع من الاستفهام، ومن العنصرية الطبقية- التى يدسها. وفى الحقيقة إن خطاب بعض هذه الاتجاهات ليس إلا الشكل الحدى لخطابات تتمسك بها منذ سنوات بعض روابط الطلبة القدامى فى المعاهد الكبرى للنخبة، وهو كلام الرؤساء الذين يحسون أنهم يرتكزون على دعامة من «الذكاء» والذين يسيطرون على مجتمع قائم على تفرقة أساسها المزعم هو «الذكاء» ؛ أى قائم على ما يقيسه النظام التعليمى تحت اسم الذكاء. فالذكاء هو ما يقيسه اختبارات الذكاء الأولى والأخيرة فى الجدال الذى لم يكن من المستطاع حسمه طالما ظللنا على أرضية السيكلوجيا، لأن السيكلوجيا نفسها (أو على الأقل اختبارات الذكاء) هى انتاج تحديدات اجتماعية هى فى أساس عنصرية الذكاء، وهى العنصرية الخاصة الملاحقة لأفراد «النخب» وثبقى الصلة بالاصطفاء التعليمى، وبطبقة مهيمنة تستمد شرعيتها من تصنيفات تعليمية. إن التصنيف التعليمى هو تصنيف اجتماعى أضفى عليه لطف التعبير ومن ثم المظهر الطبعى المطلق، وهو تصنيف اجتماعى قد خضع فى السابق للرقابة ومن ثم لسيمياء (كيمياء قديمة) تغير طبيعة المادة وتجه إلى تحويل الفروق الطبقية إلى فروق فى «الذكاء» و«الموهبة» أى إلى فروق فى الطبيعة. ولم ينجح الكهنة قط فيما مضى مثل هذا النجاح. إن التصنيف التعليمى هو تفرقة اجتماعية أصبحت شرعية، وتلقت إقرارا ودعما من العلم. وهنا نجد السيكلوجيا والدعم الذى تقدمه منذ نشأتها إلى أداء النظام التعليمى لوظائفه. ويرتبط ظهور اختبارات الذكاء مثل اختبار بينيه -سيمون Binet-Simon (اختبار بدأ عام ١٩٠٤ فى فرنسا بطلب حكومى لاكتشاف الاطفال شديدى الغباء الذين لا يستفيدون من التعليم، وللربط بين العمر الزمنى والعمر العقلى للأطفال، فالطفل الغيبى يماثل طفلا سويا فى سن أصغر) بانتشار التعليم الإيجابى، ووصول تلاميذ إليه لا يعرف نظام التعليم ماذا يفعل بهم لأنهم ليسوا «أصحاب استعداد» وليسوا «موهوبين» أى ليسوا مزودين من خلال بسطهم العائلى باستعدادات تفترضها مسبقا السيرة العادية للنظام التعليمى: أى ليسوا مزودين برأسمال ثقافى وعزيمة جيدة إزاء الاجراءات المدرسية. فالاختبارات التى تقيس الاستعداد الاجتماعى الذى تتطلبه المدرسة -ومن ثم قيمتها التنبؤية عن النجاح التعليمى قد صُنعت

على نحو ملائم لإضفاء الشرعية مقدما على الأحكام التعليمية التى تضى عليها الشرعية.

ولكن لماذا يعاود وباء عنصرية الذكاء الظهور اليوم؟ ربما لأن عددا من المعلمين ومن المثقفين الذى تعرضوا كحرى مباشر لردود أفعال أزمة النظام التعليمى، هم أكثر ميلا إلى التعبير أو إلى أن يدعوا أنفسهم يعبرون بأشد الأشكال فظاظة عما لم يكن حتى ذلك الوقت أكثر من نخبوية الصحة الراقية (وأريد أن أقول التلاميذ الممتازين). ولكن ينبغى أيضا أن نتساءل لماذا فما الدافع المؤدى إلى عنصرية الذكاء أيضا؟. أظن أن هذا يرجع فى جانب كبير منه إلى حقيقة أن النظام التعليمى قد وجد نفسه فى وقت قريب مواجه بمشاكل لاسوابق لها نسبيا مع هجمة قوم محرومين من الاستعدادات المتشكلة اجتماعيا التى تتطلبها هذا النظام ضمنا، قوم يقومون على الاخص بواسطة عددهم بالخط من قيمة المؤهلات التعليمية بل والخط من قيمة المناصب التى سيشغلونها بفضل هذه المؤهلات. ومن ثم بجىء الحلم، الذى تحقق من قبل فى بعض الميادين مثل الطب، بالعدد المغلق numerus clausus (باللاتينية فى الأصل)، وذلك ضرب من اجراءات الحماية مماثل للتحكم فى الهجرة ورد على الازدحام استشاره شيخ العدد، والغزو بواسطة العدد.

وهناك تأهب دائم للتنديد بالمنددين، واستنكار العنصرية البهائية «المبتذلة» للضغينة البروجوازية الصغيرة، ولكن ذلك بالغ السهولة ويجب علينا أن نقوم بدور الرواة (السقا) المرتوين وأن نسأل أنفسنا ما هو الإسهام الذى يقدمه المثقفون لعنصرية الذكاء؟ وسيكون من الأفضل دراسة دور الأطباء فى فرض صيغة طبية أى فى فرض صيغة طبيعية على الفروق الاجتماعية، على التدوب الاجتماعية، ودور السيكلولوجيين والأطباء التفسيريين والمحللين النفسيين فى إنتاج التعبيرات اللطيفة التى تسمح بوصف أبناء الطبقة العاملة السفلى أو المهاجرين بطريقة تجعل من الحالات الاجتماعية حالات سيكلولوجية، تجعل من نواحي القصور الاجتماعية نواحي عقلية .. الخ. وبعبارة أخرى ينبغى تحليل كل أشكال إضفاء الشرعية من المرتبة الثانية، التى تعمل على مضاعفة إضفاء الشرعية التعليمية بوصفها تفرقة مشروعة، دون نسيان خطابات المظهر العلمى والخطاب السيكلوجى، والطريقة نفسها التى نتكلم بها.

هوامش المترجم «للفصل الحادى والعشرون»

١- شهود يسميه كتاب ألفه ليهنتس فى العلاقة بين وجود الشر فى العالم وبين قدرة الله وعدالته مبررا وجود الشر فى عالمنا الذى هو أفضل العوالم الممكنة.

□□□

,

سلسلة علم الاجتماع حول الأسرة
والسلطة والعنف

رقم الإيداع	٩٥/٤٩٨٧
رقم دولي	٧ - ٩٥٧٣ - ٠٠ - ٩٧٧

مطابع روز اليوسف الجديدة

هذا الكتاب



QUESTIONS
DE
SOCIOLOGIE



المؤلف من أبرز علماء الاجتماع في العالم. وهو في هذا الكتاب يطرح البديهيات الاجتماعية للمناقشة ولا يقدم لنا نتائج جاهزة بل يأخذنا داخل «مطيخ علم الاجتماع» ليكشف لنا أسرار المهنة في غمار ممارستها. إنه يمكّن ببعض دارسى الاجتماع متلبسين بلعب دور قديسي الحقيقة الموضوعية المحايدة المنزهة عن الغرض ويوضح خلف قناعهم المهندس/المقاول الاجتماعي، المشارك في إدارة النظام القائم وتبريره، لذلك يعجز عن أن يقترب من الأسس المحتجبة للسيطرة والاستغلال. كما يسلط الضوء على العلموي الدقيق الذي يعامل الأقلية والأغلبية والتباينات المتصارعة كما لو كان البشر وحدات إحصائية قابلة للمبادلة فيما بينها، وتسلك وفقا لقواعد «عالمية» تصلح في أمريكا كما تصلح في الهند، كأن الحقيقة العلمية نموذج متخيل أبدي شامل. لذلك يلخص المؤلف أوراى اعتماد العالم الاجتماعي من منظور جديد، ويدرس موقعه داخل الجدل الاجتماعي وداخل هرم المجال العلمي في صلتة بإعادة إنتاج بنية القهر والهيمنة عن طريق العنف الرمزي الرقيق، فالخطاب العلمي واقع في قبضة علاقات المصلحة والتنفوذ على الرغم من أن واجبه المطلق تسلط الضوء عليها بدلا من الرطانة التبريرية الأنيفة لعلماء الكراسي والألقاب ومكبرات الصوت والشاشة الملونة.

كتاب العالم الثالث

تصميم الغلاف : مصطفى الشرقى الجليل

Bibliotheca Alexandrina



0416858



دار العالم الثالث

٣٢ شارع صبرى أبو علم، القاهرة

تليفون وفاكس : ٣٩٢٢٨٨٠